العلاقات الحجازية المصرية

زمن سلاطين المماليك

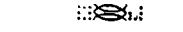

تأليف

علي بن حسين السليمان

ماجستير في الآداب

جامعة القاهرة

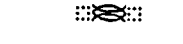

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٣٩٣ / ١٩٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم

الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب

جامعة القاهرة

الحجاز بقعة مقدسة من الأرض ، هى بالنسبة للمسلمين جميعا أطهر أرض وأشرفها ، لأنها تمثل المسرح الأول للاسلام ، عليها ولد أشرف المرسلين محمد عليه الصلاة والسلام ، وبين جنباتها بعث شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا • ولذا سيظل الحجاز دائما أبدا يحظى باحترام المسلمين جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها ، يتجهون اليه بأفئدتهم وأبصارهم ، داعين الى الله ، حاجين الى بيته الحرام ، مستلهمين القدوة الطيبة من رسوله عليه الصلاة والسلام •

وشاء حسن طالع المسلمين أن يعتلى عرش المملكة العربية السعودية جلالة الملك فيصل الأول بن عبد العزيز آل سعود، وهو الحاكم الذى عرف باتزانه وهدوئه وورعه وحرصه على صالح شعبه بوجه خاص وصالح المسلمين بوجه عام • ولا أدل على استنارة هذا الحاكم العظيم من سياسته الرشيدة التى تستهدف دائما خير الاسلام والعروبة من ناحية وخير بلاده وشعبه من ناحية أخرى • ومن يتنقل اليوم بين أرجاء المملكة العربية السعودية يرى بعينيه ويسمع بأذنيه ويحس بفؤاده :

يرى ما تم فى أرجاء المملكة على عهد عاهلها الكبير من ضروب الاصلاح فى كافة الميادين العمرانية ••• ويسمع بما يجرى اعداده من مشروعات ضخمة ، تستهدف خير البلاد والعباد ••• ويحس بما يكنه شعب المملكة السعودية لمليكه فيصل الأول من محبة واخلاص ووفاء واعتراف بالجميل ••• وهى أحاسيس ليست فى حقيقة

أمرها الا جزءا من الشعور الفياض الذى يكنه المسلمون جميعا لحامى الحرمين ، الساهر على رعايتهما وتأليف قلوب المسلمين حولهما ....

وكان للتعليم الجامعى نصيب كبير من رعاية جلالة الملك فيصل الأول ، اذ لم يشهد عهده انتعاش جامعة الرياض فحسب ، بل شهد أيضا انشاء جامعة كبرى جديدة هى جامعة الملك عبد العزيز آل سعود على أرض الحجاز . ومع هذا وذاك من ضروب الرعاية التى أولاها جلالته لشئون التعليم ، دأبت حكومته بتوجيه رشيد من جلالته على ارسال البعثات الى الخارج ليحصل شباب المملكة من النابهين ما يتعذر عليهم تحصيله فى بلادهم من ضروب المعرفة .

ومن المبعوثين الذين وفدوا على مصر منذ سنوات مؤلف هذا الكتاب الأستاذ على حسين السليمان ، الذى التحق بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وأخذ يواصل الدرس حتى حصل على درجة الليسانس فى التاريخ . ثم تابع دراسته العليا للحصول على درجة الماجستير فى فرع تاريخ العصور الوسطى ـ وهو الفرع الذى نشرف عليه ـ واختار العلاقات بين مصر والحجاز فى عصر سلاطين المماليك موضوعا لأطروحته هذه التى نقدمها اليوم للقارىء ، والتى أنجزها تحت اشرافنا واستحق عليها درجة الماجستير فى الآداب بتقدير ممتاز . وهو الآن يعمل فى صمت ويكافح فى مثابرة للحصول على درجة الدكتوراه .

والحق أن تلميذنا على حسين السليمان أثبت دائما أبدا ـ بخلقه وعمله ـ أنه صورة نقية مشرفة للشباب الناهض فى المملكة العربية السعودية ، وللثمرة الناضجة التى أينعت بعد أن تعهدها ملكها العظيم فيصل الأول آل سعود برعايته وعنايته . وسيلمس القارىء لهذا الكتاب مدى ما بذله مؤلفه من جهد جريا وراء الحقيقة ، وما تمتع به من حاسة تاريخية نفاذة ، ظهرت بوضوح فى تحليله للأحداث ومقارنته للوقائع واستنباطه للحقائق ، حتى جاء كتابه مصدرا هاما فى موضوعه .

ولا يسعنى فى هذا المقام سوى أن أبارك الجهد الكبير الذى بذله الأستاذ على حسين السليمان فى تأليف هذا الكتاب ، وأن أدعو له بالتوفيق والسداد لترى فيه الأمة العربية واحدا جديدا من مؤرخيها الناجحين .

والله ولى التوفيق ؟

فى { ١٥ صفر ١٣٩٣ هـ . / ١٩ مارس ١٩٧٣ م . }

سعيد عبد الفتاح عاشور
كلية الآداب بجامعة القاهرة

شـــكر وتقـــدير

أرى لزاما على أن أتقدم بخالص الشكر وعظيم التقدير الى ابن أسد الجزيرة العربيـة وحاميها ... الى راعى النهضـة الشاملة فى مملكتنـا الفتيـة ... الى العين السـاهرة على مصالح هـذا الشعب العريق ... الى جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز ٠

ويطيب لى أن أتقدم بالشكر الجزيل ، والعرفان بالجميل الى أستاذى الدكتور سـعيد عبد الفتاح عاشور ـ أسـتاذ تاريخ العصور الوسطى ـ بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ فهو صاحب الفضل الأول ، فى اختيارى هذا الموضوع الجديد ، ولم يضن على بغزير علمـه ، وارشاداته القيمة ، وتوجيهاته السديدة ٠

كما يسعدنى أن أتقدم بالشكر لكل من : الأساتذة الدكتورة سـيده اسماعيل كاشف ـ الأستاذ الدكتور أحمـد دراج لمـا أبدياه من ملاحظات قيمة عند قراءة هذا البحث لأجازته لدرجة الماجستير فى الآداب من جامعة القاهرة ٠

ولا يسعنى الا أن أشكر الأستاذ الدكتور حسنين ربيع على الجهود والتوجيهات القيمة التى قدمها أثناء طبع هذا الكتاب ٠

وأود أن أتقدم بكلمات شكر كبيرة للأستاذ الجليل أحمد محمد المانع الملحق الثقافى لسفارة المملكة العربية السعودية بالقاهرة لتشجيعه أياى على المضى فى بحثى ولمساعداته العديدة التى يتوج بها أبنائه ممن يتلقون العلم فى جامعات مصر العربية ٠

كمـا انى مدين بدين خاص لأعمامى الأكارم الســـادة / محمـد وعبد اللطيف السليمان وباقر حسين ، على تشجيعهم ومساعدتهم لى فى اخراج هذا الكتاب الى عالم المطبوعات .

ولا يفوتنى أن أتقـدم بأصدق مشاعر الشـكر والتقدير ، لوالدى الكريمين ، فقد كانا وراء كل جهد بذل فى هذا البحث ، واعترافا منى بهذا الفضل فاننى أهدى اليهما هذه الثمرة فهى نتاج غرسهما .

والله ولى التوفيق ؟

القاهرة فى { ١٥ صفر ١٣٩٣ هـ / ١٩ مارس ١٩٧٣ م

على بن حسين السليمان

تمهيـــــد

علاقة مصر بالحجاز قبل أيام المماليك

كان فتح مصر سنة ٢١هـ حدا فاصلا بين عهدين مختلفين تماما ، فقد انتقلت من التبعية للدولة البيزنطية ، الى الدولة الاسلامية الناشئة بالحجاز(١) • ولئن ظلت التغيرات التى طرأت على مصر سطحية ، منذ الاسكندر حتى الفتح الاسلامى ، لم تستطع أن تلغى شخصية مصر ، أو تؤثر تأثيرا أساسيا فى شعبها ، فان ذلك لا ينطبق على الفاتحين المسلمين ، العرب ، اذ لم تلبث مصر أن غدت فى مدى ثلاثة قرون من الزمان ، دولة عربية اسلامية ، بل سرعان ما صارت مصر ــ فى عهدها الجديد ــ زعيمة لبقاع واسعة من العالم الاسلامى ، فضلا عن موجة التعريب التى تغلغلت فى أعماق الشعب المصرى، لتجعل منه شعبا عربيا مسلما ، ارتضى العربية لغة ، والاسلام دينا ، والحضارة الاسلامية يحيى فى ظلها • وبعبارة أخرى قد بدأت مصر ، العربية الاسلامية ، تصبح مركزا للدعوة الاسلامية وموطنا لثقافتها ومصدرا ضخما لقوة العالم الاسلامى عامة ، وبلاد الحجاز خاصـة ، فى النواحى الاقتصادية والعسكرية(٢) • فمن مصر استمدت الجيوش الاسلامية ــ التى خرجت لفتح المغرب والأندلس ــ القوة والزاد ، ومنها خرجت القوافل عبر الصحراء تحمل المؤن للحجاز عام « الرمادة » لتنقذه من ضائقة اقتصادية شديدة القسوة ، كما لعب أهل مصر دورا هاما فى عزل عثمان وتولية على ، حتى اذا سقطت الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية ، جدت ظروف وسعت من دور مصر وعمقته فى العالم الاسلامى • ثم لم تلبث أن قامت فى الحجاز دويلات ترتبط دينيا فقط بالخليفة العباسى فى بغداد ، منذ أن ضعف شأن الخلافة وأصبح الخلفاء ألعوبة فى

---

(١) الحجاز ما بين جبال طيىء الى طريق العراق • وسمى حجازا لأنه حجر بين تهامة ونجد ، قاله ابن الكلبى والأصمعى •

(الفاسى : شفاء الغرام ج ١ ص ٢٥)

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤٤ ــ ٢٤٦)

(٢) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ١ ــ ١٧ ، ص ١٨٢ •

أيدى الأتراك · ثم كان دخول الفاطميين مصر مثبتا لاستقلالها ، ومقويا لدورها فى التأثير فى شئون العالم الاسلامى ، وخاصة عندما تطلع الخلفاء الفاطميون للسيطرة على الحجاز لوجود مكة والمدينة فيه ، وفيهما الحرمان المقدسان عند المسلمين ليكون ذلك دليلا حاسما على تزعمهم للعالم الاسلامى ، باعتبارهم أصحاب السلطة الشرعية والأئمة الحقيقيين من سلالة فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبأنهم ممثلوا الاسلام الحقيقيون دون الخلفاء العباسيين فى بغداد ·

من هنا يمكن فهم بعض أصول الاختلاف بين الفاطميين و « القرامطة » على الرغم من أنهم جميعا ينتمون الى فرقة واحدة ، هى فرقة الاسماعيلية من الشيعة ، ذلك أن تطرف القرامطة فى الاغارة على بيت الله الحرام ، وقتل الحجاج وسلبهم ، فرض على الفاطميين أن يقفوا فى وجههم حرصا على ارضاء الشعور الاسلامى العام ، الذى ينكر أية اهانة تنزل بالحرمين مهما كان الفاعل ·

على أن سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ بمصر ، وقيام الدولة الأيوبية فيها ، لم يضعف علاقات مصر بالحجاز ، بل ربما كان عاملا من عوامل تقويتها · وقامت خطة صلاح الدين الأيوبى على تحقيق الوحدة الداخلية بين الأقطار الاسلامية كمرحلة أولى تتلوها مرحلة المواجهة مع الصليبيين ، لذا حرص على أن ينال رضى الخليفة العباسى الذى كان يكتفى بالموافقة على ما يقوم به صلاح الدين ·

وبالنسبة للحجاز فان صلاح الدين لم يتدخل فى شئونه الداخلية · بل اكتفى باجراءات تحقق الأمن والعدالة للسكان المحليين والحجاج القادمين دون أن يحاول تغيير نظام الحكم الذى كانت تتولاه أسرة الهواشم فى الحرمين(١) ·

ففى سنة ٥٧٢ هـ أسقط صلاح الدين المكس عن الحجاج الى مكة فى البحر على طريق عيذاب(٢) ، وقد جرت العادة أن يؤخذ من حجاج المغرب على كل حاج سبعة دنانير ونصف مصرية ، ومن دخل من الحجاج ولم يدفع المكس الذى عليه حبس حتى يفوته الوقوف بعرفة حتى وان كان فقيرا · فأسقط ذلك السلطان صلاح الدين وعوض أمير مكة مبلغ ثمانية آلاف أردب قمح تحمل سنويا الى ساحل

---

(١) الهواشم : سموا بالهواشم نسبة الى جدهم الأعلى محمد بن جعفر بن أبى هاشم · وهذه الأسرة تنسب الى الفرع الحسنى من سلالة امير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ·

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٢٧٠)

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٤٣٩ ، ج ٧ ص ٢٧٤ ·

جدة ، ووقف على ذلك أوقافا بصعيد مصر وأرسل الأقوات للمجاورين والفقراء بالحرمين(١) ٠

ويفهم مما كتبه ابن جبير والفاسى أن المكوس التى كانت تؤخذ من الحجاج كانت مورد الامارة الرئيسى ، فلم يكن بد من تحصيلها ولو بالعنف فى عيذاب أو فى جدة(٢) ، وهكذا لم يستطع أمراء مكة التنازل عن المكوس الا عندما ضمن صلاح الدين لهم التعويض عنها بأموال وسلع ، وقد وفى صلاح الدين بما وعد ، فأرسل الى البيت الحرام ما شرطه على نفسه ، يطالعنا هذا فى رسالة جوابية للقاضى الفاضل ، كاتب صلاح الدين ووزيره ، كتبها ردا على رسالة لصاحب مكة حول وصول الغلال فيها « وصل كتابك أيها الشريف معربا عن المشايعة الشائعة أنباؤها ، والمخالصة الخالصة أسرارها ٠٠٠ واقتضى ما يعرضه أن خرج الأمر بأن يضاعف المحمول فى كل عام ولا يخص به خاص دون عام »(٣) ٠

وحينما حج الملك المعظم توران شاه بن نجم الدين أيوب أخو صلاح الدين قادما من اليمن فى سنة ٥٧٠ هـ جاد على أهل الحرمين ، وعمهم خيره ، وحاول أن يهدىء تأثرة الفتنة بين أبناء الأسرة الحاكمة فى مكة(٤) ٠

وحرص الأيوبيون السنيون على نشر المذهب السنى فى أرجاء دولتهم ، فأبطل داود سيف الاسلام طغتكين بن أيوب الاذان بحى على خير العمل فى مكة(٥) ، مما دفع المؤرخين الى القول بأنه ولى مكة ، والحق ان اجراءه هذا كان من جملة الاصلاحات التى رأى صلاح الدين ادخالها على نظام الحكم ، ويدل على ذلك ما ذكره « الفاسى » بعد ابطال الآذان ، فقد قال « وقتل جماعة من العبيد كانوا يفسدون وهرب منه أمير مكة الى قلعته بأبى قبيس ، وشرط على العبيد أن لا يؤذوا الحجاج(٦) » ٠

---

(١) ابو شامة : الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٩٣ ٠

(٢) الفاسى : شفاء الغرام ص ٢٥٨ ٠
ابن جبير : الرحلة ص ٥٥ ٠
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٧٤ ٠
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ ١ ص ٦٩ ٠

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٧ ص ١٠٩ ـ ١١٠ ٠
(انظر نص الرسالة فى الملاحق) ٠

(٤) الجزيرى : دور الفوائد ص ٦٥٠ ، ٦٦٤ ٠
الفاسى : العقد الثمين جـ ٧ ص ٢٧٥ ٠

(٥) الفاسى : شفاء الغرام ص ٢١٤ ٠

(٦) المصدر السابق ص ٢١٤ ٠

وكان الشريف مكثر يعمد الى تعذيب الحجاج ليدفعوا المكس ، وهو أمر دفع السلطان صلاح الدين الى تهديده فى رسالة أرسلها اليه يقول فيها : « ٠٠ فاما رهبت ذلك الحرم الشريف ، وأجللت ذلك المقام المنيف ، والا قوينا العزائم وأطلقنا الشكائم ، وكان الجواب ما تراه لا ما تسمعه ٠٠ » ، فلما لم يكف عن ظلمه ، سارع طغتكين الى تأديبه باسم أخيه صلاح الدين(١) ٠

من ذلك كله نعلم أنه باستثناء تغيير الخطبة من الدعاء للعبيديين الى الدعاء للخليفة الناصر العباسى ، وتغيير الآذان من حى على خير العمل ، الى حى على الفلاح ، واسقاط المكوس ، وتأمين العدالة ، لم يتدخل الأيوبيون أيام صلاح الدين على الأقل فى شئون الامارة الداخلية ، ولم يحاولوا تغيير نظامها ٠ وربما كان ذلك لانصراف صلاح الدين الى قتال الصليبيين ومصاولتهم فى بلاد الشام ، وقد حاول الصليبيون أن يضربوا هيبة صلاح الدين بوصفه حاميا للديار الاسلامية المقدسة وأقوى أعدائهم ، وأن يطعنوا المسلمين فى مقدساتهم ، فوضعوا خطة لغزو المدينة النبوية واخراج جسد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتمثيل به ، وذلك لاذلال صلاح الدين من ناحية ، ولصرف نظره عن محاربتهم فى الشام من ناحية أخرى ٠ وكان الحقد الدينى عاملا من عوامل الاسراع بتنفيذ هذه الفكرة بعد تردد(٢) ٠

وقد بدأت أولى هذه المحاولات سنة ٥٧٧ هـ حينما عزم البرنس ارناط أمير الكرك الصليبى على المسير الى تيماء ، ودخول المدينة النبوية الا أن عز الدين فرخشاه خرج اليه من دمشق ونهب وحرق وعاد البرنس على أعقابه ٠ لكن محاولة أخرى راودت البرنس ارناط من جديد(٣) ٠

وهكذا عبر أرناط أمير الكرك الصليبى بحر القلزم الى عيذاب سنة ٥٧٨ هـ فقتل وأسر ومضى يريد المدينة المنورة وبلغ ذلك صلاح الدين وهو فى « حران » فبعث الى سيف الدولة بن منقذ نائبه على مصر يأمره بتجهيز الحاجب حسام الدين لؤلؤ لرد عدوان أرناط ، وسار حسام الدين الى أيلة فعطل وأحرق أسطول الفرنج الذى كان فيها ، ثم تتبع أرناط مسرعا فهزمه وحاصر قلوله حتى

---

(١) الفاسى : العقد الثمين جـ ٧ ص ٢٧٨ ٠

(٢) ابن الوردى : المختصر جـ ٢ ص ٩٠ ٠

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٢ ٠

استسلموا جميعا فقبض عليهم وقتل بعضهم ثم اقتاد البعض الآخر الى مصر كما ساق رجلين من أعيان الفرنج الى « منى » حيث نحرا كما تنحر البدن فى حين عاد ومعه بقية الأسرى الى مصر حيث أمر صلاح الدين بقتلهم ليكونوا عبرة لكل من تحدثه نفسه بالاعتداء على حرم الله وحرم رسوله ، وتم قتلهم فعلا بعد استعراضهم فى شوارع القاهرة والاسكندرية وغيرهما من المدن الكبرى(١) ٠

وكانت وفاة صلاح الدين سنة (٥٨٩ هـ) وتقسيم المملكة بين أخيه العادل وأولاده ، بداية لتطورات جديدة فى العلاقات بين مصر الأيوبية والحجاز ، ذلك أن تدخل الأيوبيين فى الشئون الداخلية لامارتى مكة والمدينة أخذ يزداد ٠ وهو أمر ساعد عليه الوضع الداخلى فى الحجاز اذ دب النزاع بين الشريف مكثر وأخيه داود حتى خفى على المؤرخين مقدار ولاية كل منهما(٢) ، واستمر الوضع على ذلك طوال امرة الأخوين التى دامت ثلاثين سنة بدأت أواخر القرن السادس الهجرى وكان هذا النزاع بين الأخوين فرصة للأيوبيين فأوحوا الى الخليفة العباسى أن يعزل مكثر ففعل ٠ لكنه عاد وفرض نفسه وفرض على الخليفة الاعتراف بولايته(٣) ٠ وعرف مكثر بسوء السيرة فى الرعية ، وفرض المكوس وقد بنى قلعة بأبى قبيس كان يعتصم بها عندما تفاجئه الأحداث حتى توفى سنة ستمائة هجرية(٤) ٠

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٨٥ ٠

المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٥ ٠

ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ١ ص ٣٦٩ ٠

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٧٨ هـ ٠

ابن جبير : الرحلة ص ٢٩ ـ ٣١ ٠

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٨٤ ـ ٧٨٦ ٠

من أهداف اغارة ارناط « قطع طريق الحاج عن حجه » والاستيلاء على عدن فى جنوب البحر الأحمر لأخذ « تجار اليمن وأكارم عدن » واغلاق البحر الأحمر واحتكار تجارة الشرق الأقصى والمحيط الهندى ٠

(سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٨٧)

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج ٧ ص ٢٧٤ ٠

(٣) الفاسى : العقد الثمين ج ٧ ص ٢٧٦ ٠

(٤) نفس المصدر : ج ٧ ص ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ٠

الفاسى : شفاء الغرام ص ٢١٤ ٠

وبموت مكثر انقضت ولاية الهواشم بمكة ، ووليها بعده أبو عزيز قتادة ابن ادريس الحسنى المعروف بالنابغة ، وكان هو وأهله مستوطنين نهر العلقمية من وادى ينبع ، فصارت لقتادة الرئاسة على قومه ، فزحف على مكة بعد أن اجتمعت أزمة أمور عشيرته بين يديه وبعد أن بلغه ما صارت اليه حال الهواشم بمكة من لهو وانحلال(١) · وتطلع قتادة ببصره الى زعامة المدينة المنورة التى كانت تتوارث بين أفراد الفرع الحسينى من الأسرة العلوية ، بيد أنه لم يستطع أن يفتحها فارتد عائدا الى مكة بعد قتال عنيف(٢) · وفى تلك الأثناء ظهر فى الموقف عامل جديد ، فقد عظم أمر بنى رسول فى اليمن بعد وفاة السلطان المسعود الأيوبى سنة ٦٢٦هـ(٣) ، فدخلوا طرفا فى النزاع حول امارة الحرمين · وأدرك الأمراء حرص الأيوبيين وبنى رسول على بسط نفوذهما على مكة والمدينة فاستغلوا ذلك لمصلحتهم · وما أن توفى قتادة الحسنى سنة ٦١٧هـ(٤) ، حتى تنازع الامرة ابناه الحسن وراجح ، وفى خضم هذا النزاع استطاع آل رسول أن يسيطروا على مكة حتى سنة ٦٣٠هـ(٥) عندما استطاع الشريف راجح أن يستردها منهم · وقد قبل راجح هذا أن يكون تحت سيطرة آل رسول اذا ما أخرجوا « طغتكين » من مكة وهو نائب الملك الكامل ·

وشهد تاريخ مكة والمدينة بعد وفاة الملك الكامل سنة ٦٣٥ هـ نزعا متصلا بين آل رسول والأيوبيين فيدعى لهذا حينا ولذلك حينا آخر حتى توفى راجح ابن قتادة سنة ١٩٥٤هـ ورأى على بن رسول أن يصرف النظر عن أبناء راجح فولى الحسن بن قتادة ، ثم ولى ابنه أبونمى بالاشتراك مع عمه ادريس ، وشغل أبونمى هذا مع أولاده بالرسوليين والمماليك حوالى قرن من الزمان(٦) ·

وكانت القوة وحدها هى التى تشد الحسينيين والحسينيين بمكة والمدينة الى الرسوليين أو الأيوبيين أو المماليك فيما بعد ، ولم يثبت أى منهم على الولاء لأحد الأطراف الثلاثة أكثر من عام فى الغالب ، وكان بعد الشقة بين مكة ومصر

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٢ ·
الفاسى : العقد الثمين ج ٧ ص ٣٩ ـ ٤١ ·
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٧٤ ·

(٢) دحلان : خلاصة الكلام ص ٢١ ، ٢٢ ·

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١ ، ٢٢ ·

(٤) ابن فهد : اتحاف الورى ، حوادث سنة ٧١٧ هـ ·

(٥) نفس المصدر ، حوادث سنة ٦٣٠ هـ ·

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٣ ص ٩ ، ١٠ ·

أو بين مكة واليمن هو السبب ، فما أن يبعث الأيوبيون جيشا يخضع مكة لهم حتى يسارع الرسوليون الى ارسال جيش آخر لا يلبث أن يدخلها بعد أن يقفل المصريون عنها ، فيعاود هؤلاء الكرة فى العام التالى ولم يكن لأحد الطرفين من القوة ما يمكنه من ابقاء حامية قوية فى الحجاز بالاضافة الى تذبذب ولاء الأعراب وانحيازهم الى من يدفع أكثر(١) ٠

وقامت دولة المماليك الأولى لترث الدولة الأيوبية فى ملكها الواسع ونفوذها العريض ٠ وقد شغلت سلطنة المماليك ـ عند قيامها ـ بنزاع داخلى فترة من الوقت ، ثم بالصراع ضد الصليبيين وضد التتار فترة أخرى ، وفى تلك الأثناء تعاظمت قوتها ، وصارت القاهرة مقرا للخلافة العباسية بعد سقوطها فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ ٠ ولم يلبث أن تطلع المماليك ـ كما تطلع الأيوبيون من قبل ـ الى السيطرة على الحرمين ، كمظهر مكمل لسيطرتهم على العالم الاسلامى ، وعندئذ أدرك أبو نمى ـ الذى يتولى امرة مكة ـ بثاقب نظره أن المماليك غدوا مركز الثقل فى العالم الاسلامى ، فأعلن الولاء لهم ، وهكذا بدأ عهد جديد ، شـهد نشاطا فى العلاقات بين مصر والحجاز ٠ وخاصة فى النواحى السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية ، والتى خصصنا هذه الفصول لعلاجها ٠

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ، حوادث سنوات ٦٥١ ـ ٦٥٤ هـ ٠

الفصل الأول

العلاقات السياسية

العلاقات السياسية

أهداف السيطرة المملوكية على الحرمين :

كان مقتل الملك المعظم توران شاه (٦٤٨ هـ) (١) ذروة لأحداث تتالت خلال هجمات الصليبيين (فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ـ الثالث عشر الميلادى) ـ على مصر ـ وتفاعلت مع الظروف الداخلية لتأتى بالمماليك الى سدة الحكم(٢) ، وفى ذلك الدور برزت شجر الدر فى صورة حلقة الوصل بين الأيوبيين والمماليك حتى اضطرتها الظروف الى أن تحنى رأسها للتيار ، وتتزوج بزعيم من زعماء المماليك هو عز الدين أيبك ، أتابك الجيش سنة ٦٥٣ هـ ٠

وكان ان شغلت مصر فى السنوات القليلة التالية بأحداث الصراع الداخلى من ناحية ، ومحاولة رد هجمات التتار على الشام من ناحية أخرى(٣) ٠ الأمر الذى صرف أنظار حكام مصر الجدد عن شئون الحرمين ٠ على أن تلك الفترة القلقة سرعان ما انقضت بقيام السلطان الظاهر بيبرس فى السلطنة (٦٥٩ ـ ٦٧٧ هـ) وما صحب ذلك من اتحاد مصر والشام وانكسار موجات الغزو المغولى أمام صمود الجيش المملوكى ، واستقرت الأمور فى الداخل ، فى الوقت الذى كانت الدولة العباسية قد سقطت فى بغداد (سنة ٦٥٦ هـ) ٠

وهكذا أخذت مصر تسترد زعامتها على مسرح الشرق الأدنى من جديد ، وخاصة عندما عمل الظاهر بيبرس على احياء الخلافة العباسية فى مصر باعتبارها رمزا دينيا ترمقه أبصار المسلمين جميعا فى تبجيل واحترام(٤) ٠

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٥١ ٠
ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧١ ٠
سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٠ ٠
(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤ ـ ٩ ٠
(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٤٦ ، ٤١٩ ٠
سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٧ ، ٣٢ ، ٣٦ ٠
(٤) Muir: The Caliphate p. 593-595.

وكانت الخطوة التالية ، بعد احياء الخلافة العباسية فى مصر ، هى المسارعة الى السيطرة على الحرمين ، وذلك رغبة فى تأكيد زعامة مصر ، بوصفها مقر الخلافة العباسية من ناحية ، وحامية الحرمين من ناحية أخرى · فضلا عن ظهورها فى صورة القوة الحربية الضاربة الكبرى التى تذود عن الاسلام وبلاد المسلمين(١) ·

وكان اشراف مكة والمدينة قد استغلوا ضعف الخلافة العباسية ببغداد فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فجعلوا ذلك سببا للاستقلال بالحجاز استقلالا يكاد يكون تاما ، فمنذ أن أرغمهم صلاح الدين على الاعتراف بالخليفة الناصر العباسى ببغداد لم يعترفوا بأى خليفة آخر ولم يعلنوا اسمه على منابر الحرمين ، حتى عندما أحيا بيبرس الخلافة من جديد بالقاهرة(٢) ·

وهكذا اقتسم الأشراف بلاد الحجاز فيما بينهم ، فسيطر أشراف المدينة على الجزء الشمالى منه ، كما سيطر أشراف مكة على المناطق الجنوبية متجاهلين سيادة الأيوبيين أيام صلاح الدين ، وقد أحست الدولة الرسولية الناشئة باليمن بالفراغ السياسى الذى حدث فى الحجاز بعد أن خفت قبضة حكام مصر عنه ، فحاول بنو رسول سد هذا الفراغ وزحف نور الدين عمر بن على بن رسول — مؤسس الدولة الرسولية — على الحجاز واستولى على مكة سنة (٦٣٧ هـ) ·

وحصل من الخلافة العباسية ابان ذلك على اعتراف منها بذلك(٣) · ولما كان سلاطين المماليك فى مصر قد اعتبروا أنفسهم ورثة سادتهم بنى أيوب ، فى نفوذهم وممتلكاتهم ، فان المماليك كانوا لا يستطيعون السكوت عما حدث من انكماش نفوذ مصر عن الحجاز ، مما أدى الى نشوب صراع بين المماليك والرسوليين ، ذلك أن كل منهما سعى للسيطرة على الحرمين ليحقق لنفسه زعامة على العالم الاسلامى(٤) ·

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٣٦ ، ٤٥٦ ·

سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٣٨ ، ٦٧ ·

سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٣٣ — ٨٩ ·

(٢) Muir: The Caliphate, p. 593-595.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٢ ·

ابن فضل الله الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، حوادث سنة ٦٣٧ هـ ·

الفاسى : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩ — ٤١ ·

(٤) ابن فضل الله الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، حوادث سنة ٦٦٧ هـ ·

وكانت الظروف ـ كما سبق أن ذكرنا ـ مهيأة لمثل هذا الصراع ، فالنزاع الدائم بين أمراء مكة والمدينة ، وبين أشراف مكة أنفسهم بعضهم وبعض جعل فريقا منهم يرتمى فى أحضان دولة المماليك الناشئة الجديدة بينما ثبت فريق آخر على ولائه للرسوليين ٠

وكان أمير مكة سنة ٦٥١ هـ الشريف جماز الحسنى الذى رأى أن مصالحه تتطلب منه أن يتحالف مع قوة قريبة منه تستطيع أن تمده بالمساعدة فى وقت الحاجة ، فاتجه الى السلطان اليمنى وخطب له(١) ٠ ولم يبق جماز أميرا لمكة لمدة طويلة رغم تخليه عن ولى نعمته صلاح الدين لمصلحة الرسوليين ٠ اذ انقض عليه الشريف راجح بن قتادة فأزاله عن الامارة ، وان كان هو الآخر قد اتجه الى الرسوليين طالبا منهم المساعدة ، لكن ابنه غانم لم يمهله فاستولى على امارة مكة سنة (٦٥٢ هـ) (٢) ٠

فى ذلك الوقت تآمر ادريس بن قتادة مع ابن أخيه محمد بن سعيد ابن قتادة المكنى بأبى نمى لاخراج غانم من الامارة فنجحا فى ذلك وأطاحا بغانم وسرعان ما دب النزاع بينهما وحاول كل منهما الانفراد بالسلطة مستعينا بالقوى المحيطة بالحجاز ٠

وكان ان استغل ملك اليمن المظفر يوسف بن عمر (٦٤٧ ـ ٦٩٤ هـ) هذه الفرصة فأرسل قائده على بن الحسن بن برطاس فى سنة (٦٥٤ هـ) الى الحجاز للسيطرة على مكة ٠ واذا كانت هذه الحملة قد لقيت مقاومة عنيفة ـ لأول مرة ـ فان ذلك لم يثن المظفر يوسف بن عمر بن رسول عن عزمه ٠ فقام بحملة قادها بنفسه سنة (٦٥٥ هـ) ودخل بها مكة وكسى الكعبة ، وتصدق بكثير من المال(٣) ٠ غير أنه ما ان خرج من الحجاز بعد الصلح بين أبى نمى وعمه حتى عاد النزاع على أشده ٠ وبدا أن المستقبل لأبى نمى وأدرك أهمية القوة المملوكية النامية بمصر ، فتطلع اليها تاركا جانب المظفر الرسولى(٤) ٠

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ، حوادث سنة ٦٥١ هـ ٠
ابن فضل الله الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، حوادث سنة ٦٥١ هـ ٠
(٢) الفاسى : شفاء الغرام ص ٢١٨ ـ ٢١٩ ٠
(٣) دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٦ ٠
ابن فضل الله الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، حوادث سنة ٦٥٥ هـ ٠
(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٠٤ ـ ٥٠٥ ٠
ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ص ٨٣ ٠
« يذكر أن أول مرة خطب فيها للمماليك كانت سنة ٦٥١ هـ حين خطب لعز الدين ايبك مدبر مصر وللأشرف موسى بن الظاهر الأيوبى » ٠
(سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٣٣١) ٠

وفى سنة (٦٥٩ هـ) قام السلطان الظاهر بيبرس بتجهيز الأموال لعمارة الحرم النبوى بالمدينة وأرسلها صحبة الأمير علم الدين اليغمورى ، وقد انتهى من عمارة الحرم النبوى فى سنة (٦٦٢ هـ) ، هذا بالاضافة الى أن السلطان الظاهر بيبرس قد عمل كسوة لقبر النبى صلى الله عليه وسلم وبعثها مع أحد رجاله مصحوبة « بالشمع والبخور والزيت والطيب(١) » .

ولقد بدأ النفوذ المماليكى يتطرق الى الحجاز سنة (٦٦٥ هـ) عندما وفد من المدينة المنورة الشريف بدر الدين مالك بن منيف بن شيحه ليشكو الى السلطان الظاهر بيبرس من أن الشريف جماز أمير المدينة حرمه من المشاركة فى الامارة ، التى كانت مناصفة بين أبيه ووالد جماز ، فاستجاب السلطان له وكتب لجماز أن يسلمه نصف الامارة وأعطى بدر الدين تقليدا بذلك ، وبنصف أوقاف المدينة التى بالشام ومصر « فامتثل جماز(٢) » . كان هذا ما فعله بيبرس فى المدينة .

أما مكة ، فقد حانت الفرصة لتدخل بيبرس فى شئونها ، عندما نشب الخلاف للمرة الثالثة بين ادريس بن قتادة وابن أخيه أبى نمى ، وكانا يتوليان الامارة معا ، ففى سنة (٦٦٧ هـ) « أخرج أبو نمى عمه ادريس من الامارة ، وكان شريكه فيها اذ أنه شاهد منه ميلا الى صاحب اليمن وتحاملا على مصر ، فأخرجه من مكة وانفرد بالامرة وخطب لبيبرس(٣) » ثم كتب الى أبو نمى الى مصر طالبا توليته أميرا على مكة بمفرده ، وأن يكتب السلطان الى أمراء المدينة أن لا يقفوا ضده مع عمه . فلم يجبه السلطان الى طلبه فى افراده بالامارة بل اقترح عقد صلح بين الأمير وعمه ، ورأى بيبرس فى التجاء أبى نمى اليه فرصة لتوطيد

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٥ ، ٥١٢ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٦٤ .
الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٤٥٩ .
المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٦٠ .
سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ١٠٧ .
على ابراهيم حسن : المماليك البحرية ص ١٧٥ — ١٧٦ .

(٣) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٤٥٩ .
المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٢٤ — ٧٢٥ .

« يذكر ان ابا نمى دعى لبيبرس سنة (٦٦٢ هـ) وفيها ارسل بيبرس مفتاحا وقفلا للكعبة » .

سيطرته وتأكيد سلطانه ، فحج الى مكة سرا سنة (٦٦٧ هـ) (١) · فلما وصل الى المدينة لم يقابله جماز ولا مالك أميراها ، وفرا منه ، بينما استقبل فى مكة استقبالا حارا(٢) ·

وقد أسفرت هذه الحجة عن عدة نتائج : فقد ثبتت السيطرة المملوكية فى الحجاز عندما صار السلطان حكما بين الأمراء ، كما أن الظاهر بيبرس قام باجراء هام هو اقامة نائب عنه بمكة هو « الأمير شمس الدين مروان » يرجع الاشراف اليه فى خلافاتهم ويكون « الحل والعقد على يديه(٣) » ·

ويرى بعض المؤرخين أن شريفى مكة طلبا من بيبرس تعيين ذلك النائب ليكون حكما بينهما عندما يشجر خلاف ، ولكننا نرى أن هذا الرأى يتجاهل كلية أطماع بيبرس وطموحه ، اذ لا نستبعد أن يكون قد أدرك أنه يستطيع امساك الحبل من طرفيه ، باقامة رجل من قبله فى الحجاز يفض المنازعات بين الأمراء ويصد العدوان الخارجى من آل رسول على أن هذا التفسير تواجهه عقبة ، فالظاهر بيبرس لم يترك حامية أو قوة يعتد بها لتكون سندا لمندوبه فى الحجاز ، يدلنا على ذلك أن ذلك المندوب أخرج بعد قليل سنة (٦٦٨ هـ) وأعقب اخراجه نزاع ضار بين أميرى مكة سنة (٦٦٩ هـ) قتل فيه الشريف ادريس ، وانفرد أبو نمى بالامارة(٤) ·

هذا وان كنا لا نستطيع أن نأخذ تماما بما قال به بعض المؤرخين من أن بيبرس لجأ الى تعيين مندوب له بالحجاز استجابة لطلب أمراء مكة اذ لا يعقل أن يعمل أولئك الأمراء على انتقاص سلطانهم باقامة مندوب لسلطان مصر يراقبهم

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٨ ·
ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ٩٨ ·
ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة ١٠٨ ·
ابن حبيب : درة الأسلاك ج ١ ورقة ٤٠ ·
ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٣٨٦ ·
المقريزى : الذهب المسبوك ص ٨٦ — ٨٧ ·

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٨١ ·

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٥٨١ ·
الفاسى : شفاء الغرام ص ٢١٩ ·
الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٤٥٧ — ٤٦٧ ·

(٤) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٤٦٥ ·

ويفرض كلمته عليهم . واذا صح أن هذا الاجراء من جانب بيبرس جاء بناء على طلب الأمراء فلا يستبعد أن يكون هو الذى أوحى اليهم بهذا الطلب . ومهما يكن من أمر فان أمراء الحجاز سرعان ما أحسوا بثقل وطأة سيطرة سلاطين المماليك عليهم مما جعل ثوراتهم تتكرر ضد تلك السيطرة طوال عصر المماليك(١) . أما عن بيبرس فيبدو أنه اعتبر وجود مندوب عنه بالحجاز حلا مؤقتا للتوفيق بين الأمراء حتى يتخذ رأيا فى مسألة الامارة كلها فيما بعد .

واهتمام بيبرس هذا بالحجاز يدفعنا الى التساؤل عن سببه ، وهو أمر اختلفت فيه آراء الباحثين ، فراحوا يستطلعون النصوص الواردة فى هذا المعنى .

فيرى فريق منهم أن بيبرس انما حرص على احياء الخلافة العباسية ليمكن لنفسه فى الحجاز على أساس أن الخلافة العباسية أثبت أساسا من الخلافة الحفصية الجديدة ، وبالتالى فانه من حق بيبرس بوصفه حامى الخلافة العباسية أن يقوم بحماية الحرمين لارتباط الحرمين بالخلافة دائما(٢) . والحديث عن الحفصيين التونسيين يأتى فى أعقاب الخطوة الغريبة التى قام بها أبو نمى عندما اعترف بخلافة أبى عبد الله محمد الحفصى وسيادته على الحرمين . وأراد بيبرس ابطال ادعاء الحفصى بالخلافة فكتب اليه « مثلك لا يصلح أن يلى أمور المسلمين(٣) » .

وذهب فريق آخر الى أن السلطان بيبرس أراد تأكيد سيطرته على الحرمين فى وجه الرسوليين فى اليمن الذين دأبوا على الاغارة على الحجاز يعزلون ويولون ويظهرون بمظهر السيد ، فانتهز السلطان فرصة وجوده فى مكة وكتب الى صاحب اليمن كتابا يقسو عليه فيه ويقول له « سطرتها من مكة والملك هو الذى يجاهد فى الله حق جهاده ويبذل نفسه فى الذب عن حوزة الدين فان كنت ملكا التق التتار ...(٤) »وبيبرس هنا يصارح صاحب اليمن أن مبرر الهيمنة على الحرمين هو القوة التى يستطاع بها حفظ الحرمين وتأمين طريق الحج للحجاج ، فلولا القوة المملوكية ، لبات الزحف المغولى خطرا يهدد العالم الاسلامى .

---

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ١١٢ .
سير وليم موير : دولة المماليك فى مصر ص ٨٣ .
سرور : دولة بنى قلاون ص ١١٧ ، ١٢٠ .
على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٣٣١ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٠١ .
سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ١١٣ - ١١٥ .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٨١ .
ابن فهد : اتحاف الورى ، حوادث سنة ٦٦٧ هـ .

ويوجه فريق ثالث من الباحثين النظر الى الناحية الاقتصادية اذ ظلت مكة طوال العصور الوسطى مركزا هاما من مراكز تجارة الشرق الواردة بطريق البر من عدن وجدة ، والسيطرة على الحجاز على هذا النحـو تخدم التجارة المملوكية بحمايتها وتأمين سبلها ، يؤيد هـذا الرأى أن السلطان بيبرس كان يفكر فى اعادة العمل بالطريق الذى يعبر شبه جزيرة سيناء وشمال بلاد العرب بعد أن تعطل زمن الحروب الصليبية ، ولذا أراد بسيطرته على الحجاز أن يجعل الطرق التجارية عبر البحر الأحمر تحت سيطرته ، فتظاهر بحماية الحجاج والعناية بهم ليحقق هدفا سياسيا وآخر اقتصاديا يوطد بهما دعائم دولته(١) ٠

على أنه من حقنـا أن لا نقف عنـد التفسير السياسى والاقتصادى لحرص بيبرس على السيطرة ، انصافا لبيبرس ومصر ، اذ ارتبطت مصر بالحرمين من الناحية الدينية ارتباطا عميقا لقرون طويلة ، وكانت تمد الحجاز بكميات هائلة من الغلال(٢) ، لا لتسيطر فحسب بل لترضى شـعور الايمان الذى يتردد فى أعماقها فيدفعها الى التعبير عن الحب والوفاء لذلك البلد الأمين الذى شهد مولد الاسـلام ٠

وبالاضافة الى هذه الأسباب الدينية والسياسية والاقتصادية ، ينبغى أن نذكر دائما احساس سلطنة المماليك عند قيامها بالحاجة الى دعامة قوية تستند اليها فى تثبيت دعائمها ولم تكن هناك دعامة أقوى من الدين والتمسح به أمام الرأى العام فى العالم الاسلامى ، ولذا يمكن القول أن جميع الاعتبارات السابقة تخدم ـ فى النهاية ـ غاية واحدة هى تثبيت السلطة المملوكية فى مصر بتدعيمها فى الحجاز كقوة طليعية فى وجه الفوضى الداخلية والعدوان الخارجى ٠

بعد أن عرضنا لأسباب السـيطرة المملوكية على الحجاز ، وما بلغه النفوذ المملوكى من قوة ، أيام بيبرس ، ومن بعده ، يجدر بنا أن نقول أن ذلك لم يؤد الى تغيير جذرى فى نظام الوراثة فى حكم الحرمين ، فبقى الأشراف يحكمون بمكة ،

---

(١) نعيم زكى : طرق التجارة ص ٧ ـ ٩ ٠

سليمان عطية : سياسة المماليك ص ٢٦ ٠

(٢) على ابراهيم حسن : المماليك البحرية ص ١٧٥ ٠

على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٣٣٢ ٠

وظل أبو نمى بالذات ، مصدرا من مصادر قلق الدولة المملوكية وخاصة بعد أن استقل بالأمر بعد أن قتل عمه ادريس سنة (٦٦٩ هـ) (١) .

وكان أبو نمى يعمد كلما اشتد النزاع بينه وبين أبناء عمه حول السلطة الى اضطهاد الحجاج ونهب أموالهم ، كما حصل فى سنوات ٦٨٣ و ٦٨٩ هـ ، الأمر الذى اضطر السلطان الظاهر بيبرس وخلفائه من سلاطين المماليك الى استرضائه حينا وتهديده حينا آخر . ومع أن بيبرس لم يستمر دائما فى أن يجتلب رضاء أبى نمى بالرغم من أنه « كتب اليه غير مرة بالرضا عما ارتكبه مما لا ينبغى فعله(٢) » بعد أن عمد الى تهديده فى مواقف أخرى عندما لم يجد بدا من ذلك ، فكتب اليه سنة (٦٧٥ هـ) متهما اياه بأنه « آوى المجرم واستحل دم المحرم(٣) » ، فسارع أبو نمى الى الاعتذار والاعتراف بخطئه وأعلن الرجوع عنه ، مدللا بذلك على طاعته لسلطان مصر وامتثال أوامره .

وقد استمرت امارة أبى نمى على مكة حتى سنة (٧٠١ هـ) (٤) ، فعاصر — بعد الظاهر بيبرس — المنصور قلاوون والأشرف خليل والناصر محمد ابن قلاوون . وشغل سلاطين المماليك بأبنائه من بعده مثلما شغلوا به ، حتى خيمت شخصيته على العلاقات بين الحجاز ومصر ما ينيف على قرن من الزمان . لذا لم يستطع المؤرخون أن يمروا بالأحداث المعاصرة له دون أن يحاولوا النفاذ الى أعماق شخصيته ، ومع أن آراءهم اختلفت فيه بين ذام ومادح ، فقد أجمعوا على شجاعته ودهائه وحزمه وعلو همته وصبره وتحمله للمشاق(٥) .

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٤٦٦ .
ابن فضل الله الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، حوادث سنة ٦٦١ هـ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٤٦٥ — ٤٦٦ .

(٣) الجزيرى : درر الفوائد ص ٥٨٣ .
ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ١٠٥ .
دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٧ — ٢٨ .
الفاسى : الملوك والخلفاء ص ٢٢ — ٢٣ .

(٤) ابن الوردى : تتمة المختصر ج ٢ ص ٢٥٠ .
ابن أيبك : كنز الدرر ج ٩ ص ٨٠ .
الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٣٥ .

(٥) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٣٥ .
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٧٥ .

الصعوبات التى وقفت فى وجه السيطرة المملوكية على الحجاز :

لاقت الدولة المملوكية ـ حينما أرادت أن تبسط سيطرتها على الحجاز ـ صعوبات جمة وقفت فى طريقها · ولم يتمهد السبيل لهذه السيطرة الا بعد القضاء عليها · ويجدر بنا أن نعطى لمحة يسيرة عن هذه الصعاب ، وجاءت أولى العقبات التى اعترضت سبيل النفوذ المماليكى دولة الرسوليين فى اليمن من ناحية ، وهى الدولة التى كانت دائما مصدر قلق للمماليك بحكم قربها من الحجاز ، ولأنها كانت لا تقل عن دولة المماليك طموحا ورغبة فى التوسع من ناحية أخرى · ولذلك حرص الرسوليون على مد نفوذهم الى الحرمين كمظهر من مظاهر الهابة السياسية والدينية ، تثبت به أركان ملكها فى الداخل والخارج · وكان ان تكررت حملات بنى رسول على الحرمين ، وسيطروا عليهما مرات كثيرة ، ففى سنة (٦١٩ هـ) (١) ولى على الحرمين نور الدين عمر بن على ابن رسول ، وظل واليا عليهما من قبل الملك المسعود يوسف بن الكامل الأيوبى حتى سنة (٦٢٠ هـ) بعد أن توفى الملك المسعود يوسف بن الكامل الأيوبى سنة (٦٢٦ هـ) (٢) ، قامت الدولة الرسولية باليمن وكان أول ملوكها نور الدين عمر بن على بن رسول الذى سارع فى السيطرة على اليمن(٣) ، وخرجت مكة من يده فوليها من قبل الكامل الأيوبى (طغتكين) ·

وكان ان قامت الدولة الرسولية باليمن (سنة ٦٢٧ هـ) ، فلما اطمأن ابن رسول الى ثبات سلطانه فى اليمن ، أرسل جيشا الى مكة سنة (٦٢٩ هـ) يرافقه راجح بن قتادة وابن عبدان ، فلما وصل هذا الجيش الأبطح وحاصر أمير مكة ، خاف الأمير وخرج الى ينبع وكتب الى الملك الكامل لينجده ، واستمال راجح ابن قتادة أهل مكة الى ابن رسول ، ووصلت النجدة لأمير مكة بقيادة فخر الدين ابن شيخ الشيوخ وسار معها أمير المدينة ، فهزم جيش ابن رسول وراجح بن قتادة ونهبت مكة وقتل كثير من أهلها(٤) ·

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ، حوادث سنة ٦١٩ هـ ·
دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٥ ·

(٢) يحى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٤١٨ ·

(٣) نفس المصدر ص ٤١٨ ·

(٤) دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٥ ـ ٢٨ ·
الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥٣ ، ٦٨ ·
يحى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ ·

على أن ذلك لم يثبط من عزيمة ابن رسول فعاد الى ارسال جيش بقيادة الشريف راجح بن قتادة سنة (٦٣١ هـ) ودخل مكة وأخرج المصريين ، وظل الأمر بين شد وجذب الى سنة (٦٣٥ هـ) حيث توفى الملك الكامل الأيوبى واستولى ابن رسول على مكة فى نفس السنة وترك راجح بن قتادة واليا عليها . وفى سنة (٦٣٧ هـ) (١) استولى الأمير شيحة عامل بنى أيوب على المدينة بمعونة جيش من مصر . وفى سنة (٦٣٨ هـ) عاد ابن رسول واستولى على مكة وأقام الحسن بن على بن قتادة ، وظلت مكة على ولائها لابن رسول حتى سنة (٦٥١ هـ) (٢) . غير أن الأيوبيين استردوها على يد جماز بن حسن بن قتادة ، لكنه سرعان ما دعى للمظفر بن المنصور الرسولى ، وعادت الفوضى مرة أخرى الى مكة ، حتى كانت سنة (٦٥٤ هـ) فقدم جيش من اليمن بقيادة ابن برطاس للاستيلاء على مكة فهزمه الأشراف بعد أن تناسوا ما بينهم من خلاف لمواجهة العدو المشترك . وتكررت محاولات الرسوليين فى السنوات التالية ضد الحجاز فى سنة (٦٨٣ هـ) وما بعدها(٣) حتى محاولة (٨٠٩ هـ) . ثم ضعف شأن الرسوليين فسلم الأمر لمصر « وتم لملوك مصر بعد الملك الناصر محمد مثل ما تم لهم من كثرة نفوذ أوامرهم بالحجاز ، وانفردوا بالولاية فيه(٤) » .

أما ثانى الصعوبات التى واجهت النفوذ المماليكى فى الحرمين ، فكان الصراع الداخلى بين أمراء مكة والمدينة ، ثم بين أمراء مكة بعضهم وبعض ، وقد أدى هذا الصراع الى زوال « الهواشم » أولا ، ثم الى كثير من الفتن فى مواسم الحج وغيرها ثانيا ، كما سمح ذلك لمصر واليمن بالتدخل فى شئون الحجاز الداخلية بحجج مختلفة ، اذ كان يحدث أحيانا أن يلجأ أحد أمراء البيت الحاكم الى مصر أو اليمن أو يدعى اليمن أو مصر أن حجاجه أهينوا واضطهدوا .

وواضح من هذا أن الأشراف كانوا يأنفون أن يسيطر عليهم المماليك أو الرسوليين ، بيد أنهم لم يستطيعوا أن يوحدوا صفوفهم فى الداخل ، ودفع بهم

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٧٧ ـ ٧٨ .
الفاسى : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٤٩ .
ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ص ٧٧ ، ٨٣ .
يحى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٤٢٣ ـ ٤٢٥ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٧٤ ، ٤٠٠ .
يحى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٤٢٣ ـ ٤٢٥ .

(٣) دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٧ .
الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٤٦٢ ـ ٤٦٥ .

(٤) الفاسى : شفاء الغرام ص ٢٧١ .

حب السيطرة الى الاستعانة باليمن حينا ، وبمصر حينا آخر ، مما أدى الى تذبذب ولائهم بين الدولتين · وكانوا يطمعون من وراء هذه السياسة أن يمدهم أحد الفريقين بقوة يستطيعون بها الثبات فى وجه منافسيهم ، فى الوقت الذى كان حكام مصر لا يثقون فى أحد أولئك الأشراف ولا يأمنون عاقبة غدرهم · وحسبنا أن نشير الى أن أبا نمى (٦٥٤ ـ ٧٠١ هـ) الذى كان أول من دعى للماليك على منابر مكة ، وأعلن ولاءه لهم ، خرج عن طاعة حكام مصر مرارا ، حتى خشوا سطوته وتخوفوا من نزعته الاستقلالية فلم يتحمسوا كثيرا لتأييده الأمر الذى جعله يعتدى على الحجاج المصريين سنتى (٦٨٣ ـ ٦٨٩ هـ) لشكه فيهم(١) ، ثم دفعته الرغبة فى الانتقام من حكام مصر الى اعلان ولائه لليمنيين لفترة من الزمن(٢) ، بل لقد أعلن الولاء للحفصيين فى تونس لبعض الوقت فيما بين سنتى ٦٥٦ ـ ٦٥٩ هـ(٣) · ثم أن الفتن لم تقتصر ـ كما سبق أن قدمنا ـ على ما كان هناك بين المكيين أنفسهم ، وانما تجاوزت مكة الى المدينة فدار صراع بين أمراء المدينتين المقدستين ، وهم أبناء بيت واحد للفوز بالسيطرة على الحجاز بأجمعه · ولما كانت مكة أقوى من الناحية الاقتصادية والعددية(٤) وأقرب الحرمين الى العالم الخارجى(٥) ، فان الغلبة كانت فى الغالب لأمراء مكة وهو أمر دفع المدنيين الى الارتماء فى أحضان احدى القوتين المتنافستين حول السيطرة على الحجاز ـ وهما مصر واليمن ـ لكى يضمنوا الاحتفاظ بحكم المدينة ، ويأمنوا همات أشراف مكة · وقد جعل منهم هذا الوضع مخلب قط لحكام اليمن أو مصر ، يستخدمونه ضد أشراف مكة فى الوقت الذى يرونه · من ذلك أن بيبرس لم يكد يلى حكم مصر حتى سارع اليه أحد أمراء المدينة شاكيا ابن عمه ، فتدخل بيبرس لمصلحة من استجار به وأعاده الى الامارة كما قدمنا(٦) ·

---

(١) الفاسى : شفاء الغرام ص ٢٧٥ ·

الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٤٦٦ ·

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٤٦٤ ·

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٠١ ·

سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ١١٢ ·

(٤) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٢٠ ·

« المدينة : وهى أقل من نصف مكة ، وهى فى حر وسبخة الأرض » ·

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠٢ ·

« وأسعار المدينة نحو أسعار مكة بل ربما كانت مكة ارخى اسعارا منها ، لقربها من ساحل البحر بجدة » ·

(٦) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٦٤ ·

الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٤٥٩ ·

ولم يمض عامان على هذه الواقعة حتى خرج هذان الأميران عن طاعة بيبرس ، وأعلنا ولاءهما لليمن ، فسارع بيبرس الى الحجاز سنة (٦٦٧ هـ) ليحج وليثبت سلطته عليه وعندئذ فر الأميران من المدينة هاربين من وجه بيبرس(١) ٠

وفى سنة (٦٦٩ هـ) تدخل ابن شيحة أمير المدينة لمصلحة ادريس بن قتادة ضد أبى نمى فى مكة فهزمهما أبو نمى بعد مشقة بالغة(٢) ٠ وهكذا حتى استخدم السلطان قلاوون جماز بن شيحة هذا لضرب أبى نمى والحد من نفوذه فى سنوات (٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٨ هـ) (٣) ٠ على أن سلاطين مصر سرعان ما أدركوا أن أمراء المدينة سلاح ذو حدين ، اذ بامكان الرسوليين استخدامهم كما يستخدمونهم هم ، ولذلك آثروا اضعافهم ثم عمدوا الى تولية أمير مكة شئون المدينة وخاصة أيام الجراكسة عندما فرض المماليك أموالا على الأمراء ، وكانوا يؤثرون بالامارة من يدفع أكثر ، فى الوقت الذى كان أمراء مكة أيسر حالا من أشراف المدينة(٤) ٠

أما ثالث الصعوبات التى اعترضت سيطرة المماليك على الحجاز ، فكانت اختلاف المذهب ، ذلك أن المماليك كانوا سنيين ، كأسيادهم من الأيوبيين ، فى حين كان أشراف مكة شيعة من سلالة على وفاطمة رضى الله عنهما(٥) ٠ وفى ضوء هذه الحقيقة نستطيع أن نفهم الوحشة بين الأشراف من ناحية ، وخلفاء بنى العباس من ناحية أخرى ٠ فالأشراف لم يعترفوا بالسلطة للعباسيين عندما كانوا فى بغداد ، باستثناء اعتراف أحدهم بخلافة الناصر العباسى بضغط من الأيوبيين ٠ فلما سقطت الخلافة العباسية فى بغداد سنة (٦٥٦ هـ) ، ثم قامت بالقاهرة سنة (٦٦٠ هـ) لم يعترف بها الاشراف وكانوا يدعون للسلطان ثم لأنفسهم دون أى ذكر لخلفاء بنى العباس بالقاهرة ، بل لقد صرح بعضهم بأنه أحق بالخلافة من

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٨١ ٠
ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ص ٩١ ـ ٩٣ ٠

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٤٦١ ٠

(٣) دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٨ ٠
الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٤٦١ ـ ٤٧٠ ٠

(٤) سليمان عطيه : سياسة المماليك ص ٢٦ ٠

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٣٩ ٠

العباسيين(١) . وكان هذا سببا من الأسباب التى أثارت المتاعب فى وجه السيطرة المملوكية على الحجاز ، اذ لم يعترف الأشراف بسلطان المماليك الا مضطرين وكانوا يسارعون الى نقض هذا الاعتراف عندما تسنح لهم الفرصة ـ كما أوضحنا من قبل ـ ومع أن المماليك كانوا دائما أقوى من الرسوليين الا أن فرص الرسوليين الا أن فرص الرسوليين فى السيطرة على الحجاز كانت أكثر لانهم « زيدية(٢) » مثل أمراء الحرمين . وهكذا بادل المماليك أشراف الحجاز حذرا بحذر ، فلم يأمنوا لهم ، وكان من مآخذهم على أبى نمى أنه « زيدى(٣) » .

وقد بلغت كراهية أشراف الحجاز للمماليك من الناحية المذهبية أنهم حاولوا فى وقت من الأوقات أن يقووا الحفصيين على حساب المماليك الذين احتضنوا خلفاء بنى العباس(٤) . بيد أن الاختلاف فى المذهب كان مجرد صعوبة من الصعوبات ولم يؤد الى قطيعة مطلقة نظرا لتخوف أشراف الحجاز من قوة مصر من ناحية، ولأن الزيدية من معتدلة الشيعة من ناحية أخرى . هذا فضلا عن أن أكثرية أهل الحرمين لم تكن شيعة وانما كانوا من أهل السنة .

---

(١) باستثناء الدعوة للمستعين بالله سنة (٨١٥ هـ) لانه أقيم فى مقام السلطنة بالديار المصرية والشامية بعد مقتل الملك الناصر فرج بن الملك الظاهر برقوق لم يدع لأحد من بنى العباس .

(الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١٩٩)

« وكان الشريف عز الدين بن عجلان بن رميثه بن أبى نمى ... ذا عقل ودهاء ومعرفة بالأمور وكان بخلاف آبائه وأقاربه يحب أهل السنة وينصرهم على الشيعة وربما كان يذكر أنه شافعى المذهب ، وهذا نادر فى السادة الأشراف فان غالبهم زيديين يتجاهرون بذلك » .

(ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ورقة ١١٥)

وكذا « سعد بن ثابت بن جماز بن شيحة أحد أمراء المدينة وليها فى سنة (٧٥٠ هـ) ... بدا يمنع آل سنان ونحوهم من التعرض للأحكام وعقد الأنكحة وغيرها ... ورد الأمر جميعه الى أهل السنة ... تقربا لقلوب السلطنة ... » .

(السخاوى : التحفة اللطيفة ج ٢ ص ١٥٠)

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٤٦٧ .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٤٦٧ .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٠١ .

سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ١١٢ .

وبعد ذلك تأتى رابع الصعوبات التى اعترضت سبيل توطيد نفوذ الدولة المماليكية فى الحجاز · وتتلخص فى المتاعب التى واجهت تلك الدولة ، بسبب المواجهة مع الصليبيين والتتار فى الخارج واضطراب الأوضاع فى الداخل(١) · ولا شك أن جميع هذه المتاعب التى واجهت المماليك حدت من جهودهم للسيطرة فى الحجاز ، وهكذا كان انشغال المماليك بمواجهة الصليبيين والتتار من ناحية ، وثورات الشام من ناحية أخرى ، والقلاقل الناجمة عن النزاع حول شغل منصب السلطنة فى مصر من ناحية ثالثة ، وثورات العربان من ناحية رابعة · كل ذلك أتاح فرصة طيبة للاشراف لتأكيد استقلالهم أو العودة للولاء لملوك اليمن واختلاق الأزمات مع أمراء الحج المصريين · ومن أمثلة ما حدث أثناء فترة الاضطرابات التى أعقبت وفاة بيبرس والتى امتدت حتى قيام قلاوون فى منصب السلطنة ، اذ تنكر أبو نمى لمصر ، وأعلن ولاءه لليمن واستقل استقلالا حقيقيا ، مما دفع قلاوون عند استقرار الأمر له الى اتخاذ اجراء جديد ، فعمد الى صياغة يمين غريب ، فرض على أبى نمى القسم به سنة (٦٨١ هـ) ليطمئن الى ولائه له ولأبنائه(٢) · ومع ذلك فقد « خطب أبو نمى سنة واحد وتسعين وستمائة للملك المظفر صاحب اليمن » متحججا بأن الأشرف خليل لم يدخل فى اليمين التى حلفها لأبيه قلاوون(٣) · وتكرر هذا الحلف مرارا أيام كتبغا (٦٩٤ — ٦٩٥ هـ) (٤) ، والمنصور لاجين (٦٩٦ — ٦٩٧ هـ) وبيبرس الجاشنكير (٧٠٩ هـ) لانشغال هؤلاء فى الصراع الذى دار حول منصب السلطنة(٥) ·

هذه هى الصعاب التى اجتمعت لتزعزع السيطرة المصرية على الحرمين وتحول دون ثباتها والتى أدت فى آخر الأمر الى صراع مرير بين مصر واليمن من ناحية ، وبين مصر وأشراف الحجاز من ناحية ثانية ، وبين أمراء الحجاز بعضهم وبعض من ناحية ثالثة· وهو الصراع الذى سبب الكثيرمن الفتن والثورات وأساء فى معظم الأحيان الى العلاقات بين المماليك وأمراء الحرمين فعمد السلاطين الى علاج الأمر بالمال والمداراة حينا ، والى فرض سيطرتهم بالقوة وارسال الحملات حينا آخر ، حتى أن الدولة الجركسية لم تحترم فى كثير من الفترات سلطة الأسرة

---

(١) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٧٤ ·

(٢) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ص ٢١٢ ·

ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ٢٤٧ ·

المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٠٦ ·

(٣) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٤٦٣ ·

(٤) نفس المصدر ج ١ ص ٤٦٩ ·

(٥) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٣٦ ، ٧١ ، ٨٥ ، ٢٣٣ ·

الحاكمة فى الحرمين ، ولم ترع نظـام الوراثة وعمـدت الى فرض من تراه أكثر خضوعا لها ، تحقيقا لمصالحها السياسية والاقتصادية ، ويدفعنا هذا الى القول بأن أمراء الحرمين لم يكونوا فى عصر سلطنة المماليك الجراكسة أمثال أبى نمى الذى كان حاد الطبع لا يتورع الوقوف فى وجه السلاطين المماليك ويعلن الرفض لطاعتهم، انما أصبح أمراء الحرمين فى عصر الدولة الجركسية يوجهون من قبل مصر، بل أن المال أصبح يحمل من الحرمين ليس كما كان من قبل يحمل اليها • ولدينا الكثير مما أورده المؤرخون بهذا الشأن • نذكر على سبيل المثال ، ما اشترطه السلطان برسباى سنة (٨٢٩ هـ) على الشريف بركات بن حسن بن عجلان حينما أراد أن يتولى امرة مكة ، فقد طالبه السلطان بمبلغ خمسة وعشرين ألف دينار ، وهى المتأخرة على أبيه ، والتى التزم بدفعها قبل وفاته ـ كان المبـلغ المطلوب من والده ثلاثين ألف دينار لم يدفع منها الا خمسة آلاف دينار ، وتوفى قبل أن يفى بكل ما التزم به ، فطالب السلطان ابنه بالباقى ، فضلا عن عشرة آلاف دينار يحملها فى كل سنة ، وأن لا يتعرض لما يؤخذ بجدة من عشور البضائع الواردة الى هذا الميناء(١) •

من هنا يمكن أن نتبين الى أى حد وصلت اليه حال الأمراء فى الحرمين فى أواخر عصر سلطنة المماليك • ان هذا الضغط من قبل السلطنة بمصر لا بد أن تكون له نتائج وخيمة فى نهاية الأمر مما أساء الى العلاقات بين مصر والحجاز ، ودفعت الذين لا يملكون ما يقدمونه للسلاطين الى محاولة الوصول الى الامارة بالارهاب والثورة • وليس ثمة شك فى أن دولة المماليك الجركسية غدا همها الأول جمع المال ، فلم تكتف باحتكار التجارة ، بل طالبت أمراء الحرمين بدفع مال على الأمرة ، فضلا عن العشور التى يتقاضاها نائب السلطان بجدة وما يفرضونه من مغارم على التجار(٢) •

فتن الحجاز واخمادها فى دولة المماليك الأولى :

منذ فرضت مصر سيطرتها على الحجاز ـ أيام السلطان الظاهر بيبرس ـ والى أن سقطت دولة المماليك سنة (٩٢٢ هـ) ، لم يمض عقد من الزمان بغير فتنة فى مكة أو المدينة أو فيهما معا • وقد أوضحنا من قبل أن ذلك يرجع الى صراع الأشراف على السلطة فى الداخل والى اغراءات وضغوط مصر واليمن ، ثم العراق فى بعض الأوقات • وكانت مصر تعمد الى اخماد الفتنة وضرب التمرد بكل وسيلة ، مع الحرص ـ الا فى حالات قليلة ـ على عدم اراقة الدماء ، ببذل المال

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٤ ورقة ٣٧٨ •

(٢) المصدر السابق جـ ٤ ورقة ٣٧٨ ، ٣٨٥ ، ٤٠٥ ، ٤١٧ •

والتقليد للقوى والعفو عنه ، وحضه على الطاعة أو بارسال تجريدة من الجند ، تثير الرعب ، فيفر العاصى قبل وصول العسكر ويعود الى الامارة ذلك الذى تريده مصر ويتمتع برضاء سلاطينها ٠

ففى سنة (٦٦٧ هـ) وقع بين أبى نمى وعمه ادريس خلف ، فأخرج أبو نمى عمه ادريس من مكة ٠ وانفرد بالامارة ٠٠ وعلل الاجراء الذى قام به بأنه شك فى ولاء ادريس لمصر فطرده ، وخطب لبيبرس(١) ٠

ولم يفد الصلح الذى فرضه الظاهر بيبرس على الأميرين ، فعادا الى القتال فى (خليص) (٢) سنة (٦٦٩ هـ) فقتل ادريس وسلم الأمر لأبى نمى فى ظل بيبرس(٣) ٠ وكان ان أخرج أبو نمى الأمير مروان الذى أقامه الظاهر بيبرس نائبا عنه فى مكة سنة (٦٦٨ هـ) كما بدرت منه بوادر شككت السلطان فى ولائه ، فأرسل اليه كتابا شديد اللهجة سنة (٦٧٥ هـ) (٤) ٠ وكما ولى السلطنة قلاوون (٦٧٨ ـ ٦٨٩ هـ) حاول أبو نمى أن يخرج على طاعته ، بيد أن قلاوون كان حازما معه ، ففرض عليه القسم بالولاء له ولأولاده من بعده فى صيغة طويلة وقاسية سنة (٦٨١) (٥) ٠

وفى سلطنة قلاوون سنة (٦٨٣ هـ) كانت الفتنة المشهورة بمكة ، بين أبى نمى وأمير الحاج المصرى ، فقد كان أبو نمى يأخذ من حجاج اليمن على كل جمل ثلاثين درهما ، ومن الحاج المصرى على الجمل مبلغ خمسين درهما(٦) ٠ ثم أبطل

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٣ ورقة ٩٨ ٠

(٢) خليص : « قرية قريبة من مكة فى طريق المدينة المنورة » ٠

(٣) الفاسى : شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠٢ ٠
المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٩٧ ٠
الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ٤٦٠ ٠

(٤) الجزيرى : درر الفوائد ص ٥٨٣ ٠
ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٣ ورقة ١٠٥ ٠
الفاسى : الملوك والخلفاء ص ٢٢ ، ٢٣ ٠
دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٧ ـ ٢٨ ٠

(٥) محى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام ص ٢١٢ ٠
ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٢٤٧ ٠
الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣ ٠

(٦) محى الدين : الأرج المسكى ـ ورقة ٤٨ ٠
دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٧ ٠

ذلك فى زمن الظاهر بيبرس صاحب مصر فصار يؤخذ من حاج مصر مبلغ ثلاثين درهما على كل جمل ، ثم وقع بين أمير الحاج وبين أبى نمى كلام فى هذا المعنى ، فأغلق الشريف أبواب مكة ـ وقد كانت مسورة ـ ومنع الحجاج عن دخول مكة ، فنقب الحجاج السور وأحرقوا باب « المعلاة » ودخلوا هجوما بعد خروج أبى نمى منها ، ثم اصطلح الطرفان بعد مفاوضات(١) . والغريب أنه فى نفس العام حاول آل رسول عزل أبى نمى ، مثلما حاول قلاوون ، بيد أنه استطاع أن يهدىء من ثائرة المصريين ـ كما سبق أن أشرنا ـ وأن يهزم اليمنيين وأنصارهم من أبناء أخيه(٢) .

وفى سلطنة الأشرف خليل (٦٩٠ ـ ٦٩٣ هـ) حدثت فتنة أخرى بين أبى نمى وأمير الحاج الشامى لخصام قديم بينهما ، ودارت معركتان حاميتان بين المكيين من ناحية والحجاج الشاميين والمصريين من ناحية أخرى ، وخشى أبو نمى بطش الأشرف خليل لخروجه على طاعته ودعوته لصاحب اليمن ، ولاعتدائه على الحجيج ، فهرب من مكة وأرسل الى السلطان رسلا تعلن طاعته وندمه ، وعزمه على السفر الى مصر بنفسه امعانا فى اظهار خضوعه ، لكن موت الأشرف خلصه من ورطته(٣) .

وفى عهد الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ ـ ٦٩٤ هـ)و (٦٩٨ ـ ٧٠٨ هـ) و (٧٠٩ ـ ٧٤١ هـ) . وتوفى أبو نمى سنة (٧٠١ هـ) تاركا أربعة أبناء ، تنازعوا الأمر بعده ولم تكن لهم صولة أبيهم ولا قوة شخصيته وحنكته ، وصاروا ألعوبة فى أيدى سلاطين المماليك يعزلون من شاءوا منهم ويولون من شاءوا ، حتى اذا لم تتدخل مصر ، أعانوا هم على أنفسهم بنزاعهم فيما بينهم . وهؤلاء الأربعة هم : أبو الغيث وعطيفة وحميضة ورميثة(٤) .

---

(١) ابن بهادر : فتوح النصر ج ١ ورقة ١٥٩ .
الفاسى : شفاء الغرام ص ٢٧٢ .
المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٢٤ .

(٢) دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٨ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٤٦ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ .
عبد الرءوف أحمد : الأشرف خليل ص ٤٥ .

(٤) الجزيرى : درر الفوائد ص ٥٨٤ .
ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٧٧ .
ابن الوردى : تتمة المختصر ج ٢ ص ٢٥٠ .
ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ١٦٧ .
الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٣٥ .
القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧٣

وولى الأمر أولا أبو الغيث وعطيفة ، أما حميضة ورميثة ، فقد اقتيدا الى مصر فسجنا بها ، بيد أن أمير الحاج المصرى سنة (٧٠٣ هـ) شكا من قلة مهابة أبى الغيث وعطيفة ، وكثرة طمع العبيد فى المجاورين بمكة ، فأفرج عن الشريفين حميضة ورميثة من السجن ووليا الأمرة(١) · واستمر الأميران الجديدان يحكمان مكة معا حتى سنة (٧١٣ هـ) · وقد أحدثا الكثير من السخط والنقمة فى نفوس الحجاج وسكان مكة بظلمهما وقسوتهما فهددهما الملك الناصر محمد وتوعدهما ، فلما لم يجد ذلك شيئا ، أرسل أخاهما أبا الغيث بقوة (سنة ٧١٤ هـ) ففرا هاربين ، ثم ما لبث حميضة أن عاد واشتبك مع أبى الغيث فقتله فى نفس السنة ثم توارى عن الأنظار حتى انقضى موسم الحج ، فرجع واستبد بالأمر بمفرده(٢) · وسارع أسد الدين رميثة الى مصر ، فأعلن الولاء للسلطان ، فأمده السلطان بقوة هزم بها حميضة(٣) الذى التجأ الى العراق يطلب النجدة من أولجاتيو ايلخان المغول فى فارس ، وأمده المغول بجند ما لبثوا أن تفرقوا قبل أن يصلوا الى الحجاز بسبب موت الملك خربندا(٤) من ناحية ، واغارة عرب الشام عليهم وتشتيتهم للجيش المغولى من ناحية أخرى · فضلا عن أن الأعراب أنفوا أن يحكمهم المغول من ناحية ثالثة(٥) · غير أنه ما لبث أن تجدد النزاع بين رميثة وحميضة سنة (٧١٨ هـ) ، فأخرج حميضة رميثة من مكة ، ودعا على منابرها لابى سعيد ايلخان المغول بدلا من الملك الناصر محمد الذى أرسل قوة طاردت حميضة ، وأسرت رميثة نفسه للشك فى ولائه ، وحكم أمير هذه القوة مكة حتى سنة (٧١٩ هـ) حين ولى الناصر محمد الأمير عطيفة مكة(٦) · وحاول حميضة أن يصطلع مع أمير الجيش المصرى ،

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٤٨ ·

(٢) الفاسى : شفاء الغرام ص ٢٢٣ ـ ٢٢٥ ·

القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٣ ·

(٣) Howorth: History of the Mongoles, part 111, p. 572.

(٤) « هو الملك خربندا بن ارغون بن ايغا بن هولاكو بن تولو بن جنكيز خان ملك التتار توفى سنة ٧١٦ هـ »

(أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٣٨)

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٤ ص ١٥٣ ·

ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ١٦٧ ·

وليم موير : دولة المماليك ص ١٦٠ ·

Howorth: History of the Mongoles, part 111, p. 572.

(٦) ابن بهادر : فتوح النصر ج ١ ورقة ٢٤٣ ·

ابن فهد : اتحاف الورى ، حوادث سنة ٧١٩ هـ ·

الا أن المماليك قتلوه سنة (٧٢٠ هـ) (١) ، فاشترك رميثة مع عطيفة فى الحكم بعد مقتل حميضة مدة ، ثم توفى عطيفة سجينا فى مصر سنة (٧٤٣ هـ) ، وكان رميثة قد اعتقل قبل ذلك ، فعاد الى الامارة ابتداء من سنة (٧٣٨ هـ) (٢) ٠

ظل رميثة فى الامارة حتى كانت سنة (٧٤٤ هـ) فتركها لابنيه ، ثقبة وعجلان ، مقابل مائتى ألف درهم(٣) ٠ وظلا فى الحكم حتى استدعى الصالح اسماعيل (٧٤٣ ــ ٧٤٦ هـ) الأمير ثقبة الى مصر ، وقبض عليه لشكه فيه ثم أصدر مرسوما باعادة مكة الى رميثة ، وتتبع السلطان الشريف عجلان ففر الى اليمن ثم عاد سريعا فاصطلح مع والده واستقل بالامارة بعد وفاته(٤) ٠

فلما تسلطن فى مصر الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فى سلطنته الأولى (٧٤٨ ــ ٧٥٢ هـ) أطلق سراح الأمير ثقبة فاقتسم الامارة مع أخيه عجلان ، ثم ما لبث النزاع أن نشب بينهما سنة (٧٥٠ هـ) فسافر عجلان الى القاهرة فولاه السلطان أمرة مكة منفردا ، فلجأ ثقبة الى اليمن محرضا الملك المجاهد بن المؤيد ابن المظفر الرسولى على أخيه عجلان ، فسافر المجاهد الى مكة حاجا ولم يطمئن عجلان من قدومه مع أخيه ثقبة ، لذا فانه أغرى به أمير الركب المصرى « طاز » فألقى القبض على الملك المجاهد وانتهى به الأمر فى الأسر الى مصر حيث بقى هناك قرابة العام مسجونا ولم يفك أسره الا بعد أن دفع فدية ضخمة وتعهد بالولاء للسلطان(٥) ٠

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ج ٤ ص ٢٤٥ ٠
العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٧٢٠ هـ ٠
المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٠٩ ٠

(٢) دحلان : خلاصة الكلام ص ٣٠ ــ ٣٣ ٠

حاشية : عندما حج الناصر محمد بن قلاوون حجته الثانية سنة ٧١٩ هـ فر من المماليك الذين معه ثلاثة ، والتجأوا الى حميضة ، ولما علموا أن السلطان يريد أن يفاوض حميضة فى الصلح وانه قبل على أن يأخذ من أمير الحاج رهينة ، فاجاه احدهم وهو نائم فقتله وذهب برأسه الى امير الحاج ، فكتب السلطان باحضار المماليك الثلاثة فحبسوا واخرج قاتله بعد رمضان فقتل ٠

(ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٣٣ ــ ٤٣٤)

(٣) الفاسى : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩٥ ٠

(٤) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٩٥ ٠
ابن خلدون : العــبر ج ٤ ص ١٠٧ ٠

(٥) يحى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥١٦ ٠
محى الدين : الأرج المسكى ورقة ٤٩ ٠
سرور : دولة بنى قلاوون ص ١٢٢ ــ ١٢٤ ٠

واستمر الصراع بين عجلان وثقبة حتى تقلد الملك المنصور محمد بن المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون سلطنة مصر (٧٦٢ ـ ٧٦٥ هـ) فولى عجلان امارة مكة سنة (٧٦٢ هـ) بالاشتراك مع ثقبة الذى توفى فى نفس السنة ، فاستقل عجلان بالامارة ، وبذلك انتهى النزاع بين الشقيقين(١) . وأتاحت الظروف القاسية ـ التى كانت تمر بها الدولة المملوكية قبل سيطرة الجراكسة ـ للشريف عجلان شيئا من الاستقلال ، فانتعشت الامارة فى عهده ، وأشرك معه ولده أحمد دون اذن من مصر ، واتفق مع الأمير يلبغا مبعوث الاشرف شعبان (٧٦٥ ـ ٧٧٨ هـ) على اسقاط المكوس التى كان يجبيها من الحجاج المصريين ، كما وافق على الامتناع عن تحصيل أى مكس على كل ما يباع فى أسواق مكة من مواد غذائية وأخشاب وثياب ، وعوضه السلطان عن ذلك بمبلغ قدره مائة وستين ألف درهم وألف أردب من القمح ، ترسلها له مصر سنويا ، كما سمح بجباية المكس على المتاجر والسفن الواصلة الى ثغر جدة من اليمن(٢) .

ثم تنازل الشريف عجلان عن الامارة لابنه أحمد سنة (٧٦٦ هـ) مقابل مبلغ من المال بشرط أن يبقى اسمه فى الخطبة ، وعلم الاشرف شعبان بالامر ، فوافق على ذلك حرصا على السلام وازدهار التجارة فى البحر الاحمر ، حتى توفى أحمد بن عجلان سنة (٧٨٨ هـ) (٣) . وفى تلك الأثناء كانت دولة المماليك الجراكسة قد قامت عندما تسلطن برقوق سنة (٧٨٤ هـ) .

أما فى المدينة المنورة فقد ولى جماز بن شيحة بن هاشم الحسينى الامارة سنة (٦٥٧ هـ) وعاش طويلا حتى توفى سنة (٧٠٤ هـ) (٤) وكان ابنه منصور قد ولى الامـارة قبل وفاة والده بزمن طويل ، فوفد أخـوه مقبل بن جماز على الظاهر بيبرس بمصر شاكيا اليه حيف أخيه ، فأشرك بينهما فى الامارة والاوقاف. ثم تغيب منصـور عن المدينـة وولى ابنه كبيشة مكانه ، فوثب عليه عمه مقبل ابن جماز وملك المدينة من يده ، فلحق كبيشة بأحياء العرب فأثارهم على عمه وغزا بهم المدينة ، فقتل مقبل سنة (٧٠٩ هـ) ورجع منصور والد كبيشة الى

---

(١) الفاسى : شفاء الغرام ص ٢٢٤ .
ابن فضل الله الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، حوادث سنة ٧٥٩ ـ ٧٦٢ هـ .

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ١٨٧ ـ ١٨٩ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٢١٤ .
الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٦٥ .
ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٨٠ ، ٤٨١ .

(٤) الفاسى : العقد الثمين ج ٣ ص ٤٣٦ .

امرته(١) · وظل ماجد بن مقبل فى البادية يحاول اثارة الاعراب على منصور فاستجابوا له وزحفوا على المدينة سنة (٧١٧ هـ) ، فقوى الملك الناصر محمد منصورا بتجريدة أخرجت ماجدا واستمر الصراع · لكن بين منصور بن جماز و ودى بن جماز حتى توفى منصور سنة (٧٢٥ هـ) (٢) · وتولى الأمر كبيشة ابن منصور فثار عليه عمه ودى وقتله فغضب السلطان واعتقل ودى(٣) ·

فلما كانت سنة (٧٢٨ هـ) قتل كبيشة بيد أولاد مقبل بن جماز انتقاما لأبيهم الذى قتله كبيشة من قبل(٤) · وبلغ الخبر السلطان بالقاهرة ــ وهو يومئذ الناصر محمد بن قلاوون ، فعين طفيل بن منصور بن جماز أميرا على المدينة ، واستمر هذا الى سنة (٧٥١ هـ) (٥) ·

وتوالى على الامارة بعد طفيل ــ وحتى سنة (٨٠٠ هـ) ــ عدة أمراء صغار من أبناء جماز وأحفاده · وقل من هؤلاء من نجا من الموت قتلا ، كما تكرر عزل بعضهم، ثم اعادته حسبما يرى سلاطين مصر أو الأمراء الأقوياء من المماليك خصوصا فى الفترة الواقعة بين عزل طفيل بن منصور سنة (٧٥١ هـ) وولايته الظاهر برقوق سنة (٧٨٤ هـ) (٦) ·

من هذا العرض الذى سبق للفتن والنزاعات فى عصر دولة المماليك البحرية التى كانت مستمرة النشوب بين الأمراء ، كانت مصر تضطر الى ارسال تجريدات وحملات لاخماد القلاقل ، كما كانت تفعل ذلك فى ظروف أخرى لضمان وصول من تتوسم فيه الاخلاص لها الى سدة الحكم · وكانت أحيانا تعمد الى بذل الأموال واسترضاء الطرفين المتنازعين ليعود الهدوء الى الحرمين · وربما كانت سياستها

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٧٨ ·
المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٨٤ ·
ابن بطوطة : الرحلة جـ ١ ص ٧٥ ·

(٢) ابن حبيب : درة الأسلاك جـ ١ ورقة ١٦٧ ·
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٠١ ·

(٣) السخاوى : التحفة اللطيفة جـ ٢ ص ٣٢٦ ·

(٤) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٢٦٤ ، ٢٧٣ ·
ابن بطوطة : الرحلة جـ ١ ص ٧٥ ·

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٠١ ·
السخاوى : التحفة اللطيفة جـ ٢ ص ٣٢٦ ·

(٦) ابن حبيب : درة الأسلاك ، حوادث سنة ٧٨٤ هـ ·
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ·

فى تولية اثنين معا عائدة الى محاولتها استبقاء سيطرتها بمراقبة أحدهما للآخر وابلاغ مصر اذا أراد التمرد • وقد تكرر ارسال الجند المصرى الى الحرمين أيام سيطرة المماليك البرجية • وكما قدمنا ، فقد حج الظاهر بيبرس على رأس قوة عام (٦٦٧ هـ) (١) وكانت قوافل الحج محروسة دائما بمئات من الفرسان يستطيعون — عند الضرورة — أن يعزلوا أمير مكة أو المدينة ، أو يأسروه أو يقتلوه ان رأوا ما يدعو لذلك ، كما حدث سنة (٦٨٣ هـ) و (٦٨٨ هـ) ، حين أمد قلاوون جماز بن شيحة أمير المدينة بتجريدة أخرجت أبا نمى بعد اشتباكه مع أمير الحاج المصرى ومنعه للحجيج من دخول مكة(٢) •

وبعد ، فماذا كان يمكن أن يحدث لو قدر للمغول النجاح فى احتلال الحجاز ؟ الحق أن وجه التاريخ فى تلك الفترة كان من الممكن أن يتغير ، فيقع الحرمان تحت سيطرة المغول ، وتتعرض قوافل الحجاج لمخاطر عظيمة ، خصوصا حجاج مصر والشام للعداوة التى كان يكنها كل من المماليك والمغول لبعضهما • ثم أن هيبة الدولة المملوكية تتلقى ضربة قاسية لفقدها الزعامة الأدبية والعسكرية للعالم الاسلامى باعتبارها حامية للحرمين الشريفين ، وربما عجل ذلك فى سقوطها ••• هذا فضلا عما كان من الممكن أن يحدث من تغيير رسوم الحرمين ومعالمهما لما يلجأ اليه المغول من هدم قبور الصحابة ، وطمس معالم تكريمهم ، بيد أن شجاعة عرب الشام وضروب البسالة التى أبدوها وقت العالم الاسلامى كارثة كادت تهدده بكثير من القلاقل وضروب سفك الدماء(٣) • وكان لهزيمة المغول على يد الأعراب أثرها الحاسم فى منع هؤلاء من التفكير مرة أخرى فى غزو الحرمين واضعين فى اعتبارهم — بالاضافة الى قوة المماليك — قوة الأعراب المنتشرين فى بوادى الشام والحجاز ••• ومهما يكن من أمر ، فان هذا الغرض كان من الصعب أن يتحقق لبعد المسافة بين بغداد والحجاز ، ومشقة الطريق وصعوبته • ثم ان المغول اعتادوا أن لا يغيروا الا على البلاد الغنية لنهبها ولم يكن الحجاز على درجة من الثروة يسيل لها لعاب المغول •

---

(١) المقريزى : الذهب المسبوك ص ٨٦ ، ٨٧ •
ابن حبيب : درة الأسلاك ج ١ ورقة ٤٠ •
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٤٦ •
ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة ١٠٨ •

(٢) محى الدين : الأرج المسكى ورقة ٤٨ •
دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٧ •
المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٢٤ •

(٣) Howorth: History of the Mongols, part 111, p. 572.

فى تلك الفترة كان رميثة أسير الناصر محمد بن قلاوون فى مصر ، وساعدت الظروف عطيفة ، فقتل المماليك حميضة سنة (٧٢٠هـ) ، فانفرد عطيفة بالامارة بعد وقائع استمرت حوالى السبع سنوات (٧١٣ — ٧٢٠هـ)(١) . ثم أقامت مصر بمكة حامية دائمة تلافيا للقلاقل وحذرا من أن تعود الفتنة بين الأشراف(٢) .

أما المدينة فقد شبت فيها فتنة بين ودى بن جماز وطفيل بن كبيشة بن جماز وأسرف ودى فى قتل أشراف أسرته . فغضب السلطان الناصر محمد بن قلاوون وبعث جندا الى المدينة سنة (٧٢٦ هـ) ، ففر ودى وعاد طفيل الى الامارة بعد مدة ودعى للناصر بالمدينة ، كما يدعى له بمكة بمفرده(٣) .

ولم تكد تمضى سنتان على فتنة المدينة حتى وقعت فتنة كبرى بمكة . كان لها أثر بالغ السوء فى العلاقات بين الناصر محمد بن قلاوون وأمراء مكة . ذلك أن الحجاج لما قضوا مناسك الحج ، وخرج بعضهم عائدا ، تأخر أمير الحاج وبعض ممن معه ليصلوا الجمعة بمكة ، وأثناء خطبة الجمعة ثار بعض عبيد الأشراف ونهبوا بعض أمتعة حجاج العراق(٤) . وتخطفوا أشياء من أموالهم ، وشريف مكة عطيفة ابن أبى نمى حاضر فاستصرخ الناس بالأمير « الدمر أمير جاندار سيف الدين » فنهض لنجدتهم وتقدم بين يديه ولده خليل فضرب بعض العبيد ، فاجتمعوا عليه وقتلوه ثم قتلوا والده « الدمر » « عندما حاول انقاذه وقتلوا أبناء بعض كبار التجار . ووصل الخبر الى القاهرة فغضب السلطان الناصر محمد وعظم عليه الأمر وامتنع عن الأكل على السماط أياما ، ثم جرد ستمائة فارس وأرسل الى الشام

---

(١) ابن بهادر : فتوح النصر ج ١ ورقة ٢٤١ .
العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٧١٨ ، ٧١٩ هـ .
المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٧٥ ، ١٨٠ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ١٣٦ .
العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٧٢٠ هـ .
ابن بهادر : فتوح النصر ج ١ ورقة ٢٤٥ .
المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٠٣ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ٧٥ .
المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٨٠ .

(٤) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ١٤٩ .
ابن الوردى : تتمة المختصر ج ٢ ص ٢٩٤ .
النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ١٠٦ .

أن يجرد مثل ذلك ، وعزم على أن يخرب مكة ويقتل ويأسر أمراءها ، فوقف فى وجهه قاضى القضاة القزوينى وقال : « هذا حرم قد أخبر الله عنه أن من دخله كان آمنا ، وشرفه الله ٠٠ فرد عليه جوابا فى غضب » ٠ فلما سكت عنه الغضب رجع الى رأى جلا الدين القزوينى ، واكتفى باعتذار عطيفة وقسمه أنه لا يد له فيما كان(١) ٠

وفى سنتى ٧٤٣ ، ٧٤٤هـ اشتبك أمير الجاج المصرى مع الأشراف بمكة ، وقتل فى الاصطدامات كثير من الناس ، ولم يتم النصر لأحد الفريقين(٢) ٠ وعلم السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن الرجل القوى فى مكة هو عجلان بن رميثة فخلع عليه وأمره ليعيد الأمور الى نصابها(٣) ٠ وفى أيام الناصر حسن (٧٤٨ — ٧٥٢ هـ) حاول الملك المجاهد صاحب اليمن أن يستعيد ما كان للرسوليين من نفوذ فى الحرمين ، فحج الى مكة وأشيع أنه يريد أن يكسو الكعبة ، فتنكر له المصريون ، فقاتلهم ، لكنهم هزموه ، فتفرق عنه جنده ، وأسر على يد الأمير « طاز » أمير الجاج ثم سيق مقيدا الى مصر حيث نظر اليه كواحد من صغار الأمراء وطولب بفدية ضخمة قيل أنها بلغت أربعمائة ألف دينار ، ثم أعيد بعدها الى بلاده مع تهديد بالقتل اذا حاول أن يحرك ساكنا ضد مصر(٤) ٠

ولما لم يستطع السلطان أن يقنع عجلان بالاشتراك مع أخيه ثقبة فى امارة مكة ، أرسل جندا سنة ٧٥٢هـ ليطرده ويولوا ثقبة بمفرده ٠ ثم انتهى الأمر برضاهما بالاشتراك فى الامارة(٥) ٠ ثم عاد النزاع بين الطرفين وظهر ضعف ثقبة وقلة حيلته ، فأمر الصالح (٧٥٢ — ٧٥٥هـ) بعزله ، وافراد عجلان بالامارة(٦) ٠

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٧ — ٣٨ ٠
ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٤٩ — ١٥٢ ٠
ابن بهادر : فتوح النصر ج ١ ورقة ١٦٢ — ١٦٣ ٠
العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٧٣٠ هـ ٠

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٦٨٥ ٠

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٧٠٤ ٠

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ١١٨ ٠
محى الدين : الأرج المسكى ورقة ٤٩ ٠
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢٢٦ — ٢٣٠ ٠
المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٨٣١ ٠
ابن بهادر : فتوح النصر ج ١ ورقة ٢٩٧ ٠

(٥) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٨٥٢ ٠
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢٦٤ ٠

(٦) المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٢١ ٠

وفى سنة (٧٦١هـ) غادر ثقبة جدة التى كان يقيم بها مصمما على الانتقام من المماليك ، فحاصر (قندس) الأمير المصرى للركب الرجبى فى ذلك العام وأسره مع جماعة من أصحابه ، ثم عرضوا للبيع بأبخس الأثمان(١) ٠

وكان السلطان المملوكى فى ذلك الحين هو الناصر حسن (٧٥٥ ــ ٧٦٢ هـ) فغضب أشد الغضب ، وحاول أن يقضى على نظام الوراثة فى امارة مكة ، وأن يخرج الحسينيين منها ، ويرى أبو المحاسن أنه كاد يتم له ذلك بسهولة وسرعة ، لولا ثورة يلبغا عليه ، ثم خلعه عن السلطنة(٢) ٠

واستقل عجلان بن رميثة فترة من الزمن ــ بعد وفاة ثقبة سنة ٧٦٢هـ ــ لانشغال دولة المماليك بالصراع الداخلى ٠ فدعى عجلان لأويس بن حسن المغولى عدة سنين وحصل على مساعدات اقتصادية منه ، وحسنت حال مكة فى زمنه(٣) . واستمر فى استقلاله حتى توفى فى سنة (٧٧٧ هـ) (٤) ٠ وسار ابنه أحمد بسيرته فاحتفظ لمكة برخائها واستقلالها حتى وفاته سنة (٧٨٨هـ) ٠

وفى سنة ٧٨٨هـ تجددت الفتن بمكة لوثوب باطنيين على الأمير الجديد محمد ابن أحمد بن عجلان وقتله ، وقيل أن السلطان برقوق هو الذى دس القتلة عندما كان الشريف محمد يقبل خف جمل المحمل حسب العادة المتبعة فى مراسيم استقبال المحمل كل عام ٠ فتشيع أمير الحاج المصرى لعنان بن مغامس عدو العجلانيين وقاتلهم الى جانبه حتى استطاع عنان الاستيلاء على مكة(٥) ٠

الحجاز ودولة الجراكسة :

وسقطت دولة المماليك الأولى ، وقامت دولة الجراكسة ، التى كان أول سلاطينها برقوق (٧٨٤ ــ ٧٩٠هـ و ٧٩٠ ــ ٨٠١هـ) ٠ وفى عهد هذه الدولة طرأت تغيرات على العلاقة بين مصر والحجاز ٠ يمكننا أن نوردها فى نقاط محددة :

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٣١٦ ٠
المقريزى : السلوك جـ ٣ ورقة ٩٤ ٠

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٣١٧ ٠

(٣) ابن حجر : أنباء الغمر جـ ١ ص ٨٢ ٠

(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ١١٥ ٠

(٥) محى الدين : الأرج المسكى ورقة ٤٩ ٠

١ ـ خف المظهر الدينى للعلاقة ، وقوى شأن الطابع الاقتصادى التجارى البحت، فلم يهتم برقوق ومن بعده ، بمن يتولى أو يعزل ، بقدر ما اهتموا بأمن شواطىء ينبع وجدة وطرق القوافل التى تخترق الحجاز وتجعل من مكة سوقا تجاريا هاما ، خصوصا أن سلاطين الجراكسة لجأوا الى أسلوب جديد فى جمع الأموال وتقوية موارد الدولة اذ احتكروا بعض السلع التجارية الهامة ، وكانمن همهم حماية هذا الاحتكار وايجاد الأسواق للسلع المحتكرة ولن يكون ذلك الا بموانىء وطرق آمنة(١) ٠

٢ ـ أدت محاولة السلاطين للحفاظ على الأمن اللازم لازدهار التجارة الى الاهتمام بتولية أمير قوى يستطيع ضرب الفتن وقطاع الطرق وينظم التجارة ويجمع تحت قيادته أمرة الحجاز كله ، بحيث يسهل على السلاطين أن يصدروا أوامرهم الى جهة واحدة معينة ، كى لا يتعدد الأمراء ، فتكثر القلاقل ، ويضطرب حبل الأمن ٠ وكانت مكة أقوى مدن الحجاز ـ كما أسلفنا ـ لذا فقد سيطرت منذ القديم على ينبع وجدة والطائف ، وان شددت مصر قبضتها على المدينتين الأوليتين لموقعهما التجارى الهام على الشاطىء ٠ وظلت « المدينة » التى كان يتولاها الفرع الآخر من أسرة على بن أبى طالب رضى الله عنه الى فرع « الحسينيين » عقبة فى طريق هذا التوحيد ٠ فعمد السلاطين الى تفويض أمرها الى أمير مكة ٠ يقول السخاوى : « كان وصل لعجلان اثر قدومه للمدينة توقيع من صاحب مصر بامرتها بعد وفاة أخيه ثابت ، بشرط رضى الشريف حسن بن عجلان » ٠ وحسن بن عجلان كان وقتذاك أمير مكة(٢) ٠ يقول السمهودى : « اتفق فى سنة احدى عشر وثمانمائة أن فوض الناصر فرج (٨٠٧ ـ ٨١٣هـ) الحسن بن عجلان الحسنى سلطنة المملكة الحجازية كلها والنظر فى امرة المدينة(٣) ٠

٣ ـ كان الطابع الاقتصادى الذى غلب على دولة المماليك الجراكسة ، وما فعلوه من جمع الأموال بكل طريقة مشروعة وغير مشروعة ، مؤثرا هاما فى العلاقات بين مصر والحجاز فقد صارت الرشوة عاملا هاما من عوامل العزل

---

(١) حكيم امين : دولة المماليك الثانية ص ١٥٥ ، من ذلك ان السلطان فرج لم يجد غضاضة فى الموافقة على الدعوة لصاحب اليمن على منابر مكة توثيقا للروابط الاقتصادية بين القطرين ٠
(محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ١٥٨)

(٢) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ٣ ص ٤٠٨ ٠

(٣) السمهودى : خلاصة الوفاء ، حوادث سنة ٨١١ هـ ٠
العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٨١١ هـ ٠

والتولية ، وبعد أن كان قبول الهدية من أمير مكة يعتبر تفضلا من السلطان وتنازلا صارت الأموال أيام المماليك البرجية شرطا هاما من شروط التولية، وسببا هاما من أسباب العزل(١) ٠

وكانت نتيجة ذلك أن تولى الامارة الأغنياء من الأشراف(٢) ، وان صار هم الأمراء الجدد ارضاء سلاطين مصر ، ببذل المال الوفير وتقديم الهدايا ، دون أن يعلم السلاطين من أى طريق جاءت هذه الأموال وتلك الهدايا(٣) ٠ ثم تعدى الأمر بذل المال للسلاطين الى بذل المال فى الداخل ، فيدفع شريف ثرى الى آخر مبلغا من المال مقابل التنازل عن الامارة أو عن المطالبة بها(٤) ٠

عندما ولى الظاهر برقوق السلطنة (٧٨٤ ـ ٨٠١هـ) كانت امرة مكة مثار نزاع بين الشريف أحمد بن عجلان (توفى ٧٨٨ هـ) وابنى عمه حسن بن ثقبة وعنان بن مغامس ، فأشركهم فى امرة مكة ٠ لكن النزاع تجدد بين ابنى العم من ناحية ، والشريف أحمد من ناحية أخرى ٠ حتى تمكن السلطان من القضاء على أحمد بن عجلان بالسم سنة (٧٨٨هـ) ، ثم بعث من قتل ابنه الصغير بعده بمائة يوم(٥) ٠ لكن ابن مغامس وأنصاره لم يستطيعوا اعادة الأمور الى نصابها(٦) ٠

---

(١) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات جـ ٩ ق ١ ص ١٣٢ ٠
السخاوى : الضوء اللامع جـ ٣ ص ١٣ ، ١٠٣ ٠
المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٢٥١ ، ٥١٠ ٠
ابن فهد : اتحاف الورى ورقة ٣٨٥ ٠

(٢) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ١١٥ ٠
الفاسى : العقد الثمين جـ ٤ ص ١٥٤ ٠

(٣) الفاسى : العقد الثمين جـ ٦ ص ٦٩ ، ٨٨ ٠
ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٤ ص ٣٧٨ ٠
« ان العادة لم تزل من قديم الدهر فى جاهلية وفى اسلام ، ان الملوك تحمل الأموال الجزيلة الى مكة لتفرق فى اهلها ومجاوريها ، فانعكست الحقائق ، وصار المال يحمل ويلزم اشرافها بحمله » ٠
(المقريزى . السلوك جـ ٤ ورقة ٢٥١ ، ٢٥٧ ، ٥٤٠)

(٤) الفاسى : العقد الثمين جـ ٦ ص ٦٩ ـ ٧٠ ٠

(٥) المقريزى : السلوك جـ ٣ ورقة ٤٧٩ ـ ٤٨١ ٠
ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ٤٨١ ـ ٤٨٢ ٠
الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ٣٩٨ ، ٣١٩ ، جـ ٦ ص ٤٣٤ ، جـ ٧ ص ٨٥ ، ٨٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ٠
ابن حجر : انباء الغمر جـ ٥ ص ٥٠٥ ٠

(٦) ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ٥٠٥ ٠

فظهر عجزهم عن اخماد حركة ابن عجلان(١) ، الذى كان يريد الانتقام لابن أخيه والسيطرة على مكة ، وغزا العجلانيون جدة ونهبوا أموال التجار ، ثم حاولوا الاغارة على مكة ، بيد أنهم فشلوا فى احتلالها وقتل كبيش بن عجلان ، فلم يفت ذلك من عزيمة على بن عجلان اذ كان ذلك كافيا لأن يدرك السلطان ما بلغه من قوة فوافق على تعيينه أميرا مشاركا لعنان ٠

واستمرت قوة ابن عجلان فى التعاظم حتى اضطر عنان بن مغامس أن يفر الى مصر سنة (٧٩٠ هـ) حيث لقى من السلطان اعراضا وجفاء(٢) ٠

فلما عاد السلطان برقوق عام (٧٩٢هـ) الى الملك ، جدد الامارة لعنان بن مغامس لأن عنان كان فى سجن عدوه الملك الصالح حاجى بن الأشرف شعبان (٧٩٠ ــ ٧٩٢هـ) بالاسكندرية ولأنه بشره بعودة السلطنة اليه ٠ واشترط عليه برقوق أن يشترك فى الامارة مع على بن عجلان على أن يقيما خارج مكة ويتركا ادارة شئونها الداخلية لنوابهما ، ورأى أن يكون القواد مع عنان والأشراف مع على(٣) ٠ لكن أنصار على سيطروا على مكة عام (٧٩٤ هـ) وقطعوا الدعاء لعنان ، بل هموا بقتله ، فرأى السلطان برقوق أن يقوم بعمل حاسم فولى عليها بمفرده وحبس مغامس عام ٧٩٥ هـ(٤) ٠ ثم قتل على فى فتنة سنة ٧٨٧ هـ(٥) ، فأطلق السلطان سراح حسن بن عجلان الذى كان مسجونا لخلافه مع أخيه على ، وولاه امرة مكة بعد أن اشترط عليه شروطا تتصل بسلامة الحجاج وحماية التجارة(٦) ٠

---

(١) الفاسى : العقد الثمين جـ ٦ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ٠

(٢) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الاسلام ص ١٥ ٠

(٣) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات جـ ٩ ص ٧ ، ١٩ ٠
الفاسى : العقد الثمين جـ ٦ ص ٤٣٠ ٠

(٤) الفاسى : العقد الثمين جـ ٦ ص ٢١٢ ــ ٢١٣ ٠

(٥) ابن حجر : انباء الغمر ، حوادث سنة ٧٩٧ هـ ٠
ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ٥٠٥ ــ ٥٠٦ ٠
ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات جـ ٩ ص ٢١ ٠
الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ٢ ص ٢٤٨ ٠
المقريزى : السلوك جـ ٣ ورقة ٦٨٨ ، ٦٩٠ ، ٧٥٤ ٠
ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١٧١ ٠

(٦) Juer G.: Art Meca Ency. of Islam.,

وقد تمكن حسن بن عجلان أن يعيد الثقة الى التجار الخائفين . وأن يحافظ على الأمن وأن يكسب رضى السلطان وثنائه ، فأرسل السلطان له خلعتين سنة (٧٩٩ هـ) ثم تتالت عليه خلع من جاء بعد برقوق من السلاطين(١) . وظل على ولائه لبرقوق وابنه فرج وعظم شأنه واتسع سلطانه . وكان من مظاهر ذلك :

أولا — حصوله على مرسومين من السلطان فرج سنة ٨٠٢ هـ أحدهما ينص على عدم منع السلطان أمير مكة من الدعاء لسلطان اليمن توثيقا للروابط الاقتصادية بين اليمن والحجاز ، وثانيهما أنه ليس لأحد الأمراء الوافدين من مصر فى أثناء السنة (يد على صاحب مكة ولا حكم) . بل يعضدونه ويقرون كلمته ويعلون شأنه . وأوصى السلطان الجند بأن (ان لم يطع الأمير الشريف حسن ابن عجلان وخالف وطلبكم الشريف للقتال فقاتلوا الى جانب الشريف ضد الأمير(٢) .

ثانيا — أصبح نائبا للسلطان فى الحجاز كله ابتداء بسنة (٨١١ هـ) ولم يكن ذلك لأى من أمراء مكة قبله(٣) . وفى سنة (٨٠٩ هـ) كتب ابن عجلان الى السلطان فرج بن برقوق (٨٠٧ — ٨١٣ هـ) طالبا اليه أن يشرك معه فى الامارة ابنه بركات ، فأظهر السلطان رضاه عن الشريف حسن بن عجلان ، وأنه لا يقوم أحد مقامه ثم فوض اليه أن يفعل ما يشاء بشأن مشاركة ابنه له أو استنابته . ولم يكن لهذا الابن شىء من الأمر فى حياة والده كما لم يكن لابنه الآخر أحمد أى شىء أيضا مع أنه أشركه فى الامارة رسميا وباذن السلطان عام (٨١١ هـ) (٤) . ورمى من وراء ذلك أن يسد الطريق على أبناء الأشراف من بنى حسن وغيرهم ، فلا يطمحون بأبصارهم الى امارة مكة بعد وفاة حسن بن عجلان ، بالاضافة الى ما فى هذا الاشراك من مرانة وتجربة للشابين على شئون الحكم ودخائل السياسة(٥) . ويدلنا هذا كله على مبلغ قوة ابن عجلان تجاه السلاطين المماليك .

---

(١) ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ، حوادث سنة ٧٩٩ هـ .
الفاسى : العقد الثمين ج ٤ ص ٩٧ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج ٤ ص ٩٦ — ٩٧ .
Juer G.: Art Meca Ency. of Islam.,

(٣) السمهودى : خلاصة الوفاء ، حوادث سنة ٨١١ هـ .
العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٨١١ هـ .
الفاسى : العقد الثمين ج ٤ ص ١٠٥ .

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ١٣ .

(٥) حكيم أمين : دولة المماليك الثانية ص ١٥٥ — ١٥٨ .

ثالثا ـ بلغ حسن بن عجلان حدا عظيما من الثراء والجاه والنفوذ ، فاقتنى عددا كبيرا من المماليك كون بهم جيشا سنة (٨٠٣ هـ) ، فاستولى سنة (٨٠٥ هـ) على الذهب الموجود بمركب فى طريقه الى اليمن يملكه ابن القاضى برهان الدين ابراهيم بن عمر(١) ٠

رابعا ـ حاول غزو اليمن سنة ٨١٢ هـ ، وكانت هذه المحاولة سببا لغضب السلطان عليه لتخوفه من قوته ولما لقيه من خيبة فى طموحه وما ترتب على ذلك من اضطراب الأمن وانقطاع التجارة بسبب غضب ملك اليمن عليه ٠

ولئن فشل مشروعه لاحتلال اليمن ، فانه كان قد نجح ـ منذ عام ٨٠٤ هـ ـ فى السيطرة على (حلى بنى يعقوب) على حدود اليمن بعد وفاة أمير المنطقة (دريب بن أحمد بن عيسى) مقتولا فى حرب كانت بينه وبين « كنانة » فطرد حسن بن عجلان أخا الأمير المقتول وأناب عنه أخواله من بنى كنانة ثم عاد الى مكة(٢) ٠

ولم تخل العلاقات بين الشريف حسن بن عجلان والسلاطين الذين تولوا الأمر فى مصر أثناء ولايته بمكة من أزمات وفترات غضب وتهديد ٠ لكن ذلك كله كان ينتهى لمصلحة الشريف حسن لأنه جمع الى القوة الحنكة والثراء ٠ وكمثل على ذلك تلك الأزمة التى حدثت سنة (٨١٢ هـ) فى سلطنة فرج بن برقوق بسبب مطامع ابن عجلان فى اليمن وتجاهله لأوامر السلطان ولم ييأس الشريف حسن فظل يستعطف فرج ويسترضيه ويرشو حاشيته ويبعث اليه بالهدايا حتى رضى عنه وولى ابنه شريكا له وأعطاه لقب نائب السلطان بالحجاز(٣) ٠ وكالأزمة التى حدثت زمن المؤيد شيخ المحمودى (٨١٣ ـ ٨٢٤ هـ) لمسائل مالية ، ومطالب ، أراد المؤيد شيخ من ابن عجلان أن يحققها ، ولما لم يفعل عزله ، وعزل ابنيه سنة ٨١٩ هـ وولى الشريف رميثة بن محمد بن عجلان ، ثم هدأ الحال ، وعاد ابن عجلان وابناه الى الامارة مقابل مال تعهد بدفعه(٤) ٠ ثم كانت أزمة أخرى عام ٨٢٧ هـ زمن الأشرف برسباى (٨٢٥ ـ ٨٤١ هـ) أخرج أثناءها حسن

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ج ٦ ص ٤٤٠ ٠

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج ٤ ص ٩٧ ، ج ٦ ص ٧١ ٠

(٣) نفس المصدر ج ٤ ص ١٠٧ ـ ١١١ ٠

(٤) محى الدين : الأرج المسكى ورقة ٤٩ ٠

« أورد الفاسى فى العقد الثمين ج ٤ ص ١٣٠ رسالة من الناصر ملك اليمن الى الملك المؤيد يستعطفه فيها ليرضى عن ابنه عجلان (٨١٩ ـ ٨٢٠ هـ) وتدل هذه الرسالة على مكانة ابن عجلان ، فمنذ زمن غير طويل كان يحاول غزو اليمن وهو اليوم صديق حميم لملكها » ٠

ابن عجلان من مكة ، ثم عاد اليها فى العام التالى ، بعد أن تعهد بدفع مبلغ ضخم مقداره ثلاثين ألف دينار(١) . ثم توفى فى نفس العام (٨٢٩ هـ) (٢) وبوفاته انتهى عهد الأشراف الأقوياء ، الذين استطاعوا أن يحفظوا للحجاز شيئا من الاستقلال بشتى الأساليب ، ابتداء بأبى نمى ، ومرورا بعجلان وابنه أحمد ، وانتهاء بحسن بن عجلان ، وقد أدرك المؤرخون هذه الحقيقة فقال الفاسى : (ولم يكن لأحد من أمراء مكة بعد أحمد بن عجلان من الحشمة مثل ما كان للسيد حسن بن عجلان .. واتفق للسيد حسن مع بنى حسن من القوة عليهم ما لم يتفق لأحد ممن تقدم من أمراء مكة الأشراف من آل أبى نمى) (٣) .

والفاسى(٤) وهو مؤرخ معاصر أصيل يتحدث فى هذه الفترة عن سياسة السيد حسن بن عجلان الخارجية والداخلية ، ففى علاقاته الخارجية مع اليمن ومصر ، وبقية أمراء الحجاز كانت أساليبه تتنوع ، فالقوة تارة ، والدهاء تارة أخرى — والمال عندما لا تجدى القوة أو لا يفلح الدهاء — ونجاحه فى مختلف الأساليب ثبت له تلك الحشمة والمهابة التى يتحدث عنها الفاسى ، فكانت مصر وكانت اليمن وكان أمراء المدينة وينبع وجدة ، كانوا جميعا يحسبون لمكة حسابا فى سياستهم نحو الحجاز ، وأدركت السلطنة المملوكية — كما أدرك الرسوليون — أنه وان كانت للسيد حسن ميول استقلالية لا يمكن اغفالها ، لكنه يمتاز بشخصية قوية تضمن الأمن للتجارة وللحجاج ، ويتعذر ايجاد بديل لها ، لذا كانت اليمن تغضب ومصر تغضب ثم لا تجد اليمن ولا تجد مصر مناصا من أن ترضى وأن تعيد للسيد حسن ما سلبته منه راضية أو كارهة . لكنها فى الحالين مدركة أهميته فى تحقيق مصالحها ومصالح شعبه فى نفس الوقت ، أما فى السياسة الداخلية ، فقد اختلف أسلوبه ، وما كان يخشى أن يثور به سكان الحرم ولا أعراب البادية ، انما كان حسابه الأول وموضع اهتمامه هو أقرباؤه من أشراف بنى حسن ، وهم جميعا يريدون الامارة ولا يتورعون فى سبيل الوصول اليها عن ارتكاب أية جريمة باستثارة الأعراب أو رشوة سلاطين مصر واليمن(٥) .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٥١٠ .

(٢) نفس المصدر ورقة ٥٢٧ .

(٣) الفاسى : العقد الثمين ج ٤ ص ١٥٤ .

(٤) هو الامام تقى الدين محمد بن أحمد الحسينى الفاسى المكى (٧٧٥ — ٨٣٢ هـ) مؤلف : العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين وشفاء الغرام باخبار البلد الحرام والزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة ، وعجالة القرى للراغب فى تاريخ أم القرى .

(٥) Juer G. : Art Meca Ency. of Islam.,

وقد تلقى السيد حسن درسا قاسيا فى فتنة (٧٩٧ هـ) التى كانت صراعا على السلطة ، وذهب ضحيتها عشرات الأبرياء وقتل فيها أخوه على بن عجلان ، فمنذ ذلك الوقت اتبع ابن عجلان سياسة حازمة فى اخضاع أشراف بنى حسن ، (فاتفق له ـ كما يقول الفاسى ـ من القوة عليهم ما لم يتفق لأحد ممن تقدمه ٠٠) واستطاع بذلك أن يتجنب الموت قتلا وأن يحفظ الأمن للسكان والتجار والحجاج وان كان لا يخل الأمر من قلاقل فى سنوات (٨١٢ ، ٨١٧ ، ٨٦٩ ، ٨٢٧ هـ) ٠

ولا نستطيع ونحن نتعرض الخطوط العامة لسياسته أن نغفل أمرا هاما ، فقد كثر كلام المؤرخين حول تلك الرشاوى الضخمة التى كان حسن بن عجلان ينفذها الى صاحب اليمن وصاحب مصر وحول ذلك الثراء الفاحش الذى استطاع به أن يقتنى ضياعا وجيادا وجيشا من العبيد ٠ انه لا شك أن شعب الحجاز وحجاجه تحملوا الكثير من الأتاوات المالية والضرائب الغير عادية ، ليستطيع أن يتسع فى المعيشة وأن يرشو أسياده(١) ، ولا شك أن أسياده من المماليك خاصة لم يسكتوا على ذلك ، لأخذه الكثير من التجار ليحمى تجارتهم ، فيحفظ بذلك مصالحهم ، وقد أدرك ابن عجلان ما له على المماليك واليمنيين من اياد بيضاء بحمايته التجارة والتجار ، فكان يعمد الى نهب أموال التجار أو اهمال حمايتهم عندما تسوء العلاقات بينه وبين مصر واليمن ، فيضطر المصريون ويضطر اليمنيون أن يرضخوا للأمر الواقع فيجددون للشريف الرضى والامارة لكن ذلك الى حين ٠

وخلف بركات والده الحسن بن عجلان بعد وفاته سنة (٨٢٩ هـ) ووافق السلطان الأشرف برسباى (٨٢٥ ـ ٨٤١ هـ) بشرط أن يدفع للسلطان خمسة وعشرين ألف دينار ، كانت متبقية على أبيه ، وأن يحمل عشرة آلاف دينار كل سنة الى دار السلطنة بمصر ، وأن لا يتعرض لما يؤخذ بجدة من عشور بضائع التجار الواصلة من الهند وغيرها(٢) ٠

وربما عادت قسوة هذه الشروط الى سوء الأحوال المالية فى الدولة المملوكية ابان ذلك ، أو الى رغبة برسباى فى أن لا يتكرر عهد حسن بن عجلان بما فيه من استقلال وقوة ، ومجابهة للدولة المملوكية ٠ وفى كلتا الحالتين فالمغارم كانت مفروضة ولا مناص منها ٠

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ورقة ٦٤٤ ٠

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٤ ورقة ٥٢٧ ٠

ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٤ ورقة ٣٨٥ ٠

وظل الشريف بركات فى الامارة مدة طويلة لخضوعه للسلاطين فى كل ما يبتغونه منه ، وعلى الرغم من ذلك فانه عزل سنة (٨٤٤ هـ) لشك السلطان الظاهر جقمق فى ولائه(١) . وولى الامارة بعده أخوه على بن حسن بن عجلان لكنه لم يستمر طويلا فعزل سنة (٨٤٦ هـ) ، ثم مات مسجونا بالقاهرة سنة ٨٥٣ هـ(٢) .

وخلفه فى الامارة أبو القسم بن حسن بن عجلان ، غير أنه فى سنة ٨٥١ هـ حاول بركات أن يعود الى الامارة فنشب بين أتباعه وأتباع أبى القسم قتال عنيف فى وقفة عيد الأضحى كان النصر فيها للسيد بركات .

وقد تداول الامارة بعد ذلك أبناء وأحفاد عجلان الى أن كانت سلطنة الغورى (٩٠٧ هـ) دون أن تحدث أحداثا هامة فى مكة .

ثم بدأت فتنة الجازانى (٩٠٧ - ٩١١ هـ) وكانت صراعا بين السيد بركات ابن على بن بركات بن حسن بن عجلان ، وأخيه جازان على الامارة ، وامتدت الفتنة حتى تحولت الى ثورة على الحكم المملوكى ، ثم استطاع الجيش المصرى اخمادها (٩١١ هـ) بعد أن جرت دماء كثيرة ، وأعيد الشريف بركات الى الامارة وظل فيها حتى أدرك الفتح العثمانى (٩٢٣ هـ) .

أما تاريخ المدينة المنورة فى عهد الجراكسة ، فهو تابع فى الغالب لتاريخ مكة ، اذ استمرت الاسرة الحسينية فى الحكم ، بيد أن العنف ساد النزاعات بين الأمراء بسبب تدخل مصر ومكة فى العزل والتولية . لقد قامت الدولة الجركسية سنه (٧٨٤ هـ) وأمير المدينة جماز بن هبة بن جماز الذى ظل أميرا مدة طويلة حتى قتل سنة (٨١٢ هـ) (٣) ، وتخلل هذه المدة فترات كان فيها معزولا ومسجونا بمصر ابان الفتن التى كانت تنشب بين أفراد الأسرة على الامارة ، وقد وليها فى فترات عزل جماز ، محمد بن عطية ، ثم ثابت بن نعير . وتخلل العنف البالغ فترات العزل ومحاولات العودة ، فنهب ابن عطية المدينة(٤) .

---

(١) ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ حوادث سنة ٨٤٥ هـ .

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ج ٥ ص ٢١١ .
السخاوى : التبر المسبوك ص ١٤ - ١٥ .

(٣) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ١ ص ٤١٩ .
ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ حوادث سنة ٨١٢ هـ .
ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الاسلام - ورقة ٢٥ .

(٤) ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ١ حوادث سنة ٧٨٩ هـ .
المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٧٠٠ ، ٧٠٩ .

وفى سنة ٨١١ هـ أقام السلطان فرج بن برقوق (٨٠٦ ـ ٨١٣ هـ) حسن بن عجلان (٨٢٩ هـ) نائبا له فى الحجاز كله ، ففوض اليه ـ فيما فوض ـ أمر المدينة(١) فعين ابن عجلان الأمير عجلان بن نعير ، فثار به جماز بن هبة ، الأمير السابق ، ونهب المدينة ، لكنه قتل سنة (٨١٢ هـ) وولى بعد عجلان سليمان بن هبة بن جماز حتى سنة (٨١٢ هـ) الذى غضبت عليه مصر وسجنته بعد أن تعالت الشكوى منه ، فعزله المؤيد شيخ المحمودى (٨١٣ ـ ٨٢٤ هـ) وولى عزيز بن هيازع بن هبة بن جماز سنة (٨١٥ هـ) واستمر عزيز الى أن هرب فى ذى الحجة سنة (٨١٩ هـ) خوفا من القبض عليه(٢) . ثم أعيد عجلان ابن نعير الى الامارة بعد أن أطلق سراحه سنة ٨٢١ هـ(٣) . وجاء بعده أميرا على المدينة الشريف خشرم بن دوغان بن جعفر الحسينى ، والتزم دفع خمسة آلاف دينار للسلطنة(٤) . فلم يستطع الوفاء ، فأمر الأشرف برسباى (٨٢٥ ـ ٨٤١ هـ) بالقبض عليه ، وعين بدلا منه مانع بن على(٥) ، وتولى المدينة بعد ذلك كثرة من صغار الأمراء كانوا دائما أشبه بالدمى فى يد سلاطين مصر ، يضرب بعضهم ببعض ، ثم يولى من يدفع أكثر ، فاذا تساويا فى المقدار المعروض ، طلب اليهما أن يقتتلا والامارة لمن غلب(٦) .

فتن الحجاز وخلافاته فى دولة الجراكسة :

لقد استمرت الفتن والخلافات بالحجاز منذ قيام دولة المماليك الجركسية أواخر القرن الثامن الهجرى وحتى سقوطها على يد العثمانيين عام ٩٢٣ هـ . وتعتبر تلك استمرارا لما قبلها . ونلاحظ أن القسوة ازدادت فى حل المشاكل المعلقة ، فلو استثنينا الخصومة بين أولاد أبى نمى فى أوائل القرن الثامن الهجرى ،

---

(١) ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ حوادث سنة ٧٨٩ هـ .
المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٧٠٠ ، ٧٠٩ .

(٢) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ٣ ص ٨١ .
المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ١٤٢ .

(٣) المقريزى السلوك ج ٤ ورقة ٢٩٦ .
السخاوى : الضوء اللامع ج ٧ ص ١٤٥ .

(٤) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٥٣١ .

(٥) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٥٥٨ .
السخاوى : الضوء اللامع ج ٢ ص ١٧ .
العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٨٣٠ هـ .

(٦) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ١ ص ٤١٩ .

لا نجد معارك داخلية فى تاريخ الأشراف بالحجاز تضاهى تلك التى دارت بين بنى حسن وعجلان بمكة ، وآل شيحة ومنصور بالمدينة • ثم تمرد الجازانى فى أعوام (٩٠٧ ـ ٩١١ هـ) والذى تحول الى ثورة عارمة على السلطة المملوكية كلها • وربما عادت ضروب القسوة هذه الى تضاؤل روح العصبية القبلية التى كانت تشد أبناء العشيرة الى بعضهم بعضا ، وخفوت النزعة الدينية التى كانت تقف حائلا دون سفك الدم المحرم ، ثم سيطرة النزعات التجارية التى تتجاهل فى سبيل الوصول الى غاياتها شرف الوسيلة ، وكرامة الانسان • ويتحمل سلاطين المماليك البحرية قسطا كبيرا من المسئولية فى هذا الصدد • فقد تحولت الدولة فى عهدهم الى مجموعات من العصابات تتربص كل منها بالاخرى لتثب الى كرسى السلطة عندما تسنح لها الفرصة ، وساد منطق القرصنة علاقاتهم بالشعب ، فكان الاحتكار ، وكان العنف ، وتفشى أسلوب السلاطين فى الوصول الى الحكم فى أنحاء دولتهم منها الحجاز بوجه خاص •

ففى عام ٧٨٨ هـ وبعد موت أحمد بن عجلان مسموما بيد رجل دسه اليه السلطان ، فعمل برقوق مرة أخرى على توجيه الأحداث نحو الانفجار فى البيت الحرام ، فتآمر على قتل محمد بن أحمد بن عجلان الذى خلف والده(١) ، وتألم عمه كبيش لهذا ، فأعلن التمرد ودارت وقائع بينه وبين عنان بن مغامس ـ الأمير الجديد ـ استمرت سنوات ، وكانت خاتمتها مأساة سنة ٧٩٧ هـ التى راح ضحيتها عشرات الأبرياء وقتل قبلها وفيها كبيش وعلى بن عجلان(٢) •

وتتالت المحن على فترات أيام حسن بن عجلان (٧٩٧ ـ ٨٢٩ هـ) فعزل حسن مرارا سنة (٨١١ و ٨١٨ و ٨٢٧ هـ) (٣) • وأرسل كل من برسباى والمؤيد شيخ عدة حملات ، لعزل الشريف ، اما لقوته واما لأنه لم يدفع ما التزم ، واما لأنه اعتدى على التجار(٤) •

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ج ٧ ص ٨٦ •
محى الدين : الأرج المسكى ورقة ٤٩ •
ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٨١ •

(٢) ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ حوادث سنة ٧٩٧ هـ •
ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ج ٩ ص ٤١٣ •
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٤٤ ، ١٤٥ •
المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٢٠٧ •

(٣) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٤٦١ ، ٤٩١ •

(٤) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١٨١ ، ج ٤ ص ١٠٧ •

وزاد الطين بلة مطامع ابن عجلان التوسعية فقد وقع فى خلده أنه يستطيع أن يخضع اليمن ووصل الى (حلى بنى يعقوب) على حدودها فى سنة (٨٠٤ هـ) بعد أن خلف فى مكة الأمير بيسق الشيخى أمير الحاج المصرى ، حتى اذا رجع قامت فتنة بين الاثنين لشك كل منهما فى نيات صاحبه ، فقد ألغى بيسق الدعاء لصاحب اليمن ، وعاقب القاضى الشافعى بمكة بغير موجب ، وضرب بعض فقهاء الحرم وفراشيه ، وألزم بوابى المسجد تنظيف الطرقات من الأوساخ والقمامة ، كما أهان كثيرا من أهالى مكة ومنعهم من حمل السلاح وطرد الخاطئات والمخنثين وضرب حسن بن عجلان اجراءات بيسق كلها فاشتبكا فى قتال لقى الناس منه بلاء كثيرا وكانت الغلبة فيه لابن عجلان لوقوف السلطان الى جانبه • ويذكر صاحب « العقد الثمين » أن من أسباب الخلاف بين الشريف حسن بن عجلان والأمير بيسق أن الأخير خفض سعر الذهب عما قرره الأمير ، فشكا الناس ذلك الى الشريف حسن(١) •

وفى عهد الأشرف برسباى (٨٢٥ ـ ٨٤١ هـ) « أرسل الى مكة المشرفة عدة عساكر برا وبحرا واستولوا عليها ولم يقاومهم أحد من بنى حسن ولا غيرهم ، وساروا من مكة حتى قاربوا بلاد (حلى) فلم يتعرض لقتالهم أحد من الناس هيبة له • وعادوا الى مكة المشرفة سالمين وذلك فى سنة (٨٢٨ هـ) ، وفى ربيع الآخر منها وصلت طائفة من عسكر المنصور من مصر الى مكة(٢) » • ثم فى آخر عـام (٨٣١ هـ) وصلت حملة الى مكة لاسقاط المكوس التى حاول آل عجلان فرضها على التجار(٣) • وتكرر وصول العساكر سنة ٨٤٥ هـ تقوية للحامية التى رأى برسباى أن تستقر بمكة(٤) • وما لبثت هذه العساكر أن قبضت على شريف مكة الجديد على بن حسن بن عجلان(٥) •

وفى سنة ٨٤٦ هـ وصل الأمير سودون المحمدى الى جـدة ، فأخمد ثورة السيد بركات الأمير المعزول عن مكة فى العام السابق(٦) . ولم يتول الأمير الجديد الا بشروط تضعف من مركزه المالى(٧) •

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ج ٤ ص ٨٩ ـ ٩٨ •

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٢٠٢ •

(٣) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٥٨٣ •

(٤) ابن حجر : أنباء الغمر حوادث سنة ٨٤٥ هـ •
السخاوى : التبر المسبوك ص ١٤ ـ ١٥ •

(٥) السخاوى : الضوء اللامع ج ٥ ص ٢١١ •

(٦) السخاوى : التبر المسبوك ص ٤٦ •

(٧) نفس المصدر ص ٤٦ •

وفى سنة ٨٤٧ هـ كانت بمكة فتنة بين الأشراف لم تخمد الا بعد عناء ووساطات كثيرة(١) ٠

وتجددت المعارك بين الشريف بركات وابن أخيه أبى القاسم فأريقت دماء كثيرة(٢) ٠ وبعد قليل أرسلت تجريدة بقيادة (كزل السودونى) لغضب الظاهر جقمق (٨٤٢ ـ ٨٥٦ هـ) على صاحب مكة(٣) ٠

ونأتى الى عهد السلطان الغورى (٩٠٧ ـ ٩٢٢ هـ) حيث كانت ثورة الجازانى المشهورة (٩٠٧ ـ ٩١١ هـ) والجازانى هذا كان شريف مكة عام ٩٠٧ هـ ، وربما رام الاستقلال ، واحتاج الى المال ، فأيا كان الأمر ، فقد شاع جو من الشك بينه وبين أمير الركب المصرى فى موسم الحج وهو الأمير (أصطمر ابن ولى الدين(٤) ٠

واستعان اصطمر بالشريف بركات أخى الجازانى للقبض عليه ٠ فعلم الجازانى بما يدبر ضده ، فغادر مكة وجمع أعرابا قطع بهم طريق الحج بتعضيد من (يحى بن سبع) أمير ينبع و (مالك بن رومى) أمير خليص ، وجماعات كثيرة من عربان بنى ابراهيم بالحجاز وانهزم أصطمر والشريف بركات فنهب الجازانى ركب المحمل وعرى نساءه وأغرى بالعائدين الناجين الأعراب فلم يصل الى مصر من المنهزمين الا القليل ٠ فغضب الغورى أشد الغضب وعاقب أمير الركب وفقيهه ابن الشحنة(٥) ٠ وتعاظمت بعد هذا النصر قوة الجازانى فهزم أخاه بركات هزيمة منكرة للمرة الثانية عام ٩٠٨(٦) ٠ ثم جمع الأعراب وأغار على مكة فحكم فى أهلها السيف ونهب أموالهم وصادر ممتلكاتهم ٠ فسارع الغورى الى ارسال الأمير (قيت الرجبى) على رأس حملة فى موسم الحج (سنة ٩٠٩ هـ) واستطاع قيت أن يحرر مكة وأن يقبض على كثير من الأعراب وأن يأسر أخاه الجازانى ومنهم بركات وقايتباى ٠ أما الجازانى فقد فر هاربا واحتال الغورى له حتى قبض عليه فقتله سنة ٩١٠ هـ(٧) بيد أن أنصاره يحيى بن سبع وابن الرومى وعرب بنى

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك ص ٧٣ ـ ٧٤ ٠

(٢) نفس المصدر ص ١٨٦ ٠

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ج ٦ ص ٢٢٧ ٠

(٤) الجزيرى : درر الفوائد ص ٣٥٣ ـ ٣٥٥ ٠

(٥) شمس الدين محمد : مفاكهة الخلان ج ١ ص ٢٦١ ٠

(٦) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ ٠

(٧) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنوات ٩٠٧ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٥ ٠

ابراهيم استمروا فى عنتهم وفسادهم وبالغوا فى ذلك عـام ٩١١ هـ • وعزل الغورى يحيى بن سبع وولى مكانه هجار بن دراج ، وبعث بتجريده بقيـادة (خايربيك بن اينال) هزمت ابن سبع ، وقتلت أنصاره ثم تحالف مع الشريف بركات واخوته وشدد الطلب على ابن سبع حتى اشتبك معه فى معركة طاحنة عام ٩١٢ هـ فهزمه هزيمة نكراء • ثم عفى السلطان عن ابن سبع وأعاد الشريف بركات الى الامارة بمكة سنة ٩١٣ هـ(١) •

أما المدينة المنورة فقد وقعت فيها فتنة عام ٧٨٣ هـ عندما رفض نعير بن منصور أن ينصاع لأمر السلطان ويسلم المدينة لجماز بن هبة بن جماز(٢) •

ثم كانت فتنة ٧٨٩ هـ التى نهب فيهـا على بن عطية المدينـة الشريفة ، فغضب السلطان برقوق وأفرج عن ثابت بن نعير وقلده امرة المدينة(٣) •

واشتبك ابن نعير مع جماز بن هبة عندما حاصر المدينة الشريفة فى عـام ٧٩٥ هـ(٤) ، ثم أنه فى عام ٨١١ هـ عندما علم جماز بن هبة بولاية حسن بن عجلان للحجاز وعزله عن امارة المدينة عمد هذا الى نهب المسجد النبوى(٥) •

على أنه فى عام ٨٣٠ هـ قبض على الشريف خشرم ، لأنه لم يستطع أن يدفع ما التزمه حتى صار أميرا(٦) •

أما ينبع فكان يتولاها أمير حسنى بيد أنه ضعيف تابع رسمى لأمراء مكة ، وان خضع فعليا لمصر التى اهتمت بينبع لموقعها التجارى على البحر •

أما جدة فقد خضعت خضوعا مباشرا للسلطان وظلت تبعيتها لمكة اسمية ، لأهميتها البالغة كميناء فريد للتجارة فى طريق البحر الأحمر •

---

(١) محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى ص ١٠٦ ـ ١١٢ •

(٢) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ١ ص ٤١٩ •

(٣) ابن حجر : أنباء الغمر حوادث سنة ٧٨٩ هـ •
ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ج ٩ ص ٨ •
ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الاسلام ـ ورقة ٢٥ •

(٤) المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٧٠٩ •

(٥) العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٨١١ هـ •

(٦) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٥٥٨ •
السخاوى : التحفة اللطيفة ج ٢ ص ١٧ •
العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٨٣٠ هـ •

وقد خرج الحجاز من ثورة الجازانى (٩٠٧ ـ ٩١١ هـ) منهكا • وما كاد يفيق حتى كان العثمانيون يدكون السلطنة المملوكية فى مرج دابق (٩٢٢ هـ) وكانت نهاية المماليك فى مصر فى موقعة الريدانية (٩٢٣ هـ (١) حيث أسدل الستار على دولة المماليك بمقتل طومان باى وسيطرة العثمانيين على مصر والعالم العربى •

يتضح من هذا الفصل عدة ملاحظات هامة : ذلك أن الحجاز كان ينقسم الى امارات يتولى كل واحدة أمير يعينه السلطان وله حق عزله اذا خالف ما التزم به ، على أن السلطان لم يكن مطلق الاختيار فى تعيين أى أمير بل كان مقيدا بأن يكون أميرا مكة وينبع من العلويين الحسينيين ، وأمير المدينة من الحسينيين • وقد جاء المماليك فوجدوا نظام الأشراف الوراثى قد استقر ، فلم يحاولوا تغييره ، ومن فكر منهم فى ذلك لاقى صعوبات • وحالت دونه حوائل(٢) • واكتفى السلاطين بتشديد قبضتهم على جدة لأهميتها الخاصة من الناحية التجارية • وكانت لمكة السيطرة اقتصاديا وسياسيا على باقى الامارات وكانت هذه السيطرة تكتسب طابعا رسميا عندما يفوض السلطان الى أمير مكة أمر الامارات الأخرى • وتبقى مكة عاملا مؤثرا هاما فى مجريات الأمور فى المدينة وينبع وجـدة سواء أراد السلاطين أم لم يريدوا(٣) •

والى جانب الأمراء كان القضاة الذين يعينهم ويعزلهم السلطان ، ثم عمال الخراج وأمراء الحاميات المصرية ولم يكن تعيينهم أمرا لازما ، فقد يتولى أمير الامارة الخراج وقد لا تستطيع الدولة فى مصر ابقاء حامية ، وكانت طريقة السـلاطين المفضلة فى عزل أى أمير أو مكافأته هى استدعاؤه الى مصر ، لذا فقد كان كل أمير من هؤلاء عندما يستدعى يسترجع فى ذاكرته الأحداث القريبة الماضية ، وهل يدل شىء منها على غضب السلطان ؟ فان لم يلحظ شيئا من ذلك مضى الى مصر فاستقبل بحفاوة • أما ان كان مغضوبا عليه ، فأهون ما يمكن أن يحمل به أن يعزل عن الامارة ، ويتولاها غيره ، ويسجن فى مصر فترة تطول أو تقصر حسبما تقتضيه سياسة الدولة وقلما أمر السلطان بقتل أمير ، فقد يمكن استخدامه فى المستقبل لتهديد الأمير الجديد اذا حاول أن يعصى أوامر السلطان(٤) •

---

(١) ابن زنبل : آخرة المماليك ص ١٣٥ ـ ١٤٢ •

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٣١٦ ـ ٣١٧ •

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٢٣٣ وما بعدها •

(٤) سليمان عطيه : سياسة المماليك ص ١٠٨ •

وقد مضى أبو نمى مرارا الى مصر عندما كان مرضيا عنه(١) ، الا أنه رفض أن يمضى اليها عندما غضب عليه الأشرف خليل ، وخافه ولم ينجه من المأزق الذى كان سيقع فيه لو أطاع وسافر الا موت الأشرف خليل سنة ٦٩٣ هـ(٢) . وتكرر وفود الأشراف الى مصر أيام الدولتين المملوكيتين(٣) ، اما سعيا وراء الامارة ، أو سعيا للحفاظ عليهـا . فاذا كان السـلطان غاضبا انتهى الأمر بالوافد فى السجن(٤) ، وان كان مرضيا عن الوافد أكرمه وخلع عليه ، وقد يبلغ بالسلطان الرضى من طاعة أمراء الحجاز أن يبعث اليهم بالخلع دون حاجة الى قدومهم الى مصر . أما ان رفض الأمراء الحضور عند الأمر بذلك فان عاقبة هذا العصيان قد تكون وخيمة ، فلن يمضى وقت طويل حتى ترد قوة الى الحجاز لتجبر الأمير على الهرب الى خارج امارته أو تفلح فى القبض عليه واعادته الى مصر ، ليمكث مدة فى سجونها قد تطول أو تقصر تبعا لأهواء السلطان(٥) .

ومما يدخل فى مظاهر السيطرة المملوكية على الحجاز احتكام الأمراء الى السلطان المملوكى فيما يقع بينهم ، وكان هذا يقع غالبا عندما يعجز احداهما عن طرد الآخر ، أو عندما يخشيان تدخل السلطان لضربهما معا ، وقد كان مبرر بيبرس — كما أسلفنا — للتدخل فى شئون الحجاز الداخلية هو احتكام أميرى المدينة المتنازعين اليه(٦) ، ثم قيامه بدور الحكم بين أبى نمى وعمه ادريس(٧) . وتكرر هذا الاحتكام أيام أولاد أبى نمى(٨) ، ثم فى الصراع بين القواد وبنى حسن(٩) أيام الجراكسة ، وكان المنصور غالبا هو الذى تقف مصر الى جانبه ،

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٢٦ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٧٤٦ ، ٨٠٣ — ٨٠٤ .
عبد الرءوف احمد : الأشرف خليل ص ٤٥ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٦٨ ، ٢٧٩ ، ٣٣٣ ، ٣٨٣ ، ٤٦٣ ، ٧٠٤ ، ٨٥٦ ، ٩٠٧ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٣٢ — ٤٣٣ .

(٥) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ١٢٣ .

(٦) نفس المصدر ج ٢٨ ورقة ٦٤ .

(٧) الفاسى : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٠٢ .
ابن بهادر : فتوح النصر ج ١ ورقة ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٨) دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٩ .

(٩) ابن حجر : انباء الغمر ، حوادث سنة ٧٩٤ ، ٧٩٧ هـ .

لأنه زارها أولا أو لأنه قدم هدايا أكثر(١) ، أو لأنه أظهر ولاء عظيما للسلطان(٢) ، وسواء كان تدخل السلاطين للاصلاح أو للعزل أو للتولية ، فقد كان الهدف الأول والأخير من وراء ذلك الحفاظ على مصالح مصر الاقتصادية وهيبتها الدينية والسياسية ، أما الأمراء فى أشخاصهم فلم يكونوا مهمين بالنسبة للسلاطين ٠

واستخدم السلاطين الحجاز ومكة بالذات التى كانت تغص بالوافدين اليها للحج والمجاورة ، استخدموها منفى للذين غضبوا عليهم وأرادوا ابعادهم ، كما فعل السلطان برقوق بالأمير شمس الدين عندما نفاه سنة ٧٨٥ هـ(٣) الى مكة لغضبه عليه ٠ وفى سنة ٨٤٨ هـ أعاد السلطان القاضى عبد الباسط الذى كان قد نفاه الى مكة من قبل(٤) ٠ وفى سنة ٦٨٠ هـ نفى السلطان زين الدين استادار الى المدينة الشريفة بعد أن صادر منه عشرة آلاف دينار(٥) ٠ وفى ربيع الأول سنة ٨٧٩ هـ نفى السلطان قايتباى ، سودون المؤيدى الى مكة لاتهامه فى فتنة المماليك الجلبان(٦) ، وفى سنة ٨٨٧ هـ توفى الأمير خايربك بمكة وكان السلطان قد نفاه اليها(٧) ٠

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٣٨٥ ٠

(٢) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ج ٩ ص ٣٠٣ ٠

حاشية عن ابن الفرات :

« كان السلطان الظاهر برقوق طلب الشريف على بن عجلان صاحب مكة المشرفة وشريكه الشريف عنان بن مغامس ، فحضر الشريف عنان قبل الشريف على وكان الشريف على لما سار من مكة المشرفة ووصل الى بدر توجه من هناك الى المدينة المشرفة وزار النبى صلى الله عليه وسلم « وجمع قراء المدينة المشرفة وقراوا تجاه الحجرة الشريفة ربعة واهدى بركتها للسلطان الظاهر وكتب بذلك محضرا وتوجه الى الديار المصرية واحضر بصحبته هدايا نفيسة ٠٠٠ « ، وطبعا كانت الغلبة لعلى هذا لأنه عرف من اين يؤكل الكتف بالمال والدعوات » ٠

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ٢ ص ١٥١ ٠

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور حوادث سنة ٨٤٨ هـ ٠

(٥) نفس المصدر ، حوادث سنة ٨٦٠ هـ ٠

(٦) نفس المصدر ، حوادث سنة ٨٧٩ هـ ٠

(٧) نفس المصدر ، حوادث سنة ٨٨٧ هـ ٠

كان ايثار السلاطين للحرمين دون غيرهما منفى لبعدهما عن قلب الدولة ولسهولة مراقبة المنفيين بواسطة الحامية المصرية بالحجاز أو بعيون أمراء الحرمين الذين كانوا يلبون رغبات السلطان ويخشون غضبه ان أهملوا ٠

وعزلة الحرمين هذه هى التى دفعت السلطان سليم ـ عندما فتح مصر ـ الى التفكير فى نفى طومان باى الى مكة ضنا به أن يقتل(١) لولا أن أغراه به المملوكان الخائنان جان بردى الغزالى وخايربك(٢) ٠

---

(١) ابن زنبل : آخرة المماليك ص ١٤٢ ٠

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٩١ ٠

الفصل الثانى

العلاقات الدينية

العـــلاقات الدينيـــة

١ ـ طريق الحج والصعاب التى تواجه الحجاج فيه واصلاحه :

(وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشـــهدوا منـــافع لهم)

تلبية لهذا النداء الخالد ، يهب عشرات الألوف من المسلمين من بقاع العالم الاسلامى كافة ، فى أشهر معلومة من السنة الهجرية ، طائعين ملبين ، الى مهوى فؤاد كل مسلم وقطب الدائرة فى جغرافيته الاسلام ، مكة المكرمة ، ليؤدوا الركن الخامس من أركان الاسلام ، ويذكرون (الله فى أيام معدودات) يجتمعون فيها فى صعيد واحد ، فى وقت واحد ، وجمع واحد ، ودعاء واحد « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

وكانت أكثر قوافل الحاج وأكثرها انتظاما هى تلك التى تخرج من مصر والشام والعراق واليمن(١) . « وقد خرج من مدينة حلب محمل فى بعض السنين ومن الكرك أيضا وذلك بحكم الندرة ، فانه فى الغالب ان أهل حلب يحجون من الشام وكذلك أهل الكرك ولما كانت الخلافة العباسية فى بغداد ومعول أقاليم الاسلام على ما يصدر ويرد منها .. كان المحمل العراقى فى ذلك العصر أجمل المحامل ، فلما انقرضت دولة الخلافة ، انقطع المحمل وتأخر ، أما المحمل المصرى والشامى فسبيلها لم ينقطع(٢) » .

ويعنينا هنا من قوافل الحجاج هذه ، قافلة المحمل المصرى زمن المماليك ، وسنحدد الطرق التى يسلكها ومصـــاعبها والأدوات التى يحملها هـــذا الركب والنظام الذى يسير عليه .

والخروج من مصر الى مكة بقصد الحج يتم عن طريقين : أحدهما بحرى والآخر برى ، أما الطريق البحرى فنرى الحجاج يخرجون من القاهرة قبل شهر رمضان

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ص ١٨٤ .

(٢) الجزيرى : درر الفوائد ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨ .

ثم يسيرون الى قوص ، والمسافة بينهما وبين القاهرة ٦٤٠ كيلو مترا ، كانوا يقطعون منها ٢٦٠ كيلو مترا الى « عيذاب(١) » أو الى « القصير(٢) » نحو شهر من الزمان فى انتظار « الفلايك(٣) » تحملهم الى جدة(٤) ٠

« ولقد حج من هذا الطريق الرحالة ابن جبير سنة (٥٧٩ هـ) وقطع المسافة بين القاهرة وجدة فى نحو شهرين ونصف قضاهما فى أسوأ حال بين مشقات وأهوال مما هو مبين فى رحلته(٥) » ٠

وقبل أن يحج ابن جبير بعام واحد هدد الصليبيون طريق الحجاج وذلك حينما أراد أرناط صاحب حصن الكرك أن يقوم بحملة يغزو فيها الحرمين الشريفين ويحول الطريق التجارى ٠ ففى عام (٥٧٨ هـ) استولى على أيلة ونقل اليها أخشابا للسفن التى ستقله الى الحجاز وفى نفس الوقت هاجم عيذاب وقتل بها وسلب ، وكذلك سلب بعض المراكب التى كانت بالبحر الأحمر ، ثم اتجه بسفنه نحو الحوراء وكاد أن يصل الى الحجاز ويضرب العالم الاسلامى فى أغلى مقدساته ، لولا أن سارع نائب السلطان صلاح الدين بمصر بتجهيز حملة بقيادة حسام الدين

---

(١) (« عيذاب » ، مدينة على ساحل بحر جدة غير مسورة وأكثر بيوتها من الخوص وكانت من أعظم مراسى الدنيا بسبب ان مراكب الهند واليمن تحط فيها ٠٠٠ حتى تحولت التجارة الى ميناء عدن ، وعيذاب فى صحراء لا نبات فيها وكل ما يؤكل فيها مجلوب اليها وكان لأهلها من الحجاج والتجار فوائد لا تحصى ، وكان لهم على كل حمل يحملونه للحجاج ضريبة مقررة) ٠

(المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٠١)

ثم تضاءلت اهمية « عيذاب » بازدياد أهمية « القصير » وقل مرور الحجاج فنبضت مواردها وخربت ولا تزال انقاضها فى جنوب القصير بمسافة ١٠ كيلو مترات ٠

(البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٣١)

(٢) « القصير » على مقربة من « عيذاب » ، ازدادت اهميتها عندما تضاءلت اهمية عيذاب بسبب خليجها الطبيعى الذى يجعل مياهها فى مأمن من التغيرات البحرية ٠

(البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٣٩)

(٣) الفلايك : يسمونها جلابا ، واحدها جلبة ، وهى سفن صغيرة غير محكمة الصنع وشراعها فى الغالب من الحصير ٠

(البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٣٩)

(٤) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٢٩ — ٣١ ٠

(٥) نفس المرجع ص ٣٢ ٠

ابن جبير : الرحلة ص ٥٧ وما بعدها ٠

لؤلؤ تعقبت أرناط وحملته وأسرت بعض رجاله وعادت ظافرة منتصرة على فلول الصليبيين الذين راعتهم بسالة حسام الدين لؤلؤ وجيشه المظفر(١) ٠

وفى سنة (٧٢٥ هـ) أراد ابن بطوطة أن يؤدى فريضة الحج بطريق البحر ، غير أنه لم يجد مركبا يحمله من عيذاب الى جدة ، فاضطر أن يعود الى القاهرة ثم يسافر منها الى الشام فبغداد حيث صاحب المحمل العراقى الى البيت الحرام بعد مصاعب ومشاق واجهته(٢) ٠

ولقد آثرت شجر الدر أن تسافر الى مكة بطريق البر سنة ٦٤٥ هـ فاعتبرت أول مرتاد لهذا الطريق الذى صار هو الطريق الرئيسى للحجاج منذ أيام الظاهر بيبرس(٣) ٠

ويحدثنا المقريزى أن الطريق البحرى ازداد ازدهاره منذ أيام الشدة العظمى فى أيام الخليفة المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر (٤٢٧ — ٤٨٨ هـ) وانقطاع الحج فى البر ، واستمر الازدهار زيادة على مائتى سنة من سنوات بضع وخمسين وأربعمائة الى سنوات بضع وستين وستمائة(٤) ٠

وما كان عبور الحجاج البحر أمرا سهلا ، فقد كانت المراكب الشراعية ساذجة التركيب بدائية البناء ، تحطمها العواصف بسهولة ٠ أما المركب الذى تكتب له النجاة فتقذفه الرياح نحو الأجزاء البعيدة من الشاطىء — فيستغل التجار الفرصة ويقبلون على حمل الناجين على الجمال بأجور مرتفعة ويتعمدون أن يقودوهم الى أماكن نائية بعيدة عن موارد الماء فيهلك أكثرهم ويغنم هؤلاء ما بقى معهم من مال ومتاع ، (أما الذى يسلم بعد كل هذا فيدخل الى « عيذاب » كأنه نشر من كفن قد استحالت هيئاتهم وتغيرت صفاتهم) (٥) ٠

---

(١) ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ١ ص ٣٦٩ ٠
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٧٨ هـ ٠
سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٨٦ — ٧٨٨ ٠

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ص ٩٠ وما بعدها ٠

(٣) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٣١ ٠

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٠١ ٠
(حدث فى أيام المستنصر بمصر الغلاء الذى ما عهد مثله منذ زمن يوسف عليه السلام ودام سبع سنين حتى أكل الناس بعضهم بعضا) ٠
(أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٢٤١)

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٠٢ ٠

ولو اقتصر الأمر على أهوال البحر وعواصفه واستغلال التجار ، لكان هينا بعض الشيء ، لكن انضمت الى قسوة البحر قسوة عرب البجاة على الحجاج فى أسعار النقل وفى طريقة النقل ، فما أكثر ما كانوا يبالغون فى شحن المراكب بالناس حتى يزدحم بعضهم بعضا غير مبالين فى هذا السبيل أغرقوا أم نجوا ، مرددين عبارتهم القاسية المأثورة عندهم (عيلنا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح)(١).

اجتمع جبروت البحر وقسوة الانسان ليدفع القائمين على أمر الحج بين مصر والحجاز الى التفكير فى طريق أقل مشقة وأكثر أمنا · وكانت شجر الدر ـ كما قلنا ـ خطوة رائدة نبهت الأذهان الى أهمية الطريق البرى ·

وجاء الظاهر بيبرس فأخرج قافلة الحجاج بين مصر ومكة بطريق البر سنة (٦٦٧ هـ) فقل سلوك الحجاج بطريق البحر واستمر البحر طريقا للتجار من عيذاب الى قوص ، حتى بطل بعد سنة ستين وسبعمائة وتضاءل شأن قوص عند ذلك الحين(٢) ·

يخرج الركب من مصر الى مكة بطريق البر ، فينزل بركة الحاج ويقيم فيها بين الثلاثة والخمسة أيام ، ثم يرحل الى السويس ، ومنها الى نخل ، فالعقبة ، ثم يسير بحذاء البحر الأحمر حتى يجاوز جانبه الشمالى الى الجنوب ، ثم يرحل الى « حقل » فبئر « مدين » ثم ينزل الركب فى عدة منازل صغيرة حتى يصل الى « ينبع » « فبدر » فرابغ فخليص ، فبطن مر ، ثم يدخل مكة(٣) ·

وقد تناول الجزيرى فى مؤلفه « درر الفوائد المنظمة » هذا الطريق بالتفصيل ، وحدد منازل الحاج ، ذاكرا أقوال من وصف الطريق قبله ، ناقدا لها بمنظار عصره وخبرته ، اذ أنه كان يشغل منصب « كاتب ديوان الحج » منذ سنة ٩٤٤ هـ وشغل أبوه من قبله هذا المنصب منذ أوائل القرن العاشر ، فعرف الكثير من التفاصيل من والده ومن ورقع وظيفته(٤) ·

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٠٣ ·

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٢٠١ ·

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٨٥ ، ٣٨٦ ·
ابن جبير : الرحلة ص ٥٧ ، ٥٨ ·
الجزيرى : درر الفوائد ص ٤٧ · نظم بدر الدين بن جماعة قصيدة فى منازل الحج ·

(٤) Jaques Jomiero. La Mahmal. P. 110.

فبينما ينقل البتنونى صاحب كتاب (الرحلة الحجازية) أن الركب يجتمع بالقاهرة قبل شهر رمضان ثم يخرج منها ، يحدد الجزيرى وقتا لخروج الركب ما بين ١٤ و ٢٠ من شهر شوال(١) ٠

وفى صدد الاقامة « ببركة الحاج » يذكر ابن فضل الله العمرى فى « المسالك والممالك » أن الركب يقيم فيها ثلاثة أيام أو أربعة ، ويلاحظ « الجزيرى » أن العمرى يذكر ما كان يحصل فى وقته ، أما فى زمن الجزيرى وزمن والده ، نعنى فى أواخر العصر المملوكى وما بعده « فلا تنقص الاقامة فى بركة الحاج عن خمسة أيام ، ويرحل منها فى صبيحة اليوم السادس(٢) » ٠

كما أن الجزيرى يخالف العمرى حول أيام الاقامة بالعقبة ، فان الأول كان يحددها بثلاثة أيام ، والجزيرى يذكر أنها أربعة أو خمسة أيام(٣) ٠

أما عن ماء « مدين » فيرى العمرى أنه رديء ، كما يرى ذلك السيوطى فى مائها ، وماء أزلم(٤) ، ويخالفهما الجزيرى فيذكر عن ماء « مدين » أنه صادق الحلاوة والخفة ، وكثرة المكث فى القرب من غير تغير ، حتى أن من الناس من يحاكى به ماء النيل(٥) ٠

وكذا ماء أزلم ، ويعلل ذلك القصور فى معلومات العمرى وغيره ، بأنه يعود الى فترة تسبق تلك الاصلاحات التى قام بها الأمير المقدم الكبير الحاج ملك الجوكندار ، لذا فان الجزيرى يقول فى كتابه أنه أورد ما لم يورده أحد قبله فيما يتصل بطريق الحاج(٦) يبدأ الركب المصرى احرامه من « الجحفة(٧) » ٠

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٢ حوادث سنة ٧٤٠ هـ ص ٤٩٤ ٠
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٢٧ ٠

(٢) الجزيرى : درر الفوائد ص ٤٤٩ ٠
Jaques : Jomiero. La Mahomal P. 76.

(٣) الجزيرى : درر الفوائد ص ٤٤٩ ٠

(٤) نفس المصدر ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ ٠

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة ص ١٨٥ ٠

(٦) الجزيرى : درر الفوائد ص ٤٥٠ ـ ٤٥١ ٠

(٧) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٢٢ ٠

(الجحفة) : منزل عامر وبينها وبين البحر نحو ميلين وهى من الكبر ودوام العمارة نحو مدينة ٠ وليس بين مكة والمدينة منزل يستقل بالعمارة ، ولأهل سائر السنة مثلها وهى فى ديار طيء ٠٠٠ وبها نخيل وزرع قليلة وبها ماء ثافه ٠

على أنه وان كان الحجاج قد تحولوا عن طريق البحر الى طريق البر ، فقد ظل جزء من المؤن الاحتياطية يتلقاها الحجاج فى العقبة بطريق البحر ، لذا كانت أيلة سوقا كبيرة للماشية والمؤن(١) · وكذا الأمر بالنسبة لينبع فان الحجاج يقيمون فيها بعض الوقت حتى تصلهم السلع والمؤن التى ترسلها مصر وغيرها بطريق البحر(٢) ·

وبعد انقضاء مناسك الحج ينتظر الحاج اذن أمير مكة بالسفر ، فيبدأون بالرحيل الى « الصفراء » فذى الحليفة فالمدينة ، لزيارة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يرجع الركب الى « الصفراء » ليقطع الدهناء الى ينبع فى طريق العودة الى مصر · أما من لا يزور المدينة منهم فانه يبلغ بدر ثم يمضى نحو الدهناء فينبع(٣) ·

واذا كان الحجاج يذهبون فى حوالى العشرين من شوال(٤) يتقدمون عن هذا التاريخ أو يتأخرون أياما قليلة ـ فأنهم يعودون فى حوالى العشرين من محرم(٥) ·

وهناك ركب من نوع آخر ، ويأتى فى المرتبة الثانية من الأهمية ، هو ركب أو قافلة « رجب » ويسمى بالركب الرجبى أو ركب « الحجاج الرجبيين » · تأتى

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧ هـ ·
الجزيرى : درر الفوائد ص ٤٤٩ ـ ٤٥١ ·

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٥ ·
القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨ ·
ابن حوقل : صورة الأرض ص ٢٢ · (ينبع : حصن به نخيل وماء وزرع ··· وعلى شاطىء البحر وبقرب ينبع جبل رضوى) ·

(٣) الجزيرى : درر الفوائد ص ٤٥٠ ، ٤٥١ ·

(٤) ابن الفرات : تاريخه ج ٩ ق ١ ص ٢٣٤ ·
أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٢١٨ ·
المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٩٤ ·
Jaques : La Mahmal. P. 76.

(٥) أبو المحاسن : النجوم ج ١٢ ص ٣٢٢ ·

يذكر القلقشندى « وعادة أن الحجاج يقطعون فى كل يوم وليلة مرحلتين منها بسير الأثقال ودبيب الأقدام ، يقطعونها فى شهر بما فيه من أيام الاقامة بالعقبة وينبع نحو ستة أيام ··· » ، ويذكر الجزيرى أن عدد هذه المراحل نحو الستين مرحلة تقريبا · أما على الخيل فيمكن أن تقطع المسافة هذه فى احدى عشر يوما ·
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٨٥ ـ ٣٨٧)
و (الجزيرى : درر الفوائد ص ٤٤٩ وما بعدها)

هذه القافلة فى شهر رجب ، بطريق الحج العادى وتستمر حتى أيام الحج وتعود فى المحرم من الركب الرئيسى الا أن المؤرخين يغفلون الحديث عن هذه القافلة فى الكثير من السنين ، مما يدلنا على أنها لم تكن تمضى فى كل سنة ، وعلى أنها كانت فى المرتبة الثانية من الأهمية • والمقريزى يحدثنا عن قوافل من هذا النوع فى سنوات ٧٠٧ هـ ، ٧٢٠ هـ ، ٧٣٥ هـ ، ٧٤٩ هـ ، ٧٥٥ هـ ، ٧٦٠ هـ ، ٧٨٣ هـ ، ٨٢٧ هـ(١) • وقد تصادف مرور ثمانية عشر عاما لم يخرج فيها أحد للزيارة بشهر رجب(٢) • ويعود ذهاب هذه القافلة فى هذا الوقت المبكر الى أن هؤلاء يريدون أن يجدوا متسعا من الوقت للعمرة منفصلة عن الحج • ويذكر جاك Jaques سببين آخرين ثانويين يرى أنهما مساعدان فى اختيار هذا الميعاد المبكر للسفر :

١ ـ فيلاحظ أنه فى السنوات القمرية التى تكون بخلاف العادة « ٧٨٥ ، ٨٠٠ ، ٨٥٥ ، ٨٧٠ هـ » يتفق وجود شهر رجب فيها فى وسط السنة الشمسية ، حيث الحرارة المرتفعة ، وعلى العكس فان سنوات كثيرة من مواسم الحج الرجبى تظهر أن حجاج هذا السفر كانوا يسافرون فى الشتاء أو الخريف أو الربيع ، ولذلك فقد يكون البعض قد فضل أن يسبق اخوانه المسافرين فى شوال لهذا السبب من حرارة الجو أو للحيطة من الزحام ، حول عيون الماء فى السنوات الجافة .

٢ ـ أن مراكب التجار وقوافلهم القادمة من الجنوب كانت تمر بالحجاز قبل ذى الحجة بقليل ، وكان حاكم جدة يذهب بنفسه كل سنة للاشراف على تحصيل الرسوم الجمركية ، وذلك قبل شهر أو اثنين من موسم الحج الرجبى ، فربما كانت للتجار مصلحة بالتواجد قبل أيام الحج الرئيسية لترحيل البضائع النفيسة(٣) •

بيد أن هذين السببين ليسا الا تكهنا •

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٦١ ، ٩٠ ، ٩٤ •
السخاوى : التبر المسبوك ص ٦٧ حوادث سنة ٨٤٧ هـ •

(٢) Jaques : La Mahmal. P. 69.
ابن بطوطة : الرحلة (جرت عادتهم أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلال القمر) ص ١٠٣ •

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٨٢ •

وكانت طريق الحجيج مملوءة بالمشقة والأخطار بين القاهرة والحجاز ، لما كانت الطبيعة تلقيه فى سبيل الحجاج من شدائد الطبيعة التى كانت تفتك بسوادهم فى الطريق ، من حر الصيف وبرد الشتاء ، أو جفاف ماء الآبار فى هذه الصحراء المحرقة ، وما كان يدهمهم فيها من سيول(١) .

ففى سنة (٦٩٠هـ) أصاب الحجاج فى رجوعهم عند ثغرة « حامد » سيل عظيم أهلك خلقا كثيرة(٢) . وفى سنة (٦٩٢ هـ) عطش الحجاج بعجرود حتى بلغت القربة من الماء مائة درهم فضة(٣) .

وفى سنة (٧٩١ هـ) عطش الحجاج عند (نخل) ، فاستغل السقاءون الفرصة وباعوا قربة الماء بخمسين وستين درهما ، فاضطر من لا يملكون المال الى الرجوع من نخل الى غزة(٤) . ويبدو أن تلك السنة كانت غريبة بعض الشىء ، اذ رجع بعض الناس فى المرحلة الأولى من الطريق لاشتداد العطش ، ورجع بعضهم الآخر فى المرحلة الثانية لعظم السيول التى هطلت بعد ذلك ، يقول ابن الفرات فى تاريخه لحوادث سنة (٧٩١ هـ) « وحصل للحجاج وهم بمنزلة عقبة ايليا مطر عظيم بحيث أنه منع الحجاج من الرحيل والتصرف فى سائر الأعمال ... واستمر ذلك أياما ... وحصل للناس برد شديد وضعف بعضهم عن الحركة لشدة المرض(٥) » . وفى سنة (٨٦١ هـ) ورد الخبر من الحجاز بحصول عطش وقع للحجاج فيما بين (الوجه) و (أكرا) وحصل للناس جهد عظيم ومات منهم كثير ، بلغوا أكثر من مائتى حاج وعظم ذلك على الناس ، ويبدو أن القافلة خلت تماما من الماء لأن العطش كان عاما حتى بين أمراء الركب وكان حجاج المحمل أكثر عطشا وكان أميره ابن السلطان ومعه والدته وكان أكثر من فيه من الأغنياء ولكن لم يفدهم غناهم ، فان المال لم يزل وطأة العطش فى هذه المرة(٦) .

---

(١) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٢٣٨ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٣ .

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ١٦٤ .

(٤) ابن الفرات : تاريخه ج ٩ ق ٢ ص ٢٣٤ .

(٥) ابن الفرات : تاريخه ج ٩ ق ٢ ص ٢٤٩ .

(٦) أبو المحاسن : حوادث الأيام والدهور ج ٢ ص ٣٠٦ .

وليس معنى ذلك أن مرات العطش القليلة التى ذكرها المؤرخون هى التى حدثت فعلا فقط · فان المؤرخين لا يذكرون عادة الا الوقائع التى حدثت وترتبت عليها أمور مهمة كموت كثير من الناس ، أو رجوع الحجـاج من حيث أتوا ، وهم يقولون أحيانا « وكانت مشقة » أو « كانت شدة » وتحت هاتين الكلمتين تكمن مآسى كثيرة لحجاج عام الشدة أو المشقة ·

وفى مثل هذه الحالات كان السلاطين وكبار رجال الدولة يقومون باجراء سريع ، لانقاذ ما يمكن انقاذه ، بارسال قافلة تحمل ماء ، أو طعاما ان كان الجوع هو ما نزل بالحجاج(١) · ويبرز فى القرن التاسع الهجرى اسم الأمير (يشبك الدوادار) كمنقذ لهؤلاء المنهوكين ، ويبدو أنه اهتم كثيرا لآلام الحجاج ومشاكلهم ، ففى عام (٨٧٥هـ) قاسى الحجاج مشقة زائدة من العطش وموت الجمال ، فأرسل (يشبك) مؤنا وزادا الى المنكوبين من الحجاج ولقيتهم هذه الامدادات عند ينبع فأنقذت بقيتهم من الهلاك(٢) ·

وتكرر وصول مثل هذه الامدادات سنة (٩٠٧هـ) ويظهـر أن ارسـال الامدادات لتلقى الحاج فى العودة عند « الأزلم » صار تقليدا(٣) ، وان لم يتبع فى كل السنوات حتى اذا كانت سنة (٩٢٤هـ) قررت الدولة العثمانية أن تجعل الامدادات سنوية(٤) ·

كانت هذه اجراءات سريعة وطارئة يقوم بها السلاطين فى أوقات الظمـأ وقسوة الطبيعة ، كما كانت هناك سياسة دائمة لتحسين طريق الحاج ·

---

(١) فى عام (٧٨٠ هـ) انقطع كثير من الحجاج فى الطرقات جوعا ... وبلغت الويبـة الشعير خمسين درهما فضة ، ثم تزايد السعر حتى بلغت مائة درهم ، وعـلا عامة ما يباع ايضا ·

(ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ٢٢٥)

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٨٧٥ هـ ·

(٣) Jaques: La Mahmal. P. 85 - 86.

(٤) عجب الحجاج (٧٨٠ هـ) عندما وصلوا الى الأزلم ولم يجدوا كميات الشعير والبقسماط التى تحمل كل سنة فى مثل هذا الوقت لامدادهم ·

(ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ٢٢٥)

فقد اهتم السلاطين والأمراء باصلاحه واقامة المحطات عليه وحفر الآبار واسالة المياه منذ وقت مبكر ، اذ نقرأ عن شيء من ذلك أول ما نقرأ فى أوائل القرن السادس الهجرى(١) ٠

بيد أن الاصلاحات الكبرى فى الطريق البرى بين مصر والحجاز جرت أيام الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٨ ـ ٧٤١هـ) ٠ ففى عهده قام الأمير الكبير المقدم ملك الجوكندار باقامة مصانع وصهاريج وآبار ، بطول الطريق ، فأقام خانا للمسافرين وبئرا وساقية « بعجرود(٢) » ، وبنى أحواضا لسقى الحجاج ، وأقام خانا فى « الأزلم » وفجر ينبوعا فى « نخل » وكذا فعل فى « مدين » حتى حول ماءها من الرداءة الى العذوبة(٣)

وظل اصلاح الطريق بعد ذلك مستمرا ، فقام الأمير أرغون الناصرى ، باقامة « بركة » فى « خليص » لترودها دواب الحجاج(٤) ٠

وفى عهد الأشرف برسباى (٨٢٥ ـ ٨٤١هـ) أرسل الأمير شاهين الطويل، أحد أمراء العشرات ليسير الى طريق الحجاز ومعه كثير من البناة والفعلة والحجارين والآلات والأزواد والأمتعة لاصلاح المياه فيها بين القاهرة ومكة وحفر آبار فى الأماكن العطشة ففعل(٥) ٠

ثم جاء « عبد الباسط بن خليل » (فأصلح كثيرا من مسالك الحجاز ورتب سحابة تسير من كل من دمشق والقاهرة فى كل سنة برسم الفقراء والمنقطعين)(٦) .

---

(١) محمد صادق : دليل الحج ص ١٣ ٠
(البتنونى : الرحلة الحجازية ـ ص ٣٢)

(٢) عجرود : محطة قبيل السويس ، تبعد عنها الى الغرب ٢٠ كيلو مترا ٠
السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٥ ٠

(٣) الجزيرى : درر الفوائد ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ ٠

(٤) الجزيرى : درر الفوائد ص ٤٥١ ٠

(٥) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٦٥٢ ٠

(٦) السخاوى : التحفة اللطيفة ـ ج ٣ ص ٨٤ ، السحابة هى خيمة يستظل بها الحجاج عند نزولهم (الرشيدى : حسن الصفا ورقة ٣٧)

حاشية : « عبد الباسط هو ابن خليل بن ابراهيم الدمشقى القاهرى ، ناظر الجيش فى أيام الظاهر ططر فمن بعده كان عزيزا « رئيسا » نافذ الكلمة على الجاه واسع العطاء كبير الهمة أصلح كثيرا من مسالك الحج واهتم لشكوى الحجاج وكان متكلما على أوقاف كسوة الكعبة بمصر فعمرها ونماها الى أن فاضت وكثرت فى زمانه » ٠
(النهروالى : الاعلام ص ١٤٣)

وفى عهد قانصوه الغورى « ٩٠٧ ـ ٩٢٢ هـ » عمل السلطان على اصلاح منشآت الناصر محمد بن قلاوون ، فجدد الخان والبئر والساقية بـ « عجرود » عام (٩١٥ هـ) وبنى أحواضا تسقى الحاج ودوابهم(١) . وكان قد أرسل فى عام (٩١٤ هـ) الى العقبة بعثة أقامت فندقا عظيما وعدة أبراج وفساق لراحة الحاج ، وبنى رصيفا على البحر وأنشأ عدة مخازن لايداع الودائع وقد قام بهذه الأعمال « خايربك المعمار » مزودا بطائفة من المهندسين والبنائين . كما زودت هذه الانشاءات بطائفة من الجنود للحراسة تتجدد مرة فى كل عام(٢) .

وفى عهده ، أرسل الدوادار الكبير طومان باى ابن أخى السلطان الغورى أبقارا صالحة لادارة الدواليب فى عجرود ونخل للاستعانة بها فى ملء الأحواض المعدة لسفر الحجاج وغيرهم(٣) .

على أن هذا كله لم يكن كافيا ، وكانت كوارث العطش المميت تفقد المؤرخين ـ بله الحجاج المسافرين ـ صبرهم ، فيصبون نقمتم على سلاطين مصر لاهمالهم الحجاج هذا الاهمال الشنيع .

ففى « حوادث الأيام والدهور » بعد ذكر واقعة العطش الشديد عام (٨٥١ هـ) ، نقد عنيف لاهمال السلاطين وعدم تبصرهم ، فيرسل أبو المحاسن قلمه بعبارات ساخطة « وأنا أتعجب من ملوك مصر حيث تبلغهم مثل هذه الأخبار قديما وحديثا ، ولا يلتفت أحد منهم الى هذا المعنى السهل على الملوك ، ولو أن كل ملك من ملوك مصر صرف همته لعمارة منهل واحد بطريق الحج لصارت المناهل فى كل منزلة الى مكة حيث أمكن ظهور المياه متصلة ، وذلك أفضل مما تبنيه الملوك من المدارس والجوامع بالمدن والأمصار مما سيكون مصروفه أضعاف ما يصرف على المنهل(٤) » .

---

(١) محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى ص ٩٥ .

(٢) النهروالى : الأعلام ص ١٦٢ .

(٣) عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ص ١١٧ .

(٤) ابو المحاسن : حوادث الأيام والدهور ص ٣٠٦ .

ونحن لا نوافق المؤرخ فى أن السلاطين « لم يلتفتوا الى هذا المعنى » ، فقد فعلوا الكثير فى هذا الصدد ، لكنه لم يكن كافيا ، كما أننا لا نوافقه فى اقفال المدارس للصرف على المناهل ، فقد كان بوسع السلاطين أن يفعلوا هذا وذاك ، على أنه يبدو أن لسخط أبو المحاسن ما يبرره ، بسبب ما كان يحصل مما لا يمكن أن يتقبله المرء بهدوء ، فهو بعد أن يذكر نهب الحاج عام ٨٥٩ هـ يقول « وكل ذلك لعدم اهتمام السلطان » .

(حوادث الأيام والدهور ج ٢ ص ٢٢٢)

وانصافا للماليك الذين يتحملون الكثير فى سبيل اصلاح الطريق الى مكة ودفع الأموال لأمراء الحرمين والعربان بالطريق • فان أمراء الحرمين يجب أن لا نخرجهم من هذه المسئولية بل عليهم أن يتحملوا ولو جزءا يسيرا منها ، لذا فاننا لا يمكن أن نضع اللوم على الماليك وحدهم •

واذا نال الحجاج الكثير من التعب والهلاك من عاديات الزمان ، فانها كانت أقل قسوة ووحشية من الكوارث التى كانت تسببها اغارات الأعراب • فعندما كان البحر هو طريق حجاج مصر الى الحجاز كانوا يلقون الأمرين من عواصف البحر ، وبدائية المراكب التى لا تلبث الأمواج الصاخبة أن تخترقها وتبتلعها فى جوفها • غير أن جبروت العواصف البحرية ، كان يتضاءل أمام جبروت طواغيت التجار الذين كانوا يتلقفون بالناجين فيحملونهم على الجمال بأجر ضخم • بل لا يكتفون بذلك ، فيسلكون بهم على طريق ليس به ماء ، حتى ينال منهم الظمأ فيهلكون ، ويغنم التجار ما بقى معهم من مال ومتاع • أما أولئك الذين يسلمون — وقليل هم — فيرحلون الى عيذاب ، وهم — كما يصفهم المقريزى — « قد استحالت هيئاتهم وتبدلت صفاتهم(١) » •

أما أولئك الذين لم تنلهم العواصف ، فلا ينجون من قسوة أصحاب المراكب الشراعية الذين كانوا يحملونهم بأجور خيالية ، ويعمدون — فوق ذلك — الى حشد المراكب بالناس وتحميلهم أكثر مما يطيقون حمله ، سعيا نحو مزيد من المال حتى يبقى بعضهم فوق بعض ، وقد ضرب بالعرب البجاة فى هذا الصدد المثل فى القسوة وغلظ القلب(٢) •

البحر الهائج ، والتاجر القاسى ، حول الحجاج من طريق البحر الى طريق البر فهل انتهت مشاكلهم بذلك ؟

الأولى بالحق القول أنها بدأت بداية جديدة ، ولم تنته •

فالطبيعة هى الطبيعة ، لا ترحم ، حر وعطش ، وجدب مرة وسيول ، وصواعق وبرد مرة أخرى • فاذا أمكن اتقاء العطش والجوع بكثرة امدادات الماء والطعام ، واتقاء الحر والبرد بالاستظلال والاستدفاء فى الخيام والمنازل والخانات — وهى أمور جربها الحجاج كلها — فكيف يمكن تجنب هجمات الأعراب ؟

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٠٢ •

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٣ •

لقد أوضح « الجزيرى » السبل التى اتبعها المماليك ثم العثمانيون فى دفع شرور الأعراب ، فحدد أولا « قبائل » البدو ، التى يمر بها الحجاج فى ذهابهم وايابهم بين بركة الحاج ومكة ، وبالعكس ، ولتسهيل التحديد ، قسم طريق الحج الى أربع أرباع ذاكرا فى كل ربع قبائل الأعراب التى تحيط بالطريق أثناءه :

الربع الأول :

من صحراء القاهرة الى أيلة ، يسير فيه الحجاج خمسة عشر مرحلة ، وهو قليل الماء والشجر ، والمرحلة بين اثنى عشرة وأربع عشرة ساعة · وأكبر وأقوى القبائل فى هذا الربع هى قبيلتا « العائد » و « عطية » وبنو عطية بالذات « غالبهم أهل فساد ، وبعضهم أكثر فسادا من بعض » · لذا فلضبط أمير الحاج أطراف قوافله ولا يرحل الا بعد طلوع الفجر(١) ·

الربع الثانى :

وهو من أيلة الى الأزلم وهو أقصر الأرباع احد عشرة منزلة، وهو أكثر مياها من الذى قبله ، وشجره كثير الى الغاية ، وأشهر قبائله (الرشيدات) من بنى عطية(٢) ·

الربع الثالث :

بين الأزلم وينبع ، وهو ستة عشر مرحلة وأشهر قبائله (الأحامدة) من بلى وجهينة(٣) ·

الربع الرابع :

بين ينبع ومكة وهو ثلاث عشرة مرحلة ، أشهر قبائله (بنو ابراهيم) · وبقية الطريق بين المدينة ومكة يأمن الحاج فى خفارة أمراء مكة والمدينة(٤) ·

---

(١) الجزيرى : درر الفوائد ص ٩٠ و ٤٨٢ ·

(٢) نفس المصدر ص ٥٠١ و ٥٠٢ ·

(٣) نفس المصدر ص ٥٢٥ ـ ٥٣١ ·

(٤) الجزيرى : درر الفوائد ص ٥٣٨ · كان أمراء مكة والمدينة يستخدمون الأعراب فى الخفارة ويدفعون لهم مقابل ذلك مبالغ معينة ، غير أنها كانت توزع عليهم غالبا بطريقة غير عادلة أو لا توزع بتاتا ، فيثور لذلك الأعراب ، فيصبون نقمتهم على الحجاج ·
(ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ٢٢٥)
(الشيخ عجيب : سياحتى الى الحجاز ص ٣٦٩)
(محمد صادق : دليل الحج ص ٣٦)

كان هؤلاء الأعراب الذين ذكرهم الجزيرى مصدرا دائما من مصادر القلق للحجاج وأمراء الحج ، ولم يكونوا يهتمون فى سبيل الوصول الى ما يريدونه من مال ومتاع ما يزهق من أرواح وما يترتب على ذلك من مآسى · ففى سنة (٧٩٢هـ) هاجموا طائفة منفردة من الحجاج العائدين ، كانت تسير بين الركبين الأول والثانى و « نهبوهم وقتلوا منهم جماعة»(١) · ولم تصل اليهم النجدة الا بعد فوات الأوان ·

وفى سنة (٨٥٩ هـ) وفى نفس المكان السابق (الوجه) اجتمع على الحجاج العطش والمرض وهجوم الأعراب · حتى « أخذ فى هذه السنة خلائق لا تحصى ·· أخذ الركب التكرورى بأكمله ··· أما المغاربة فتقاتلوا مع العرب قتالا عظيما ·· وهذا شىء لم يسمع بمثله فى هذه الأيام ، وكل ذلك لعدم اكتراث السلطان بأمر الحـاج » (٢) ·

أما فى سنة (٨٧٢ هـ) فقد اشتبك الحجاج مع الأعراب « فخرج بعض الحجاج وسلبوا عن آخرهم ··· وأخذ الركب الغزاوى مع جميع ما كان فيه ··· وساعد الناس بعضهم بعضا ، ومات من فرغ أجله ··· وبالجملة قاسى الحجاج فى هذه السنة محنة عظيمة » (٣) ·

وبين سنة (٩٠٧ هـ ــ ٩١٠ هـ) ، قام أعراب « بنى ابراهيم » بين ينبع والمدينة بكثير من الأعمال الشائنة ، حتى أصدر السلطان الغورى أمرا بعدم السفر للحج عام (٩٠٩ هـ) ·

وكان الأعراب يتعمدون مهاجمة الحجاج وقطع الطريق أثناء العودة ، لما يكون بينهم من تجار يحملون بضائع وأموالا جمة ·

ان خير وسيلة لتجنب سرقة شىء ثمين ، أن نقيم ممن نشك فيه حارسا لذلك الشىء · وهـذا الحل هو الذى اختاره السـلاطين المماليك لاتقـاء شرور الأعراب · فأقاموا بعضهم خفراء فى أماكن سيطرتهم على طريق الحاج ، مقابل مبلغ كبير من المـال ، كما أعطوا البعض الآخر اتاوة سنوية ، دونما مقـابل ، واتخذوا فريقا ثالثا فوادا للجمال التى تنقل الحبوب والامدادات ·

---

(١) ابن الفرات : تاريخه جـ ٩ ق ١ ص ٢٣٨ ·

(٢) ابو المحاسن : حوادث الأيام والدهور جـ ٢ ص ٢٢٢ ·

(٣) المصدر السابق جـ ٣ ص ٥٤٨ ، جـ ٤ ص ٦٤٠ ، ٦٥٥ ·

أما الربع الأول من الطريق بين بركة الحاج وأيلة ، فقد جعل السلاطين خفارته لأقوى قبائل الطريق من بطون « العائد » و « عطية » وهم (الوحيدات) و (المساعيد) و (الرتيمات) و (الترابين) · وكان لكل طائفة من هؤلاء اثنان وأربعون دينارا ما زالت تزداد حتى بلغت الخمسمائة دينار(١) ·

وأما الربع الثانى من الطريق ، فخفراؤه بطن (الرشيدات) من قبيلة (بنى عطية) الكبيرة و (المسالمة) من بنى عقبة ، و (المساعيد) من بنى عقبة · ولهم جميعا « المرتبات الوافرة »(٢) · وللمساعيد خاصة « مائتان وعشرون دينارا غير التشاريف السلطانية »(٣) ·

والربع الثالث خفراؤه (أحامدة) بلى و (بنو حسن) من «جهينة» وغيرهما من بطون القبيلتين الكبيرتين بلى وجهينة · ولهم على ذلك أموال ومؤن(٤) ·

أما الربع الرابع بين ينبع ومكة ، فيحرسها لبعض الوقت « بنو ابراهيم » ثم يحميها رجال أميرى المدينة ومكة(٥) ·

وبالاضافة الى الأموال التى كان يأخذها الأعراب من أمير الحاج ، فقد كانت لهم هدايا « مفروضة » يورد الجزيرى بها ثبتا فى بعض السنوات وهى : ١٢٧ ثوبا من القماش (جوخ) و ١٠٥ معطفا(٦) و ١١ قطعة من الموسلين (شاش) ·

أما عربان (الحمل) للحبوب والامدادات من الدقيق والبقسماط وغيرها ، فهم غالبا عربان (الخفارة) فى أرباع الطريق الأربعة · أما فى ينبع فان أميرها ملزم بتقديم الجمال والرجال ، وللأحمال خفراء يتقاضون من ثلاثين نصف الى خمس وعشرين من الفضة ·أما أصحاب الجمال وقوادها فيتقاضون ثلاثين نصفا لكل جمل(٧) · ولزعيم القبيلة التى تحمل ممثلون فى المحطات الهامة ، هم صلة الوصل بين رئيس ديوان الحاج وأمين القبيلة(٨) ·

---

(١) الجزيرى : درر الفوائد ص ٤٩٧ ·

(٢) نفس المصدر ص ٥٠٩ ·

(٣) نفس المصدر ص ٥١٢ ·

(٤) نفس المصدر ص ٥٣١ ·

(٥) نفس المصدر ص ٥٣٨ ·

(٦) Jaques : La Mahmal. P. 93 - 95.

(٧) الجزيرى : درر الفوائد ص ٤١٦ ـ ٤١٩ ·

(٨) نفس المصدر ص ٥٣٨ ·

ورغم ذلك ، فقد بقيت للأعراب مطالب ، وبقيت لهم على الحجيج غارات عندما يرون أن النهب وقطع الطريق سيكسبهم أكثر مما تكسبهم طاعة السلطان . وكثيرا ما نمى بطن من بطون قبيلة لم يكن السلاطين يحسبون له حسابا ، فقطع الطريق ونهب الحاج دون أن يستطيع خفراء الحج من البطون الأخرى كفه عن ذلك ، حتى يضطر أمير الحاج الى اعطاء زعمائه ما يرضيهم . وعاث أعراب « بنى ابراهيم » فسادا فى طريق الحج منتهزين فرصة الفوضى التى أحدثتها ثورة الجازانى فى سنة (٩٠٧ - ٩١١ هـ) حتى أوقع بهم عسكر السلطان وقتل أكثرهم وضرب ديارهم(١) .

وبعد ، فهل أثرت الكوارث المتتابعة التى أنزلها الزمان والانسان على الحجاج المسلمين وحماسهم ؟ . وهل حالت دون أن يحج عشرات الألوف كل عام ؟ « كل ذلك كان يحصل لحجاج بيت الله الحرام والناس لا يمنعهم عنه مانع ، ولم يسمع أنهم انقطعوا فى سنة من السنين ... »(٢) .

وكأنما توقعوا أن يموت منهم الكثير ، وأن يجرح منهم الكثير ،وأن تحف طريقهم الكوارث ، عندما سمعوا قول الله تعالى : « وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » أى أنهم يتواردون من جميع بقاع العالم الاسلامى كافة غير مبالين .

اذا كانت سفرة الحج ، هجرة الى الله ، تتجدد بها حياة المسلم . فما أن تهل الكعبة المشرفة ، حتى ينسى المسلم جوعه وينسى عريه وينسى ظمأه ، وينسى أحبابه الذين خلفهم فى أقاصى الأرض ، ليهتف مع عشرات ألوف الحناجر الهاتفة :

(لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ..)

فما أصغر الدنيا . وما أسرع ما تطوى - بما فيها من متاعب وعقبات - ليبقى هناك أمر واحد فقط ، وشخص واحد فقط ، انسان فى ثوب أبيض ، وبقلب أبيض ... يطوف حول البيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا .

---

(١) الجزيرى : درر الفوائد ص ٥٣٨ .

حاشية : كثرت كوارث البطش وهجمات الأعراب حتى صارت سنة « الأمن » سنة استثنائية أو غير مألوفة ، لذا ليس غريبا أن نقرأ فى مراجع تلك الفترة (فيها كان رخاء بمكة) ، ابن فهد : اتحاف الورى ورقة ٤٠٥ . أو (كانت من أطيب السنين وأكثرها خيرا ...) ، ابن الفرات ج ٩ ق ١ ص ٢٣ ، ص ١٤٤ . أو (قدم بقية الحجاج وأخبروا برخاء الأسعار) ، المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٩٤٠ . أو (وصل مبشر الحج وأخبر بالأمن والسلامة) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ١ ص ٥٧ .

(٢) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٢٣٨ .

٢ ـ تنظيم ركب المحمل :

يراد بالمحمل ، الجمل أو الجمال التى تحمل كسوة الكعبة ، ويضم (المحمل) مع قافلة الحجاج « ركب الحجاج(١) » . ويرى بعض المؤرخين أن تاريخ المحمل يبدأ من سنة (٦٤٥ هـ) ـ وهو العام الذى حجت فيه « شجر الدر » فى هودجها . وصار بعدها يسير سنويا أمام قافلة الحاج . وليس فيه من أحد لأن مكان الملوك ، لا يجلس فيه غيرهم . الا أن البتنونى يرى أن المحمل قديم جدا ، وربما كان من قبل الاسلام ، وكان يطلق على الجمل الذى يحمل الهدايا الى الكعبة المكرمة ، وقد سير الرسول صلى الله عليه وسلم محملا الى مكة بهداياه الى البيت المعظم(٢) . وكان المحمل أول الأمر عبارة عن « حمولة جمل » تتضمن هدايا وكسوة الكعبة . ثم نما المحمل نموا عظيما ، حتى بلغ ثقله قناطير مقنطرة استعمل لنقلها عشرون جملا وصار انتقال المحمل مع قافلة الحاج الى مكة من مصر عبارة عن انتقال مجتمع بأكمله ، معه الأمراء والجند والأئمة والمؤذنون والأدلاء والحجاج ورجال الادارة والمؤنة(٣) .

يتجمع الحجاج بالقاهرة ، وتعد الدولة الكسوة للكعبة ، حتى اذا كان منتصف شوال ، جلس السلطان بالميدان وعرضوا عليه كسوة الكعبة ، والبرقع ، وكسوة مقام ابراهيم ، والمحمل ، ثم يشقون القاهرة بصحبة المحمل يراه الناس ويتبركون به ويخرج أمام المحمل الأفيال الكبار حزينة وعلى ظهرها العناجق ، وأمامها الطبول والزمور ، وقضاة المحمل الأربعة وأمير الحاج وأعيان الحجاج(٤) .

وحينما يعد المحمل للخروج كان يدور بالقاهرة دورتين ، وقد كانت الدورة الأولى فى رجب وكانت بدايتها من عام (٦٧٥ هـ) على عهد الظاهر بيبرس والثانية فى شوال . وكانت الاولى اعلانا بأمن الطريق للحج ، وفيها ينادى المنادى بأن الطريق آمنة ومن أراد الحج فليتأهب . والاحتفال هذا كان من الاحتفالات المحببة الى النفوس حيث يحتفل الناس ليلة دوران المحمل ويخرجون للفرجة

---

(١) ركب الحاج : المعنى به الركب السلطانى الذى تصحبه الكسوة الشريفة للحرمين من جانب الامام الأعظم .

(الجزيرى : درر الفوائد ص ١٨٩)

(٢) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٤٠ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٩٤ .

الجزيرى : درر الفوائد ص ١٣٩ . ان عدد الجمال الحاملة للمحمل وتوابعه أيام الجراكسة كانت ثمانية وعشرين جملا .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩١٨ هـ .

عليه ، ويخرج المحمل فى الغالب يوم الاثنين أو الخميس ، ويبدأ موكبه من عند باب النصر ، وكان المماليك يلعبون برماحهم فى ملابسهم الحربية ، وفى هـذا الاحتفال كانت تضيع القيم الانسانية فيعتدى أوباش المماليك على الناس ويعم الهرج والمرج والفوضى · وطالب بعض المشايخ بازالة ذلك لتضرر الناس ، فأبطل ذلك السلطان الأشرف بعد تردد(١)·« ومع ما تجمع ضده من السخط لهذا العمل، مبررا ذلك بأنه حسم عادة الفساد ، فان اجتماع الناس فى الحوانيت ليلا ونهارا بحجـة التفرج على المحمل يتيح الفرصـة لاهل الفسـاد للاندسـاس بينهم والاساءة اليهم(٢) » ·

يبدأ المسير المنظم من بركة الحاج لركب المحمل والحجاج والجند والامراء ، وكان الركب يسير بغير نظام ، يتقدمه الأقوياء ويتأخر فيه الضعفاء · حتى اذا كانت (٨٠٩ هـ) وكان أمير الحاج « جمال الدين الاستادار(٣) » ، عمد الأمير الى تنظيم الركب بعد خروجه من « بركة الحاج » فجعلهم قطارين متحاذيين ، فاستمر نظامه بعده ، دون تغيير ، وكان هذا النظام يريح الحجاج من الزحام الشديد الذى كانوا يلقون منه الأمرين فى المضايق والطرق المنحدرة الوعرة ، وواظب الأمراء

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ٥٧ ـ ٥٨ ·
ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ج ٢ ص ١٤٥ ·
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٤١ ·
سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٨٠ ـ ١٨٣ ·

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٩٥ ـ ٩٦ ·

(٣) الاستادار : هـو جمال الدين يوسف بن أحمد بن جعفر بن جاسم كان باشـا أيام برقوق ، وعرف بعده بكثرة المال وقضاء حوائج الناس وصار « استادارا » للسلطان فرج بن برقوق سنة ٨٠٧ هـ ثم وزيرا سنة ٨٠٩ هـ وعظم شأنه حتى خاف السلطان على نفسه فقتله سنة ٨١٢ هـ ·

(الجزيرى : درر الفوائد ص ٩٣ ـ ٩٤)

الاستادار : وظيفة من وظائف أرباب السيوف يتولى صاحبها شئون بيت السلطان من المطابخ والشرابخاناه والحاشية والغلمان، وله مطلق التصرف فى استدعاء ما يحتاجه كل من فى بيت السلطان من النفقات والكساوى وما يجرى مجرى ذلك من المماليك وغيرهم ·

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ ، ج ٧ ص ٤٥٧)
(أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٢٢٢ ، حاشية « ١ »)
(سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٣٨٩)

بعد ذلك على زيادة (القطارات) كلما ازداد عدد الحجيج تلافيا للزحام حتى وصل عددها الى أربعة قطارات(١) ٠

واذا كانت قافلة المحمل تقسم الى صفوف بقصد تسهيل السير ، وتجنب الازدحام والانشقاق فى الطرق الصعبة ، فان المؤرخين يحدثوننا عن نوع آخر من التنظيم ، ينقسم بمقتضاه ركب الحاج الى قافلتين أو ركبين : فسمى احداهما « الركب الأول » ويسمى الآخر « ركب المحمل » والفاصل بينهما فى السير ذهابا وعودة يوم وليلة(٢) ٠

ويلاحظ المؤرخون أن هذا التقسيم بدا حوالى عام (٧٩٠ هـ) ثم ألغى أيام العثمانيين عام (٩٢٣ هـ) وليس محققا تماما الغرض من هذا التقسيم ٠ فقد ظن بعض المؤرخين أن الركب الاول كان تجريدة عسكرية تسير فى مقدمة ركب الحاج لاستكشاف الطريق وتذليل العقبات لكن الكتاب المعاصرين للركب يحدثوننا أن الركب الاول كان حجاجا أيضا « ففى عام (٧٩٥ هـ) حج بالناس الأميرين زين الدين عبد الرحيم بن الأمير سيف الدين منكلى أميرا للمحمل ، وكان أمير الركب الأول الأمير سيف الدين بيسق الشيخى، وحصل للناس فى عودتهم مشقة عظيمة بسبب موت الجمال ، وكان ان انفرد جماعة من الحجاج من الركب الاول ، وصاروا بين الركب الأول وبين ركب المحمل(٣) » ٠

ويدلنا هذا النص على أن الركب الاول ركب حجاج ، فربما كان الغرض من هذا التقسيم لتسهيل المسير ، واجتنباب مخاطر الزحام على المياه وفى مضايق الطرق ٠

ومن أجل هـذا السبب انقسم الحجاج الى ثلاثة قوافل تسهيلا للسـير ، خصوصا عندما يكون عدد الحجاج ضخما(٤) ٠ وربما كانت طريقة « التقطير » وهى ربط الجمال فى « قطار » فى المضايق وسيلة من وسائل كثيرة للحد من

---

(١) الجزيرى : درر الفوائد ص ٩١ ـ ٩٢ ٠
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٣٢ ٠
Jaques: La Mahmal. P. 94 - 95.

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٨٨٧ ، ٩٠٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ هـ ٠

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٨٨٧ ، ٩٠٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ هـ ٠
انه نهب عام ٩٠٥ هـ ٠
(ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩١٧ هـ)

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٢١٨ ٠

أضرار الاقتتال على العبور بسرعة(١) · وكان أمير الركب « الأول » أقل رتبة من أمير الحاج ، فقد كان غالبا أمير عشرة(٢) ، بينما كان أمير الحاج أمير مائة ، لذا فقد كان أمير الحاج هو القائد العام للقافلة كلها(٣) · وسنحاول أن نعرض بشيء من التفصيل لوظائف رجال الركب ولما يحتوى عليه الركب اعتمادا على «درر الفوائد» للجزيرى الذى اعتمد عليه « جاك » ولخصه فى دراسته عن المحمل ·

أولا ـ أمير الحاج :

منذ بدء الاسلام ، كان النظام مكفولا بوجود قائد للقافلة يسمى « أمير الحاج » وأحيانا كان الخليفة يقوم بهذه المهمة أو يختار شخصية كبيرة تحل محله(٤) · وفى أيام المماليك كان السلطان هو الذى يعين أمير الحاج فى كل سنة ، وقليلا ما كان هناك أمير واحد للحج لمدة سنتين(٥) · يطالعنا فى ذلك استقراء تواريخ مواسم الحج فى « بدائع الزهور » لابن اياس ، وفى « درر الفوائد » للجزيرى ، وفى « حسن الصفا » للرشيدى · ولم تكن امرة الحاج منصبا سهلا « فالحجاز على بعد مئات من الكيلو مترات من الأماكن المزروعة ، فلا اتصال بريدى منتظم ولا قوة بوليس مستمرة · وكان لا بد من وضع العطش فى الحسبان ، وقلة المعدات ، وموت الحيوانات ، والأمراض ، وسلب الأعراب ، وأحيانا المبادرات العدائية لحكام المدن المقدسة(٦) ·

لهذا كان كثيرا من المكلفين بامرة الحاج يعتذرون ، وقلما استجاب السلطان لهم ، فعلى الرغم من أنه اذا حالف النجاح أمير الحاج فان ذلك يرفع كثيرا من

---

(١) الجزيرى : درر الفوائد ص ١٠٠ ·

(٢) أمير عشرة : مرتبة حربية يكون فى خدمة صاحبها عشرة مماليك ويكون صغار الولاة من طبقة أمراء العشرات ·
(سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٣٩٣)

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩١٧ هـ

(٤) Jaques : La Mahmal. P. 76.

(٥) تولى امارة الحاج بين ٦٩٢ ـ ٦٩٤ هـ المجاهد آن قى بن العادل كتبغا المنصورى · الرشيدى « حسن الصفا » ورقة ٣٣ ·
وتولى الأمير قانصوا بن جركس امارة ركب المحمل ٩١٦ ـ ٩١٧ هـ ·
وتولى امارة الركب الأول فى نفس المدة نوروز التاجر المملوكى المعروف ، ابن اياس : بدائع الزهور حوادث سنة ٩١٦ ، ٩١٧ هـ ·

(٦) Jaques : La Mahal. P. 75.

قدره(١) وأن الفشل يتهدده فى كل خطوة من خطواته ، ففشله يترتب عليه كوارث ، يذهب ضحيتها مئات الحجاج ولا ينجو هو من سخط السلطان وعقابه(٢) ٠

وكان أمير الحاج عادة من أمراء المئات(٣) ، بيد أنه كانت هناك استثناءات فى بعض السنوات ، التى تولى فيها امرة الحاج ، أمير عشرة أو أمير الطلبخانة السلطانية ولم يكن الأمر فى مثل هذه الحالات يخلو من دهشة « عميقة » وأسى عند المواطنين والحجاج(٤) ٠ ولم يكن الحجاج سلبيين فى مواجهة أميرهم ، فانهم كانوا يعبرون عن سخطهم أو رضاهم عن تعيينه ، منذ أن يقوم السلطان بذلك أيام المولد النبوى ، وعندما يعود الركب من الحج فى المحرم من كل عام ٠ فيحدثنا « ابن اياس » أن الحجاج سخطوا على أمير الحج سنة (٨٩٩ هـ) فلم يثنوا عليه ولا حمدت سيرته فى هذه السفرة ، وحكوا عنه أمورا غير صالحة(٥) وكانوا أحيانا يرفعون رايات سوداء تعبيرا عن احتجاجهم على أمير الحج وتصرفاته ، بينما كانت الرايات البيضاء دليلا على الرضا والثناء عليه(٦) ٠

وقد حاول الجزيرى أن يحصر أسباب السخط على أمير الحج والرضا عنه بتحديد واجبات أمير الحج ، والصفات التى ينبغى أن يتحلى بها ، فاذا كان ذلك

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور حوادث سنة ٩٢٢ هـ ٠

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور حوادث سنة ٩٠٧ هـ ٠
الجزيرى : درر الفوائد ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣ ٠
الرشيدى : حسن الصفا ورقة ٤٦ ـ ٤٧ : كما وقع فى موسم الحج ٩٠٧ ، ٩٠٨ هـ عندما هاجم الجازانى الثائر الحجاج فانهزم أمير الحاج « اصطمر » فقتل كثير من الجنود والحجاج فانزل السلطان عقابا قاسيا بأمير الحاج وأمير الركب الأول وقاضى الركب ٠

(٣) أمير مئة : رتبة حربية خاصة بأرباب السيف وتقرن عادة بلقب مقدم ألف فيقال أمير مئة ومقدم ألف ٠ والمقصود بتلك التسمية المركبة وظيفة واحدة يكون فى خدمة حاملها مائة مملوك وهو فى نفس الوقت مقدم فى الحروب على ألف جندى من اجناد الحلقة وكان أصحاب هذه المرتبة أعلى مراتب الأمراء من عهد السلاجقة الى عهد المماليك بمصر ٠
(هامش السلوك جـ ١ ص ٢٣٩ تعليق د٠ زيادة)

(٤) Jaques: La Mahmal. P. 76.

(٥) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣٠ ورقة ١٤٠ : فى سنة ٧٢٠ هـ تجهز ركب الى الحجاز ٠ والمقدم على الركب بأمر السلطان الأمير جمال الدين عمر أحد مراء العشرات ٠
(ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٨٩٩ هـ)

(٦) « فلما رجع الحجاج الى القاهرة أثنوا بكل خير على عمر بن الملك المنصور أمير الركب وشالوا الرايات البيض فى وسط الرحلة بخلاف الأمير طحطباى أمير ركب المحمل » ٠
(ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩٢١ هـ)

رضى الحجاج عنه ورضى عنه السلطان ، وان خرج على الصفات الحميدة سخط الحجاج عليه ، ولقى غضب السلطان · ورأى اعتمادا على ما ذكره النووى فى مناسكه نقلا عن الماوردى وكلا المذكورين فقيه شافعى كبير ـ أن واجبات أمير الحاج هى :

١ ـ ضبط أطراف الركب فى السـير والنزول حتى لا يتفرق أفراده (فيخاف عليهم من المفسدين من العربان والسراق(١) · ثم حدد الجزيرى مواطن الخوف بطول الطريق بين مصر والحجاز ذاكرا أسماء القبائل البدوية التى تقيم حول طريق الحج فتتربص بالمارين ، قتلا أو سلبا · ان على الأمير أن يكون فى غاية التيقظ ويسأل أهل الخبرة والمعرفة بالدرب عن أهله وطرقه وممارسه ليكون على بصيرة فى سائر أموره ، وربما كان مفيدا أن تتقارب جماعات الركب وتلتئم أطرافه بحيث تسمع الاستغاثة ويرى الحجاج بعضهم حتى يؤمن تخطف البدو لهم فى الظلام(٢) ·

٢ ـ ترتيب الركب فى المسير والنزول واعطاء كل طائفة منهم محلا معروفا، حتى يعرف كل فريق منهم مكانه اقامة وسيرا لئلا يتنازعوا « وهذا الأمر ·· هو المسمى بالتقطير والتعقيب(٣) » وهو مهم فى تجنب الزحام والاصطدام فى الراحة والمسير والنزول على المياه ، وفى الطرق الوعرة والضيقة · والجزيرى يحمل فى هذا الصدد على الأمراء المهملين الذين أهملوا العناية بالحج ، كما أهملوا تنظيم الركب ، مما أدى ذلك الى القتال واسالة الدماء وان ينتصر القوى على الضعيف ، ثم يذكر تدبير جمال الدين الاستادار بتقسيم الركب الى خطين متوازيين ويرى هذا التدبير أنه خير من وجه وشر من وجه · أما خيره فراحة الناس من الزحام فى المضايق وأما شره فان الأقوياء يسيرون أولا فلا يستطيع أن يتقدمهم أحـد طوال طريقهم فيظلون فى عناء ، أما التعقيب بأن يسير الناس جماعة واحدة حتى اذا وصلوا الى المضايق ساروا خطا ، فان الجزيرى لا يرى رأى ابن فهد فى أنه خير وسيلة للسير لأنه يصلح اذا كان عدد الحجاج ضئيلا(٤) ·

ويبدو أن تنظيم الركب لم يصل فى أى وقت من الأوقات الى الحد المأمول ، الذى يؤمن للحجاج السرعة والراحة والأمن فى نفس الوقت ·

---

(١) الجزيرى : درر الفوائد ص ٨٩ ـ ٩٠ ·

(٢) الجزيرى : درر الفوائد ص ٩٠ ـ ٩١ ·

(٣) نفس المصدر ص ٩١ ·

(٤) نفس المصدر ص ٩١ ـ ٩٣ ·

٣ ـ الرفق بالحجاج فى أن يختار زمن السير ، فى وقت اعتدال الطقس ، فلا حرارة مرتفعة ، ولا برودة زائدة ، وان كان فيهم ضعفاء فيسير سير ضعيفهم ، ويشرف بنفسه على مرورهم فى المضايق ، ووورودهم على المياه وقيامهم للصلاة ، مع تجنب السرعة الزائدة بسير مرحلتين فى مرحلة واحدة(١) ٠

٤ ـ سلوك أوضح الطرق وأوسعها وأخفها ، بمعونة الادلاء والراحة فى وقت القيلولة(٢) ٠

٥ ـ ارتياد المياه والمراعى اذا قلت ، والاستعانة بذلك بثقات الادلاء من الاعراب وكان نقص الماء سببا رئيسيا من أسباب كوارث الحج(٣) ٠

٦ ـ حراسة الحجاج اذا نزلوا وحمايتهم اذا رحلوا حتى لا يتخطفهم متلصص ، ووضع الجند المرافقين للركب على أهبة الاستعداد فى « المحارى » التى تكون « طريقا » للمفسدين وقطاع الطرق(٤) ٠

٧ ـ قتال من يتعرض للحجاج اذا اقتضى الأمر والأفضل حل مثل هذه المشاكل بالمال ، اذا رضى الحجاج(٥) ٠

٨ ـ مداومة الاتصال بالحجاج أنفسهم للاستماع الى شكاواهم ونزعاتهم ، فان كانت الخصومة شرعية أحال المتخاصمين الى قاضى المحمل(٦) ٠

٩ ـ تأديب الجانى من الحجاج على أن لا يجاوز التعزير الى الحد ، ولا يقتل الا ما جوز الشارع قتله(٧) ٠

١٠ ـ الدقة فى الخروج من مصر والعودة اليها ، حتى لا يقلق الحجاج ولا من ينتظرونهم ، فيكون الخروج فى ١٨ شوال والعودة فى العشرين من محرم(٨) ٠

---

(١) الجزيرى : درر الفوائد ص ١٠١ ـ ١٠٢ ٠

(٢) نفس المصدر ص ١٠٢ ٠

(٣) نفس المصدر ص ١٠٤ ٠

(٤) نفس المصدر ص ١٠٤ ٠

(٥) نفس المصدر ص ١٠٦ ٠

(٦) نفس المصدر ص ١٠٧ ٠

(٧) نفس المصدر ص ١٠٨ ٠

(٨) نفس المصدر ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ٠

الى غير ذلك من الواجبات التكميلية ، كالاهتمام بالضعفاء والمرضى والفقراء ، مما يدخل بوجه أو بآخر تحت بند من البنود السابقة ٠

على أن مراعاة هذه الواجبات بدقة من ناحية الشكل غير كاف ٠ اذ لم يكن أمير الحاج مطاعا ذا رأى وشجاعة ، لذا فقد عظم سخط الجزيرى على ما انتهى اليه حال امرة الحاج من هوان « فصار يسعى فى هذه الامرة وفى مناصب بابها من ليس بمحبوب ولا مرغوب ، وقد تولاها كشاف الجسور ومن لا خبرة لديه بالامور، وأسافل الناس ونفر العسكر ٠٠ (١) » ٠

على أنه اذا كان واجبا ذكر ما آلت اليه حال امراء الحج فى عصر الجزيرى ، سعيا نحو الاصلاح فواجب أيضا ذكر محاسن وماثر بعض الامراء من الذين فهموا مقتضيات منصبهم الخطير حق الفهم ، وقاموا بواجباتهم خير قيام(٢) ٠

أما عن مخصصات أمير الحج المالية ، فليست لدينا معلومات عنها الا ما يتصل بأواخر العصر المملوكى ، ينقلها الجزيرى عن والده الذى عاصر الغورى وعرف ذلك عن كثب ، فكان يخص « أمير المحمل الشريف نقدية أشرفية ، معاملة ذلك الزمان احد عشر ألف دينار(٣) » منها عشرة آلاف مخصصة لتغطية كافة مصاريفه ، وألف لسداد أجرة جمال أمير الحاج ٠ وكان يسلم له بخلاف ذلك مائتى جمل للفرق التى تحمل التموين ، كما كان يأخذ ألف أردب من أجود القمح ، وألفى أردب من الفول ، كما كان يعطى له ملابس شرفية(٤) مكونة من سبعة قفاطين من الستان ومن (الكوامل) (٥) سبعة ٠

أما أمير الركب الاول فكان يحصل على أربعة آلاف وخمسمائة دينار ، منهم أربعة آلاف لمصاريفه وخمسمائة لسداد ثمن الجمال ، وكان يسلم اليه مائة جمل للفرقة التى تحمل التموين من الحبوب ، كما كان يأخذ خمسمائة أردب من القمح وألف أردب من الفول(٦) ٠

---

(١) نفس المصدر ص ٨٨ ـ ٨٩ ٠

(٢) نفس المصدر ص ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١١ ٠

(٣) نفس المصدر ص ١١٢ ٠

(٤) التشريفة : الخلعة أو الملابس المهداة من السلطان الى كبار الأمراء فى المناسبات خاصة أهمها التعيين فى الوظائف الكبرى ٠

(٥) الكاملية : وجمعها كومل نوع من الملابس الخارجية كالعباءة ٠
(سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤٤٢)

(٦) الجزيرى : درر الفوائد ص ١١٢ ٠

Jaques: La Mahmal. P. 79 - 80.

وطوال فترة السفر كان أمير الحج يتمتع بسلطات كثيرة · وكان يقود ركب الحجاج وسط الصحراء حسب ما يتراءى له · لكن الأمر كما ذكرنا من قبل لم يكن متروكا له كلية ، فان للرأى العام قيمته ، وتكون العودة عادة هى وقت تصفية الحساب ، وبناء على المشاعر التى تظهرها العامة سيتصرف السلطان ، فيثيب الأمير أو يعاقبه · وقد أساء بعض الأمراء استخدام سلطاتهم أحيانا كالأمير كزل العجمى ، الذى باع المـاء للحجاج بيعـار ، وجبى من الحاج مالا كثيرا حين اجتيازهم للمضايق(١) ، فصادر السلطان منه مبلغ عشرين ألف درهم ، وكان الأمير (قنصوه) الذى كان له تصرف مقيت اذ وضع يده على كل الجمال التى كان فى حاجة اليها تاركا أصحابها أو مستأجريها دون ركوب ، فاضطر هؤلاء الى العودة بطريق البحر(٢) · لكن الأمراء كانوا يسلكون غالبا مسلكا طيبا ·

ولأهمية هذا المنصب (امرة الحاج) حرص المؤرخون منذ الامام الطبرى صـاحب « تاريخ الرسل والملوك » على ذكر أمير الحاج فى كل سـنة · وجاء المؤرخون المتأخرون فأفردوا فصولا وكتبا فى هذا الموضوع · كالفصل الذى عقده الجزيرى فى كتابه « دور الفوائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة » بعنوان « فيمن ولى امرة الحاج ، من زمن المصطفى صلى الله عليه وسلم الى سنة ستين وتسعمائة » · والكتاب الذى كتبه الرشيدى باسم « حسن الصفا والابتهاج فيمن ولى امرة الحاج » وخصصه ليذكر من تولى امرة الحاج منذ السنوات الاولى للاسلام حتى سقوط الدولة المملوكية ، مع ذكر الاحداث التى كانت تقع أثناء الحج باختصار كالفتن والمجاعات والاوبئة وحجات السلاطين والامراء · وحرص المقريزى ، وابن تغرى بردى ، وابن اياس ، على ذكر اسم أمير الحاج ، ورأى العامة فيه فى كل سنة من سنوات الحج ·

وأبرز أمراء الحاج أيام المماليك « بكتمر الجوكندار » الذى كان أميرا للحج ، سنة (٧٠٠ هـ) وأنفق فى حجته خمسة وثلاثين ألف دينار ، وصنع معروفا كثيرا من جملته « أنه جهز مراكب فى بحر القلزم قد شحنها بالغلال والدقيق وأنواع الادام من العسل والسكر والزبيب والحلوى ، فوجد قد وصل ينبع ثلاث مراكب ، فعملهـا أكواما ونادى فى الحج ، من كان محتاجا الى مئونة أو حـلوى فليحضر ، فأتاه المحتاجون فلم يرد منهم أحدا(٣) » · وفعل مثل ذلك بجدة ·

---

(٢) الجزيرى : درر الفوائد ص ٩٢ ·
ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٨٩٩ هـ

(٢) Jaques: La Mahmal. P. 80.
وابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٨٩٩ هـ ·

(٣) الرشيدى : حسن الصفا ، ورقة ٣٢ ·
الجزيرى : درر الفوائد ص ٢٨٩ ·

والأمير سلار نائب السلطنة الذى حج بالحجاج سنة (٧٠٣ هـ) ومعه ثلاثون أميرا فأفضل على أهل الحرمين والحجاج حتى عم الجميع الخير ، فدعوا له « يا سلار كفاك الله شر النار(١) » ٠

وكذا الأمير سيف الدين يشبك الناصرى أمير الحاج سنة (٨٣٩ هـ) وقد أنفق آلاف الدنانير فى الصدقة على الحجاج والمجاورين وأهل الحرمين(٢) ٠

ثانيا ـ الموظفون الملحقون بقائد المحمل :

١ ـ الدوادار (سكرتير أمير الحج) (٣) :

وهو ضابط الاتصال بين القائد وبقية الموظفين ، وهو عين القائد المتصلة بالحجاج وهو المباشر الفعلى للواجبات المنوطة بأمير الحاج ، وهو الذى يقوم بالجولات الليلية لتفقد أمور الحاج ، والجزيرى يرى فى هذا الموظف سببا هاما من أسباب صلاح أمير الحج ـ ان كان صالحا ـ وسببا هاما من أسباب فساده اذا كان فاسدا ، لانه اليد المنفذة ٠ لذلك يطلب فيه الاتصاف باللين والامانة ٠ وكمثل سيىء يذكر الجزيرى قصة ذلك الدوادار ، الذى احتجز مخصصات أمراء الاعراب لنفسه حرصا وبخلا ونعى الجزيرى عليه فعله(٤) ٠ وللسكرتير هذا قفطان من قائد الحج ، وله مائة دينار (كعرف) وهو يستطيع الحصول على أموال من مواطن أخرى غير مشروعة(٥) ٠

٢ ـ قاضى المحمل :

وهو عربى الاصل مصرى يتسلم منصبه ابتداء ببركة الحاج ، وأمير الحاج هو الذى يوليه هذا المنصب ، وتحال اليه الامور الشرعية ٠ وهو يقضى بين المتخاصمين

---

(١) الرشيدى : حسن الصفا ، ورقة ٣٢ ٠
الجزيرى : درر الفوائد ص ٢٨٩ ٠

(٢) الرشيدى : حسن الصفا ، ورقة ٣٦ ٠
الجزيرى : درر الفوائد ص ٢٩٧ ٠

(٣) « الدوادار : أى ممسك الدواة : والوظيفة اسمها الدوادارية وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الأمير ويقوم بابلاغ الرسائل عنه وتقديمه للقصص والشكاوى اليه » ٠
(سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤١٦)

(٤) الجزيرى : درر الفوائد ص ١١٧ ـ ١٢٠ ٠
Jaques: La Mahmal. P. 108.

(٥) Jaques: La Mahmal. P. 109.

بحضور شهود المحمل وله الحق فى جمل من جمال المحمل ، وله مرتب معلوم ويسلم له قفطان مطرز بالذهب يسلم له قبل العرض الذى يتم بالقاهرة ابان السفر وله نصيب خاص من المئونة والطبخ طوال الرحلة ، ولبغله غذاء يومى أيضا(١) ٠

٣ ـ شاهدا المحمل :

وقد كان وجودهما قديم يتصل بوجود قاضى المحمل ، وكانا يحتفظان بمنصبهما غالبا فترة طويلة ، حتى تعجزهما الامراض والاصابات عن مواصلة السفر ، ولهما من الغذاء ما للقاضى من البسكويت والسكر والاطعمة الباردة والساخنة ، بيد أنه ليس لهما طعام للحيوانات(٢) ٠

٤ ـ كاتب ديوان الحج (سكرتير مكتب الحج) :

لم تكن اختصاصات هذا الموظف محددة بدقة أيام سلاطين المماليك، وبالتالى لم يكن مكتب الحج يسير على نظام ثابت ، وكل ما نعرفه عن مهام كاتب الديوان أنه كان يقوم أحيانا بضبط الصادر والوارد ٠ وفى نهاية فترة السلاطين المماليك تولى محمد بن عبد القادر الانصارى الجزيرى ـ والد عبد القادر بن محمد صاحب (كتاب درر الفوائد ـ هذا المنصب فحدد مهمته لبقائه فيه لمدة طويلة منذ أيام السلطان الغورى والى سنة (٩٤٤ هـ) تلك السنة التى خلفه فيها ابنه المؤرخ المذكور(٣) ٠

٥ ـ أمير أخور (مفتشى الخيول والجمال) :

ومهمته مراقبة الدواب بواسطة أعوانه فى الجهاز الذى يترأسه ، وهو يتبع مباشرة سكرتير أمير الحاج (دويدار) ويشرف بنفسه على الدواب ، التى تحمل حاجيات أمير الحاج ، ويشرف كذلك على بقية جمال القافلة ، وهو الذى يضبط وفيات الدواب ، وينزل عنها حمولتها وهو المسئول عن الاصابات فيها ، ويعاونه

---

(١) الجزيرى : درر الفوائد ص ١١٢ ـ ١٢٣ ٠

(٢) المرجع السابق ص ١٢٤ ٠
Jaques: La Mahmal. P. 110.

(٣) الجزيرى : درر الفوائد ص ١٢٥ ـ ١٣٠ ٠
Jaques: La Mahmal. P. 111 - 112.

رجلان أحدهما لضبط المئونة أثناء السير ، والآخر لتوزيعها عند النزول · وكان هذان الموظفان محل ريبة الجزيرى لاتهامهم بتأجير جمال الحج من الباطن للحجاج أجزاء من الطريق ، أو تحميل الجمال حاجيات الحجاج أثناء السير ، يحملون ما يشاؤون لصالحهم الخاص للاتجار به ، فيخونون بذلك مهمتهم ، كما أنهم يسيئون تغذية الحيوانات مما يؤدى الى موت كثير منها · وهم يحصلون على مرتباتهم من عائد الاتجار مع البدو اذ يقتسمون المبلغ مع الوسطاء وسكرتير مكتب الحج(١) · وللأمير أخور عوائد وهبات أخرى ، يطيل الجزيرى فى تعديدها(٢) ·

٦ ـ شاد المخازن (رئيس المخازن) :

وهذا الرجل يجب أن يكون موثوقا به ، له من التجربة ما يمكنه من تقدير ما يحتاج اليه فى الرحلة من مؤن ، ومع أنه ينبغى أن يكون حازما ، فان ذلك ليس معناه التطرف الى درجة الشح ، والا أثار تذمر الجند وهو يستطيع التلاعب فى الاقوات ببيعها الى الحجاج والتجار ان لم يكن أمينا ، وهو يوزع المخصصات بواسطة أعوانه والتوزيع قسمان : توزيع يتم أربع مرات طوال رحلة الحج وتوزيع آخر يومى(٣) ·

٧ ـ الكيلار (القبانى) :

وينبغى أن يكون هذا الرجل حى الضمير ، ضابطا لحساباته ، فى وزنه لحصص وأنصبة رجال حاشية أمير الحج وموظفى ديوانه(٤) ·

٨ ـ رئيس المئونة :

وينبغى أن يكون له صفات زميله وكيل المخازن ، من امانة وحزم واخلاص فى القيام بالواجب واشراف تام على توزيع ما يتسلمه من المخازن(٥) ·

---

(١) الجزيرى : درر الفوائد ص ١٣٢ ـ ١٣٣ ·
Jaques : La Mahmal. P. 112 - 113.

(٢) الجزيرى : درر الفوائد ص ١٣٢ ـ ١٣٣ ·

(٣) الجزيرى : درر الفوائد ص ١٣٤ ·
Jaques : La Mahmal. P. 113 - 114.

(٤) Jaques La Mahmal. P. 114.

(٥) Jaques : La Mahmal. P. 115.

وللمشرف على المؤن وزميله المشرف على المخازن وجبة البسكويت المعطاة كل ربع فى الطريق (١٦ رطل) ، كما كان يقبض بعض الدقيق ، ودنانير عينا ، لكن المقدار يختلف(١) ٠

٩ ـ شاد المطبخ (رئيس المطبخ) :

وهو يشرف على طبخ الطعام وأحوال المطبخ واختيار الاكلات ٠ وهو يقتسم مع الطباخين ثمن جلود الذبائح كما يأخذ أشياء من حكام مكة وينبع عندما يأتى هؤلاء بما هو مفروض عليهم احضاره لأمير الحج من الخراف(٢) ٠

١٠ ـ شاد السقائين (وكيل حاملى الماء) :

يشرف على ملء القرب وتوزيع محتوياتها وليس له مرتب ، ومكاسبه الظاهرة ضئيلة الا أنه يستطيع أن يكسب مالا محرما ببيعه الماء عند ندرته ٠ ويوجد تحت امرة أمير الحاج عدد من الجمال لحمل الماء يتراوح عددهم بين مائتين ومائتين وخمسين جملا تحمل مئات القرب وكانت صناعة القرب معروفة فى القدس وحلب وصفد لهذا الغرض ٠ كما أن هناك أحواضا محمولة على الابل توضع عند النزول ويصب فيها الماء(٣) ٠

١١ ـ شاد المحمل (وكيل المحمل) :

وكانت هذه الوظيفة تناط برجال من عامة الشعب ، ذوى نزعة دينية عميقة ، وهم متبرعون لا يتقاضون مرتبا ٠ لكن لهم الحق فى ركوب جمل والحصول على الطعام(٤) ٠

١٢ ـ المقدمون على جمال النفر (المهتمون بجمال خاصة أمير الحاج) :

وكان أمير الحاج هو الذى يعينهم ، وهم يقومون بتأمين الابل لشئون أمير الحاج ، وما يتصل بوظيفته وكانوا شديدى الفساد ، كما يشكو الجزيرى ،

---

(١) الجزيرى : درر الفوائد ص ١٣٤ ٠

(٢) نفس المصدر ص ١٣٦ ٠

(٣) نفس المصدر ص ١٣٧ ٠

(٤) نفس المصدر ص ١٣٧ ٠

فكثيرا ما يغتصبون الجمال من الحجاج بحجة حاجة الامير اليها، ثم يقومون بتأجيرها لحجاج آخرين أو يبيعونها لحسابهم(١) ٠

١٣ ـ مقدم الضوئية والغشامة (مدير الاضاءة) :

قائد حاملى المشاعل ، ويتبعه جهاز مسئول عن الحفاظ على السلاسل والأقفال والحدايد والاهتمام بأخشاب الوقود وتأمين الخشب للوقود والطبخ ، والمشاعل أنواع : وتستخدم لاضاءة قبة أمير الحاج وسكرتيره وهى توقد بالدهن ٠ والبعض بالخشب الذى يستعمل لمفتش الجمال ، وقائد الجند ، وحامل ختم السلطان وقائد الهودج ، ورئيس الخزائن ورئيس مخازن الذخيرة والسلاح ومرابط الخيل(٢) ٠

١٤ ـ مقدم الهجانة والشعارة (المسئولون عن الجمال ونقل الحبوب) :

ويشرف هذا القائد على الجهاز المسئول عن أكسية الجمال التى تتصف بشىء من الابهة باعتبارها جمال الحج ٠ وتعطى له بعض من الامانات ليحملها ويحافظ عليها لانه مسئول عن تسليمها ٠ ويجب على هذا أن يكون عاقلا أمينا خبيرا بأحوال الجمال ضابطا لما يتسلمه من الأسباب اليس مفرطا ولا مهملا للأشياء التى فى عهدته ٠ وعبارات الجزيرى هنا صعبة بعض الشىء لانها فى أكثرها فارسية وتركية(٣) ٠

---

(١) الجزيرى : درر الفوائد ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ٠

« أما جمال المحمل فعدتها ثمانية وعشرون جملا وتفصيلها : ما هو لحمل المحمل جمل واحد ولحمل الكسوة الشريفة والماء اربعة ، وللسقائين عن سقاية خدمة المحمل ستة ، ولحمل الحوائج التى ضمنها ثوب المحمل وغير ذلك جمل ، وللقاضى والشاهد جملان ، ولشاد المحمل جمل ، وللحكيم والمزين جمل ، والرقبة وهم جماعة الكوسات والزمار ستة ، وللضوئية عن المشاعل بالدليل والساقة والمحمل اربعة ، ولحمل الشقل واحتياج الفرش جمل ونصف جمل ، وباسم مهتار الطشت خاناه بخدمة امير الحاج نصف جمل » ٠

(الجزيرى : درر الفوائد ص ١٣٩)

(٢) نفس المصدر ص ١٤٨ ـ ١٤٩ ٠

(٣) نفس المصدر ص ١٥٠ ـ ١٥١ ٠

١٥ ـ مقدم القواصة (قائد العملاء الخصوصيين) :

وهم صلة الوصل بين أمير الحج وبدو الصحراء الذين يمر بهم ركب الحاج ويشيع بينهم الاختلاس والتواطؤ ضدهم · وعن طريقهم يجرى صرف طريقهم يجرى صرف مخصصات البدو لاجتياز الطريق والخفارة ونقل الحبوب مخصصات البدو لاجتياز الطريق والخفارة ونقل الحبوب والمؤن(١) ·

١٦ ـ الميقاتى والمؤذن :

ويعين الأول مواعيد الصلوات الخمس ، وجهة القبلة ، أما المؤذن فوظيفته الدعوة بالأذان للصلوات ، ولهذين الموظفين مخصصات نقدية وجلان لنقلهما(٢) ·

١٧ ـ الجرائحى (الرقابة الطبية) :

ويكون مع الركب عادة طبيب صحة ، وجراح ، وطبيب عيون ، وبعض الادوية والقطرات والمعقمات تحت طلب الحجاج وتصرف لهم الادوية دون مقابل وتكون أجرة هؤلاء الاطباء وقيمة هذه الادوية كلها على أمير الحاج وفى أواخر العصر المملوكى وبداية العصر العثمانى استغنى عن الاطباء فى الركب ، وقد تؤخذ بعض الأدوية دون أن يكون هنا مع المحمل طبيب(٣) ·

١٨ ـ مهتار الطشت خاناه (المشرف على الأوعية الجلدية) :

وهذا الرجل هو الذى يحتفظ بالماء فى أوعية لتقدم للوضوء · ويعمل على وقاية هذه الأوعية الجلدية (القرب) من التمزق والتلف والضياع(٤) ·

١٩ ـ مهتار الشراب خاناه (المشرف على الشراب) :

ومهمته تدبير المياه أيام الحر ومزجه بالسكر وتقديمه ، كما أنه يشرف على الأوعية الفضية والخزفية الخاصة بهذا الشراب(٥) ·

---

(١) الجزيرى : درر الفوائد ص ١٤٨ ـ ١٤٩ ·
Jaques: La Mahmal. P. 116 - 117.

(٢) الجزيرى : درر الفوائد ص ١٥٦ ·

(٣) المصدر السابق ص ١٥٧ ·

(٤) نفس المصدر ص ١٥٨ ·

(٥) نفس المصدر ص ١٦٠ ·

٢٠ ـ مهتار الفراشخاناه (الفراشون) :

وهؤلاء يشرفون على احضار أدوات النزول والاضاءة أثناء ذلك · فعند كل وصول أم رحيل ليلى كانت القافلة تشـع بالانوار فى مختلف أجزائها ، وان اختلفت قوة الاضاءة وعدد المصابيح باختلاف مقام الموظفين ، فيضاء لأمير الحاج سبعة مصابيح ، وتأتى بعده فرق الجند وبقية الموظفين · والمصابيح زيتية يقدم أمير الحاج وقودها · وكانت الاضاءة تستعمل لكشف ما حول القافلة بالليل كيلا يختطف أفرادها لصوص العربان ، وللاشعار بالوصول الى محطة راحة أو تموين . أما الاضـاءة الكبيرة فتستخدم فى المناسبات الخاصة ـ ولهؤلاء طعـام من أمير الحاج وكذا لبغل مشرفهم · أما مرتباتهم فضئيلة(١) ·

٢١ ـ الطباخون :

وهم كثيرى التحمل للمشاق · ولهم كبير يدعى (بالمعلم) ويقومون بتوزيع الطعام اذا قصد الركب الراحة ، فهم أكثر أهل الركب تعبا ، ويحصلون على نفس وجبات خدام الخيام لحيواناتهم ويستخدمون الحمير اذ أنه لا توجد جمال كافية عند أمير الحج لاعطائهم ما يركبونه منها · ويحملون معهم أدوات المطبخ من حلل وأوانى وما يحتاجونه لاعداد الوجبات(٢) ·

٢٢ ـ الزردكاش والنفطى (مسئول السلاح والذخيرة والألعاب النارية) :

وهو المسئول عن الألوية والبيارق والسهام والنشاب والأوتار والبارود وأحجار الرصاص للمدافع وغير ذلك من أدوات القتال · وقد يتولى الى جانب مهامه هذه مهمة الالعاب النارية التى كانت تطلق فى الطريق وعند الوصول الى مكة فرحا ببلوغ المقصد ، وكانت هذه الالعاب كثيرا ما تسبب الرعب والقلق للحجاج · من أجل هذا يرى الجزيرى الغاء هذه الالعاب(٣) وللنفطى هذا ثلاثون دينارا يقبضها من أمير الحاج ·

٢٣ ـ مهتار الركاب خاناه (المشرفون على الخيل وجهازها) :

والخيل التى يشرف هؤلاء عليهـا تبلغ العشرين · تخرج من اصطبلات السلطان لتتبع أمير الحج · ويرافق المشرف على الخيل بيطرى · ويتقاضى كزميله مرتبا ، وتأتى أدواته من ديوان السلطان(٤) ·

---

(١) الجزيرى : درر الفوائد ص ١٦٠ ·

(٢) Jaques : La Mahmal. P. 117 - 118.

(٣) الجزيرى : درر الفوائد ص ١٦٠ ·

(٤) نفس المصدر ص ١٦٦ ـ ١٦٨ ·

٢٤ - الوظائف الصغيرة :

وهذه الوظائف كالطبال والمخبزى والسمسار فى الغلال والنجارين ومغسلى الموتى ورعاة الأغنام والشرفين على النزول والرحيل(١) ٠

٢٥ - الشعراء (الحداة) :

وهم الذين يترنمون بالرجز والشعر لرفع الروح المعنوية فى الصحراء ، وابعاد الملل عن النفوس فى أثناء الطريق وهو تقليد عربى عريق فى أثناء السفر(٢) ٠

٢٦ - مبشر الحاج :

وقد جرت العادة على أن تجهيز مبشر الحاج لا يتأخر عن يوم منى ، بل انه يتوجه بالبشارة فى ذلك الوقت(٣) ٠ ويسير مسرعا حتى يبلغ القاهرة وينقل المبشر الى السلطان أحداث الحج ، والرأى العام ، وأخبار الوفيات ، وما صادف الحجاج من راحة أو تعب فى الطريق بين مصر والحجاز ، ورأى الناس فى أمير الحج(٤) ومن أخبار مبشر الحاج ما يرويه ابن اياس « ففى يوم الجمعة ثالث عشرينة ، حضر مبشر الحاج وأخبر بالأمن والسلامة(٥) » ٠ و « فيه (عام ٨٨٦هـ) جاء المبشر بوفاة اينال الاسحاقى أحد العشروات ، وشيخ الحرم الشريف(٦) » ٠ و (فيه ٩٠٣ هـ جاءت الأخبار من مكة بأن كاتب السر بدر الدين بن مزهر

---

(١) الجزيرى : درر الفوائد ص ١٦٩ - ١٧٢ ٠

(٢) نفس المصدر ص ١٦٧ - ١٦٨ ٠

(٣) ذكر السيوطى عدة آراء لأصل وظيفة المبشر وهل نشأت أيام عمر بن الخطاب أم أيام عثمان أم هى نتيجة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (تخرج الدابة من جبل اجياد فى أيام التشريق والناس بمنى) فلذلك جاء سابق الحاج يخبر بسلامة الناس وأن القيامة لم تقم بعد ٠

(السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٥)

(٤) الجزيرى : درر الفوائد ص ١٦٨ ٠

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩١٧ هـ ٠

- وفى سنة ٨٠٨ هـ « قدم مبشر الحاج وأخبر بأنه كان أشيع بمكة المكرمة قدوم تيمورلنك اليها فاستعد صاحب مكة لذلك فلم يصح ما اشيع » ٠

(أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٣٢٢)

(٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٨٨٦ هـ ٠

لما توجه الى مكة أصلح بين أمير مكةوأخيه برسوم السلطان(١))، و (فيه ٩٢١هـ حضر مبشر الحاج وقد أبطأ عن ميعاده أياما ، وسبب ذلك أن العربان خرجوا عليه وعروه وأخذوا جميع ما معه ..) (٢) .

ومن الأجزاء الهامة فى هذا المجتمع المتحرك (حامية المحمل) وتتكون من رجال الهجانة المدربين والمختارين لشجاعتهم ووقارهم وهم رجال ذوو خشونة لاعطاء أقوى احساس بالهيبة لدى المشبوهين ، وبعد العلم (السنجق) كانت تسير الموسيقي ومع الطبول النفير والنـاس . ثم تسير فى المؤخرة بعـد فرقة الموسيقى فرقة هجانة أخرى ، والكل على هيئة خاصة كما يقول الجزيرى تجبر محبى الشغب على التفكير مرات قبل الاقدام على أى عمل عدائى . وتدرك قيمة مثل هذه الحامية عند معرفة المخاطر التى كانت تتهدد الركب من الاعراب وأمراء الحرمين أحيانا . وقد تعرضنا لذلك فى الصفحات السابقة .

وأمير الحاج ، وهو أمير مائة ، يتبعه مائة من العبيد يسيرون على حسابه ، وهو الذى يضمن لهم الغذاء والتسليح وقد خفضوا فيما بعد الى ثلاثين . أما الجنود الآخرون الراكبون على الجمال فكانوا على حساب الدولة والسلطان رأسا ، ولم يكن أمير الحاج مدينا لهم بأى شىء ، فيما عدا بعض الحلوى التى تدفع كهدية .

أما عدد رجال الحامية فكان يتراوح بين ٣٥٠ ، ٥٠٠ جنديا مقسمين الى أربعة أقسام ، فى المقدمة والمؤخرة والميمنة والميسرة(٣) .

التنظيم الداخلى للركب :

أما التنظيم الداخلى للركب فانه يبدأ اذا نزل المحمل المعروف (بعجرود) . اذ عادته أن ينزل ويبيت تلك الليلة لاراحة الناس والجمال من السير الذى على غير تعقيب ولا ترتيب ، ثم يتقدم أمر أمير الحاج لجماعته بتفرقة «العليق» ومأكولات العسكر والبيوتات سحرا ، ثم يرحل من عجرود بعد الشمس بعشرين درجة أو ثلاثين ـ بعد أن يتقدم اعلانه لاكابر الركب وأعيانه بمحلاتهم التى يعينها لهم.. ويجمع الركب جمعا واحـدا ثم يأمرهم أن لا يسيروا الا بأمره وتحت اشرافه وينظمهم حسب ما يراه صالحا(٤) . وهذا التنظيم كما يلى :

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩٠٣ هـ .

(٢) نفس المصدر حوادث سنة ٩٢١ هـ .

(٣) الجزيرى : درر الفوائد ص ٩٦ ـ ٩٧ .

Jaques: La Mahmal. P. 88 - 89.

(٤) الجزيرى : درر الفوائد ص ٩٥ .

البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٣٣ .

أولا ـ فى المقدمة الجمال الحاملة للحبوب والعليق للناس والحيوانات ومعها الادلاء الذين يقودون الركب فى الطريق ويجنبونه مخاطر الضياع والهلاك فى رمال الصحراء ، وتسير الأدلاء فى صف بعد جمال التموين مباشرة(١) ٠

ثانيا ـ يأتى بعد الادلاء مباشرة ، رجال الخدمة المباشرة لامير الحاج ، وهم الخدم الحاملون للخيام وأدواتها (الفراشون) وقرب هؤلاء من الادلاء كان يسهل عليهم المشقة ويسير مع هؤلاء الطباخون والخبازون وكان تقدمهم هذا يسمح لهم بالقيام بوظائفهم بسرعة فى أوقات الراحة ٠ ويلحق بهذا الجزء من قافلة الحجاج موزعو الماء ، وذوو المهمات الصغيرة اللازمة لحياة القافلة(٢) ٠

ثالثا ـ بعد الفراشين ، أمير الحاج ورجاله من كبار شخصيات السلطنة الذين جاءوا للحج ومعه سكرتيره وبعض حاملى المشاعل والعبيد ، وبعض رجال الحراسة(٣) ٠

رابعا ـ يأتى بعد ركب الأمير ، الأشياء الثمينة التى تضمها القافلة ، كالصناديق التى تحتوى على المبالغ التى تفرق على الاعراب ، وفى مواسم الحج ، والاموال الخاصة بمصاريف نقل الحبوب ٠ وقد كانت الاموال والاشياء الثمينة توضع فى صناديق مغطاة بالحرير الاصفر والاحمر ومحزمة بحرير ملون ٠ وكانت تحمل على ثلاثة جمال ، ويسير بعد هذه الاشياء الفرق العسكرية والموسيقية والطبالين والسناجق ٠ فتحصر الاموال بين ركب الامير ورجال الحامية لتكون فى مأمن من أيدى العابثين(٤) ٠

خامسا ـ قافلة عامة الحجاج وتأتى بعد قافلة الجند تتقدمها هوادج النساء والاحتياطى المخزون للتوزيع على الحجاج أثناء الطريق ، ثم فقراء الحجاج ويسير هؤلاء جميعا فى صفين متوازيين ومعهم جماعة من الجند ٠

---

(١) الجزيرى : درر الفوائد ص ٩٥ ٠

(٢) المصدر السابق ص ٩٥ ٠

(٣) المصدر السابق ص ٩٥ ـ ٩٦ ٠

(٤) نفس المصدر ص ٩٥ ٠

أما بالنسبة لكسوة الكعبة ، فلم يكن لها موضع ثابت · فتارة تكون مع الامدادات المخزونة ، وطورا مع الفرق العسكرية · وكاتب ديوان الحج على يسار محمل الكسوة وبقية الكتبة بعده(١) ·

وبايجاز « فان الرسميين والوجهاء وكبار رجال الجند كانوا يسيرون فى المقدمة ، والكنوز والخزائن والبضائع الثمينة ، ثم الامدادات والنساء فى الوسط ، والحجاج العاديون فى المؤخرة »(٢) ·

وكان للفقراء خيام مخصصة للراحة وامدادات من الطعام والملابس وكان الجند وبعض شيوخ البلاد يهتمون بتعدية الفقراء فى المضايق ويوقد المشاعلية المشاعل فى الليل حتى لا يضل أحد العامة فى المؤخرة أو يتخطفه اللصوص · والجنود هم الذين يكفلون النظام فى النزول والمسير خصوصا حرس المقدمة والمؤخرة ، ويشرف على هؤلاء مباشرة أمير الحج أو سكرتيره · ويذهب أحد هذين للتفتيش على الحرس ليلا ونهارا وبث روح الحماس للعمل والتحذير من اللصوص (٣) ·

وما من شك فى أن هذه الوظائف بتفاصيلها لم تنشأ دفعة واحدة ، بل ظلت تنمو وتتجدد تبعا لمعرفة النقص ، ومحاولة تلافيه حتى أواخر أيام المماليك الجراكسة ·

٣ ـ مصر مركز تجمع للحجاج :

لقد عرضنا لمركز مصر فى مقدمتنا لهذا الموضوع · وقد ذكرنا أنها نقطة التقاء للحجاج منذ أيام الأيوبيين ، والى أن سقطت دولة المماليك ، بل انها

---

(١) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٤٥ · (وكان يصحب المحمل رجل يقال له « شيخ المحمل وآخر اسمه أبو القطط ثم سائق الهرجلة ومقدم العيط ، ثم سواق المقاطيع وكانت وظيفة الأول أن يشترى الجمال اللازمة للمحمل ويركب وراء جمل المحمل فى موكبه لملاحظته فى سيره من الخلف · كما يلاحظه المحامل فى سيره من الأمام · أما الثانى فيقولون انه كان يقوم بغذاء القطط التى كانت تتبع ركب المحمل مدة سفره فى البر ، ويقول آخرون انما كان هذا اسمه أما وظيفته فهى التى غيروها بوظيفة امام المحمل ، فيقال أن وظيفته كانت فى عهد شجرة الدر · أما الثالث فقد كان رئيسا للضوئية والعكافة فتستعمل الاضاءة عندما يكون هناك حركة مهمة » ·

(٢) الجزيرى : درر الفوائد ص ٩٤ ـ ١٠٠ ·

Jaques: La Mahmal. P. 89 - 90.

(٣) Jaques: La Mahmal. P. 90.

الطريق للمسلمين لحج بيت الله الحرام · يأتى اليها حجاج المغرب بطريق البر أو البحر ، كما يجتمع بها حجاج الشام فى السنوات التى لا محمل فيها ، فينضمون الى محمل غزة الذى يلتقى بالمحمل المصرى فى العقبة · ولسنوات كثيرة كان يلتقى بمصر فى شوال الشامى والتركى والقوقازى · ورجل القرم وبخارى وقازان وغيرهم ... من مسلمى شمال روسيا وسيبريا وجزائر البحر المتوسط(١) ·

وكانت أشهر الدول الأفريقية المعاصرة ذات الصلات بالمماليك دول شمال أفريقية وبلاد النوبة والتكرور · أما شمال أفريقية فقد عاصرت المماليك فيه دويلات (بنى حفص) و (بنى عبد الواد) و (دولة بنى مرين) فى تونس وتلمسان والمغرب(٢) · وكان أوثق العلاقات تلك التى قامت بين المماليك والحفصيين بعد توتر قليل أيام أبى نمى أمير مكة · فتبادلوا الهدايا والمجاملات فى المناسبات المختلفة · وأعظم مناسبة لذلك هى موسم الحج من كل عام ، نظرا لموقع مصر فى طريق الحج المغربى ـ كما أسلفنا ـ واشرافها على الاراضى المقدسة · وقد جرى ملوك مصر على تسهيل أداء هذه الفريضة من شتى الاقطار ، ولا سيما الاقطار الافريقية · ففى عام (٧٦٤ هـ) حج سلطان المغرب فى محمل كبير مارا بمصر(٣) ·

وفى عام (٧٨٨ هـ) قدم الحاج المغربى الى مصر ومعه هدية حافلة من الخيول المغربية من سلطان تونس ورسالة الى السلطان برقوق · فعنى بهم السلطان وجهزهم للحج وأوصى بهم أمراء المحمل المصرى · وبعد عودتهم من الحجاز أرسل معهم هدية للسلطان الحفصى(٤) ·

وفى عام (٧٩١ هـ) حج ركب مغربى(٥) · وفى عام (٧٩٢ هـ) نزل الفقيه المغربى الكبير ابن عرفة القاهرة فى طريقه الى الحج(٦) · ونقرأ لدى كثير من المؤرخين عن حجاج مغاربة فى أعوام (٨٣٥ هـ) (٧) و (٨٨٩ هـ) (٨) ·

---

(١) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٢٧ ـ ٢٨ ·

(٢) طرخان : المماليك الجراكسة ص ١٤٣ ·

(٣) الرشيدى : حسن الصفا ص ٣٨ ·

(٤) طرخان : المماليك الجراكسة ص ١٤٣ ·

(٥) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٤٩٦ ·

(٦) ابن الفرات : تاريخه ج ٩ ق ١ ص ٢٣٤ ·

(٧) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ حوادث سنة ٨٣٥ هـ ·

(٨) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٨٨٩ هـ ·

وكانت علاقة (التكرور / مالى) بمصر علاقة ودية لا تعدو التبادل التجارى ، فضلا عن العلاقة الثقافية بدليل أن الأزهر خصص رواقا من أروقته للتكاررة عرف باسمهم • كما أن التكاررة كانوا يمرون بمصر فى طريقهم الى الحج • واحتفل المماليك بقدوم ملوك التكاررة أمثال (منساولى) و (منساموس) وهم فى طريقهم الى الحج وأكرموهم(١) • ونكاد نقرأ عن حجاج من التكرور يمرون بمصر كل عام خصاصا أيام الجراكسة ويعرفون عادة بالحجاج المغاربة(٢) • وقد توالت حجات سلاطين مالى وأكرمهم سلاطين المماليك فى كل مرة مروا فيها بالقاهرة(٣) • ويورد المؤرخون أخبارا عن حجاج من سمرقند(٤) وغيرها من ديار المسلمين كانوا جميعا يمرون بالقاهرة ويسيرون مع محملها •

ولم يكن موقع مصر هو السبب الوحيد لالتقاء الحجاج بها ، والا لما سار حجاج الشام أحيانا الى غزة ليلتقوا مع الركب المصرى بالعقبة(٥) • ان هناك سببا آخر هام هو قوة مصر وسطوتها وحسن تنظيمها لركب المحمل بحيث ترتد عنه عاديات الانسان ويأمن فيه الحجاج على أنفسهم وهو أمر لا يتوفر فى غير الركب المصرى(٦) •

أما حجم ركب الحاج فليست لدينا معلومات دقيقة عنه ، وكل ما نظفر به من جانب المؤرخين لا يعدو قولهم (وكان حج هذا العام عظيما) أو (كان عدد الحجاج كبيرا) أو (كان فى تلك السنة كبيرا) (٧) أو (وسافر فى هذه السنة من الخلق ما لا يحصيهم الا الله تعالى) (٨) • وفى سنوات قليلة يورد المؤرخون احصائيات تقديرية أو تقريبية لعدد الحجاج ، عندما يكونون فى غاية القلة

---

(١) طرخان : المماليك الجراكسة ص ١٥٠ •
سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٤٢ •

(٢) المقريزى : السلوك ج٣ ورقة ٤٩٦ •
ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ حوادث سنة ٨٣٥ هـ •

(٣) الجزيرى : درر الفوائد ص ٦٧٩ •

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٨٨٩ هـ •

(٥) Jaques: La Mahmal. P. 81 - 82.

(٦) Ibid, P. 81.

(٧) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٨٨٠ هـ •

(٨) ابن الفرات : تاريخه ج ٩ ص ٢٣٤ •

أو الكثرة · فيروى الجزيرى أن العدد فى عام ٦٧٧ هـ وصل الى أربعين ألفا من المصريين وعددا مساويا من السوريين والعراقيين(١) ·

وفى سنة (٧٢٤هـ) وصل زنوج التكرور الى خمسة عشر ألفا · وفى سنة (٨٨٩هـ) كان المغاربة ألف وخمسمائة · ويذكر المؤرخون أحيانا عددا هائلا من الابل · فنستنتج من ذلك ضخامة عدد الحجاج · ففى عام (٧٤٩هـ) كان فى العقبة تجمع غير مألوف من الدواب · وقد قدر « جاك دى فيرون » الذى مر بغزة عام (٧٣٦هـ) قافلة الحج العائدة من مكة بـ ١٧٠٠٠ ألف شخص · وفى سنة أخرى قدر « سنيور أنجلو » قافلة حج رآها بعشرة آلاف شخص(٢) بينما يذكر المؤرخون فى سنوات أخرى قلة عدد الحجاج(٣) لسنوات ٧٩١هـ بسبب نقص الماء فاضطروا الى الرجوع(٤) · وسنة ٧٩٧هـ بسبب فتن مكة · وسنة (٨٣١ هـ) بسبب الفتن أيضا وسنوات ٩٠٨ و ٩١٠ بسبب ثورة الجازانى(٥) ·

٤ ـ كسوة الكعبة :

كان جزء كبير من الاحتياطيات المتخذة لحماية ركب الحاج موجها لحراسة وايصال « كسوة الكعبة » التى صارت تقليدا عريقا ، منذ أن احتلت مصر مركزا قياديا فى العالم الاسلامى بعد ضعف الخلافة العباسية وسقوطها · و « المحمل » الذى بدأ بجمل واحد حملت فيه « شجرة الدر » هداياها وحليها للكعبة تطور حتى صار بضعا وعشرين جملا أطلق عليها جميعا اسم « ركب المحمل » تحمل كسوة الكعبة الخارجية والداخلية وكسوة الحجرة النبوية · ويتبعها الحراس والفراشون والحمالون والأئمة والمؤذنون ويتقدمها ويحوطها الأمراء والقضاة والشهود وموظفوا الديوان والأمناء · ويسير فى المؤخرة عامة الحجاج الذين

---

(١) الجزيرى : درر الفوائد ص ٢٨٥ ·

(٢) Jaques: La Mahmal. P. 83 - 84.

(٣) ابن الفرات : تاريخه ج ٧ ص ٢٦٠ · (حوادث ٦٨٢ هـ لم يصل من صاحب اليمن كسوة ولا حجاج) ·

(٤) ابن الفرات : تاريخه ج ٩ ق ١ ص ٤٩ ·

(٥) يلاحظ المؤرخون ان الحج لم يقطع تماما الا سنة ٩٥٤ هـ (التى لم يحج فيها احد للفتنة التى كانت بين الأشراف على الامارة بمكة) ·
(البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٢٣٩)

يحرصون على البقاء فى أقرب مكان من الكسوة تبركا بهـا • منذ أن تخـرج من بركة الحاج الى أن تدخل مكة المكرمة •

وللكسوة تاريخ طويل يبدأ قبل الاسلام ، حين كان ملوك اليمن يكسونها فى بعض السنين • ثم صارت كسـوتها الى أبى ربيعـة بن المغيرة وآخـرين من قريش(١) • ابان مبعث الرسـول ـ صلى الله عليـه وسلم ـ وقـد كساها فى الاسلام الرسول الكريم وأبو بكر وعمر وعثمان وابن الزبير ، وأكثر خلفاء بنى أميه ، ثم خلفاء بنى العبـاس(٢) • وكانت صـناعة المنسـوجات بمصر أفضـل صناعات المنسوجات فى العالم فى ذلك الوقت لذا فقـد كان الخلفـاء العباسيون يصنعون الكسوة بمصر منذ أيام الخليفة المهدى عام (١٥٨هـ) ويحدد المؤرخون (تنيس)(٣) بمصر كمكان لصنع الكسوة لشهرتها العظيمة فى عمل المنسوجات الثمينة(٤) •

فلما ضعفت الخلافة العباسية صار اليمنيون يكسـونها تارة ، والمصريون طورا ، حتى استقر الأمر لسلاطين مصر المماليك فانفردوا بكسوتها •

كان أول من قام بكسوة الكعبة من سلاطين المماليك الظاهر بيبرس سنة (٦٦١ هـ)(٥) قاطعا بذلك الطريق على ملك اليمن يوسف بن عمر بن رسول(٦)، الذى كان يكسوها منذ سنوات قبل ذلك باعتبار أن مصر مركز الخلافة وحامية الحرمين الشريفين وصاحبة الحق فى الهيمنة فى مثل هذه الأمور• وصارت الكسوة

---

(١) المأمونى : تهنئة أهل الاسلام ، ورقة ٢ ـ ٣ •

(٢) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١١٠ ـ ١١١ •

(٣) تنيس « ثغر مصرى عامر ليس بأرض مصر مدينة أحسن منها ، هدمها الملك الكامل الأيوبى سنة ٦٢٤ هـ لكثرة ما كانت توقع بها مراكب الافرنجة فى الحروب الصليبية » • (المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٧٥ ـ ١٨١)

(٤) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٣٤ ـ ١٣٧ •

(٥) ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٣ ورقة ١٩٦ •
الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ٥٩ •
الفاسى : شفاء الغرام ص ١٦٩ •
أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ٢٧ •
الصباغ : تحصيل المرام ، ورقة ٣٧ •

(٦) النهروالى : الاعلام بأعلام البيت الحرام ص ٤٧ •
الرشيدى : حسن الصفا ، ورقة ٢٨ • (وكانت كسوة صاحب اليمن توضع بعد سفر الحاج المصرى مراعاة لصاحب مصر) •

المصرية بعد ذلك « تقليدا » طوال أيام دولتى المماليك ، بل استمرت مصر صاحبة الحق فى الكسوة (الخارجية) للكعبة أيام العثمانيين أيضا(١) ٠

وكان لا بد من مورث ثابت تنفق منه الدولة على كسوة الكعبة ، حتى لا يظل الأمر موكولا الى أهواء السلاطين فيكسونها حينا ولا يكسونها حينا آخر ٠ من أجل هذا أوقفت عليها الأوقاف ٠

يروى (السخاوى) فى هذا الصـــدد أن أول من بدأ الوقف على الكعبة كسوتها ومرافقها هو صلاح الدين الأيوبى(٢) ٠

أما الصباغ(٣) فيرى أن أول من وقف على كسوة الكعبة أوقافا هو الناصر محمد بن قلاوون ٠ بيد أن أكثر المؤرخـين يرجعون بداية الوقف على كسـوة الكعبة الى عهد السلطان الصالح اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون (٧٤٣ — ٧٤٦ هـ) حتى أن السخاوى الذى قرر فى « التحفة اللطيفة » أن أول من وقف على كسوة الكعبة هو صلاح الدين يعود فيقول فى « الضوء اللامع » (لم يزل الملوك يتداولون كسوتها الى أن وقف عليها الصالح اسماعيل بن الناصر فى سنة ٧٤٣ هـ قرية من ضواحى القاهرة) (٤) ٠

أما الأوقاف التى أوقفها صلاح الدين فكانت على الحرم النبوى لا على كسوة الكعبـة (فهـو أول من ثبت قاعـدة الخـدام فى الحرم النبوى وأوقف عليهم الأوقاف) (٥) ، ثم أوقف عليهم الصالح بن الناصر فيما بعد ، فجاء الاشتباه فى مسألة الوقف بين الصالح وصلاح الدين من أن كلا منهما أوقف على خدام الحرم النبوى فظن (السخاوى) أن صلاح الدين أوقف على كسوة الكعبة ، كما أوقف على خدام الحرم النبوى ، تخمينا منه أن الصالح انما قلد — فى هـذا العمل — صلاح الدين ٠ فكما أوقف الأول على خدام الحرم النبوى أوقف الثانى ٠ وكما أوقف الأول على كسوة الكعبة أوقف الثانى ٠ والحق أن صلاح الدين أوقف على خدام الحرم النبوى فقط ، ثم جاء الصالح فاقتدى به فى هذا العمل ، فأوقف على الخـدام هؤلاء قرية بالصعيد هى قرية (نقـادة) وثلث قرية (بيسوس) وكان

---

(١) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٣٦ ٠

(٢) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ١ ص ٤٩ ٠

(٣) الصباغ : تحصيل المرام ، ورقة ٣٧ ٠

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ج ٤ ص ٢٦ ٠

(٥) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ١ ص ٤٩ — ٥٠ ٠

المشرف على الانفاق ـ أيام السخاوى ومدير القريتين اللتين أوقفهما الصالح ـ هو المحب محمد بن محمد المحرثى متلقيا ذلك عن أبيه عن جده(١) ٠

أما القول بأن أول من أوقف على كسوة الكعبة هو الناصر محمد بن قلاوون فليس لدينا من المعلومات التاريخية ما يؤيده لانفراد (الصباغ) بهذا الرأى ، ومخالفة أكثر المؤرخين له ، ولأنه متأخر زمنيا ولكونه حدد أوقاف الناصر بأنها قريتا (بيسوس وسندبيس) وهما القريتان اللتان ذكر كل المؤرخين الباقين أنهما أوقفتا من قبل الصالح بن الناصر على كسوة الكعبة(٢) ٠ وينفرد صاحب (مرآة الحرمين) بذكر قرية ثالثة ، فيقول (هذا الوقف عبارة عن ثلاث قرى بيسوس وسندبيس وأبى الغيط)(٣) ٠

أما مواقع هذه القرى ، فيتوارد المؤرخون على تحديده ٠ فبالنسبة (لسندبيس) يكتفى (الفاسى) بالقول أنها « بظاهر القاهرة » بطرف القليوبية(٤) » ، هكذا بصيغة المفرد ٠ ويوضح (النهروالى) الأمر ، فيقول أن القرية التى بظاهر القاهرة ، وعلى طرف القليوبية هى سندبيس ويضيف أن هذه القرية موجودة الآن بمصر(٥) ٠ ويعنى بـ الآن عصره وهو مؤرخ معاصر للدولة العثمانية ، ويوافقه فى ذلك صاحب تحفة الكرام فيقول « أنها قرية بضواحى القاهرة فى طرف القليوبية مما يلى القاهرة »(٦) ٠ كما أن المأمونى يوافقهما فيقول

---

(١) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ١ ص ٤٩ ٠

(٢) النهروالى : الاعلام بأعلام البيت الحرام ص ٢٢٤ ٠
الفاسى : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٠٦ ٠
الفاسى : شفاء الغرام ص ٢٦٩ ٠
أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ٢٧ ٠
الأسدى : أخبار الكرام ، ورقة ٤٩ ٠
المأمونى : تهنئة أهل الاسلام ، ورقة ٢ ـ ٣ ٠
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٣٦ ٠

(٣) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ١٨٤ ٠

(٤) الفاسى : شفاء الغرام ص ٢٦٩ ٠
الفاسى : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٠٦ ٠

(٥) النهروالى : الأعلام ص ٢١٤ ٠

(٦) أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ٢٧ ٠

« أنها فى طرف القليوبية مما يلى القاهرة »(١) · ويكتفى الصباغ بتعريف سندبيس بقوله « أنها من قرى مصر »(٢) · وربما قصد بمصر القاهرة لأن سندبيس من ضواحيها من جهة القليوبية ·

أما (بيسوس) فيقول (القلقشندى) « انها من ضواحى القاهرة(٣) » · كما أن البتنونى يقول أنها من « أعمال القليوبية(٤) » · وهذا ما يقرره (ابراهيم رفعت) بالنسبة للقرى الثلاث ، فيقول : (وهذا الوقف عبارة عن ثلاث قرى بيســـوس ، وســـندبيس ، وأبى الغيط من قرى القليوبيـــة)(٥) · الا أن السخاوى(٦) والنهروالى(٧) والفاسى (٨) يذكرون أن الموقف من قرية بيسوس بالذات ثلثاها اذ « اشترى الصالح الثلثين منها من وكيل بيت المال ثم وقفها على هذه الجهة » · أما الثلث الثالث فقد وقفه على كسوة « كسوة الحجرة النبوية والمنبر الشريف »(٩) ·

هى اذن ثلاث قرى اشتراها الصالح بن الناصر عام (٧٤٣ هـ) من وكيل بيت المال ووقف ريعها على كسوة الكعبة ·

وكيفما كان الأمر ، فان هذه القرى الثلاث هى ما قرر المؤرخون أنها أوقفت الكسوة(١٠) » وكانا يديران القرى الثلاث وينفقان من ريعها على « دار الكسوة » مصر هى (نقادة) قد أوقفت على خدام المسجد النبوى ·

لهذا الوقف أنشئت ادارتان يترأسهما موظفان هما « ناظر الوقف وناظر الكسوة(١٠) » وكانا يديران القرى الثلاث وينفقان من ريعها على « دار الكسوة » التى أنشئت لصناعة الكسوة وتوابعها من الأموال المتحصلة من أوقاف القرى ·

---

(١) المأمونى : تهنئة أهل الاسلام ورقة ٣٠٢ ·

(٢) الصباغ : تحصيل المرام ، ورقة ٣٧ ·

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٧ ·

(٤) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٣٦ ·

(٥) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ١٨٤ ·

(٦) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ١ ص ٣٠٥ ·

(٧) النهروالى : الأعلام ص ١٤٤ ·

(٨) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٥٩ ·

(٩) السخاوى : الضوء اللامع ج ٤ ص ٢٦ ·
السخاوى : التحفة اللطيفة ج ٣ ص ٨٤ ·

(١٠) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٧ ·

فمنذ وقف السلطان الصالح هذه القرى وحتى تولى السلطنة المؤيد شيخ (٨١٣ ـ ٨٢٥ هـ) استمر ناظر الوقف يدير القرى ، وينفق على صناعة الكسوة ويظهر أن الاهمال تطرق الى هذه القرى فقل ريعها ، بحيث عجزت عن الوفاء بتكاليف الكسوة أيام المؤيد شيخ « فكساها من عنده(١) » وعول على اصلاح الأمر · ففوض ادارة الكسوة الى القاضى زين الدين عبد الباسط ، أحد أمنائه « فبالغ فى تحسينها بحيث يعجز الواصف عن صفة حسنها »(٢) · كما فوض ادارة القرى لتحسينها وزيادة ريعها الى « أبى الطيب عبد الوهاب بن نصر الله لحسن مباشرته وعفته »(٣) ثم ولى الأمر برسباى (٨٢٥ ـ ٨٤١ هـ) فجمع للقاضى زين الدين عبد الباسط سنة ٨٢٨ هـ ادارة القرى ونظارة الكسوة ، « نعنى بها حتى لم تدرك كسوة عملت للكعبة مثلها »(٤) واستمر الحال على هذا المنوال حتى سقوط الدولة المملوكية ، فاذا الاهمال قد ضرب ريع القرى ضربة قاصمة حتى عادت عاجزة عن الوفاء بنفقات الكسوة · فأمر السلطان سليمان العثمانى بقصر الوقف المصرى على الكسوة الخارجية ، وتكميل عجزه من خزانة السلطنة ووقف أوقافا أخرى · أما الكسوة الداخلية فانفرد العثمانيون بصناعتها والانفاق عليها(٥) ·

اذا تنقسم الكسوة الى قسمين : خارجية وداخلية · أما الخارجية فتجدد كل عام ، وأما الداخلية فلا تجدد حتى ترث وتبلى · فما يقوله المؤرخون من أن (كل من ولى مصر يعتنى بارسال الكسوة فى كل سنة)(٦) فهو خاص بالكسوة الخارجية ، أما الكسوة الداخلية فربما لا تجدد الا مرة واحدة فى ولاية كل سلطان طالت تلك المدة أم قصرت(٧) ويذكر (أبو الطيب) : « ان آخر من كسى الكعبة

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٤ ص ٥٧ ·

(٢) نفس المصدر جـ ٤ ص ٢٦ ·

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٤ ورقة ٤٢٠ ·

(٤) نفس المصدر جـ ٤ ورقة ٤٨٥ ·

(٥) المأمونى : تهنئة أهل الاسلام ، ورقة ٣٠٢ ·
النهروالى : الأعلام ص ٢١٤ ·
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٣٦ ·

(٦) السخاوى : التحفة اللطيفة جـ ١ ص ٣٠٥ ·

(٧) المأمونى : تهنئة أهل الاسلام ، ورقة ٢ ـ ٣ ·
السخاوى : التحفة اللطيفة جـ ١ ص ٤٧ ·

كسوة داخلية من المماليك هـو النـاصر حسن بن محمد بن قلاوون سـنة ٧٦١ هـ(١) » . وهنا أمثلة أخرى فقد كساها الملك المظفر سنة ٦٥٩ هـ والسلطان برسباى ٨٢٥ هـ .

أما الكسوة الخارجية فسوداء اللون ، أما الداخلية فهى من الحرير الأحمر المذهب(٢) .

ولقـد كانت دار الكسوة بالقـاهرة بمشهد الحسين(٣) ، ثم انتقلت الى « قلعة الجبل(٤) » .

أما الكسوة الخارجية للكعبة فهى تصنع من الحرير الاسود وبطانتها من الكتان(٥) ولها طراز مدور من جهة الأرض عرضه ذراعين تكتب عليه آيات قرآنية، كما يكتب عليه اهداء السلطان « وعليها نور لائح مشرق من سوادها(٦) » . وربما اتصل بأسفل الطراز أحيانا جامات مصنوعة من الحرير الابيض أو القصب المطلى بالذهب(٧)، ويبعث صاحب اليمن أحيانا كسوة سوداء تلبس تحت الكسوة المصرية محلاة بآيات جاءت من القرآن بذكر الكعبة(٨) . أما القسم الذى يوضع على الجزء الامامى (البرقع) من الكعبة فمكتوب عليه « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » . ثم صارت الكتابة فى هذا الجزء من الكسوة منذ أيام الظاهر

---

(١) أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ٢٧ .
ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ١٩٦ .
« يروى النهروالى أن الأشرف برسباى كسى الكعبة كسوة داخلية عام (٨٢٦ هـ) وأزال كسوة حسن بن محمد بن قلاوون » .
(النهروالى : الأعلام ص ٢١٢)
(الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٥٩)

(٢) الشيخ غريب بن عجيب : سياحتى الى الحجاز ص ١٦٦ .
الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٥٩ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٧ .

(٤) الشيخ غريب : سياحتى الى الحجاز ص ١٦٦ .
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٣٨ .

(٥) الصباغ : تحصيل المرام ، ورقة ٣٧ .

(٦) ابن بطوطة : الرحلة ص ١٠٦ .

(٧) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ٢٨٣ .

(٨) العمرى : مسالك الأبصار ج ١ ص ١٠٠ .

برقوق صفراء مشعرة بالذهب(١) · أما جزء الكسوة الذى يوضع ويعلق تجاه الركن اليمانى فيكتب عليه بعد البسملة « جعل الله الكعبة البيت الحرام ·· » الى قوله « بكل شيء عليم » ـ صدق الله العظيم · وبين الركن اليمانى والمغربى تكتب ـ بعد البسملة ـ « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ·· » الى قوله « التواب الرحيم » صدق الله العظيم ·

وبين الركن المغربى والشامى يكتب ـ بعد البسملة ـ « أمر بعمل هذه الكسوة الشريفة العبد الفقير السلطان فلان(٢) » ·

أما الكسوة الداخلية فتصنع من الحرير الأحمر المذهب ويكتب فيها نحو ما يكتب فى كسوة الكعبة الخارجية ويذكر (المأمونى) أنه كان يكتب على الكسوتين الداخلية والخارجية أحيانا « لا اله الا الله محمد رسول الله » · وقد يزاد فى حواشى الكسوة آيات أخرى مناسبة أو أسماء أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد لا يكتب فيها شيء(٣) » ·

اتخذت كسوة الكعبة ـ الى جانب طابعها الدينى ـ طابعا سياسيا ، اذ كانت علامة هامة من علامات القوة السياسية فى عصر المماليك ، وكان الفائز بكسوة الكعبة يعد فائزا فى صراع سياسى هام على السيطرة فى بقاع العالم الاسلامى من أجل ذلك حرص المماليك المصريون على كسوة الكعبة عاما بعد عام ، رعاية للجانب السياسى من تقليد الكسوة الى جانب المظهر الدينى الذى كان ظاهرا على السطح · فاذا حاول زعيم آخر غير مملوكى أن يكسوها كان لا بد أن يستأذن المصريين باعتبارهم أصحاب القوة الفعلية فى الحرمين وورثة الزعامتين السياسية والدينية للدولة العباسية التى صار خليفتها فى القاهرة صنيعة من صنائعهم · ولم يأذنوا لصاحب اليمن فى كسوتها الا فى حالة الضعف · وكان ذلك فى سنوات ٦٥٩ هـ و ٦٦١ هـ(٤) و ثم ٦٧١ هـ ، ٦٩١ ، ٦٩٦ ، ٧٤٢ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٤ ، ٨٠١ هـ(٥) ، وواظب هو وخلفاؤه على ارسال كسوة لتوضع تحت الكسوة المصرية · أو عقب ازالة الكسوة المصرية بعد قفول الحجاج(٦) ·

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٧ ·

(٢) الصباغ : تحصيل المرام ، ورقة ٣٧ ·

(٣) المامونى : تهنئة اهل الاسلام ورقة ١٣ ·

(٤) الرشيدى : حسن الصفا ، ورقة ٢٨ ·
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ص ٢٩١ ·

(٥) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ١٠٣ ·

(٦) العمرى : مسالك الأبصار ج ١ ص ١٠٠ ·

وكان المماليك يغضبون الطرف فى مثل هذه الحالات لأن المظفر الرسولى وخلفاءه كانوا يحرصون على استرضائهم ولانهم لم يكونوا يخشون القوة الرسولية فى اليمن لضعفها فى الداخل وتمزق أوصالها ، حتى لقد طمع فيها فى وقت من الأوقات حسن بن عجلان رجل المماليك فى الحجاز · كما كان لهذا التسامح سببه الاقتصادى ، فقد كان اليمنيون والخراسانيون والعراقيون الذين يبقون بعد رحيل الركب المصرى والشامى ، يكثرون من الصدقات على المجاورين والمكيين · حتى لقد كان الذهب يرخص فى البيت الحرام لكثرة ما ينفقون · فاذا قيل بعد ذلك « فى هذه السنة ٧٢٥ هـ(١) ذكروا اسم السلطان أبى سعيد ملك العراق على المنابر وقبة زمزم » — دون أن يعترض المصريون — فاننا نفهم من ذلك أن انفاق العراقيين الكثير ومبالغة اليمنيين فى الصدقة هى التى دفعت سلاطين المماليك الى تجاهل كسوة اليمنيين للكعبة ، ودعوة المكيين لابى سعيد المغولى على منابر الحرم ·

أما اذا تجاوز الأمر الكسوة والدعوة الى محاولة السيطرة وفرض النفوذ ، فان المسألة تتغير ويقف المماليك بحزم فى وجه كل المحاولات لحماية الحرمين ، وهم يعلمون أنهم يحمون بذلك دولتهم دينيا وسياسيا واقتصاديا · فكلما كانت السيطرة على الحرمين سندا دينيا بشرعية الحكم المملوكى — باعتبار المماليك « خدام الحرمين » وحماتهما — كانت أيضا سيطرتهم على أمر الحجاز وأعرابه لمنعهم من العدوان على طرق التجارة والموانى التى كانت بالغة الأهمية بالنسبة للمماليك · من هنا كانت الخطورة على دولة المماليك فى أن يسيطر اليمنيون أو المغول فى العراق وفارس على الحرمين من الوجهة العسكرية والدينية والاقتصادية ·

وكانت أول الصدامات الهامة حول الكسوة عام (٧٥١ هـ) بين الملك المجاهد بن المؤيد الرسولى ملك اليمن والسلطنة المملوكية فى عهد الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون (٧٤٨ — ٧٥٢ هـ) ففى العام السالف الذكر لجأ الى اليمن الأمير ثقبة بن رميثة بن أبى نمى ، بعد أن عزل عن امرة مكة وولى أخوه عجلان بمفرده سنة (٧٥٠ هـ) ، فأراد الانتقام للهزيمة التى لحقته ، فحرض المجاهد الرسولى على غزو البيت الحرام وبسط سيطرته عليه تقوية لمركزه فى نظر جماهير المسلمين · وأحس المجاهد فى نفسه قوة خادعة ، فخرج قاصدا مكة تصحبه قوة من الجند ، وقد هيأ كسوة للكعبة باعتبارها المظهر الرئيسى من مظاهر السيطرة على مكة ، لكن الركب المصرى ثار لاعتزام الرسولى كسوة الكعبة أكثر مما ثار لعدوانه على مكة بقوة مسلحة ، ودارت معركة بين الطرفين هزم فيها

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ص ١٠٦ ·

ملك اليمن واقتيد الى مصر أسيرا حيث بقى فيها مدة · ولم يطلق سراحه الا بعد أن تعهد بدفع فدية ضخمة والولاء لمصر(١) ·

ومن غير شك لقد اعتبر التفكير فى كسوة الكعبة تحديا لمصر وسلطانها · لا مجرد تكريم للبيت الحرام · وهذا يضفى على الكسوة معنى « سياسيا » ظاهرا · فالذى يكسو هو فى عرف المسلمين الاقوى ، والكسوة على هذا من مظاهر القوة السياسية والعسكرية · وخطأ ابن رسول فى الفهم هو الذى أوصله الى الأسر · فالكسوة نتيجة للقوة ، وليست سببا لها · بينما رأى ابن رسول أن الكسوة سبب من أسباب القوة ، فأراد أن يكسوها وانتظر أن يقوى فى نظر المسلمين نتيجة لذلك ، والقوة الحقيقية هى القوة الداخلية وتأتى كسوة الكعبة بعد ذلك تكميلا لها(٢) ·

ولا ريب أن الرسوليين كانوا خطرا على السلطة المملوكية بالحجاز ، الا أن هذا الخطر تضاءل بعد وفاة المظفر الرسولى وضعف أبنائه · وقد رأينا ما انتهى اليه محاولة المجاهد حفيد المظفر للسيطرة على البيت الحرام ·

أما الخطر الحقيقى الذى كان يتهدد سلطان المماليك فى الشام والحجاز ، فهو الحكم المغولى فى العراق وفارس · وكان هؤلاء يملكون الى جانب القوة العسكرية والمالية قوة أخرى نفسية ، من خوف الناس لهم لماضيهم الدموى ، وعدم تورعهم عن فعل أى شىء فى سبيل الحفاظ على سلطانهم · صحيح أن المناوشات بينهم وبين المماليك فى الشام لم تنته بنصر لهم ، الا أنها أظهرت للمماليك أن رد عدوانهم أصعب من رد هجمات صاحب اليمن وعدوانه · لذا فقد استمرت العلاقات متوترة فى أكثر الاحيان بين الدولتين · ولذلك نظر الى محاولات المغول للسيطرة على الحرمين نظرة أكثر جدية وحذرا من النظرة الى محاولات ملوك اليمن من آل رسول ·

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ١٦٨ ·
محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ٤٩ ·
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢٢٦ - ٢٣٠ ·
المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٨٣١ ·
ابن بهادر : فتوح النصر ج ١ ورقة ٢٩٧ ·

(٢) حاول اليمنيون كسوة الكعبة رغما عن المصريين عام ٧٨٠ هـ ، فحال امير الركب المصرى دون ذلك ، وانتهى الأمر بتسليم اليمنيين بما أراده امير الركب المصرى بوساطة شريف مكة ·

(ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ص ١٧٨)

كانت أولى محاولات المغول لمد نفوذهم الى الحرمين ـ تلك التى حدثت بين (٧١٥ ـ ٧١٨ هـ) مستغلة الصراع الداخلى بين أمراء الحرمين ، وتوتر علاقات بعض الامراء مع مصر . ففى عام ٧١٥ هـ كانت محاولة أبى سعيد الاولى لكسوة الكعبة سلميا ، مع حراسة الركب حراسة مشددة الا أن المصريين لم يمكنوهم من الكسوة(١) . وكان ذلك مقصد أبى سعيد ايلخان المغـول ، اذ اعتبر ذلك خطوة عدائية من مصر موجهة اليه . فجهز فى العام التالى ركبا كلفه ستين ألف دينار يحمل كسوة للكعبة ، مع عدد كبير من الجند ، يرافقه حميضة الثائر على أخيه أبى الغيث الذى أقامه السلطان أميرا على مكة سنة ٧١٣ هـ(٢) . وكاد الامر يتم للمغول لعدم وجود حامية مصرية فى الحجاز فى ذلك الوقت ، ولضعف الحامية لو وجدت ، بالنظر الى هذا العدد الضخم من الرجال الذين بلغوا حوالى الاربعة آلاف . غير أن عاملا لم يكن فى حسـبان المغول ولا المماليك دخل فى الموقف فحوله لصالح المماليك ، اذ شن أعراب بادية الشام حرب عصابات على القافلة العسكرية ، فأوقعوا بها خسائر ضخمة(٣) ، ثم كانت الضربة القاصمة التى أدت الى مقتل حميضة فى سنة ٧٢٠ هـ(٤) .

وبعد مضى ما يزيد على قرن من الزمان من محـاولة المغول الاولى ، قاموا بمحاولتهم الثانية للسيطرة على البيت الحرام ، وبسط نفوذهم على الحجـاز . وهم هذه المرة مغول فارس .

ففى عـام (٨٣٣ هـ) قدم رسول من قبل ملك المشرق (شـاه رخ بن تيمورلنك) الى بلاط السلطان برسباى يطلب مخطوط شرح البخـارى للحافظ قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر المتوفى (٨٥٢ هـ) ومخطوط السلوك للمقريزى ، ويطلب رأى السلطان فيما عزم عليه (شاه رخ) من كسوة الكعبة واجراء عين بمكة ، ولم يجب السلطان أيا من الطلبين وتجاهل كل شىء(٥) .

---

(١) المقريزى : السلوك ، حوادث عام ٧١٨ هـ .

(٢) العينى : عقد الجمان ، حوادث عام ٧١٣ ، ٧١٤ هـ .
النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٨١ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٩٠ .
محى الدين : الأرج المسكى ، حوادث سنة ٧١٦ ـ ٧١٨ هـ .
النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٨٨ ـ ٩٠ .

(٤) الفاسى : العقد الثمين ج ٤ ص ٢٤٥ .
العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٧٢٠ هـ .
المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٠٩ .

(٥) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٦١٧ .

وغضب (شاه رخ) أشد الغضب لهذا التجاهل ، فكتب الى برسباى سنة (٨٣٦ هـ) كتابا على يد بعض التجار ، خاطبه فيه بـ (الأمير برسباى) وكرر فى قسوة أنه يطلب من الأمير تسهيل كسوة الكعبة ، بيد أنه لم يظهر لذلك أثرا(١) .

وأخذ (شاه رخ) الأمر هذه المرة مأخذ الجد ، فأرسل رسولا من شرفاء شيراز هو السيد تاج الدين على الحسينى - الذى حج أولا - ثم قدم مع الركب المصرى الى القاهرة فى أواخر المحرم سنة ٨٣٨ هـ يحمل كتابا الى برسباى وهدية قدرت بثلاثة آلاف دينار(٢) ، وتضمن كتابه أنه يريد أن يكسو الكعبة وفاء بنذر نذره على نفسه ، وأنه عمل الكسوة ، وكلفته اثنى عشر ألف دينار ، وأنه يوافق على أن يتسلم السلطان برسباى الكسوة من رسله ثم يبعثها مع الركب المصرى ، ثم أنه يتوعد السلطان من طرف خفى بمتاعب تتهـدده ان لم يوافق . وأكرم برسباى الرسول « ولم يكلفه بتقبيل الأرض بين يديه رعاية لشرفه(٣) » .

وأدرك السلطان برسباى خطورة الخطوة التى يوشك أن يخطوها هذه المرة ، فرام أن يستند الى رأى عام وفتوى شرعية فى الاجابة أو عدمهـا . فاستمهل الرسول ، وعقد فى ٦ صفر من عام ٨٣٨ هـ مجلسا حضره قضاة المذاهب الاربعة، وبعض كبار رجال الدولة برئاسة السلطان ، وانفض المجلس على فتوى أفتاها بدر الدين العينى ، الفقيه الحنفى الكبير « ان نذر شاه رخ لا ينعقد » لذا فلا تتحتم اجابته ، واستند فى ذلك الى مبررات(٤) :

١ - ان العرف جرى على أن تكسو مصر الكعبة ، والمعروف عرفا كالمشروع شرعا ولا داعى لتغييره(٥) .

---

(١) مؤلف مجهول : حوليات دمشقية ص ٥٠ .
المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٦٨٤ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٧٢١ .
يذكر الدكتور ابراهيم طرخـان فى كتابه المماليك الجراكسـة ص ٩٠ أن مع الرسول « هدية » قدرت قيمتها نحو ثمانية آلاف دينار على أن الشك يتطرق الينـا بتقدير هذه الهدية بخلاف ما ذكره المقريزى .

(٣) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٧٢١ .

(٤) مؤلف مجهول : حوليات دمشقية ، حوادث سنة ٨٣٨ هـ .

(٥) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٧٢١ .
مؤلف مجهول : حوليات دمشقية ، حوادث سنة ٨٣٩ هـ .

٢ - ان للكسوة أوقافها الخاصة بها وهى تفى بنفقاتها ولا حاجة لان تكسى من مال شاه رخ(١) ٠

٣ - ان شاه رخ يكون فى حل من قسمه اذا باع الكسوة وأنفق ثمنها على الفقراء ، اذ أن نذره اعتبر غير مشروع لانه لم يصادف محلا ، فلم يبق الا الحل الشرعى فى مثل هذه الاحـــوال وهو دفع كفارة الحنث ويكفى فى ذلك ثمن الكسوة(٢) ٠

وأجمع الرأى على فتوى (العينى) فصرف السلطان الرسول بعد أن منحه خمسمائة دينارا مصحوبا بالأمير قطاو المهمندار من أمراء العشرات رسولا من برسباى الى شاه رخ ليعتذر عن قبول الكسوة ، وأرسل مع الراحلين هدية عبارة عن قماش سكندرى كثير الى ملك المشرق(٣) ٠

ثم جاءت رسالة شاه رخ الأخيرة فى أواخر عام ٨٣٩ هـ قاسية متوعدة ، يحمل حاملها خلعة لبرسباى باعتباره واليا من ولاة شاه رخ ومعه أمر بأن يدعو برسباى لشاه رخ على منابر مصر والحرمين وأن يضرب السكة باسمه ٠ وفقـد السلطان صبره هذه المرة ، فأمر برمى رسول الشاه فى بركة ومزق الخلعة التى أرسلهـا الخان ٠ الا أن الرســـول حصـــل هذه المرة على مخطوطى ابن حجر والمقريزى(٤) ٠ وحمل رسالة ترد على مزاعم الشاه بأن قضاة مصر من صـــنائع السلطان وأنهم لا يقضون أمرا الا اذا قبضوا ثمنه ٠ وكان شاه رخ قد استغل فتوى العينى لاتهام قضاة مصر فى نزاهتهم ، كما استغل من قبل ضرائب برسباى واحتكاراته لاتهامه بالاعتداء على حرمات الاسلام وسرقة أموال الشعب(٥) ٠

وما أن يئس شاه رخ من استجابة برسباى لطلباته حتى عمد الى العمل فعلا ضد مصر ، فراسل العثمانيين وأمراء قرمان والشـــاه البيضاء وأمير دلغادر لتكوين حلف لضرب مصر ٠ ورد برسباى على مساعى سلطان المشرق بعقد حلف دفاعى مع العثمانيين وتجهيز حملة حربية الى الشام استطاعت أن تضرب حلف دلغادر مع شاه رخ وتدخل عاصمتها (الابلستين) وهدد برسباى بتجهيز جيش

---

(١) ابراهيم طرخان : المماليك الجراكسة ص ٩٠ ٠

(٢) وليم موير : دولة المماليك فى مصر ص ١٣٨ ٠

(٣) العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٨٣٨ هـ ٠

(٤) ابراهيم طرخان : المماليك الجراكسة ص ٩٢ ٠

(٥) سليمان عطيه : سياسة المماليك ص ٣٢٢ ٠

لضرب الشاة البيضاء حليفة سلطان فارس ، بيد أنه توفى قبل أن يفعل شيئا من ذلك سنة ٨٤١هـ(١) وربما حالت وفاته دون نشاب حرب طاحنة بين ابن تيمورلنك والمماليك فى الشام ٠

وتولى السلطنة الظاهر جقمق (٨٤٢ ـ ٨٥٧ هـ) فانتهز شاه رخ فرصة هزيمة حملة الظاهر جقمق على قبرص ، وأرسل اليه رسالة يجدد فيها طلبة بكسوة الكعبة وذلك سنة (٨٤٨ هـ) متذرعا بنذره السابق وأجاب السلطان هذه المرة ـ بعد أن درس الاحوال العسكرية والسياسية الصعبة التى تحيط بالدولة ـ (هذه قربة ولا أمنعها)(٢) وانتهى الأمر بأن كسى شاه رخ البيت الحرام عام ٨٤٨ هـ(٣) ٠

واختلفت الآراء حول تقييم ما فعله السلطان ، فاتهمه « العينى » بالضعف والخور ٠ وثارت العامة وضربت رسل شاه رخ فى شوارع القاهرة ، ونهبت الكثير مما جاءوا به(٤) ٠ أما السخاوى فرأى أن تصرف السلطان سليم (ويعتبر دفعا للضرر) ٠ أما أولئك الذين منعوه بغير مبرر فليس لهم مستند الا موافقة هوى السلطان(٥) ٠ واضطر جقمق فيما بعد الى ازالة هذه الكسوة سنة ٨٥٥هـ ووضع كسوة جديدة مكانها استجابة لرغبات الشعب(٦) ٠

وربما كان نظر العامة أبعد من نظر جقمق والسخاوى ٠ ففى عام ٨٤٩ هـ أعد شاه رخ العدة لغزو الشام لولا أن حال الموت بينه وبين انفاذ عزمه ٠ لقد كان صراع الكسوة الذى بدأ عام ٨٣٣ هـ صراعا سياسيا هاما ، رغم استتاره وراء مبررات دينية ٠ فقد أحس الشاه من جانبه قوة رأى أنه يستطيع بها أن يسيطر على الشام والحجاز فيصبح رجل العالم الاسلامى الاول باعتباره خادم

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك ص ٩٤ ـ ٩٥ ٠
ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ حوادث سنة ٨٤١ هـ ٠
وليم موير : دولة المماليك فى مصر ص ١٣٨ ٠
ابراهيم طرخان : المماليك الجراكسة ص ٩٣ ٠

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٩٦ ٠

(٣) الأسدى : اخبار الكرام ، ورقة ٤٩ ٠

(٤) نفس المصدر ، ورقة ٩٧ ٠

(٥) السخاوى : التبر المسبوك ص ٩٧ ٠

(٦) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٣٥٤ ٠
النهروالى : الأعلام ص ٢١٩ ٠

الحرمين الشريفين وحاميهما ـ واذا نقدنا فتوى العينى ـ من وجهة النظر الدينية البحتة ـ فليس بوسعنا أن نغفل ذلك من وجهة نظر أرحب على الموقف عامة · فقد كان محتما أن يتلو الكسوة ـ كاجراء دينى ـ اجراء سياسى ، وهو أمر اعتدناه من ملوك اليمن وخاقانات العراق · وكأنما الكسوة فى مثل هذه الحالات لفت لأنظار المسلمين الى قوة الزعيم الجديد ومقدرته على حماية الحرمين وعجز المتولين المماليك عن مثل هذه الحماية ·

ومما يؤيد هذا الاستنتاج أن شاه رخ شرع فورا ـ بعد رفض طلبه ـ فى اعداد العدة لضرب المماليك فى الشام أيام برسباى بعد أن يئس من امكان التسلل من الباب الخلفى بطريق المظهر الدينى المتمثل فى الكسوة · ولقد كان برسباى حكيما فى رفضه طلب الشاه وأتباعه سياسة حازمة فى الشام بارسال حملة سريعة للدفاع عنها ، جعلت شاه رخ يتردد فى القيام بعمل سريع لما بدا على سلطان مصر من مظاهر القوة · وهو أمر لم يراعه الظاهر جقمق · فعلى الرغم من أنه نظر الى الأمر من الوجهة الدينية وحدها ، وادعى أنه لا يرى فى كسوة الكعبة من قبل شاه رخ الا قربه لله لا تخالطها أية نوازع أخرى ، فانه بخطوته تلك أثبت للسلطان المغولى أن ما بدا عليه من ضعف أمر حقيقى وجعله ذلك يعجل فى اعداد العدة لضرب الشام لولا أن توفى سنة ٨٤٩ هـ ·

وهنا يبدو أن التوفيق أخطأ السخاوى فى ظنه أن فتوى بدر الدين العينى كانت تملقا لبرسباى وكفى ·

لقد كانت كسوة مصر للكعبة مظهرا من مظاهر قوة الشعب المصرى آنذاك واحتضانه لشرف حماية الحرمين ، وبالتالى حماية العالم الاسلامى من كل الأخطار التى تتهدده · وكانت تلك رسالة مصر التى حملتها فى عصور الاسلام · لهذا تجاهل بيبرس ما بينه وبين الحفصيين من توتر وصمم أن ينجدهم ضد الغزو الافرنجى المحتمل · ولهـذا وقفت مصر دائمـا فى وجه المغول والصليبيين · والواقع أننا لا نستطيع أن نفصل أمرا عن أمر فى أمور الحرب والسلم هذه ، خصوصا فى ذلك العصر الذى لم ينفصل فيه الدين عن الدولة · فربما كانت كسوة شاه رخ بن تيمور لنك ـ التى اعتبرت (قربة) فقط ـ مقدمة لتقديم الحجاز (قربانا) لسلاطين المغول ·

وانطلاقا من هذا الفهم ، بوسعنا أن نعتبر تصرف برسباى والشعب المصرى على السواء تصرفا سياسيا سليما مبقيا على هيبة مصر ومخيبا لآمال الطامعين فى انتهاك حرماتها وتمزيق أوصال مملكتها ·

بعد أن تناولنا كسوة الكعبة من الناحية التاريخية وما دار حولها من نزاع ، يحسن بنا أن نلقى نظرة سريعة على نوع آخر من أنواع الكسـوة عرفه عصر

المماليك . فكما كانت للكعبة كسوة سنوية ، كانت للحجرة النبوية بالمدينة المنورة التى دفن فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كسوة أيضا . وكانت الحجرة أول الأمر بناء عاديا حتى عملها قايتباى من نحاس أصفر غاية فى الاتقان عام (٨٨٨ هـ) . وأن أول من كسى الحجرة النبوية الخيزران أم هارون الرشيد عندما قدمت فى حجها لزيارة قبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصارت عادة السلاطين والملوك بعد ذلك(١) .

ولما وقف الصالح اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون (٧٤٣ - ٧٤٦ هـ) على كسوة الكعبة بعض القرى ، جعل الثلب من قرية بيسوس وقفا على كسوة الحجرة النبوية والمنبر النبوى(٢) . الا أن كسوة الحجرة لم تكن تجرى فى كل سنة ، بل كان شرط الواقف أن تكون الكسوة كل خمس سنوات(٣) ، ثم اضطربت مواعيد الكسوة للحجرة بعضا من الوقت فكانت ترسل أحيانا كل عشر سنوات(٤) الى أن استقر الأمر على ارسالها كل سبع سنوات(٥) . أما بقاء الكسوة على الحجرة مدة أطول من بقائها على الكعبة فيعلله القلقشندى بقوله (أنها مصونة من الشمس بخلاف كسوة الكعبة فانها بارزة للشمس فيسرع بلاؤها) (٦) .

وتصنع الكسوة من الديباج الأخضر أو الأسود مرقوما بالحرير الأبيض يحيطها طراز منسوج بالفضة المذهبة دائر عليها(٧) ، ومكتوب عليها ما هو مكتوب

---

(١) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٢١٥ - ٢١٧ .
القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠٢ . (اول من كسى الحجرة الحسن بن ابى الهجاء صهر ظالئع بن رزيك وزير العاضد الفاطمى) .

(٢) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ١ ص ٤٧ .
النهروالى : الأعلام ص ١٤٤ .

(٣) المامونى : تهنئة أهل الاسلام ، ورقة ٣ .
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ١٨٤ .
محمد كبريت : الجوهرة الثمينة ، ورقة ٢٥ .
الشيخ غريب بن عجيب : سياحتى الى الحجاز ص ١٦٦ .

(٤) السخاوى : التحفة اللطيفة ص ٤٧ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠٢ .
البرزنجى : نزهة الناظرين ص ٧٤ .

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠٢ .

(٧) البرزنجى : نزهة الناظرين ص ٧٤ .
الشيخ غريب بن عجيب : سياحتى الى الحجاز ص ١٦٦ .

على كسوة الكعبة من أسماء الله ورسوله ، وما جاء فى القرآن ، مما يحث على الحج والهجرة وما جاء فى السنة من حث على زيارة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كحديث شد الرحال(١) . وظل سلاطين المماليك يكسون الحجرة من وقفها حتى ضعف الوقف عن الوفاء بحاجاتها وحاجات الحرم النبوى الى أن سقطت دولة المماليك فصار سلاطين بنى عثمان يكسون الحجرة من أموال الدولة ، وقد حليت الحجرة النبوية عبر العصور بمقادير ضخمة من الماس والذهب والفضة واللؤلؤ والزمرد كانت تغرى بالسطو عليها كما فعل جماز بن هبة سنة (٨١١هـ)(٢) .

٥ ـ البناء والتجديد فى الحرمين :

يكاد الباحث فى تاريخ المماليك يجزم أن ما أنفق فى دولتهم على العمارة بالحرمين والحجاز كله لا يضاهيه ما أنفق على ذلك فى أى عصر من عصور الاسلام . فلقد تنافس السلاطين والأمراء فى الانشاء والتعمير ، وبالغوا فى ذلك أحيانا ليبقى لهم الذكر والفخر عبر القرون والأجيال .

ويمكننا أن نرجع هذه الظاهرة الى أن المال كان وفيرا فى دولة المماليك وغنى السلاطين الفاحش ، بالاضافة الى أنهم أرادوا أن يتقربوا الى الله فى صورة الورع والزلفى لاكتساب محبة الرأى العام فى العالم الاسلامى من ناحية ، ومن ناحية أخرى أرادوا الظهور فى مظهر حماة الدين والمدافعين عنه ، لكى يوطدوا دعائم دولتهم ويخفوا وراء ذلك أصلهم المملوكى .

ابتدأ عهد الظاهر بيبرس (٦٥٩ ـ ٦٧٧ هـ) عندما اهتم باصلاح ما أفسده حريق سنة (٦٥٤ هـ) للمسجد النبوى بالمدينة . وكان سبب الحريق الثورة البركانية فى أحد وديان المدينة تلقاء جبل أحد التى سببت زلازل هدمت كثيرا من الدور ونشبت النار فى الحرم النبوى وأثارت الكثير من الرعب فى نفوس سكان الحجاز كله ويصف (قطب الدين) النار البركانية ـ نقلا عن أبى شامة ـ (ثم ظهر لها دخان عظيم فى السماء ينعقد حتى يبقى كالسحاب الأبيض وللنار ألسن حمر صاعدة فى الهواء وبقى الناس فى مثل ضوء القمر ، وصارت النار قدر المدينة العظيمة ... وكان اشتعالها أكثر من ثلاث منائر وهى ترمى بشرر كالقصر وشررها

---

(١) المأمونى : تهنئة أهل الاسلام ، ورقة ٢ ـ ٣ .
(قال صلى الله عليه وسلم « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الأقصى والمسجد الحرام ومسجدى هذا » . رواه البخارى) .

(٢) ابن بهادر : فتوح النصر ج ١ ورقة ٢١٢ .

صخر كالجبال ، وسال من هذه النار واد يكون مقداره خمسة فراسخ وعرضه أربعة أميال وعمقه قامة ونصف وهو يجرى على وجه الأرض)(١) .

ولم تبق النار على شيء فى سقف المسجد وجدرانه وزخارفه . فبدأ المستعصم العباسى اصلاحه سنة ٦٥٥ هـ . ثم كانت وقعة بغداد وسقوط الخلافة العباسية ومقتل المستعصم سنة (٦٥٦ هـ) ، فحاول ابن رسول اليمنى اتمام ما بدأه الخليفة العباسى . الا أنه بمجيء سنة (٦٥٩ هـ) وانتهاء النزاع الداخلى فى مصر بفوز الظاهر بيبرس بالسلطنة سارع الى اكمال ما بدأه السابقون . فبنى باقى المسجد من باب الرحمة الى شمال المسجد ، ثم الى باب النساء ، ثم كمل سقف المسجد(٢) . وأخرج المنبر الذى كان ابن رسول قد أرسله سنة ٦٥٦ هـ ، ووضع منبرا غيره عام (٦٦٦ هـ) . وظل هذا المنبر بغير تغيير حتى كانت سنة ٧٩٧ هـ (٣) .

ولما حج السلطان بيبرس (٦٦٧ هـ) جعل على الحجرة النبوية درابزين من خشب وهو المقصورة(٤) ، التى حسنت بعد ذلك فزيد من أبوابها وأعيد صنعها من النحاس الأصفر المنقوش وزينت بالذهب والفضة والياقوت والزمرد(٥) .

---

(١) قطب الدين : تاريخ المدينة ، ورقة ١٣٣ .
المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٩٨ .
ابن حبيب : درة الأسلاك ج ١ ورقة ١١ .
على حافظ : تاريخ المدينة ص ٢٩ . (يرى ان النار لم تسببها زلازل البركان ، بل احد خدم المسجد النبوى) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٢١ .
المطرى : التعريف بما انست الهجرة ، ورقة ١٤ .
قطب الدين : تاريخ المدينة ، ورقة ١٣٣ .
المراغى : تحقيق النصرة ، ورقة ٢١ .
ابن بهادر : فتوح النصر ج ١ ورقة ١٠٥ .
البرزنجى : نزهة الناظرين ص ١٧ - ١٨ .

(٣) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ١ ص ٣٧٥ .
قطب الدين : تاريخ المدينة ، ورقة ١٢٠ .

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٥٠٣ .
السخاوى : التحفة اللطيفة ج ١ ص ٣٧٥ .
السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٦ .
ابن بهادر : فتوح النصر ج ١ ورقة ١٣٦ .

(٥) المراغى : تحقيق النصرة ، ورقة ٢٤ .
ابن بهادر : فتوح النصر ج ١ ورقة ٢١٢ .
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٢١٥ - ٢١٦ .

أما عمل بيبرس فى البيت الحرام فلم يتجاوز التحلية والعناية ، وارسال بعض الهدايا الرمزية كالقفل والمفتاح الثمينين اللذين أرسلهما للتدليل على حمايته للبيت الحرام ٠

أما المنصور قلاوون (٦٧٨ ــ ٦٨٩ هـ) فقد أجرى اصلاحات فى الحجرة النبوية اذ بنى عليها قبة خشبية مصفحة بالرصاص سنة (٦٧٨ هـ)(١) ٠

ثم كانت اصلاحات أخرى أيام الناصر محمد بن قلاوون فى فترة الاستقرار فى سلطنته الثالثة (٧٠٩ ــ ٧٤١ هـ) وكان قد أعاد اصلاح سقف المسجد الذى جدده بيبرس فى المدينة فى أول سلطنته(٢) ٠ وفى سنة (٧٢٩ هـ) أمر بزيادة رواقين فى أروقة المسجد فاتسع ظله وانتفع بذلك الناس(٣) ٠

وفى نفس السنة ندب السلطان الأمير علاء الدين على بن هلال لعمارة حرم مكة ، وكانت سقوفه قد تداعت وتهدم فيه عدة جدر ونفذ ابن هلال أوامر السلطان وزاد على ذلك تفجير عين وانشاء مياضى للتيسير على الناس(٤) ٠

وبين سنة (٧٣١ ــ ٧٣٣ هـ) قام السلطان الناصر بتغيير باب الكعبة وأتى بباب جديد من الخشب السنط الأحمر وصفحه ــ فوق الخشب ــ بصفائح من الفضة التى بلغت اثنين وثلاثين ألف درهم(٥) ٠ يحدثنا ابن حبيب أن ذلك أحدث

---

(١) قطب الدين : تاريخ المدينة ، ورقة ١٣٣ ٠
المراغى : تحقيق النصرة ، ورقة ٢٥ ٠
البرزنجى : نزهة الناظرين ص ٧٥ ٠
الصباغ : تحصيل المرام ، ورقة ٣٦ ٠
محمد صادق : دليل الحج ص ١١٥ ٠
على حافظ : تاريخ المدينة ص ١١٥ ٠

(٢) البرزنجى : نزهة الناظرين ص ١٧ ٠

(٣) المصدر السابق ص ١٨ ٠

(٤) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٩٠ ، ٣٠٣ ٠
ابن الوردى : تتمة المختصر ج ٢ ص ٢٨٤ ٠

(٥) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ج ١ ص ٩٩ ٠
محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ٦٤ ٠
النهروالى : الأعلام ص ٣٧ ٠
الفاسى : العقد الثمين ج ٢ ص ٢٠٦ ٠
ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث ٧٣١ ، ٧٣٣ هـ ٠
المأمونى : تهنئة أهل الاسلام ، ورقة ٤ ٠
الصباغ : تحصيل المرام ، ورقة ٢٣ ٠

موجة سرور عظيمة للحجاج بسبب وضع الباب الجديد . وكان ابن حبيب حاضرا موسم الحج تلك السنة(١) . ويبدو غريبا ما يقوله المؤرخون من أن الناصر حسن ابن محمد بن قلاوون عاد فغير باب الكعبة مع أنه لم تكن قد مضت عليه مدة طويلة منذ أقامه والده(٢) . لذا فقد رجح صاحب «الأرج المسكى» أن الباب قد قلع لزيادة تحليته فقط ، ثم أعيد محلى(٣) . وكذا قال أبو الطيب(٤) .

وفى عام (٧١٨ هـ) حاول الوزير على شاه - وزير أبى سعيد بن خربندة - أن يحلى الكعبة بحلقتين من الذهب مرصعتين باللؤلؤ والبلخش كل حلقة وزنها ألف مثقال وفى كل حلقة ست لؤلؤات فاخرات وبينها ست قطع بلخش فمنعه أمير الركب المصرى الا أن يأذن السلطان الناصر ، لكن رسل الخاقان ما زالوا بأمير الركب حتى رضى فعلقت الجواهر بالكعبة ولم تبق الا فترة قليلة ، اذ انتهبها أمير مكة ثقبة بن أبى نمى(٥) .

وفى سلطنة الناصر حسن بن محمد بن قلاوون شبت بمكة حريق تسبب فيه أحد النازلين بمكة ، فنال شرار الحريق الأعمدة المحيطة بالكعبة ، فاحترقت السقوف والأعمدة ثم امتدت النار الى بقية أجزاء الكعبة ، واستمرت متقدة عشرين يوما دون أن يتمكن الناس من اطفائها . فأصلح الناصر حسن ما تهدم (٧٥٩ - ٧٦٠هـ) ورمم ما تداعى(٦) ثم ما لبث الظاهر برقوق (٧٩٢ - ٨٠١هـ) أن جهز مالا لعمارة ما لم يرق له مما صنعه الناصر حسن . وقام بذلك أمير الركب الرجبى من قبل السلطان(٧) . كما قلع المنبر الذى وضعه بيبرس بالمسجد النبوى

---

(١) ابن حبيب : درة الأسلاك ج ١ ورقة ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٢) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ٢٧٦ .

(٣) محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ٦٤ .

(٤) أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ٢٤ .

(٥) الأسدى : أخبار الكرام ، ورقة ٥٢ .
أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ٢٤ .

(٦) الأسدى : أخبار الكرام ، ورقة ٥٩ .
الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٧) النهروالى : الأعلام ص ١٨٧ .
محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ٧١ .

ووضع بدله منبرا من عنده سنة ٧٩٧هـ(١) . وكان الحريق الثانى بالكعبة عام ٨٠٢ هـ فى سلطنة فرج بن برقوق (٨٠١ ـ ٨١٣ هـ) وسبب ذلك اندلاع النار فى رباط مشرف على الحرم هو رباط (رامشت) (أى الشيخ أبو القاسم ابراهيم ابن الحسين الفارسى وكان قد وقفه منذ سنة ٥٢٩هـ) فترك بعض الصوفية سراجا موقدا فى خلوته فسحبت فأرة فتيلة السراج منه الى خارجه فأحرقت ما فى الخلوة واشتعل سقف الحجرة ، فخرجت ألسنة النار من شباك الرباط المشرف على الحرم فاتصلت بسقف الحرم ، فاستعل السقف بسرعة بخشبه الثمين وعم الحريق الجانب الغربى من الحرم كله وأتت النار على أكثر السقف وكادت تقضى على البيت الحرام بأكمله لولا حصول سيل بمكة فى ذلك الوقت أطفأت مياهه النار المتقدة(٢) . وسارع السلطان فرج الى ارسال أمير الحاج بيسق الشيخى سنة ٨٠٣هـ لعمارة ما احترق من الحرم بعث معه التاجر برهان الدين المحلى الكارمى وعشرة آلاف دينار للنفقات(٣) .

ووصل بيسق الى مكة فشرع بازالة الركام بعد موسم الحج وحفر التراب حتى كشف عن أساس المسجد فعمقه وقواه ثم عاد الى مصر فجلب معه خشبا روميا سقف به ما احترق واستمر العمل الى عام ٨٠٧هـ(٤) .

وسقط بعد قليل عقد المروة فأعاد الناصر فرج بناءه . أما المؤيد شيخ المحمودى (٨١٣ ـ ٨٢٤ هـ) فقد قام باصلاحات تكميلية فى بعض أجزاء الكعبة سنة (٨١٤هـ) (٥) ، ثم بعث مع الحاج أحمد خواصة سنة (٨١٦هـ) فزاد فى

---

(١) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ١ ص ٤٧ .
البرزنجى : نزهة الناظرين ص ٥٢ .
على حافظ : تاريخ المدينة ص ٦١ .

(٢) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الاسلام ، ورقة ١٦٠ .
النهروالى : الاعلام ص ١٢٩ .
ابن محب الدين : أعلام الأعلام ، ورقة ٤٦ .
ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث ٨٠٢ هـ .
محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ٧١ .

(٣) الصباغ : تحصيل المرام ، ورقة ١٠٧ .
ابن محب الدين : أعلام الأعلام ، ورقة ٤٧ .

(٤) النهروالى : الاعلام ص ١٩٥ .
الأسدى : أخبار الكرام ، ورقة ٥٩ .

(٥) ابن محب الدين : أعلام الأعلام ، ورقة ٤٧ .

تحلية الجانب الأيمن من الكعبة بالفضة والذهب(١) وأرسل المؤيد شيخ منبرا للحرم المكى سنة ٨١٨هـ · كما أرسل منبرا للحرم النبوى سنة ٨٢٠هـ(٢) ·

وتولى بعد ذلك الأشرف برسباى (٨٢٥ ـ ٨٤١ هـ) السلطنة وصمم على أن يتفوق على سابقيه فى عمارة الحرمين ، فأمر الأمير مقبلا القديدى بعمارة عدة أماكن بالحرم كانت قد خربت فقام بعمارتها على أحسن وجه وأصلح بوابات الحرم واستقدم لعمل ذلك كله معماريا معروفا هو جمال الدين يوسف المعمار · وفى سنة (٨٢٦ هـ) قلع مقبل القديدى رخاما تالفا بداخل الكعبة واستبدله برخام جديد · كما أصلح ما بجوفها من الأساطين ثم أصلح أسطوانة مائلة بسقف البيت الحرام ·

(وكتب اسم السلطان الأشرف فى لوح رخام ونقشه بالذهب وركبه فى جدار البيت الشريف(٣) ·

ومما يذكره المؤرخون من أعمال برسباى عمارته للحجر الأسود بتجديد ما حوله وتقوية احتياطيات صيانته · وكان الناصر محمد بن قلاوون قد اعتنى به ، كما اعتنى به الأشرف شعبان والظاهر برقوق ، فلما أمر برسباى مقبلا القديدى باصلاح بناء البيت عمد القديدى الى تعمير الحجر الأسود سنة (٨٢٦هـ)(٤) · وما أن جاءت سنة (٨٣٨هـ) حتى كان سودون المحمدى مبعوث برسباى قد انتهى من عمارة سقف الكعبة وهدم المنارة التى على الباب الأيمن للمسجد وبناها من جديد أعلى مما كانت(٥) ·

---

(١) ابن محب الدين : أعلام الأعلام ، ورقة ٤٧ ·

(٢) النهروالى : الأعلام ، ورقة ٤٧ ـ ٤٨ ·
ابن محب الدين : أعلام الأعلام ص ٤٧ ـ ٤٨ ·
السخاوى : التحفة اللطيفة ج ١ ص ٤٧ ـ ٤٨ ·
البرزنجى : نزهة الناظرين ص ٥٢ ·
على حافظ : تاريخ المدينة ص ٦١ ـ ٦٢ ·

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ، حوادث سنة ٨٢٦ هـ ·
ابن محب الدين : أعلام الأعلام ، ورقة ٤٩ ·
النهروالى : الاعلام ص ٢٠٧ ·
الصباغ : تحصيل المرام ، ورقة ١٠٩ ·

(٤) الصباغ : تحصيل المرام ، ورقة ٥٨ ·

(٥) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٧٢٨ ·

أما فى مدينة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد جدد برسباى الرواقين اللذين بناهما الناصر محمد بن قلاوون ، كما سمر أبواب الدرابزين حول الحجرة النبوية(١) ٠

ولما ولى السلطنة الظاهر جمقق (٨٤٢ ـ ٨٥٧ هـ) قام بعدة اصلاحات فى الحرمين ففى سنة (٨٤٣ هـ) أمر باعادة قلع بلاط وسط الكعبة لفساده بهطول مطر عليه ووضع مكانه بلاطا جديدا ٠ وكانت الأوتاد الخشبية الموضوعة فى سطح الكعبة والتى تستعمل لتشد حبال الكسوة اليها قد تآكلت ، فغيرها وجرد الكعبة من كسوتها الخارجية ٠ واستمرت مجردة يومين وليلتين الى أن كمل ترميمها واصلاحها ، وأعيدت الكسوة اليها ٠ كما أصلح رخام الحجر وبيض بعض مآذن أبواب الكعبة وأصلح بعض أجزاء السقف والرفوف الدائرة بسطح البيت ومقام ابراهيم ٠ كما عمر بعض أماكن بمنى والمشعر الحرام وسوى الطريق بين الصفا والمروة ، فانتفع بذلك الحجاج كثيرا ٠ وبدأت حركة تعمير جديدة فى سلطنة جقمق سنة (٨٥٢هـ) ٠ فلأول مرة كسى الحجر الأسود(٢) ثم بدأ شاد الحرم الجديد خليفة سودون المحمدى ببناء جدار المسجد الشرقى وجدد أجزاءه من الرواق الشامى وكان آخر ما أجرى من اصلاحات فى سلطنة جقمق بناء بعض أجزاء سقف البيت الحرام(٣) ٠

ثم كان عهد الأشرف قايتباى (٨٦٩ ـ ٨٩٧ هـ) فبدأ منذ تولى السلطنة الاهتمام بالحرمين ، ورعاية مشاعرهما ، ففى سنة (٨٧٣هـ) ابتدأ ناظر الحرم من قبله الأمير شاهين فى اصلاح الجانب الشمالى من المسجد بالخشب والجص ، كما رمم مقام الأئمة الأربعة والحجر وجهة زمزم(٤) ٠

وفى سنة (٨٧٩ هـ) بعث قايتباى الى المسجد الحرام منبرا جديدا ، وغير رخام الحجر الأسود المحيط به من الداخل والخارج ، وسدت الشقوق التى بين أحجار المطاف داخل البيت ، وحرص على أن تأتى كسوة الكعبة بانتظام كل عام ،

---

(١) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ١ ص ٣٥٤ ٠

(٢) الصباغ : تحصيل المرام ، ورقة ٥٨ ٠

(٣) ابن محب الدين : أعلام الأعلام ، ورقة ٤٩ ـ ٥٠ ٠
النهروالى : الأعلام ص ١٤٥ ٠
الصباغ : تحصيل المرام ، ورقة ١١٠ ٠
السخاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ٦ ٠

(٤) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٥٨٤ ٠

وأنشأ مدارس وأربطة فى مكة والمدينة(١) · وهذه المنشآت سوف نتحدث عنها فى الفصل الاجتماعى من هذه الدراسة ·

وفى الثالث عشر من رمضان سنة (٨٨٦ هـ) حصل رعد قاصف هلع منه سكان المدينة ثم سقطت صاعقة على المنارة الرئيسية بالمسجد النبوى فقتلت المؤذن وثقبت سقف المسجد وسقف الحجرة النبوية وعلقت النار بالمسجد ، سقوفه وجدرانه وأبوابه · واجتمع أمير المدينة وأهلها على أن يستطيعوا اطفاءها فلم يتمكنوا · بل حاصرت النار منهم جماعة فاحترق ما يزيد على العشرة أنفس ، وكان من رحمة الله أن لم تمتد النار الى بيوت المدينة المجاورة للمسجد · واحترقت أكثر أجزاء المسجد بما فيه من مصاحف وكتب ومستودعات وخزائن ولم يسلم الا القبة المعقودة فوق الحجرة النبوية فى الوقت الذى ذابت فيه الأسطوانات الرصاصية لشدة حرارة النار(٢) · ووصل الخبر الى القاهرة ، فجزع السلطان لهول ما حدث ، ورأى فى اعادة بناء المسجد (مزيد التشريف له وكمال التعريف به وأنه كرامة من الله تعالى أكرمه بها وذخيرة يرجو الفوز بسببها)(٣) كما يقول (السمهودى) مؤرخ المدينة المعاصر لقايتباى · وسارع السلطان الى الأمر بايقاف كل العمارة التى كانت جارية بالحجاز وبمكة على الخصوص ، وكتب الى سنقر الجمالى ناظر العمارة بمكة أن يتوجه بكل ما معه من أدوات ورجال الى المدينة للبدء ببناء مسجدها المحترق · كما أرسل زهاء مائة صانع من البنائين والنجارين والنشارين والدهانين والحجارين وكثير من الحمر والجمال مع الأمير شاهين والأمير قاسم شيخ الحرم الشريف ، ومبلغ عشرين ألف دينار ، وأرسل الآلات والمؤن برا وبحرا حتى كثرت بالدينة وينبع والطور · وكانت هذه هى القافلة الأولى ، وتلتها قافلة أكبر منها حجما وأكثر تجهيزا بقيادة شمس الدين بن الزمن ، وكان والى جدة ، ومشهور بخبرته فى مضمار البناء · ثم تتالت امدادات المؤن والمعدات · وبدأت الأعمال بجد ونشاط فهدم ابن الزمن المنارة الرئيسية الى أساسها ، كما هدم أكثر سور المسجد المحروق ، ثم أعاد مقدم سقف المسجد سقفا واحدا ·

---

(١) محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ١٣٢ ·
الصباغ : تحصيل المرام ، ورقة ٥٨ ·
ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٦٤٣ ·
السمهودى : وفاء الوفاء ص ٦١٨ ·

(٢) السمهودى : خلاصة الوفاء ، ورقة ٦١ ـ ٧٣ ·
النهروالى : الأعلام ص ١٥٤ ·
البرزنجى : نزهة الناظرين ص ١٨ ·
على حافظ : تاريخ المدينة ص ١١٤ ـ ١١٥ ·

(٣) السمهودى : وفاء الوفاء ص ٦٣٩ ·

وقصر أساطينه وجعل عليها عقودا من الأجر فوق أخشاب السقف ، وعقد قبة على المحراب المسمى (العثمانى) . كما أقام فوق الحجرة النبوية ـ ولأول مرة ـ قبة عظيمة على دعائم بأرض المسجد وبعقود من الآجر بدلا من الخشت ودعم القبة حتى لا تتخلخل وأجريت اصلاحات أخرى انتهت سنة (٨٨٨ هـ) تقريبا(١) .

وبلغ من حرص السلطان على اتقان البناء أن بعث سنة (٨٨٩ هـ) جماعة من البنائين لاصلاح ما رآه من تساهل فى بعض أجزاء السقف(٢) . ثم جاء الأمير شاهين الجمالى فهدم المنارة الرئيسية وبناها ثانية بسبب ميل حدث فيها لضعف أساسها ثم تشققت القبة التى فوق الحجرة النبوية فاعاد الأمير بناءها بالجبس بعد أن أنقص قليلا من حجمها وذلك فى عام ٨٩٢ هـ(٣) . وختم السمهودى وصفة الطويل لأعمال البناء والانفاق على المسجد النبوى بقوله : (من تأمل ما سبق من العمل عقب الحريق الأول ٦٥٤ هـ وطول مدته وأحاط علما بما أسلفناه عن سلطان زماننا الأشرف قايتباى فى عمارته حكم يقينا بعلو همته وفخار منقبته ومرتبته)(٤) .

وقد بنى قايتباى منبر المسجد النبوى هذه المرة من الرخام(٥) وقد استمرت عمارة المماليك فى الحجاز طوال عصرهم وبعد انتهاء عمارة قايتباى هناك اعتلى سدة الحكم السلطان الغورى . وفى أيامه أرسل خايربك العلائى ناظر جدة لعمارة الحجر الأسود فأحاطه أولا بحجارة منحوتة ، ثم رأى أن الرخام أفضل ، فأزال ما صنعه أولا وأحاطه برخام من الداخل وبحجارة من الخارج . ثم نقض ذلك بأمر السلطان وأعيد بالرخام الأبيض والأسود ، فقط خمسة مداميك رخام أبيض

---

(١) السمهودى : وفاء الوفاء ص ٦٤٣ ـ ٦٤٥ .
النهروالى : الأعلام ص ٢٢٢ .
محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ١٣٢ .
ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩٠١ هـ .

(٢) السمهودى : خلاصة الوفاء ، ورقة ٦٥ .

(٣) البرزنجى : نزهة الناظرين ص ٧٧ .
محمد صادق : دليل الحج ص ١١٥ .

(٤) السمهودى : خلاصة الوفاء ص ٦٥ .

(٥) على حافظ : تاريخ المدينة ص ٦١ .
البرزنجى : نزهة الناظرين ص ٥٢ .

وأربعة أسود · وكان ذلك بين سنة ٩١٥ ـ ٩١٧ هـ وفى عهده أيضا أعيدت عمارة باب ابراهيم ورمم محراب المقام(١) ·

ولم يهتم السلاطين فى الحرمين بالعمارة والتجديد فقط ، بل شملت عنايتهم ما حول الحرمين من قرى ومساجد · كما اهتموا بالبناء والتعمير فى ينبع وجدة وغيرهما · من ذلك ما قام به الأمير يلبغا الخاصكى من قبل الناصر حسن بن محمد ابن قلاوون سنة ٧٦٠ هـ من بناء مسجد بالمزدلفة وهو مسجد صغير مربع ليس بطويل الحيطان(٢) · وفى عهد الظاهر برقوق سنة (٧٩٩ هـ) بنى مسجد على جبل الرحمة من جبال عرفة بمكة ، كما أنشأ فيه خزان ماء(٣) · وفى سنة ٨٠٤ هـ أمر السلطان فرج بن برقوق قاسم المحلى شيخ خدام المسجد النبوى بتجديد مسجد قباء(٤) ثم سقطت منارته سنة (٨٧٧ هـ) فجددها الشمس بن الزمن أيام قايتباى وأصلح سقف المسجد أيضا(٥) · وفى أيام برسباى سنة (٨٢٩ هـ) أرسل سعد الدين بن المرة فعمر جامع جدة ورتب عليه خطيبا للجمعة ومؤذنا وفراشا ومكبرا وجدد المئذنة وجعل نفقة هؤلاء الموظفين على المراكب الواردة الى جدة · وأقام فى الجامع اماما حنفيا(٦) · ونقل للسلطان جقمق سنة (٨٤٣ هـ) أن مسجد (نمرة) بعرفة قد تداعى ، فأرسل الأمير سودون المحمدى فعمره · ثم جدد مرة ثانية أيام قايتباى سنة (٨٧٤ هـ)(٧) ·

أما قايتباى فقد تميز على جميع من سبقه من السلاطين بكثرة عمائره فى الحجاز من ذلك أنه أنشأ مسجد الخيف بمنى وأقام عليه قبة وبنى الى جانبها مئذنة سنة (٨٧٤ هـ) وجدد مسجد نمرة بعرفة كما قدمنا · وبنى قبة عرفة وسلالم

---

(١) ابن فهد : اعلام الأعلام ، ورقة ٥٠ ·
محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ٧٩ ·
الصباغ : تحصيل المرام ، ورقة ٥٨ ·

(٢) الفاسى : شفاء الغرام ص ٩٦ ·

(٣) نفس المصدر : ص ٨٨ و ٩٥ ·

(٤) محمد كبريت : الجوهرة الثمينة ، ورقة ٥٣ ·

(٥) المصدر السابق ، ورقة ٥٣ ·
السخاوى : التحفة اللطيفة ج ١ ص ٥٧ ·

(٦) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٣٨٥ ·

(٧) الفاسى : شفاء الغرام ج ١ ص ٣٢٦ ·

المسجد الحرام بالمزدلفة كما أصلح بئر زمزم والمقام(١) · هذا وقد حرص السلاطين على اقامة الأربطة والخانقاوات لتنظم المنقطعين والمتعبدين والصوفية بالحرمين وأوقفوا عليها أوقافا كثيرة حتى صارت ميزة من مميزات دولتهم · من ذلك الرباط الذى أقامه بيبرس الجاشنكير وأوقف عليه بالمدينة(٢) ، ورباط العباسى بالمسعى بمكة الذى كان مطهرة أقامها لاجين المنصورى(٣) فحولها الناصر محمد بن قلاوون الى رباط(٤) ومنها رباط بزقاق (أجياد) بمكة أقامه الوزير تقى الدين عبد الوهاب ابن عبد الله المعروف بابن أبىشاكر سنة (٨١٥ هـ) وأكمله بعد وفاته فخر الدين عبد الغنى بن أبى الفرج ، ويذكر الفاسى أن الفقراء كانوا ما زالوا فيه فى زمنه(٥) · ورباط أنشأته زوجة الملك الأشرف اينال سنة (٧٦٥ هـ)(٦) ·

على أن أشهر الأربطة الذى أنشأه الخواجا شمس الدين بن الزمن بأمر الأشرف قايتباى سنة (٨٧٢ هـ) وقد أراد ابن الزمن أن يحظى برضى مولاه فاشترى عدة أماكن ملاصقة للمسعى بالحرم وهدمها ثم لما لم يكف المكان للبناء عليه أخذ أذرعا من أرض المسعى فمنعه ابن ظهيرة قاضى مكة الشافعى ورفع الأمر الى السلطان وشايعته فى ذلك العامة الا أن السلطان وافق أميره وأمر بعزل القاضى عن منصبه ثم أرسل جندا مع أمير الحاج (يشبك الجمالى) أجبروا العامة على الرضى بالأمر الواقع وجعل فى جانب الرباط ميضأة ومطبخا للدشيشة توزع على الفقراء(٧) · كما فعل نفس الشىء فى المدينة المنورة(٨) وأوقف على ذلك أوقافا

---

(١) البكرى : الخميس ج ٢ ص ٣٨٨ ·
السخاوى : الضوء اللامع ج ٦ ص ٢٠٦ ·
ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٥٩١ ·
الفاسى : شفاء الغرام ج ١ ص ٣٢٤ ·
ابراهيم طرخان : دولة المماليك الجراكسة ص ٣١٧ ·

(٢) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ١ ص ٣٧٥ ·

(٣) الفاسى : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٢٢ ، ج ١ ص ١٦٠ ·

(٤) الفاسى : شفاء الغرام ص ١١١ ·

(٥) المصدر السابق : ص ١١٠ ·
الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١١٩ ·

(٦) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١١١ ·

(٧) البكرى : الخميس ج ٢ ص ٣٨٨ ·
السخاوى : الضوء اللامع ج ٦ ص ٢٠٦ ·

(٨) محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ١٣٢ ·
النهروالى : الأعلام ص ٢٨٨ ·

كثيرة بمصر · ويذكر النهروالى أن الأوقاف الخاصة بدشيشة مكة بطلت فى أيامه (وبيعت القدور بل والدور)(١) ·

ورغم كثر انفاق قايتباى فى المسجد الحرام وغيره من منشآته بالحجاز ، فقد كره الناس منه طريقته العنيفة فى فرض ما يريده ، وان خالف الشرع أو الرأى العام · لذا علق (النهروالى) على اغتصاب أجزاء من المسعى لانشاء رباطه ، (بالله العجب من ابن الزمن كيف ارتكب هذا المحرم باجماع المسلمين طالبا به الثواب ؟ وكيف تعصب له سلطان عصره الأشرف قايتباى مع أنه أحسن ملوك الجراكسة عقلا ودينا وخيرية ؟ وهو يأمر بفعل هذا الامر المجمع على حرمته فى مشعر من مشاعر الله تعالى ، وكيف يعزل قاضى الشرع الشريف لكونه نهى عن منكر ظاهر الانكار(٢)) · ويحاول النهروالى أن يعلل تعنت قايتباى فيرده الى خصيصة رأى أنها موجودة فى كل سلاطين الجراكسة (كانت الجراكسة لهم تعصب وقيام فى مساعدة من يلوذ بهم ولو على الباطل) بالاضافة الى أن السلطان رأى فى تحدى أميره تحديا له ·

واذا كان السلاطين قد حرصوا على اقامة الأربطة ليسكنها الفقراء الصوفية فيدعون للسلطان ويملأون سماء الحرمين بالتكبير والتهليل ، فقد عملوا على التيسير للحجاج فى ازدحام موسم الحج بانشاء المياضىء أو المطاهر · وكان أول ما أنشىء منها أيام المماليك ما أنشأه المنصور قلاوون سنة (٦٨٦ هـ) فقد عمل ميضأة غاية فى الاتساع والانتفاع ، ثم أنشئت بالمدينة مطاهر أخرى فيما بعد أهمها تلك التى أنشأها الأشرف قايتباى لسكان الرباط الذى أقامه بالمدينة(٣) ·

أما أكبر مياضىء مكة وأكثرها نفعا للناس فتلك التى أنشأها الناصر محمد ابن قلاوون سنة (٧٢٨ هـ) عند باب بنى شيبة وكان أن اشترى موضعها من الشريفين عطيفة ورميثة ابنى أبى نمى بخمسة وعشرين ألف درهم(٤) · ثم أنشأ

---

(١) النهروالى : الأعلام ص ٢٨٨ ·

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٨ ·

(٣) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ١ ص ٥٢ ·

(٤) أبو البقاء : تاريخ مكة ، ورقة ١٠٨ ·
محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ٣٣ ·
ابو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ٩٦ ·
الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٢٢٧ ·

الأمير صرغتمش الناصرى ـ أحد كبار الأمراء فى دولة الناصر حسن بن محمد ابن قلاوون مطهرة عـام (٧٥٩ هـ) وجـــددت عـام (٨٠٨ هـ) ثم عـام (٨١١ و ٨١٣ هـ) وأوقف عليها أوقافا(١) ٠

وفى سلطنة محمد على بن حاجى (٧٦٢ ـ ٧٦٥ هـ) (٢) أقام الأمير طيبغا ابن عبد الله المعروف بالطويل مطهرة بأسفل مكة بقرب باب العمرة وأوقف عليها أوقافا ٠ وهناك مطهرتان احداهما للرجال وأخرى للنساء عمرتهما خوند بنت ابن خصبك زوجة الملك الأشرف اينال سنة (٧٦٥ هـ) (٣) لكنها لم تتمهما ٠ ولما كانت سلطنة الأشرف شعبان (٧٦٥ ـ ٧٧٨ هـ) عمر مطهرة بالمسعى قبالة المسجد الحرام وأوقف عليهـا بمكة والقاهرة سـنة ٧٧٦ هـ(٤) ٠ وفى سنة ٧٩٦ هـ(٥) أوقفت امرأة متصوفة اسمها أم سليمان مطهرة خلف مطهرة الأشرف شعبان ٠ وفى سنة ٨١٧ هـ تخربت مطهرة الأشرف شعبان فأعاد بناءها الأمير زين الدين بركة أحد كبار رجال الدولة ذلك الحين(٦) ٠ ويذكر محيى الدين فى الارج المسكى أنه لم يبق فى زمنه بمكة الا خمس مياضىء ، واحدة منها أنشأها الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٢٨ هـ) وأخرى عمرها السلطان الغورى ، أما الثالثة والرابعة فمن انشاء ابن الزمن أيام الأشرف قايتباى ، أما الخامسة فمنسوبة الى كاتم سر الدولة فى زمنه(٧) ٠

كل هذا السابق يعطينا فكرة واضحة عما لقيه الحرمان من اهتمام فى عصر الدولتين المملوكيتين فى الجانب العمرانى ٠ حتى لقد أنشأوا منذ أيام الناصر محمد بن قلاوون منصبا خاصا لهذا الشأن هو منصب ناظر الحرم أو شاد العمارة.

---

(١) الفاسى : شفاء الغرام جـ ١ ص ١٣١ ٠
الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ١٢٨ ٠
ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٣ ورقة ١٩٤ ٠

(٢) الفاسى : العقد الثمين جـ ٥ ص ٧٥ ٠
الفاسى : شفاء الغرام جـ ١ ص ١٣١ ٠
أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ٩٦ ٠

(٣) الفاسى : شفاء الغرام ص ١٣١ ٠

(٤) المصدر السابق ص ١٣١ ـ ١٣٢ ٠

(٥) نفس المصدر ص ١٣٢ ٠
أبو البقاء : تاريخ مكة ، ورقة ١٠٧ ٠

(٦) أبو البقاء : تاريخ مكة ، ورقة ١٠٨ ٠

(٧) محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ٣٣ ٠

وكثيرا ما كان أمير الحاج هو الذى يتولى الانشاء والتعمير أو بعض المقيمين بمكة ممن يثق بهم السلطان لكن الأغلب أن يتولى ذلك ناظر العمارة الذى جرت العادة أن يعينه السلطان لهذه الغاية • فيقضى العام كله فى العناية بالحرمين وسد خللهما وزيادة حليتهما ووقايتهما من عسف الطبيعة والانسان •

٦ ـ حجات السلاطين وكبار رجال الدولة :

حرص سلاطين المماليك منذ بداية قيام دولتهم فى مصر على أن يؤدوا فريضة الحج ، لكى يخرجوا أمام العالم الاسلامى فى صورة الورع والتقوى من ناحية ، وحماة الدين والعقيدة الاسلامية من ناحية أخرى • فضلا عن أنهم أرادوا تثبيت سلطانهم فى الحجاز بالتردد عليه والنظر فى أحواله لوجود مقدسات المسلمين فيه • والتحبب الى أهله بالصدقات والاهتمام بهم حتى لا يقدموا أحدا عليهم فى الدعاء والخطبة • لذا كانوا يولون اهتمـاما كبيرا بالحج وحرصـوا على الظهور بمظهر الأتقياء فى مواسمه •

حجج من سلاطين المماليك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧ هـ والناصر محمد بن قلاوون ثلاث مرات فى سنوات ٧١٢ ـ ٧١٩ ـ ٧٣٢ هـ • ثم الأشرف قايتباى مرتين سنة ٨٧٧ ـ ٨٨٤ هـ وعزم المؤيد شيخ على الحج سنة ٨٢٠ هـ ثم تحول عن عزمه • وحاول الأشرف شعبان أن يحج سنة ٧٧٨ هـ لكنه قتل بايلة فى صراع مع الأمراء المماليك •

حجات السلاطين :

حجة الظاهر بيبرس :

كان الظاهر بيبرس منذ أن استتب له الأمر سنة ٦٥٩ هـ قد بدأ يتطلع للسـيطرة على الحجاز وبسط حمـايته على الحرمين ، فيقرن ذلك بنقله الخلافة العباسية الى مصر • وسلك لذلك مسلكا يحببه الى العامة ، فأرسل معدات ورجال وأموال لاعادة بناء المسجد النبوى الذى احترق سنة ٦٥٤ هـ وساعده الخلاف بين أمراء الحرمين على التدخل فى شئون الحرمين الداخلية ، فأصلح بين أميرى المدينة أولا ، ثم بلغه ما بين أميرى مكة من خصام وما فى مسلك أبى نمى أمير مكة الشريك من تذبذب ، فبعد أن أعلن ولاءه لبيبرس من ٦١هـ ـ ٦٦٢ هـ عاد فهدد وتوعد وقال : (لا تأتينى الا على البلق) ، كل هذا وضعه السلطان بيبرس فى اعتباره ، فعول على أن يحج ولم يتردد فى ذلك على الاطلاق وخرج مع خواصه

وقليل من مماليكه من القاهرة الى الكرك ومنها الى الشوبك حتى بلغ المدينة فخرج أميراها هاربين خوفا منه · فلم يهتم لذلك ، بل زار الحجرة النبوية ثم استمر فى سيره حتى بلغ مكة متنكرا فى قلة من رجاله بحيث لم يشعر أبو نمى الا وهو على أبواب مكة فى الثامن من ذى الحجة سنة ٦٦٧(١) · وقد طلع الناس كلهم الى عرفة ، ولم يبق الا أمير مكة الذى لم يعرف بيبرس الا من معه · (ولما سألهم ممن ؟ قال بيبرس قولوا له أنا الذى قلت له لا يجيئنى الا على البلق ، فقد جئناه على البلق ونحن محرمون كلنا ، هذا صاحب مصر ومعه الامراء الذين فى مصر والشام ، فان شئت أن تقتل فاقتلهم) (٢) · وخاف أبو نمى وتصاغر وسار مع السلطان ، ولكى يظهر حسن نواياه تنازل عن المكس الذى كان يأخذه من التجار والحجاج الشاميين والمصريين(٣) · وتصدق السلطان بمال عظيم على الفقراء والمجاورين وأهل الحرم وطاف منفردا لا يحجبه أحد وازدحم حوله الناس ومزقوا رداءه (وهو مستبشر بذلك) · وعلق كسوة الكعبة بيده وخواصه معه · وأحسن كثيرا الى أمراء الحجاز الا أميرى المدينة لفرارهما من وجهه ، وأصلح بين أميرى مكة وزادهما مالا وغلالا · وأقام نائبا عنه فى الحجاز · ثم بلغه ما تفوه به عبد الحق ابن سبعين فى الحرم من ألفاظ شنيعة تشعر بوحدة الوجود وتستر بستار الصوفية فطلبه أشد الطلب فترك مكة هاربا(٤) · ثم عاد السلطان مسرعا الى القاهرة(٥) ·

وكان من نتائج زيارته هذه تشديد قبضته على الحجاز التى سببت الرعب فى قلوب الامراء وربط الحجاز اقتصاديا بمصر · مما أغرى به الامراء من أعطيات وما أسقطه من مكس التزم فى مقابله بارسال مؤونة وأموال الحرمين ·

---

(١) ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ورقة ١٠٨ ·
الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١١٠ ·
ابن حبيب : درة الأسلاك ج ١ ورقة ١٤٠ ·
أبو الفداء : المختصر ج ٢ ص ٥ ·

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ٩٦ ·

(٣) نفس المصدر : ج ٣ ورقة ٩٨ ·
الجزيرى : درر الفوائد ص ٦٧٣ ·

(٤) ابن الوردى : تتمة المختصر ج ٢ ص ٢٦٩ ·
ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩ ·
ابن بهادر : فتوح النصر ج ١ ورقة ١١٦ ·

(٥) المقريزى : الذهب المسبوك ، ورقة ٨٦ ـ ٩٢ ·
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٤٦ ·

حجات الناصر محمد بن قلاوون :

الحجة الأولى سنة (٧١٢ هـ) : فى هذه السنة حضر مملوك نائب حلب الى القاهرة وأبلغ السلطان محمد بن قلاوون أن التتار قد زحفوا لغزو الشام • فأعد السلطان العدة بسرعة فى أسبوع ، ثم خرج بنفسه على رأس الجيش لرد عدوان التتار • وذلك فى أوائل شهر رمضان ، الا أنه ما ان بلغ مدينة غزة حتى جاءت الاخبار أن الغازين قد رجعوا لتصدى نائب الرحبة لهم • ولما بلغهم من زحف السلطان نحوهم(١) • ورأى السلطان أن يكمل طريقه فيحج ، ما دام الغزو لم يتم فى هذا العام ، ويحاول فى أيام الحج أن يسوى مشكلة الامارة بين أولاد أبى نمى والتى سببت له ولكثير من الحجاج الكثير من القلق • فأعاد بعض الامراء الى القاهرة وجزأ عساكره الى نواحى حمص وحلب وحصن الاكراد ، وترك بدمشق الأمير سيف الدين أرغون نائب السلطنة ، والصاحب أمين الدين لتحصيل الأموال وتقرير المصالح ، ثم توجه مع جماعة من مماليكه وأمرائه وقضاته للحج من دمشق • فزار قبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة • ثم حج فى حراسة مشددة • وتصدق بصدقات كثيرة ، وفر من وجهه أميرا مكة حميضة ورميثة ابنا أبى نمى ، ثم عاد الى المدينة فالكرك فدمشق فى ١١ محرم سنة ٧١٣ هـ(٢) •

الحجة الثانية (٧١٩ هـ) :

خرج السلطان الناصر هذه المرة من القاهرة على عزم الحج • مصطحبا معه ما بين الخمسين والستين أميرا ، والملك المؤيد أبو الفداء ملك حماه الذى أرخ لهذه الرحلة بالتفصيل ، وقاضى القضاة الشافعى بدر الدين بن جماعة ، ورئيس

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣٠ ورقة ٧٨ •
ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة ١٣٦ •
مؤلف مجهول : الجامع الظريف ، ورقة ١١٢ ـ ١١٣ •
ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٢ ورقة ١٢٣ •
سرور : دولة بنى قلاوون ص ١٢٥ •

(٢) ابن بهادر : فتوح النصر جـ ١ ورقة ٢٣١ ـ ٢٣٣ •
ابن حبيب : درة الأسلاك جـ ١ ورقة ١٩٣ ـ ١٩٥ •
ابن أيبك : كنز الدرر ص ٢٤٧ •
مؤلف مجهول : الجامع الظريف ، ورقة ١١٢ ـ ١١٣ •
العينى : عقد الجمان ، حوادث ٧١٢ هـ ورقة ٤٣٤ •

ديوان الانشـاء علاء الدين بن الأثير ، مع ركب ضخم كلف حوالى المليون درهم حتى لقد اصطحب معه ماء من النيل يكفى للرحلة ذهابا وايابا • كما حمل معه أوعية مزروعة بالخضروات ، فتقدم الخضر طازجة خضراء عند كل منزلة ووليمة • وكان هذه المرة عظيم التواضع فطاف ماشيا ، مخالفا لمشورة ابن جماعة ، الذى أشـار عليه بالطواف راكبا تشبها برسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ فأجابه السلطان (يا قاضى ومن أنا حتى أتشبه برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم) (١) وتزاحم الناس حوله فى الطواف وهو كأحدهم ، وتصدق بصدقات عظيمة هذه المرة • وكان ركبه ركبا مترفا ، يذكر أبو الفداء طرفا من ذلك فيقول : « ولقـد شاهدت من جزيل صـدقاته وانعامه فى هذه الحجـة ما لم أقدر أن أحصره • وانما أذكر نبذة منه ، وهو أنه سار فى خدمته ما يزيد على ستين أميرا أصحاب طبلخانات • وكان لكل منهم فى كل يوم فى الذهاب والاياب ما يكفيه من عليق الخيل والماء والحلوى والسكر والبقسماط وكذلك لجميع العسكر الذين ساروا فى خدمته • وكان يفرق فيهم فى كل يوم فى تلك المفاوز وغيرها ما يقارب أربعـة آلاف عليقة شعير •• وكان من جملة ما كان فى الصحبة أربعون جملا تحمل محاير الخضروات مزروعة •• وكان فى كل منزلة تحصـد من تلك الخضروات ما يقدم صحبة الطعام بين يديه ، وفرق فى منزلة رابغ على جميع من فى صحبته ••• بحيث كان أقل نصيب فرق فى الاجناد ثلثمائة درهم وما فوق ذلك الى خمسمائة درهم ، ونصيب الأمراء العشراوات ثلاثة آلاف درهم »(٢) • وأسـقط هذه المرة المكوس فى مكة والمدينة ، وعوض الامراء عنها بأوقاف فى مصر والشام ، وأحسن الى الحجاج العراقيين فتحسنت العلاقات بين مصر والعراق • ثم عاد الى المدينة المنورة ، فزار قبر الرسول ماشيا حافيا ، وعاد بعد ذلك مسرعا الى مصر على الطريق الذى يسلكه الحجاج(٣) •

---

(١) المقريزى : الذهب المسبوك ص ١٠٣ •
ابن حبيب : درة الأسلاك ج ١ ورقة ٢١٦ •
مؤلف مجهول : الجامع الظريف ، ورقة ١١٣ ـ ١١٤ •
ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ١٣٠ ـ ١٣٢ •
المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٩٧ •

(٢) أبو الفداء : المختصر ج ٢ ص ٨٦ ـ ٨٧ •
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٥٩ ـ ٦١ ، ١١٣ ـ ١٣٤ •
سرور : دولة بنى قلاوون ص ١٢٥ •

(٣) ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ورقة ١٣٧ •
ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٢٨ •
ابن بهادر : فتوح النصر ج ١ ورقة ٢٤٤ •
العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٧١٢ هـ •
النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ١٢٧ ـ ١٢٨ •

الحجة الثالثة (٧٣٢ هـ) :

فى هذه السنة حج السلطان الناصر للمرة الثالثة والأخيرة ومعه نحو من سبعين أميرا وصاحب حماة الأفضل والقاضى جلال الدين القزوينى وعز الدين بن جماعة وموفق الدين الحنبلى وعز الدين بن الفرات الحنفى وفخر الدين النويرى المالكى وجماعة من الاعيان وكثير من الجند ، مع بعض حريمه ، ووصل الى مكة قلقا لما بلغه من تآمر (بكتمر) خصمه القديم عليه • فصمم على التخلص منه ، فدبر له ولابنه ما تخلص منهما به(١) وكان ركبه ـ كعادته ـ عظيم الفخامة ، ولما وصل الى الحجاز أكثر من الصدقات ، وأظهر تواضعا جما ، وأهدى الى رميثة أمير مكة هدية عظيمة وكانت حجته هذه خير حجاته(٢) • لولا ما اتهم به من سم بكتمر وولده ، حتى صرخت زوجة بكتمر (يا ظالم ، أين تروح من الله ، ولدى وزوجى ، فأما زوجى كان مملوكك وولدى ايش كان بينك وبينه)(٣) وسكت السلطان ولم يجبها •

ويلاحظ أن حجات الناصر لم تكن حجات سياسية ، بل كانت لها دوافعها الدينية فى أعماق الناصر العميق الايمان ، بالاضافة الى خروجه بالمظهر الفخم البراق الباذخ • الذى عرف عنه طوال حياته ، وقد كانت حجاته تهييء له الفرصة للمبالغة فى ميله هذا •

أما الأمور السياسية ـ أثناء الحج ـ فكان يتركها لغيره • ويبعث بعد عودته جندا وأمراء يضعون حلولا للمشاكل الكثيرة التى خلقتها نزاعات أمراء مكة أو المدينة على السيطرة وحب الذات •

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ص ١٥١ ـ ١٥٢ •
المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٣٥١ •
ابن بهادر : فتوح النصر ج ١ ورقة ٢٦٥ •
ابن حبيب : درة الأسلاك ج ١ ورقة ٢٦٩ •
ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٧٣٢ هـ •

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١٠٦ •
سرور : دولة بنى قلاوون ص ١٢٥ •

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٢٩ •
المقريزى : الذهب المسبوك ص ١٠٨ •

حجتا الأشراف قايتباى :

الحجة الأولى سنة ٨٧٧ هـ : ولم يكن فى هذه الحجة قد أصبح سلطانا بعد ، بل كان أميرا للحاج فى تلك السنة ، ولم يكن لهذه الحجة أية اعتبارات سياسية أو غير ذلك بل كانت أداء لفريضة الله تعالى(١) ٠

الحجة الثانية سنة ٨٨٤ هـ : حج السلطان هذه المرة ، وهو آخر من حج من سلاطين المماليك بمصر ٠ فخرج من القاهرة ـ بعد خروج الحاج بثلاثة أيام ـ فى موكب حافل كبير ولما وصل الى بدر تلقاه نائب أمير مكة ومد له سماطا فخما ٠ ثم عرج على زيارة المدينة وقبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن يؤدى مناسك حجه وذهب الى هنـاك حيث استقبل أحسن استقبال وكان يكثر من التواضع لله عز وجل وفرق كثيرا من الصدقات فى المدينة قدرها السمهودى بستة آلاف دينار على الفقراء والمنقطعين والمتعبدين(٢) وطلب من السمهودى بأن ينظر فى الغاء مكس المدينة وأن يعوض أميرها عنه ٠ ثم ما لبث بعد ذلك أن توجه الى مكة المكرمة وتلقاه شريف مكة محمد بن بركات بالاكرام والطاعة ٠ وكذا خرج للقائه القضاة والاعيان وأهل مكة من رجال ونساء وأقام بالمدرسة التى أنشأها بمكة ٠ وكان يطوف ليلا ، ولازمه فى هـذه الحجة القاضى الشـافعى ابن ظهيرة وقاضى جدة الفخرى أبو بكر وامامه برهان الدين الكركى ٠ وكثرت صدقاته بمكة فى السر وكان موكبه موكبا فخما ٠ وقبل دعوات من شريف مكة الذى مد له الاسمطة الفاخرة ، وقد أحسن الى أمير مكة كما أن الامير أهداه هدايا جليلة من الخيل والابل(٣) ٠ ومن محاسنه التى عملها فى هذه الحجة ما ذكره صاحب (الجامع الظريف) الذى أرخ لهذه الحجة بشىء من الاسهاب فى الوصف ٠ فقد ذكر أنه أبطل ما يؤخذ على الصيادين من مكس بجدة ، ورسم باعادة النصف الآخر من مكوس عدن للسـيد الشريف محمـد بن بركات ٠ كما أنه لم يتعـاط أية محاكمات فى حجه وكثرت صدقاته وخيراته وأنه قرر بمدرسته أربع مشايخ من كل مذهب واحد وجعل معهم من الطلبة أربعون طالبا يحضرون فى كل يوم مجتمعين وأيام الدرس يجتمع كل شيخ مع طلبـة مذهبـه (وجعلهم من أهل

---

(١) البكرى : الخميس ج ٢ ص ٣٨٨ ٠

(٢) السمهودى : وفاء الوفاء ص ٦١٣ ٠

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٦٥٦ ـ ٦٥٧ ٠

الجزيرى : درر الفوائد ص ٦٨٣ ـ ٦٩٨ ٠

مكة) (١) · وبعد أن أنهى السلطان قايتباى مناسك حجه قفل راجعا الى مصر وقد سبقه اليها المبشرون ليعلنوا قرب وصوله(٢) ولان حجته هذه كانت قريبة العهد من أيام الجزيرى ، فقد أرخ لها بالتفصيل فى كتابه (درر الفوائد المنظمة) (٣) · كما أرخ لهذه الحجة (السمهودى) صاحب (خلاصة الوفاء) و (وفاء الوفاء) الذى كان قد حج مع السلطان فى تلك السنة(٤) ·

المؤيد شيخ والأشرف شعبان والحج :

عزم المؤيد شيخ المحمودى على الحج سنة (٨٢٠ هـ) ثم صرفه بعض أمرائه عن عزمه خوفا من وقوع قلاقل فى غيابه بالحجاز · فأقلع عن الحج ، وأرسل منبرا للمجسد(٥) ·

أما الأشرف شعبان ، فكان قد عزم على الحج سنة ٧٧٨ هـ رغم مرضه ، وثورة الأمراء الخفية عليه ، وتربصهم به ، وأشار عليه جماعة من خواصه بأن يؤجل سفره هذا العام ، فلم يلتفت الى قولهم (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) (٦) .

وقد كان الجراكسة قد تعاظم أمرهم ، وكان برقوق ينتظر الفرصة للانقضاض على السلطان وان كان ذكيا يعمل سرا لا يعلن عن نواياه · ويدفع غيره للاعلان عن السخط والثورة ، والنعى على السلطان لتقديم بعض الأمراء الذين لا يستحقون التقديم · ومضى السلطان فى الاستعداد للحج رغم ذلك كله ، حتى امتلأ الركب بالذهب والحرير وكل ما لذ وطاب (وخرج من القاهرة عشرون قطارا من الرواحل ، وثلاثون ألف علبة من الحلوى ، زنة ما فى كل علبة خمسة أرطال وجميعها قد عملت من السكر النقى ، وطيبت بمائة مثقال من المسك سوى

---

(١) مؤلف مجهول : الجامع الظريف ص ٦٥ ـ ٦٩ ·

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٦٥٦ ·
دحلان : خلاصة الكلام ص ٤٥ ·
شمس الدين محمد : مفاكهة الخلان ج ١ ص ٦ ·

(٣) الجزيرى : درر الفوائد ص ٦٨٢ ـ ٦٨٨ ·

(٤) السمهودى : وفاء الوفاء ص ٧١١ ـ ٧١٤ ·

(٥) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ١ ص ٤٧ ·
البرزنجى : نزهة الناظرين ص ٥٢ ·

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٦٩ ـ ٧٦ ·

الصندل والعود ٠٠) (١) ٠ وسار السلطان حتى بلغ (عقبة ايله) تاركا بعض الأمراء بمصر مصطحبا البعض الآخر معه ، وفجأة اصطنع مرافقوا السلطان من الأمراء مطالب لم يستطع السلطان اجابتهم اليها ، فتكاتفوا ضده وهزموه ، فعاد هاربا نحو القاهرة فتلقاه الجناح الآخر من المتآمرين ٠ وكانوا قد استولوا على دار السلطنة وأرغموا عليا الطفل ابن السلطان على الخروج أمام الناس ، وبايعوه سلطانا بحجة أن والده شعبان قد مات ٠ وحاول السلطان شعبان أن يختفى فلم يستطع ، فقتل ولم يحج(٢) ٠

حجات رجال ونساء كبار الدولة :

قلما مضت سنة دون أن يحج كبير من رجال الدولة ، فيترك آثارا جميلة بالحجاز ٠ وأمير الحاج نفسه كان غالبا من كبار الأمراء ، وسنحاول هنا أن نعرض لمحات لبعض من رجال ونساء الدولة المملوكية تلك التى نرى أنها تركت آثارا ظاهرة على الحياة بالحجاز ، أو كانت سببا لاحداث ظاهرة فى مصر والحرمين ٠ وأول ما يطالعنا فى هذا المجال حجة المجاهد ابن السلطان العادل كتبغا المنصورى سنة (٦٩٤ هـ) ٠ وأهمية هذه الحجة تكمن فى أمرين : تبييت كتبغا العزم على أن يجعل منه وليا لعهده ، بعد أن نجح مع أعوانه فى اقصاء الناصر محمد للمرة الأولى سنة (٦٩٤ هـ) ٠ أما الأمر الثانى فانه الآثار الظاهرة التى تركها حجة ابن السلطان على الحياة بالحجاز ٠ فقد تصدق وأكثر ، وعم يكرمه الشعب كله ٠ ونال أمير مكة من ذلك نحوا من سبعين ألف درهم (فشكرت سيرته) وكان هذا مقصده وما يتمناه ، لكنه فى الواقع لم يصبح سلطانا ، فسرعان ما عزل والده ثم المنصور لاجين ليعود الناصر محمد بن قلاوون للمرة الثانية سنة ٦٩٦ هـ(٣) ٠

وفى سنة (٦٩٥ هـ) حج الخليفة العباسى الثانى فى سلسلة الخلفاء العباسيين بمصر وهو الحاكم أبو العباس أحمد العباس ، وهو أول من حج من

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٢٧٦ ـ ٢٧٧ ٠
ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ٠
الجزيرى : درر الفوائد ص ٦٦٨ ٠

(٢) العينى عقد الجمان ، حوادث سنة ٧٧٨ هـ ٠
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٦٩ ـ ٧٦ ٠
ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥ ٠

(٣) الفاسى : شفاء الغرام ص ٢٧٤ ٠
الجزيرى : درر الفوائد ص ٢٨٨ ٠
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٥٧ ٠

الخلفاء من مصر ، وحجته هذه توضح صلة الخلفاء العباسيين المصريين ، بسلطان مصر من ناحية وبأمراء مكة والحجاز من ناحية أخرى · فعندما حج من مصر وأعطاه صاحبها المنصور لاجين لحجته سبعمائة ألف درهم(١) · اذا فالخليفة لم يكن يملك شيئا والسلطان هو الذى يملك كل شىء ·

أما فى مكة فانه تصدق وأطعم وحمل المنقطعين الا أن ذلك لم يشفع له عند أبى نمى أمير مكة ، فرفض أن يدعو له على منبر الحرم (وجرت بينهما مفاوضات ترفع فيها عليه أبى نمى تفاخرا بنسبه الشريف) (٢) لقد فقد الخليفة حتى الجانب الدينى من منصبه !

وقد توارد المؤرخون على ذكر حجات كل من الأمير بكتمر الجوكندار والأمير سلار والأمير يشبك ·

أما الأول فحج سنة ٧٠٠ هـ وأنفق فى حجته خمسة وثمانين ألف دينار وصنع كثيرا من المعروف وجهز مراكب فى البحر الأحمر شحنها بالغلال والدقيق، فلما وصلت الى ينبع وزع كل ما فيها على الحجاج وفعل نفس الشىء فى جدة · ولم يترك أحدا فى مكة والمدينة فقيرا أو غنيا الا أعطاه ، ونال أبو نمى وأولاده مائة ألف درهم (وكل ذلك يباشره بنفسه ولا يتكبر ولا يكرهه بل هو مقبل على فعل الخير مستبشر بذلك) وأكرمه السلطان الناصر فتلقاه عند عودته ببركة الحاج(٣) ·

وحج الأمير سلار سنة (٧٠٣ هـ) فطلب من مباشريه أن يجهزوا أشياء ينفقها على الحجاج والمجاورين والسكان بمكة ، على أن تكون عظيمة القدر لم يسبقه أحد اليها · وحمل معه الكثير من الذهب والفضة وغلالا كثيرة فى المراكب · وعندما وصل الى مكة أحصى المجاورين ووفى ديونهم ثم أعطى لكل منهم نفقة سنة · وحمل كل ما فى المراكب الى أهل مكة وأضاف من عنده ذهبا وفضة وغلالا · ثم لقى الحجاج (بالزيلع) وفرق عليهم من الفضة والذهب والسكر

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١٩٣ ·

(٢) المقريزى : الذهب المسبوك ص ٨٥ ·

الجزيرى : درر الفوائد ص ٢٨٩ ·

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ١١٥ ·

ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤٦ ·

الجزيرى : درر الفوائد ص ٦٩٢ و ٦٩٤ ·

زترشتين : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٠٤ ·

والحلوى شيئا كثيرا · فكانوا يطوفون بالبيت داعين (يا سلار كفاك الله شر النار ···)(١) · ثم بعث أناسا الى جدة أحسنوا الى أهلها احسانا كثيرا (ولم يسمع عن أحد فعل من الخير ما فعل)(٢) · أما ثالث الثلاثة الأمير سيف الدين يشبك الناصرى فحج سنة (٧٣٩ هـ) وأطعم وسقى ركب الحجاج كله من مصر الى مكة· أما فى الحرمين فقد أنفق على الحجاج والسكان والمجاورين ثلاثين ألف دينار وأربعمائة ألف درهم (حتى لم يبق بالمدينتين أحد لم يسد اليه معروفا)(٣) ·

وفى سنة (٧٢١ هـ) سافرت للحج (خوند طغاى) جارية الملك الناصر أم ولده أنوك وأحب نسائه اليه · فاصطحب السلطان معها عدة أمراء وقضاة وأركبها فى العربات كعادة بلاد الترك فكان ركبها ركبا فخما عظيم الابهة · حتى لقد بلغ الانفاق عليه ثمانين ألف دينار وستمائة وثمانين ألف درهم ، وتصدقت بمكة صدقات ، فلما عادت خرج السلطان بنفسه للقائها(٤) ·

وكانت حجة زوجة السلطان الناصر فاتحة لحجات أخرى قامت بها نساء السلاطين فيما بعد : ففى سنة (٨٦١ هـ) حجت زوجة الأشرف اينال وكانت لها بمكة والمدينة صدقات وعملت ميضأة ورباطا فى المدينتين ، ثم حجت سنة (٨٧٩ هـ) ولكنها كانت هذه لمرة زوجة للأشرف قايتباى(٥) · وفى سنة (٨٦٨ هـ) حجت خوند الأحمدية زوجة السلطان خشقدم(٦) · وحجت والدة الأشرف شعبان سنة ٧٧٠ هـ(٧) ·

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٦٩ ·
المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٤ ·
العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٧٠٤ هـ ·
أبو الفداء : المختصر ج ٢ ص ٥١ ·

(٢) الجزيرى : درر الفوائد ص ٦٥٤ ·

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ١٦٢ ·
الجزيرى : درر الفوائد ص ٦٩٤ ·

(٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ حوادث ٧٢١ هـ ·
الجزيرى : درر الفوائد ص ٢٩٩ ـ ٧٠٤ ·

(٥) الجزيرى : درر الفوائد ص ٧٠٣ ـ ٧٠٥ ·

(٦) نفس المصدر ص ٧٠٣ ·

(٧) نفس المصدر ص ٧٠٥ ·

وكانت آخر حجات النساء فى الدولة المملوكية تلك التى قامت بها زوجة السلطان الغورى أم ولده محمد سنة ٩٢٠ هـ فى محمل عظيم الفخامة والابهة اخترق شوارع القاهرة سائرا نحو بركة الحاج فكان آخر الاستعراضات الضخمة التى شهدتها دولة المماليك ، وكان الأمن قد اضطرب فى الحجاز وكثرت القلاقل فى أنحاء الدولة فاشتد قلق السلطان على زوجته وولده فانتظر طويلا قبل أن يأتيه مبشر الحاج بخبر عودتهما سالمين ، وقد أنفق (ابن اياس) و (الجزيرى) صفحات فى وصف فخامة المحمل الذى حجت فيه زوجة السلطان الغورى فى الذهاب والاياب(١) ٠

كان موسم الحج مؤكدا لزعامة مصر للعالم الاسلامى ، فقد كان ركبها للحج أكبر ركب وأكثرها تنظيما وأعظمها أبهة ولم يكن موسم الحج يخلو من سلطان مصرى أو أمير من كبار أمراء مصر ينشر هيبتها ويفيض بخيرها على أهل الحرمين والحجاج والمجاورين فيذكر الجميع بعظمة مصر وفضلها على الحرمين ولم تكن حجات ملوك العالم الاسلامى الآخرين لمكة والمدينة منقصة لقدر مصر بقدر ما كانت مؤكدة لسلطتها وقوتها وزعامتها ، فقد حرص هؤلاء سواء كانوا من مالى أو المغرب أو اليمن على استئذان السلطان المصرى أو المضى الى الحج فى حماه ، فلم تكن مصر مطمح أنظار الشعوب الاسلامية فقط باعتبارها فى نظر المسلمين حامية الاسلام والحرمين بل كانت أيضا موضع احترام الملوك ومداراتهم ، وكانت مظاهر عظمتها فى كل مكان ، فى حملاتها الحربية الى الشام والحجاز وفى مواكبها الخارجية للحج وفى سعة سلاطينها وأمرائها فى الانفاق بالحرمين ٠ لذا فان سيطرة مصر على الحرمين لم تكن سيطرة وكفى ، بل كانت ميزة للمسلمين ولأمراء الحجاز وسكانه ، فلولا السيطرة المصرية لما أمن الحجاج المسلمون على أموالهم وعلى أنفسهم ولما وصل الى سكان الحرمين ذلك السيل من الاموال والمؤن ولما كانت تلك الاصلاحات الضخمة ٠ ولولا سيطرة مصر أخيرا لما كانت تلك الفترات من الهدوء التى يأمن الناس خلالها على حياتهم وممتلكاتهم بفضل هيبة سلاطين مصر التى تفرض على الأمراء حل مشاكلهم سلميا وعلى قطاع الطرق من شذاذ الأعراب التردد مرات قبل الاقدام على عمل مخل بالأمن وسلامة الحجاج ٠

وبذلك استطاعت مصر أن تحقق فى الحرمين ومكة خاصة ، ما أراد الله أن يتحقق فيه ، فى قوله تعالى فى القرآن الكريم :

(جعله الله مثابة للناس وأمنا)

صدق الله العظيم ٠

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ـ حوادث سنة ٩٢٠ هـ ٠

الجزيرى : درر الفوائد ص ٣٦٠ ـ ٣٦٢ ٠

٧ ـ قضـاة الحرمين :

كان سلاطين المماليك يبعثون الى الحجاز بمراسيم التولية للامارة ، كما يبعثون بمراسـيم تولية القضاة • الا أن مراسـيم الامارة لم تكن حاسـمة فى كثير من الأحيان ، بل كانت مجرد تقرير أمر واقع ، فبعد أن يثبت الأمير الجديد قدمه فى السلطة ويهزم منافسيه ، يبعث السلطان اليه رسالة الرضا عنه وتثبيته تذكيرا له بسيطرة مصر أيا كان المتولى وأيا كانت قوته •

وليس الأمر كذلك بالنسبة للقضاء • فالسلطان هو الذى يعين القضـاة تعيينا مباشرا ، ويعزلهم متى شـاء • وكان أكثر القضاة مصريين • فيحـدثنا السـخاوى أن أول قاض مكى ولى قضاء مكة هو محمد بن أحمـد بن على الفاسى سنة (٨٠٧ هـ) • والحق أنه ليس مكيا أصلا ، لكنه ولد ونشأ بمكة(١) •

وقد واجه المماليك كما واجه الأيوبيون من قبل مشكلة الاختلاف فى المذهب بين أمراء الحرمين وسلاطين مصر • ففى حين كان المماليك من الشافعية السنيين • كان أمراء مكة من الشيعة الزيدية وأمراء المدينة من الشعة الامامية • ولم تبحث هذه المشكلة أيام الظاهر بيبرس ، فظل القضاة والخطباء والمؤذنون من الشيعة • وبدأ الستيون أيام المنصور قلاوون يطالبون بامام وقاض ومؤذن يختصون بهم فى الحرمين • واستجاب لهـم قلاوون ، فعين أول قاضى سنى سـنة (٦٨٢هـ) ليقضى بين أهل لسـنة فقط(٢) • واسـتمر الحال على هـذا لمنوال أيام الناصر محمد بن قلاوون ، ثم خلصت بعد ذلك مناصب القضاء والامامة والآذان فى الحرمين لأهل السنة فقط • وانكمشت سيطرة الشيعة على المناصب الدينية •

كان أكثر سلاطين المماليك من اتباع المذهب الشافعى ورثوه عن أسيادهم من الأيوبيين الذين تربى زعيمهم صلاح الدين فى بلاد عماد الدين زدكى وابنـه نور الدين محمود الشافعيين • لهذا كان أول قضاة الحرمين من الشافعية • بل كان هو القاضى الوحيد(٣) أول الأمر ، ثم استقر بمكة قاضيان آخران أحدهما مالكى • وكان له حق تعيين نائبا عنه وليس ذلك لغيره من القضاة • كما كان يتولى بالاضافة الى القضاء مشيخة الحرمين غالبا(٤) وامامة الصلاة عند اجتماع

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٧ ص ١٨ •

(٢) السخاوى : التحفة اللطيفة جـ ١ ص ٤٠ •

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٢ ص ٢٥٨ •

(٤) محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ٨٤ •
مؤلف مجهول : حوليات دمشقية ، حوادث ٨٣٨ هـ •

قضاة الحرمين فى صلاة المغرب(١) · ولم يتول بمكة قاضى حنبلى الا فى وقت متأخر سنة (٨٠٩ هـ)(٢)· وكانت العادة أن يستشير السلطان القاضى الشافعى عندما يريد تولية قضاة المذاهب الأخرى· لذا فقد ثار القاضى الشافعى لمكة عام (٨١٩هـ) لتولية امام وقاضى مالكى بغير اذنه(٣) ·

وكان أول مقام أنشىء فى الحرمين هو المقام الشافعى ، ثم أنشئت المقامات الثلاثة الأخرى فى القرن السابع الهجرى · ورممت وجددت مرات كانت أهمها المرة التى جددها فيها الأمير شاهين سنة (٨٨٣ هـ) أيام الأشرف قايتباى(٤) · والحق أن سياسة المماليك فى تولية قضاة أربعة ـ وان دلت على تسامح دينى ورحابة صدر فى تقبل المذاهب المختلفة باعتبارها تمثل اسلاما واحد ـ الا أنها ـ بحرصها على تعيين قضاة وأئمة مختلفين ـ عملت على توسيع شقة الخلاف بزيادة الحساسية بين الأشخاص المتولين حتى لقد تناسى هؤلاء ـ العلماء ـ فى كثير من الأوقات أنهم أبناء دين واحد وعاملوا بعضهم معاملة جافة ، كأنما الدين متناقض والوجهة مختلفة ·

ويورد لنا أبو الطيب فى هذا الصدد نصا طريفا عن كيفية الصلاة فى الحرم المكى فيقول : « عندما يجتمع الأئمة الأربعة فى غير صلاة المغرب التى يصلونها جميعا فى وقت واحد وبسبب اجتماعهم فى هذه الصلوات يحصل للمصلين لبس كثير بسبب التباس أصوات المبلغين ونوع اختلاف حركات المصلين · وهذا الفعل ضلال فى الدين لما فيه من المكروه الذى لا يخفى الا على من غلب عليه الجهل والهوى· ولم يزل العلماء ينكرون ذلك قديما وحديثا نسأل الله زوال البدعة ··· »(٥) · ولا يبدو الأمر غريبا علينا ، فقد استمر هذا التقليد فى مصر وغيرها مئات السنين وحتى هذا القرن ، وما زال المالكية حتى اليوم يصرون على الصلاة منفردين عن بقية مصلى المذاهب الأخرى ·

ان حرص المماليك على تعيين قضاة أربعة يدفعنا الى البحث عن سبب آخر لهذا التصرف غير المتسامح ، والفهم السليم للاسلام · ونحن نرى بناء على شواهد عديدة أنهم كانوا يقصدون بذلك استخدام الفروق بين المذاهب للتسهيل على أنفسهم ما دامت المذاهب الأربعة جميعا معتبرة ومعترفا بها عند أهل السنة ·

---

(١) أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ٢٩ ·

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٨١ ·

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ٣٣٤ ·
الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧ ·

(٤) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٥٨٤ ·

(٥) أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ٢٩ ·

وانما قدموا القاضى الشافعى لأن المذهب الشافعى كان أكثر المذاهب انتشارا بمصر والشام ، يتلوه المذهب المالكى فالحنفى فالحنبلى · ثم ازداد اتباع المذهب الحنفى أيام العثمانيين لأنه صار المذهب الرسمى للدولة ·

قضاة مكة :

بالرغم من أن السلطان كان هو الذى يعين من شاء من القضاة ـ فقد كان القضاء بمكة منصبا لا يتعدى ذوى البيوتات العريقة· فكان أكثر القضاة من الطبريين والظهيريين والنويريين والفاسيين · واوستأثر الطبريون من ذلك بالنصيب الأوفى لأنهم كانوا قسمين شافية ومالكية · فربما تولى أحدهم قضاء الشافعية والآخر قضاء المالكية أو امامتها(١) ، وقد ذكر القلقشندى أن وظيفة القضاء تعتبر الوظيفة الثانية بعد ولاية مكة · ثم أورد مرسوما أرسله بعض السلاطين الى فقيه مصرى بتوليته قضاء مكة ، افتتحه بالبسملة والثناء على الله عز وجل ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم تلت هذه المقدمة التقليدية كلمات فى تعظيم وظيفة القضاء (فهى أجل منصب بتلك الأباطح ونورها فى الجبين لائح فان الشرع نشأ منها والوحى أنزل فيها ··· (٢) ·

واذا كان قضاء البيت الحرام بهذه المثابة من الأهمية ، فلا بد أن يكون متوليه أهلا لذلك · لذا فقد أورد المرسوم وصفا لفضائل القاضى التى اقتضت تشريفه بولاية القضاء (فهو فرع الدوحة المثمرة ومحصل من العلوم الشرعية المادة الموفرة وله البحوث التى هى عن أحسن الفوائد وغرر الفوائد مسفرة ورضى أهل الحرم لما جبل عليه من خير وكرم وتمسك بالعروة الوثقى والقوى الأقوى) · ثم يختتم المرسوم بتوصية القاضى بأن يكون فى أم القرى (كالوالد المشفق على الورى ··· وليخشى رب هذا البيت أنه يسمع ويرى ··· ووفد الله قطعوا اليه المراحل فى السرى ليصافحوا كفه الضمخ عنبر وليقضى بين الخصوم بالحق)(٣) ·

قضاة مكة الظهيريون :

أول من ولى قضاء مكة من هذه الأسرة هو قاضى القضاة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن ظهيرة الشافعى · ولد سنة (٧١٨ هـ) ودرس على قاضى مكة نجم الدين الطبرى وغيره من العلماء والفقهاء والمحدثين · ودرس وأفتى بمكة ، ثم تولى قضاءها وأخذ عنه العلم ابن أخيه القاضى جمال الدين ابن ظهيرة ويظهر أن

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ج ٢ ص ٢٨٦ ·

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٢٤٠ ·

(٣) نفس المصدر ج ١٢ ص ٢٤١ ·

شهاب الدين لم يكن كبير النفس كما ينبغى أن يكون القاضى ، فعزل عن القضاء فتردد بين الحجاز والقاهرة ساعيا فى اعادته الى منصبه • الا أنه توفى قبل أن يلى شيئا سنة (٧٩٢ هـ)(١) • ومضت سنوات تولى قضاء مكة بعدها محمد بن عبد الله بن ظهيرة المولود سنة (٧٥١ هـ) ، وكان قد درس بالحجاز والقاهرة والشام ، وتزعم الشافعية بالبيت الحرام ، وجمع له السلطان قضاء مكة والاشراف على الحرم والأوقاف والأربطة والحسبة(٢) • وخلفه فى منصبه الحافظ القاضى جمال الدين بن ظهيرة ابن أخى القاضى شهاب الدين • ولد سنة ٧٥٠ هـ واهتم بالحديث والفقه وأخذ عن كثيرين وكان من تلاميذه : قاضى القضاة الحافظ شها ب‌الدين بن حجر العسقلانى ، ولى جمال الدين قضاء مكة مرارا وعزل عنه مرارا أيضا الى أن توفى قاضيا عام (٨١٧ هـ)(٣) • وخلفه فى منصبه هذه المرة ابنه محب الدين بن ظهيرة المولود سنة (٧٨٩ هـ) وكان قد درس على والده وعلى فقهاء مكة والمجاورين فيها ، ثم أفتى فى حياة والده وولى القضاء بعد وفاته حتى توفى هو بدوره سنة (٨٢٧ هـ) (وخلت مكة بعده ممن يفتى فيها على مذهب الشافعى)(٤) • ثم كانت فترة قضاء أبى السعادات محمد بن ظهيرة وأخيه كمال الدين • وقد برز أبى السعادات بروزا عظيما ووقف فى وجه السلطان وأمير مكة فى نفس الوقت وعارضهما فى كثير من تصرفاتهما ويبدو أنه هو نفسه لم يكن فوق الشبهات • ولى أبو السعادات القضاء لأول مرة بعد وفاة القاضى محب الدين بقليل وكان المتعارف أن يلى القاضى الشافعى مع القضاة الاشراف على الحرم، الا أن واحدا من تجار العجم واسمه داود الكيلانى بذل مالا للسلطان فولاه نظر الحرم فغضب ابن ظهيرة وتحدى السلطان وذكره باعتراضه السابق على بعض تصرفاته سنة ٨٣٥ و٨٣٦هـ فسارع السلطان الى عزله حتى توسط أخوه كمال الدين فى اعادته(٥) ، وناصره فى معارضته للسلطان حول ولاية الحرم شريف مكة بركات ، وأيدته عامة الشعب• فخاف سودون المحمدى متولى عمارة الحرم أن تحدث فتنة فتولى الاشراف على الحرم بنفسه وكتب الى السلطان برسباى باعتراض الشريف والقاضى على ولاية الكيلانى لنظر الحرم فاضطر السلطان الى التراجع(٦) • ثم انتهز فرصة الخلاف بين القاضى

---

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافى ج ١ ورقة ٧٨ •
الفاسى : العقد الثمين ج ٣ ص ٥٣ •
ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ حوادث سنة ٧٨٨ هـ •

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ج ٨ ص ٩٢ •

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٧ ص ١٢٥ •

(٤) نفس المصدر : ج ٧ ص ١٧٧ •
ابن حجر : أنباء الغمر ، حوادث سنة ٨٢٧ هـ •

(٥) عبد القادر الطبرى : أنباء البرية ـ حوادث سنة ٨٣٦ هـ •

(٦) مؤلف مجهول : حوليات دمشقية ص ١١٩ •

أبى السعادات وشريف مكة فيما بعد ، فعزل القاضى ، ثم أعاده ، ثم عزله · كل ذلك بين ٨٣٩ ــ ٨٤٢ هـ(١) · وتفاقم الخلاف بين قاضى مكة وأميرها الجديد أبى القاسم بن حسن عجلان فطلب الأمير اخراج القاضى المعزول من مكة ، وفى الوقت الذى تدخل فيه العلماء للصلح بين الطرفين أصدر السلطان جقمق أمرا بنفيه الى المدينة ، وبقى فيها حتى توفى سنة (٨٦١هـ)(٢) · ولم يشمل غضب السلطان العائلة كلها فتداول قضاء مكة والمدينة وجدة بعد أبى السعادات أخواه القاضيان برهان الدين وكمال الدين من بنى ظهيرة · وكانت ولاية برهان الدين الأولى سنة (٨٦٢ هـ) حين أضيف اليه قضاء مكة ونظارة الحرم · وفى سنة (٨٦٦ هـ) ولى الأخوان قضاء مكة للشافعية وخطابتها بعد أن كانا معزولين لمصلحة النويريين(٣) · وفى نفس الوقت ولى قضاء مكة للمالكية عالم من بنى ظهيرة هو ظهيرة بن أبى صامد بن ظهيرة(٤) وكان القاضى كمال الدين أصلح الأخوة وأورعهم· أما أعلمهم فبرهان الدين من أجل ذلك كان السلاطين والشرفاء أكثر ثقة بكمال الدين منه ببرهان الدين وكثيرا ما توسط كمال الدين لأخيه فى العودة الى القضاء كما توسط من قبل لأخيه المتوفى أبى السعادات محمدا(٥) ·

وفى سنة (٨٧٢ هـ) اشتبك القاضى برهان الدين مع الأشرف قايتباى بسبب توسيع رباطه بمكة على حساب المسعى وكانت النتيجة أن عزل القاضى ووسع الرباط كما أراد السلطان(٦) · وفى سنة ٨٧٨ هـ تدخل برهان الدين بن ظهيرة فى أمور السلطنة بمصر ودعى لحسن الطويل ، فحبسه قايتباى ، ثم ما لبث أن عفى عنه وأعاده الى القضاء(٧) اكراما لأخيه وظلت أمور الأخوين بين شد وجذب حتى توفى برهان الدين سنة (٨٩١ هـ) فنعاه ابن اياس بقوله (كان عالما فاضلا بارعا

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ورقة ٩١٣ ·

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٠٠ ــ ١٠١ ·
أبو المحاسن : حوادث الأيام والدهور جـ ٣٧٧ ــ ٣٧٨ ·

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٤ ورقة ٥٣٨ و ٥٥٩ ·

(٤) المصدر السابق جـ ٤ ورقة ٥٦٧ ·

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٨٧٦ هـ ·

(٦) البكرى : الخميس جـ ٢ ص ٣٨٨ ·
السخاوى : الضوء اللامع جـ ٦ ص ٢٠٦ ·
النهروالى : الأعلام ص ٢٨٨ ·

(٧) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٨٧٨ هـ ·
ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٤ ورقة ٦٢٢ ·

فى العلوم رئيسا حشما وكان اليه المرجع فى الفتيا بمكة)(١) ٠ وولى الأمر بعده ولده أبو السعود ، ثم ولى بعد أبو السعود ابنه كمال الدين محمد الذى توفى سنة (٩٣٩هـ) وكان زعيم الأسرة الظهيرية عند الغزو العثمانى قاضى مكة المعزول محب الدين بن ظهيرة وكان فى حبس السلطان الغورى فأطلقه السلطان سليم فأشار علية القاضى أن يكتب لشريف مكة ولا حاجة لتجهيز حملة اليها ، فنفذ السلطان ما أشار به القاضى ابن ظهيرة(٢) ٠

قضاة مكة الطبريون : (٣)

نسب قضاة هذه الأسرة الى أول قضاتها بمكة وهو القاضى محمد بن محمد الطبرى الشافعى الذى ولاه أبو نمى شريف مكة قضاء السنة فيها ثم وافق على ذلك المنصور قلاوون والناصر ابنه واستمر فى ولايته طويلا محمود السيرة مرضيا عنه من الناس والسلاطين حتى توفى سنة (٧٣٠ هـ) ٠ ذكره ابن بطوطة اذ كان قاضيا لمكة عند حجته سنة (٧٢٥ هـ) قال عنه (العالم الصالح قاضى مكة نجم الدين بن الامام محى الدين الطبرى ٠٠٠ وهو فاضل كثير الصدقات للمجاورين حسن الأخلاق كثير الطواف والمشاهدة للكعبة الشريفة معروف بالجود ٠٠٠ وسلطان مصر الملك الناصر يعظمه)(٤) ٠ تولى القضاء بعد وفاة نجم الدين ابنه شهاب الدين أحمد من قبل الملك الناصر سنة (٧٣٢ هـ) وكان متين الصلة بالناصر محمد بن قلاوون كما كان والده ٠ واشتهر بالزهد وعدم الاعتداد بالمناصب ، فقد كان خطيب الحرم بهاء الدين الطبرى رجلا من أسرته ، فعزله السلطان وأضاف منصبه الى مناصب شهاب الدين فكتم شهاب الدين ذلك سنوات حتى توفى بهاء الدين سنة (٧٥٦ هـ) ٠ وكثرت به الوشايات لطول مدته وللصراع بين علماء المذاهب ، فأراد الناصر حسن بن محمد بن قلاوون أن

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ـ حوادث سنة ٨٩١ هـ ٠

(٢) دحلان : خلاصة الكلام ص ٥٠ ٠
ابن العماد : شذرات الذهب ج. ٧ ص ١٤٨ ٠

(٣) أرخ عبد القادر محمد بن يحى الطبرى أحد أبناء الأسرة الطبرية لكبار رجال الأسرة فى كتاب سماه (أنباء البرية بالأبناء الطبرية) والكتاب مصور بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية تحت رقم ٩٠٩ تاريخ ٠

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٦٢ ٠
ابن بطوطة : تحفة النظار ص ٩٢ ٠

يوقع به سنة (٧٥٧ هـ) لكنه مرض وتوفى(١) · ومضت بقية القرن الثامن وأكثر من نصف القرن التاسع ولم يتول قضاء مكة من الطبريين الا القاضى محب الدين الطبرى المولود سنة (٨٠٧ هـ) بمكة · وقد تلقى علومه بالقاهرة والشام وكانت أهم صفاته ورعه ذلك الورع الذى فتن الأشرف قايتباى فوضع ثقته كلها فيه ، كما وضع الناصر محمد بن قلاوون ثقته فى نجم الدين الطبرى من قبل · فعندما حضر قايتباى للحج سنة (٨٨٤ هـ) تلقاه القضاة الظهيريون من « خليص » وتلقاه أهل مكة جميعا ما عدا المحب الطبرى الذى انصرف لصلاة العصر ولم يهتم لدخول السلطان للصلاة اذ انتهى من صلاته ثم انفتل خارجا وترك السلطان ومن معه فوشى به الظهيريون أنه يتكبر على السلطان وأنه يؤخر صلاة العصر ، فاستدعاه اليه وتحدث معه ، فبان له عذره وعرف فيه الورع والشجاعة فى الحق ، فجمع له قضاء مكة الشافعى ومشيخة الحرم والتدريس والافتاء والحسبة · وقد رويت عنه قصص وحكايات تكاد تكون أسطورية تصف كلها ورعه وخشيته من الله · وكان أشد الناس عجبا ـ لحظوته عند السلطان ـ الظهيريون الذين عرفوا فيه السذاجة والفقر ·

قضاة مكة النويريون :

لم تعرف الأسرة النويرية ولم يظهر علماؤها تماما الا فى منتصف القرن الثانى الهجرى(٢) . ويلاحظ أن الطبريين كانوا جميعا من الشافعية بينما انقسم الظهيريون والنويريون الى قسمين : الأول ـ وهو الأكبر ـ من الشافعية والآخر من المالية(٣) ·

أشهر قضاة الأسرة النويرية القاضى كمال الدين أبو الفضل محمد النويرى الذى كان يتبادل القضاء مع شهاب الدين أحمد بن ظهيرة ودار بينهما صراع

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ج ٣ ص ١٦١ ·
(اهدى شهاب الدين الطبرى للمالك الناصر محمد بن قلاوون تمرا وكمكا فى اطباق من خوص فاستحسن ذلك منه وقال : هذا قاضى فقير !) ·
محى الدين : الأرج المسكى ـ ص ٨٤ ·
ابن بطوطة : تحفة النظار ـ ص ٩٢ ·

(٢) عبد القادر الطبرى : أنباء البرية ، ورقة ٦ ، ٧ ·

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ج ٩ ص ١٩١ ·
ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث ٨٨٤ هـ ·
محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ١٣٣ ـ ١٣٤ ·

لسنوات طويلة انتهى فى سنة (٧٨٦هـ) بعزل ابن ظهيرة وتولية أبى الفضل النويرى الذى توفى بعد قليل ٠

وتولى القضاء بعد أبى الفضل ـ ابنه القاضى محب الدين الذى نقل بعد قليل قاضيا الى المدينة ليحل محل الحافظ زين الدين العراقى أستاذ ابن حجر العسقلانى(١) ٠

كان محب الدين رجلا فاضلا ، وصفه ابن حجر ـ مع ما كان بين محب الدين وبين العراقى من منافسة ـ بأنه (كان بارعا فى العلوم والأحكام مشكورا وتوفى سنة ٧٩٨ هـ)(٢) وفى سنة (٨٢٧ هـ) وعلى قضاء مكة رجل من الفرع الآخر للأسرة أعنى الفرع المالكى هو شهاب الدين أحمد بن على بن أحمد النويرى، وكانت قد مضت عليه سنوات وهو يتولى امامة المالكية بالحرم ولم ينجح فى منصبه القضائى كما نجح فى امامته بالحرم لشدة الصراع الذى كان يدور من أجل تولى القضاء ٠ ولم يكن ندا للظهيرين رجال السياسة والقضاء (فلم يتم أمره ودام معروفا الى أن توفى(٣) ٠ وفى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى سيطر الظهيريون وقضاة آخرون الى أن ولى القضاء محمد بن محمد بن على النويرى الملقب بأبى اليمن وكان قاضيا لجدة ثم شغل منصب شيخ الحرم وقاضى الشافعية بمكة وعزل سنة (٨٥٣ هـ) ٠ ثم ولى من جديد ومات قاضيا وخطيبا فى نفس السنة(٤)٠ وبوفاة أبى اليمن خلفه ابنه نور الدين على ، وتكررت قصة العزل والتولية ، خصوصا أن نور الدين كان مالكيا ، وكان الظهيريون ـ لا سيما الشافعية منهم ـ يستطيعون دائما أن يجدوا مغمزا فى أى انسان ما دام مذهبه يخالف مذهب السلطان الشافعى الى أن كانت سنة (٨٦٨ هـ) فعزل برهان الدين بن ظهيرة وأخوه أبو البركات عن خطابة الحرم الشريف وتولى الخطابة أبو القاسم وأبو الفضل النويريان ، كما تولى القضاء نور الدين بن أبى اليمن(٥) وسلبت الأسرة القضاء فيما بعد ، الا أن مشيخة الحرمين بقيت فيهم

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٤٤٥ ٠

(٢) ابن حجر : أنباء الغمر ، حوادث سنة ٧٨٨ ، ٧٩٨ هـ ٠

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٧ ص ١٧٧ ٠

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ج ٩ ص ١٤٣ ٠
ابن العماد : شذرات الذهب ج ٧ ص ٢٧٨ ٠

(٥) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٥٦٧ ٠

حتى نهاية الدولة المملوكية خصوصا فى فترة الغضبة السلطانية على الظهيريين لاتهامهم ببعض الأشياء فى ثورة الجازانى سنة ٩٠٧ ـ ٩١٢هـ (١) ٠

قضاة مكة الفاسيون :

هم من الأشراف المغاربة سلاله الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما وكانوا مالكية فى المذهب ٠ وطبيعى أن يميل اليهم أشراف مكة ما داموا فرعا من فروع الأسرة الفاطمية ٠ كان جد الأسرة وأول من ولى القضاء منها القاضى أحمد بن على بن محمد بن عبد الرحمن الفاسى المكى ولد سنة (٧٥٤ هـ) بمكة وسمع بها وبالقاهرة وأخذ عن كثيرين بمصر وولى مشيخة الحرم وضاء المالكية ، ثم جاور بالمدينة حتى توفى(٢) ٠

أما أشهر رجال الأسرة وأعلمهم فالقاضى تقى الدين محمد بن أحمد بن على الفاسى ولد سنة (٧٧٥ هـ) بمكة ونشأ بها ثم تحول الى المدينة فدرس على علمائها ودخل بلاد الشام واليمن ومصر وتعلم فيها كلها ثم درس وأفتى وحدث بالحرمين الى أن كانت سنة (٨٠٧هـ) فولاه السلطان الناصر فرج قضاء المالكية بمكة فاستمر فيه حتى سنة (٨٢٠ هـ) فعزل لمدة يسيرة ثم أعيد حتى توفى سنة (٨٣٢ هـ) ٠ اشتهر الفاسى هذا بسعة العلم وعلو الهمة وشرف المقصد والعدل فى الأحكام وعنى بتاريخ مكة عناية عظيمة فترك عدة مؤلفات فى الموضوع :

١ ـ شفاء الغرام فى أخبار البلد الحرام ٠

٢ ـ تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام ٠

٣ ـ الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة ٠

٤ ـ عجالة القرى فى تاريخ أم القرى ٠

٥ ـ العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ٠

وجعل الفاسى (العقد الثمين) أساس كتبه كلها ـ وهى منه بمثابة المختصرات وقسمه على أربعة مجلدات : الأول فى مكة وتاريخها وفضائلها وآثارها ومعالمها وتحديدها ومساحتها ٠ ثم عقب على ذلك بسيرة موجزة للنبى

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٨ ص ٧٤ ٠

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٥ ٠

— صلى الله عليه وسلم — يتلو ذلك أسماء المحمدين المكيين . أما الأجزاء الثانى والثالث والرابع فتنصب على اكمال حروف المعجم فى أعلام المكيين . ثم ذيل ذلك كله بأبواب فى الكنى والألقاب وتراجم النساء والأنساب والكتاب على هذا أكبر موسوعة وصلت الينا لتاريخ مكة وعلمائها ومن سكنها(١) .

ولم يتول القضاء بعد تقى الدين أحد من الفاسيين ، وان تولى امامة المالكية بالمسجد الحرام فاسى مالمكى سنة (٨١٩ هـ)(٢) .

قضـــاة آخرون :

كانت نقمة السلطان على القاضى تعنى عزله أو سجنه أو اخراجه من مكة . وكثيرا ما كان الصراع بين الأسر على القضاء مضجرا للسلاطين فكانوا يعمـــدون فى مثل هذه الحالة الى عزل الجميع وتولية رجل محايد لا ينتمى الى أى من الأسر العريقة ، بيد أن الدسائس سرعان ما تحيط به فيعزل ليتولى الأمر من جديد أحد أعضاء الأسر المعروفة السالفة الذكر . ففى سنوات ٧٩٠ — ٧٩٧ هـ سخط السلطان على الظهيريين والطبريين فولى القاضى أحمد بن محمد القرشى العقيلى قضاء مكة ، حتى اذا توفى سنة ٧٩٧ هـ خلفه ابنه محمد بن أحمد . وهنا بدأت فترة طريفة من فترات العزل والتولية استمرت حتى وفاة القاضى محمد سنة (٨٢٣ هـ)(٣) . فقد عزل سنة ٨٠٣ هـ ، وتولى مكانه جمال الدين الطبرى ، ثم أعيد ، ثم عزل سنة ٨٠٦ هـ ، ثم أعيد ، الى أن عزل سنة ٨١٠ هـ ثم عزل بعد اعادته سنة (٨١٣ هـ) ، وعزل وأعيد مرات فى هذه السنة . ثم تكرر العزل والتولية فى سنوات ٨١٦ و ٨١٧ و ٨١٩ هـ . وفى هذا العام الأخير توفى خصمه القاضى جمال الدين ، فظن أن الأمر صار له وحده ، لكن ذلك لم يمنع السلطان من عزله ، وكان الذى استفاد من العزل هذه المرة الظهيريون ، اذ ولى القضاء واحد منهم(٤) .

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع ج ٧ ص ١٨ .
الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٣٣١ .
ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ حوادث سنة ٨٣٢ هـ .
ابن العماد : شذرات الذهب ج ٧ ص ١٩٩ .

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ٣٣٤ .
الفاسى : العقد الثمين ج ٢ ص ٣١٢ .

(٣) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١٣٦ .

(٤) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٧ ص ٣٣٠ .

وممن ولى قضاء مكة محى الدين عبد القادر بن أبى القاسم الأنصارى المالكى ، وربما كان أكثر من تولى مكة علما ، لكن علمه لم يكن كافيا لبقائه فى القضاء ، فقد تولى لأول مرة سنة (٨٨٠هـ) وعزل مرارا بدسائس النويريين والظهيريين • فلما أراد السلطان توليته للمرة الأخيرة رفض وأشار بتولية واحد من بنى ظهيرة(١) •

وكان قضاة المذهبين الحنفى والحنبلى قلة ، ولم يشتهروا ـ كما اشتهر قضاة الشافعية والمالكية ـ يحدثنا الفاسى أن أحمد بن محمد بن سعيد الصاغانى الحنفى هو أول قاض حنفى ولى هذا المنصب بمكة(٢) • أما الحنابلة فلم يبرز منهم الا قاض واحد هو قاضى القضاة عبد اللطيف بن محمد بن أحمد الحسنى من الأسرة الفاطمية ، ولد سنة (٧٧٩هـ) بمكة ، ونشأ فيها ودرس على جمال الدين الأسيوطى والبلقينى والتنوخى وابن الملقن وشهاب الدين بن ظهيرة وابن فهد • ثم ولى قضاء الحنابلة بمكة سنة (٨٠٩ هـ) وأضيف اليه فيما بعد قضاء المدينة الشريفة وعرف بصداقته (لشاه رخ بن تيمورلنك) وظل فى مناصبه حتى توفى سنة (٨٥٣هـ)(٣) •

وكان قاضى المذهب يتولى عادة امامة المذهب فى الحرم ، الا أنه ربما عهد السلطان الى مالكى مثلا بالامامة فى مقام المالكية(٤) ، والى مالكى آخر بالقضاء المالكى • وكذلك كانت الخطابة فى الحرم(٥) • أما مشيخة الحرم فكانت للشافعية، كما كان منهم قاضى القضاة الا فى أوقات قليلة • ومع ما يقوله (ابن العماد) من أن السلاطين خصوصا قايتباى ـ (كانوا محتاطين فى الوظائف الدينية لا يولون شيئا من ذلك الا الأصلح بعد التروى والتفحص)(٦) • فقد لاحظنا من كثرة مرات العزل والتولية للقاضى الواحد أن عوامل كثيرة كانت تتدخل فى تقييم القاضى غير علمه وورعه • فلا بد أن يكون من أسرة معروفة ، ولا بد أن

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ج ٣ ص ١٦٨ •
السخاوى : الحفة اللطيفة ج ١ ص ٢٣٥ •

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ •

(٣) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٨٢ •
ابن العماد : شذرات الذهب ج ٧ ص ٢٧٧ •

(٤) الفاسى : العقد الثمين ج ٤ ص ٣٢٤ •

(٥) نفس المصدر ج ٢ ص ٨٦ •

(٦) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٨ ص ٧ •

يكون مطيعا تماما للسلطان ، فان ولد ـ لسوء حظه ـ فى أسرة مغمورة أو عارض السلطان أو حتى أمير مكة فى شىء فلينتظر عزلا ، وما هو أكثر من العزل فى ظرف يسير • والحق أن القضاء بوشاياتهم وخلافاتهم فيما بينهم سهلوا على السلطان أن يعزل ويولى من يشاء • وكانت مبررات السلاطين للتولية والعزل مضحكة أحيانا ، فقد ولى قاضى (لأن فيه شكاله وحسن لحية)(١) ، وعزل آخر لأنه سىء الشكل • لكن حرص السلاطين الذى لم يتغير ـ بتغير أشخاصهم ـ كان فى (منع تولية أحد من أهل مكة هذا المنصب)(٢) • اما لخوف السلطان من الصراع بين الأسر ـ ان ولى أحد أبنائها دون الأسر الأخرى ـ واما لخوفه من تحالف القاضى المكى مع الأمير المكى ضد مصالح السلطان بالحرم •

قضاة المدينة :

لم يجر قضاة المدينة على السنة التى جرى عليها قضاة مكة ، فلم تكن فيها أسر عملية تتنازع القضاء • وكانت أحوالها السياسية عموما أكثر استقرارا من أحوال مكة فكان قضاتها يقضون فى مناصبهم مددا طويلة فى كثير من الأحيان •

والقضاء السنى بالمدينة أقدم منه بمكة ، فقد سأل السنيون فيها المنصور قلاوون أن يكون لهم قاض يقضى بينهم ويعلمهم أمور دينهم فى جو المدينة الشيعى، فهد بذلك الى القاضى سراج الدين عمر بن أحمد بن الخضر بن طراد المصرى ، وكان ذكيا مسالما • فقال : (أنا لا أتولى حتى يحضر الأمير منصور بن جماز أمير المدينة، فلما حضر قال له : (قد جاءنى من السلطان مرسوم بكذا وأنا لا أقبل حتى تكون أنت المولى لى فانك ان لم تكن معى لم يتم أمرى ولا ينفذ حكمى) (٣) • قا لـه (قد رضيت وأذنت فاحكم ولا تغير شيئا من أحكامنا) ، فاقتصرت مهمة القاضى السنى على الحكم بين المجاورين وأهل السنة وظل بنو سنان الشيعة يقضون بين أهل المدينة الامامية وكانت سنة حميدة تلك التى استنها القاضى السنى الأول فى التماس تأييد الأمير وفى اجتناب الخصومة مع القضاة الشيعة الذين كانوا أصحاب الأمر والنهى فى أكثر الأمور • وحبب القاضى السنى بتسامحه وصدقاته ومواساته للفقراء والمساكين السنيين الى الناس • فانتهز أمير المدينة سعد بن ثابت بن جماز سنة (٧٥٠ هـ) الفرصة وأراد أن يتقرب الى السلطان السنى ،

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٨ ص ٧ ـ ٨ •

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٩٤ و ٩٥ •

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٢٤ •

وأن يتخلص من القضاة الشيعة الذين كانوا يستبدون بكثير من الأمور دونه ، فمنع آل سنان من تولى القضاء والانكحة ورد الأمر جميعه لأهل السنة ، ومنذ ذلك الحين انقطع أمر القضاة الشيعة وانفرد السنيون بذلك(١) ٠

وكان هؤلاء القضاة من الشافعية أولا ثم استقر بالمدينة قضاة من المالكية والأحناف والحنابلة كما حصل بمكة(٢) ٠

وقد أورد القلقشندى نموذجا من مراسيم التولية لقضاة الشافعية بالمدينة لا يخرج فى فحواه عن المرسوم الملكى ، فهو يركز على فضائل المدينة وعظمتها بدفن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه فيها ٠ وقيام دولتهم أول ما قامت به ، ثم يحث القاضى على الاقتداء بمثل العدالة الأعلى فى الاسلام رسول الله السمح الطلق الاسارير الرحيم بالناس (فان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هناك يسمع وقاضى المدينة وخطيبها يرجوان أن ليس للشيطان فيه مطمع)(٣)٠

ولى قضاء المدينة بعد القاضى عمر ، شرف الدين يعقوب المدنى ، ثم القاضى شرف الدين اللخمى سنة ٧٢٨ هـ الى أن خلفه فى منصبه بدر الدين الخشاب سنة ٧٤٥ هـ واتهم خليفة الخشاب محمد بن عبد المعطى بأمور شائنة فعزل فى نفس السنة التى ولى فيها ٠ وخلفه القاضى الصرخدى سنة ٧٦٠ هـ ثم على الانصارى سنة ٧٦٦هـ)(٤) ٠

ثم وليها عالم الاسلام العظيم الامام زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن على العراقى الشافعى ٠ ولد الامام سنة ٧٢٩ هـ بالقاهرة وسمع الحديث من أكبر علمائه فى مصر والشام والحجاز ، ثم دخل المدينة فاستوطنها مؤثرا الاقامة بجانب رسول الله يدرس السنة النبوية فقط ٠ ونشأت حوله مدرسة كان أكبر تلاميذها الامام ابن حجر العسقلانى شارح البخارى قال فيه أحد شيوخه : ان ذهن العراقى لا يقبل الغلط ٠ ألف كثيرا من المؤلفات فى الفقه الشافعى وفى الحديث أشهرها

---

(١) السخاوى : التحفة اللطيفة جـ ٢ ص ٣٩ ، ٤٠ ، ١٥٠ ٠
البرزنجى : نزهة الناظرين ص ١٧ ٠

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٢ ص ٢٤٨ ٠

(٣) المصدر السابق : جـ ١٢ ص ٢٥٨ ـ ٢٦٠ ٠

(٤) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ حوادث سنة ٧٢٨ هـ ٠
ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٢١٦ ، جـ ٤ ص ٣٠ ، ٤٧ ، ١٥٩ ٠
السخاوى : التحفة اللطيفة جـ ٣ ص ١٥٢ ٠
المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٩٩٢ ٠

تذييله على أحاديث الاحياء للامام الغزالى . تولى قضاء المدينة سنة ٧٨٦ هـ بعد عزل أحد رجال الاسرة الظهيرية عنها (فثابر على اقامة السنة النبوية صابرا على نوائبها)(١) . ولصلابته هذه عزله السلطان برقوق بعد قليل سنة ٧٩١هـ فجاور بالمدينة حتى توفى سنة ٨١٥هـ(٢) .

أما أول قاض من أهل المدينة فهو ناصر الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد بن صالح فى أوائل القرن التاسع الهجرى(٣) .

فأول القضاة الاحناف فيها زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن على الزرندى بقى فى منصبه نحوا من ثلاثة وثلاثين سنة وحمدت سيرته لعفته ودينه حتى توفى سنة ٨٢٧هـ(٤) .

ومضت سنين قبل أن يتولى قضاء المدينة عالم معروف هو جمال الدين محمد ابن عبد الله الكازرونى (انتهت اليه رئاسة العلم بالمدينة النبوية وولى قضاءها وخطابتها ثم صرف ودخل القاهرة مرارا ولم يخلف بهذه من يقارنه بالمدينة المنورة)(٥) وتوفى سنة (٨٤٣هـ)(٦) .

ولم تكن هناك أحداث عنف فى التولية والعزل بالمدينة كما كان يحصل بمكة الا أنه يبدو أن ازالة القضاة الامامية عن مركز الصدارة فى العلم والرياسة لم يقض عليهم تماما وبقى لهم أنصار وكان قضاة الشافعية يراعون هذا الجانب فلا يتعصبون ولا يتحيزون ثم حدث سنة ٨٨٣ هـ أن حاول قاضى المدينة الشافعى اضطهاد بعض الشيعة فقتلوه(٧) .

---

(١) ابن حبيب : درة الأسلاك جـ ١ حوادث سنة ٧٨٦ هـ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ ورقة ٤٦٢ ـ ٥٦٤ .
ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الاسلام ، ورقة ١٥ .
ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ حوادث سنة ٨١٥ و ٨١٦ هـ .

(٣) السخاوى : التحفة اللطيفة جـ ١ ص ٤٢ .

(٤) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٧ ص ١٢٥ .
ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ حوادث سنة ٨٢٧ هـ .

(٥) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٧ ص ٢٤٧ .

(٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٨٨٣ .

(٧) المصدر السابق : حوادث سنة ٨٨٣ .

كانت هنـاك منـاصب أخرى بالحرمين غير القضـاء والمشـيخة والخطابة والامامة(١) · فقد كان فيها المؤذنون وهم عدة عشرات فى المدينة ومكة · يصعد المنارة الواحدة خمسة مؤذنين(٢) · وكان هنـاك شهود الاحـكام الذين يعدلون ويجرحون بين يدى القضاة(٣) ·

ثم هنـاك منصب شيخ الخدام بالحرمين · يقول السخاوى (ان النـاصر صلاح الدين هو الذى ثبت قاعدة الخدام فى الحرم النبوى والمكى وأوقف عليهـم الأوقاف) ثم تبعه فى الوقف عليهم السلطان الصالح بن الناصر محمد بن قلاوون سـنة (٧٤٤ هـ) وكان ذلك الوقف أجزاء من قرية (سـندبيس) وقريتى (نقادة) و (قبالة) بصعيد مصر(٤) ·

كان السلطان هو الذى يولى مشايخ الخدام بالحرمين(٥) وشيخ الخدام عادة هو الذى يقبض ما تحصل من أوقاف الخدم وينفقه فى العناية بالحرم وخدمه(٦)· ويقول المؤرخون أن خدم الحرم المكى كانوا يزيدون على المـائة وكان كثير منهم متطوعين لخدمة البيت الحرام · أما خدم المسجد النبوى فكانوا حوالى الستين خادما يقوم أكثرهم بخـدمة الحجرة النبوية منهم الكناسـون والفراشون والسقاؤون والبوابون ومنظفوا القناديل والصائغون والخياطون وكان يشـترط أن يحفظ الخدم القرآن ، وأن يكونوا أحباشا أو أرواما أو تكاررة أو هنودا(٧) ·

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٢٦٠ ·

(٢) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ١ ص ٣٩ ـ ٤٠ ·
ابن بطوطة : تحفة النظار ج ١ ص ٧٤ ·
ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٤٠٣ ·
ابن العماد : شذرات الذهب ج ٧ ص ٧٢ ·

(٣) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ حوادث ٨١٩ و ٨٢٨ هـ ·

(٤) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ١ ص ٤٩ ·
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ٤٥٩ ·

(٥) مؤلف مجهول : حوليات دمشقية ص ١٥٣ ·
ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ١٩٥ ·
السخاوى : الضوء اللامع ج ٥ ص ٣٠٧ ·

(٦) السخاوى : الضوء اللامع ج ٤ ص ٣٤٥ ·

(٧) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ١ ص ٧١ ·
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ٤٥٩ ·

وبعد ، فقد عرضنا فى الصفحات السابقة صورة لسياسة المماليك الدينية بالحرمين وهى سياسة رمت الى السيطرة التامة على كل شىء ، بيد أن هذه السيطرة لم تكن سيئة كما يبدو لاول وهلة ، فما كان ممكنا أن يتفق الامراء فى الحرمين ـ وخصوصا مكة ـ على شىء لولا ضغوط السلاطين عليهم • حقيقة أن الاهواء السياسية تدخلت فى تعيين قضاة وعزل آخرين ، الا أن الامور عموما كانت تسير بتوجيه السلاطين الى ما فيه خير سكان المدينتين والواردين اليها من المجاورين والحجاج •

الفصل الثالث

العلاقات الاقتصادية

العلاقات الاقتصادية

الحجاز طريق التجارة بين مصر والشرق :

كانت للحجاز علاقات تجارية بمصر وبلاد الشرق فيما قبل الاسلام · واستمرت هذه العلاقات وازدهرت فى العصور الاسلامية ، تبعا لزيادة الاتصال بين أمم الشرق · وزيادة المعلومات البحرية ، والتقدم فى طريقة بناء السفن بحيث تستطيع مقاومة العواصف والتيارات البحرية العنيفة(١) ·

وقد لفت الجانب الاقتصادى نظر السلاطين المماليك ، فحرصوا على السيطرة على الحجاز ، وتثبيت أقدامهم فيه بشتى الطرق منذ أيام الظاهر بيبرس (٦٥٩ ـ ٦٧٧ هـ) والى أن سقط الغورى سنة (٩٢٢ هـ) وسيطر العثمانيون على بلاد الشرق العربى بما فيها الحجاز ·

والمعروف أنه منذ أن بدأت غزوات المغول لغرب آسيا فى القرن السابع الهجرى ، وتعطل الطريق التجارى البرى عبر وسط آسيا(٢) ، وطريق البحر الأحمر من أكثر الطرق التجارية أهمية بين الشرق والغرب · وكان من نتيجة ذلك أن اضطر التجار للمرور مسافات طويلة برا وبحرا فى نطاق السيطرة المملوكية ·

ولم يكن التجار هم وحدهم الذين استخدموا الطرق فى نطاق السيطرة المملوكية للمرور فيها ، بل استخدمه أيضا حجاج العالم الاسلامى من أقاصى آسيا ، والمغرب والتكرور والسودان والشام ·

وكان المارون ـ سواء كانوا تجارا أو حجاجا ـ يسلكون : اما الطريق البحرى أو البرى · أما البحرى وهو ذو شعبتين الاولى : القاهرة ـ القلزم ـ

---

(١) نعيم زكى : طرق التجارة ص ١٠٠ ·

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٨٥ ·

الطور ـ البحر الأحمر ـ جدة · والشعبة الثانية : بولاق ـ القاهرة ـ ثم بالنيل جنوبا حتى قوص ثم عيذاب فالبحر الأحمر ومنه الى جدة(١) ·

أما الشعبة الأولى من الطريق ، فقد اهتم بها الظاهر بيبرس فجدد قلعة السويس سنة (٦٥٨ هـ) فى أوائل سلطنته ، وعمل على تقوية الحاميات لحماية طرق التجارة من هجمات الاعراب(٢) ·

وأما الشعبة الثانية من الطريق ـ والتى تمر بقوص وعيذاب ـ فقد ازدهرت فى القرنين اللذين سبقا قيام السلطنة المملوكية بسبب طول الطريق البرى ، وقحطه من المؤن والمياه ، منذ أيام الشدة العظمى أيام المستنصر ، واستمر هـذا الازدهار الى سنوات بضع وستين بعد الستمائة عندما تحول الحجاج وأكثر التجار عن طريق البحر الى طريق البر(٣) · وذلك عندما انكمش الخطر الصليبى ببلاد الشام وانحسر بعيدا عن شواطىء البحر الأحمر ·

على أن ازدهار هذا الطريق لم يستمر طويلا اذ بطل استعماله فى أوائل أيام السلطنة المملوكية لطوله وكثرة تكاليفه · وصعوبة التفاهم مع أهل الصعيد أحيانا · وظلت الشعبة الثانية منه مستعملة مطروقة حتى كان التحول شبه الكامل ـ بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح سنة (٩٠٠ ـ ٩٠٢ هـ) ·

وأما الطريق البرى ، فانه يبدأ بعد تجمع التجار والحجاج بالقـاهرة ثم السويس فالعقبة ، ثم السير برا الى ينبع فالمدينة فمكة(٤) · وازدهر هذا الطريق أيام السلطنة المملوكية حتى كاد يكون الطريق الوحيد فى مجال الانتقال بين مصر والحجاز ، بسبب الاصلاحات الكبيرة التى أدخلت عليه ، كمنازل المياه ، ومحطات المؤن ، والأسواق والقرى التجارية(٥) · ثم للأمن الذى ساده فى كثير من الأحيان للحراسة المشددة التى فرضها السـلاطين المماليك عليه حرصا على مصـالحهم التجارية ، وهيبتهم · وأيضا بعد انكماش الخطر الصليبى عن البحر الأحمر · ولم يكن استعمال الطريق البرى قاطعا لاستعمال الطريق البحرى ، فقد ظل

---

(١) نعيم زكى : طرق التجارة ص ١٠٩ ·

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٤ ·

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٠١ ·

(٤) الجزيرى : درر الفوائد ص ٤٧٦ ·

(٥) نعيم زكى : طرق التجارة ص ٧ ـ ٩ ·

بعض الحجاج والتجار ينتقلون بطريق البحر الى العقبة ، ينبع ، جدة • كما كانت امدادات المؤن للحجاج تنقل بهذا الطريق •

كانت مواسم الحج مواسم اقتصادية مزدهرة بالنسبة للحجاج والتجار معا ، ويقصد الحجاز فى تلك المواسم تجـار الهنـد والصين بطريق عدن أو جـدة • فيبيعون ويشترون كما يقصد الحجاز تجار الشام والعراق ومصر والمغرب لنفس الغرض ، الحج والتجارة • ثم تسير القوافل التجارية الآتية من الشرق بعد موسم الحج الى القلزم والطور أو بالطريق البرى على العقبة فالسـويس فالقـاهرة • والملاحظ أن السلع الخفيفة كانت تنقل بالطريق البرى ذهابا من مصر وايابا اليها . أما السلع الثقيلة فقد كان البحر طريق نقلها • وبذلك احتفظ كل من الطريقين بأهميته(١) •

ولعل أهمية الحجاز وموانيه فى الحركة التجـارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى كانت من العوامل التى جعلت المماليك يحرصون على البقاء فيه كما قدمنا ، اذ كانوا يستفيدون من السيطرة عليه وحماية طرقه فوائد جمة • صارت فيما بعد عمادا من أعمدة اقتصاد الدولة • فبالاضافة الى المكوس الباهظة التى كانوا يتقاضـونها من التجار على اختـلاف أجناسـهم ، كانت لهم ـ أيام الحراكسة ـ تجـارتهم الاحتكارية الخاصـة بهم • كما كانت لهم زكاة الحرمين والمكوس على السلع التى يبيعها الحجاج أو يشترونها فى مواسم الحج ، وربما كان كثير من التوتر الذى ساد علاقات مصر بالحجاز أيام المماليك والجراكسة على الأخص يرجع الى الاختلاف حول المكس ، مقداره ، ونصيب كل من القاهرة والحجاز منه • صحيح أن السلاطين ألغوا المكوس أحيانا ، الا أن هذا الالغاء لم يكن كاملا حاسما ، كما أنه لم يستمر أبدا مدة طويلة • وتحول أخيرا الى سياسة دائمة من سياسات الدولة المملوكية بمصر • كما صار موردا هاما من مواردها(٢) •

وسنحاول فى الصفحات القادمة أن نحدد صلات مصر بالحرمين خاصة ، والحجاز عامة • فى ضوء سياسة المماليك الاقتصادية فى المدن الداخلية : مكة والمدينة • وفى الموانى : ينبع وجدة • متخذين من مساعدات السلاطين للأمراء وتطور مسألة المكوس أساسا للبحث ومنطلقا له من هذه الزاوية •

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٣٧٨ •
العينى : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٦١١ و ٦٦٢ •

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٢٤ •
الفاسى : شفاء الغرام ص ٢٧٨ •

المكوس ومراسيم السلاطين :

يطلق المكس على الجباية · كما يطلق على ما يأخذه العشـار ، ويقال له (الماكس) وفكرة فرض المكوس قديمة ، وقد أبطل الاسلام المكس بأنواعه وفرض الزكاة على الناس فى أموالهم(١) ·

وكان المكس يؤخذ من الحجاج والتجار بعيذاب · ومن لم تجب منه فى عيذاب جبيت منه فى جدة ، ومقـداره سبعة دنانير مصرية ونصف على كل انسـان · أما من لم يؤد المكس هـذا يمنع من الحج والتجـارة ، ويعذب بأنواع شتى من العذاب(٢) ·

وظل الأمر على ذلك النحو حتى حج سـنة (٥٧٢ هـ) رجل صـالح هو الشيخ علوان الأسدى الحلبى ، وكان ذا صلة حسـنة بصلاح الدين الأيوبى ، فأرادوا أن يأخذوا منه مكسا فأبى وهم بالرجوع وترك الحج فخشى الاشراف عاقبة الامر ، ولاطفوه وبعثوا الى والى مكة (مكثر بن عيسى) يخبرونه برفضه فأمر باطلاقه ، واعفائه من المكس ثم اجتمع به وشكا له (بأن دخل مكة لا يفى بمصالح أهلها فيضطر الى أخـذ مكوس) فكتب الشيخ علوان بذلك الى صـلاح الدين (فأرسل اليه بألفى دينار ، وألف أردب قمح ، سوى اقطاعات بصعيد مصر وباليمن ، وقيل أن مبلغ ذلك ثمانية آلاف أردب قمح تحمل اليه الى جدة)(٣) وأمر باسقاط المكوس · وأخـذ المكوس فى هـذا الزمن المبكر ، أى فى القرن السادس ، يدل على أن المكس بدأ منذ أن تراخت قبضة العباسيين على الحجاز وسـيطر عليه الاشراف فى القرن الرابع الهجرى · واعتبر الاشراف أنفسـهم مستقلين ، لهم ما للدول المستقلة من مقومات ، فأنبتت صلاتهم المالية بالدولة العباسية واعتمدوا على أنفسـهم فى سد عجز (الدخل) بفرض الضرائب على

---

(١) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ ١ ص ٦٩ ·

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ٦٤ ·
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ ١ ص ٦٩ ·

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٤ ·
الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ٣٤٩ ، جـ ٣ ص ٢٧٤ ·
الفاسى : شفاء الغرام ص ٢٥٨ ·
دحلان : خلاصة الكلام ص ٢١ ·
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ ١ ص ٦٩ ـ ٧٠ ·

الحجاج والتجار الذين يدخلون الحجاز(١) • وشيء آخر يمكن استنتاجه من نص المقريزى هو أن أمير مكة كان يتقاضى المكس فى (جدة) • اذن فقد كانت (جدة) خاضعة لمكة منذ ذلك الوقت ، وكذلك ينبع ، كما يبدو من خلال النصوص المعاصرة • وكان الشريف ـ أعنى شريف مكة ـ هو الذى ينفرد بتحصيل المكس فيهما • وسيدور صراع فيما بعد بين سلاطين المماليك وأشراف مكة حول نصيب السلطان المملوكى من المكس ونصيب الشريف منه ، مع أنه فى الاصل للشريف وحده(٢) •

على أن اسقاط المكس لم يستمر طويلا اذ أهمل خلفاء صلاح الدين ارسال ما التزم به صلاح الدين الى البيت الحرام ، فعاد الشريف يجبى المكوس من الحجاج والتجارة ، الى أن كانت سنة (٦٦٧ هـ) وهى السنة التى حج فيها السلطان الظاهر بيبرس ورأى المظالم ، التى تنزل بالحجاج والتجار ، فرتب لأميرى مكة عشرين ألف درهم كل سنة (وألا يؤخذ بمكة مكس ولا يمنع أحد من زيارة البيت الحرام ، ولا يتعرض لتاجر ، وأن يخطب للسلطان فى الحرم والمشاعر ، وتضرب السكة باسمه ، وكتب لهما تقليدا بالامارة وسلمت أوقاف الحرمين التى بمصر والشام لنوابهما)(٣) • ويبدو أن الغاء المكوس هنا كان دون تفرقة بين الحجاج والتجار ، أما فيما بعد ، فستكون الرعاية للحجاج دون التجار • كما يبدو أن هذا الاعفاء لم يكن كاملا ولا شاملا ففى (الارج المسكى) أن أبا نمى كان يأخذ من حجاج اليمن (على كل جمل ثلاثين درهما ، ومن الحاج المصرى على الجمل مبلغ خمسين درهما) فكان ما فعله الظاهر بيبرس أن سوى الحجاج المصريين بغيرهم فصار يؤخذ منهم ثلاثين درهما(٤) •

---

(١) ابو شامه : الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٩٣ •
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٧ ص ١٠٩ ـ ١١٠ •
الرشيدى : حسن الصفا ، حوادث سنة ٥٧٣ هـ •
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٧٤ •
ابن جبير : الرحلة ص ٥٥ •

(٢) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ ١ ص ٦٩ « فى سنة ٦٢٩ هـ أبطل المنصور عمر ابن رسول (مظلمة) المكوس وعوض صاحب مكة عنها • وكتب بذلك مربعة جعلت حيال الحجر الأسود وفى جدار زمزم » وذلك ابان سيطرته على مكة •

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٧١ و ٥٧٩ •
الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ٤٥٩ •
على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٣٣١ •

(٤) محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ٢٨ •
دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٧ •

وحول المكس : مقداره وطريقة تحصيله ، قامت فتنة سنة (٦٨٣ هـ) بين أبى نمى وأمير الحاج المصرى فى موسم الحج ، لأنه يبدو أن المنصور قلاوون لم يدفع لأمير مكة ما شرطه بيبرس ، أو أنه لم يعد يرى أن هذا المبلغ كافيا (فاشتد على الحجاج فى الجباية) فاشتبك مع أمير الحاج المصرى بأمر من قلاوون ، ثم جرى الصلح بينهما(١) ٠

وكما حصل سابقا عاد المكس من جديد أيام الناصر محمد بن قلاوون وعندما أراد الناصر الغاءه لم يعتبره منكرا أو حراما ، اذ أنه لم يلغه كلية بل خفف من حدته، بابقائه على تجارات التجار، وسلع الحجاج الثمينة (وأسقط المكس المتعلق بالمأكولات فقط) (٢) وعوض عطيفة بن أبى نمى أمير مكة سنة (٧٢٢ هـ) عن ذلك بثلثى قرية (دمامين) بصعيد مصر (٣) أو بألفى أردب من قمح تحمل له من مصر(٤) ٠ وربما كان هذا المقدار هو متحصل انتاج قرية دمامين ٠

ومنذ ذلك الحين صار (المكس) على التجارة مقررا لا يجادل أحد فى أحقية الشريف فى تحصيله بـ (جدة) الا أن الصراع بدأ حول مقداره ، ونصيب كل أمير من الأمراء فيه ـ كما حصل سنة (٧٥٤ هـ) ، وذلك قبل أن يتدخل السلاطين ليطالبوا بنصيبهم هم أيضا ٠ ففى تلك السنة مضى الشريف عجلان أمير مكة الى جدة لاخذ مكس التجار الواردين فى البحر ، فطلب أخوه ثقبة نصيبه منه ، فأبى عجلان أن يدفع له شيئا ، فنشب بينهما صراع أسر فيه عجلان، ثم أطلق سراحه(٥) ٠

وتجاوز (عجلان) حد الاعتدال فى سنة (٧٥٥ هـ) عندما فرض على (نخيل) الأراضى التى تقع تحت سيطرته ضريبة أربعة دراهم وثلاثة ودرهمين ٠

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٢٤ ٠
ابن بهادر : فتوح النصر ج ١ ورقة ١٥٩ ٠
الفاسى : شفاء الغرام ص ٢٧٢ ٠

(٢) الفاسى : شفاء الغرام ص ٢٧٨ ٠

(٣) ابن الوردى : تتمة المختصر ج ٢ ص ٢٧٣ ٠
الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١٩٤ ٠
المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٣٦ ٠
الجزيرى : درر الفوائد ص ٣٠٠ ٠

(٤) ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ص ١١٩ ٠

(٥) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٨٨٧ ٠

فحصل له من ذلك مال كثير · وعلل عجلان هذا العمل بمنع المجاهد صاحب اليمن تجار اليمن من السفر الى مكة ، انتقاما من أمرائها للدور الذى لعبوه فى أسره ، وحمله الى مصر مقيدا ذليلا ، فلما أطلق سراحه حاول أن يعاقب الامراء بتعطيل طريق التجارة بين اليمن والحجاز · فاضطر عجلان الى فرض ضريبة النخيل(١) · وكما استمر صاحب اليمن فى منع التجارة ، استمر الشريف عجلان فى رفع الضرائب وفرض ضرائب جديدة ، حتى ضاق الحجاج والسكان والتجار بذلك ذرعا فوصلت شكاواهم الى الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، وكان ساخطا على الاشراف ونظامهم بمكة · فأرسل سنة ٧٦٠ هـ جندا رأى أبو المحاسن أنهم كانوا يهدفون الى ازالة الاسرة الحسنية كلها من مكة(٢) · فعمل أمير الجند على اعادة الامور الى نصابها ، والغاء المظالم فأسقط المكس المأخوذ عن المأكولات من الحب والتمر والغنم والسمن ، ودام هذا الاسقاط مدة اقامة الحملة بمكة حتى سنة ٧٦١هـ(٣) ·

ويظهر أن أكثر أنواع المكوس اثارة للناس (مكس الطعام) اذ أنه كان يمس جميع الطبقات فى حاجاتهم الضرورية · وعندما اضطر السلاطين الى الاقرار بحق الاشراف فى مكوس التجارة والسلع لم يستطيعوا تجاهل شكاوى الحجاج ، وسكان مكة والمجاورين فيها وفى المدينة من مكوس الطعام ، فحرصوا على الغاء هذه المكوس بالذات المرة بعد المرة ، كما فعل الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٢ ثم ابنه الناصر حسن سنة ٧٦٠هـ ثم الاشرف شعبان بن حسن بن الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٦٦ هـ ·

ويبدو أن الامور كانت قد بلغت درجة عظيمة من السوء فى سنة ٧٦٦ هـ فصارت الضرائب على المأكولات باهظة جدا بحيث أن الفاسى يقول : « بلغنى أن بعض الناس جلب شاة فلم تساو المقدار المقدر عليها ، فسمح بها فى ذلك ، فلم يقبل منه ذلك(٤) ·· فصارت المكوس على الشاة أكبر من ثمن الشاة نفسها ! ويورد (ابن فهد) و (الفاسى) و (الجزيرى) قوائم مفصلة بمقدار الضريبة على

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ١٨٨ ·
المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٨٨٧ ·

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٣١٦ ·

(٣) الفاسى : شفاء الغرام ص ٢٨٤ ·
الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١٩٥ ·

(٤) الفاسى : شفاء الغرام ص ٢٨٥ ·

كل نوع من أنواع المأكولات يدخل الى مكة والمدينة فقد كانت المكوس تؤخذ عن كل ما يؤكل ، وما يجلب الى المدينتين المقدستين من الحبوب والخضروات والثمار والغنم والخشب ، وكل ما يباع بهما من السمن والعسل والثيـاب وغير ذلك (وكان مقدار المكس مدا مكيا وربع مد على كل جمل يصل من جهة الطائف ونخلة، ومد جديا على كل جمل يصل من جدة ، وثمانية دنانير مسعودية(١) على كل جمل من التمر واللبان الواصل الى مكة ، وثلاثة دنانير مسعادية على كل جمل من التمر المحشى ، وستة مسعودية على كل شاة ، وسدس ثمن ما يباع من السمن والعسل والخضر • وكان الناس يقاسون شدة(٢) فشكا الناس الى يلبغا الخاصكى مدبر السلطنة ، ما يلقونه من ظلم ، فأوصل شكواهم الى السلطان فأمر بالغاء كل مكوس المأكولات وكل ما يجلب الى المدينتين المقـدستين وكل ما يبـاع فيهما الا ما يجبى من تجار الكارم ، وما يجبى بجدة ، ومكس ركب العراق ومكس الخيل ، فللشريف أخذ هذه المكوس على عادته • وأشهد الشريف بذلك على نفسه وكتب محاضر بذلك • ثبت واحد منها بمكة وآخر بالمدينة وثالث بالقلعة بمصر • وعوض شريف مكة عما تنازل عنه (مائة وستين ألف درهم وألف أردب قمحا)(٣) ويرى الفاسى أن المبلغ كان (ثمانية وستين ألف) غير أن مرسوم الاشرف شعبان لا تزال صورته الاصلية موجودة حتى اليوم على خمسـة من أساطين الحرم(٤) ، فالمبلغ اذن مائة وستين ألف درهما •

وهذا المرسوم يطلعنا على نوع آخر من أنواع التفرقة ، فلم يفرق المرسوم بين المأكولات والسلع التجارية فحسب ، بل فرق بين حجاج (مصر والشام) واليمن وغيرهم من الحجاج فأعفى الاولون (المصريون والشاميون) وترك الباقون• وكان هـذا سـلاحا سياسيا فى يد مصر تشهره على من تشـاء عنـدما تسـوء العلاقات معه • وكانت علاقات مصر بمغول العراق متوترة فى غالب الأحيان •

---

(١) الدينار المسعودى : نسبة الى الملك المسعود الأيوبى صاحب اليمن والذى كانت له السيادة على الحرمين الى أن توفى سنة (٦٢٦ هـ) •

(٢) الفاسى : شفاء الغرام ص ٢٨٥ •
ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ٢١٠ •

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ٢١٠ •
الفاسى : شفاء الغرام ج ١ ص ٢٨٥ •
الجزيرى : درر الفوائد ص ٣١١ •
ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٣٩ •

(٤) أحمد دراج : وثائق دير صهيون ص ٨٨ •

ثم كان قيام الدولة المملوكية الجركسية (٧٨٤ هـ) نقطة تحول فى العلاقات بين مصر والحرمين فى النواحى السياسية والاقتصادية • ويهمنا هنا أن نعرض للنواحى الاقتصادية من العلاقة • كما عرضنا قبل للناحية السياسية • فقد صارت علاقة مصر بالحجاز فى ذلك الدور علاقة اقتصادية بحتة تقريبا • يدلنا على ذلك ما تحت أيدينا من نصوص تروى الصورة التى كان عليها الاقتصاد فى ذلك الحين (فانعكست الحقائق وصار المال يحمل من مكة الى مصر ويلزم اشرافها بحمله) (١) • ويورد لنا المؤرخون صورا أخرى عن الحالة الاقتصادية آنذاك منها أن حسن بن عجلان لم يدم فى منصبه الا برشاوى ضخمة للسلاطين وكبار رجال الدولة وكذا الأمير بالنسبة لابنه بركات وغيره من الأمراء(٢) •

ثم فكر السلاطين فى زيادة دخولهم بكل طريق ، فأجبروا أشراف مكة على اشراكهم فى مكوس التجارة بجدة • وهو أمر ليست له سابقة ، فهى دائما كانت كلها خالصة لاشراف البيت الحرام ، فأبى السلطان برسباى الا أن يأخذ لنفسه مكوس جدة ، ما عدا مراكب الهنود القادمة من اليمن ، على أن يدفع الشريف زيادة على ذلك عشرة آلاف دينار للسلطان فى كل سنة(٣) • واتهم السلطان المؤيد شيخ الشريف حسن بن عجلان سنة (٨٢٣ هـ) أنه يحتكر بعض السلع وعاتبه على ذلك وكأنما نبهه احتكار الشريف لبعض السلع الى الأرباح الفاحشة التى يمكن أن تأتى من هذا الطريق فلم يرد أن يتعاطاه أحد غيره(٤) وحاول الظاهر ططر سنة (٨٢٤ هـ) أن يصحح نظرة الناس الى السلطنة • فأبطل المكس الذى كان الشريف حسن قد وضعه على الخضروات • وكتب ذلك بأساطين الحرم • كما أعفى الأمراء من المبالغ التى كانوا يدفعونها لأمراء الحاج المصرى • وكان ذلك يمس التجار اذ يغتصب الأمراء تلك المبالغ منهم • وأمر بنقش ذلك أيضا على العواميد التى فى صف أبواب الصفا(٥) • لكن السلطان ططر توفى

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٣٧٨ •

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج ٤ ص ٨٦ و ١٥٥ •

ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ حوادث سنة ٨١٩ •

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ١٣ •

(٤) الفاسى : العقد الثمين ج ٤ ص ١٣٧ •

(٥) ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ حوادث سنة ٨٢٤ هـ •

الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١٩٥ •

النهروالى : الأعلام ص ٢٠٥ •

الصباغ : تحصيل المرام ورقة ١١٥ •

بعد ذلك بأيام وانتهت كل اصلاحاته بموته ، وعادت الدولة الى سياستها السابقة فى استصفاء كل ما يمكن استصفاؤه بغض النظر عن مصدره وطريقة أخـذه · واذ كان السلاطين قد غالوا فى جمع الأموال ، فلن يكون الشريف حسن أفضل منهم · ففى سنة (٨٢٦ هـ) صادر الشريف حسن فلفل التجار الواصلين الى جدة من الهند وهدده السلطان فلم يهتم(١) ·

وقد كان التجار يلقون عنتا من صاحب اليمن (بعدن) حيث بلغت معاملتهم أشد ما تكون من القسـوة ، فى تفتيشهم ودفعهم للضرائب التعسفية التى قد تصل الى أكثر من قيمة البضاعة نفسها(٢) ، فتحولوا الى جدة فبلغ ذلك السلطان برسباى سنة (٨٢٨ هـ) فأراد مشاركة شريف مكة فى ذلك · وحصل حوالى السبعين ألف دينار من عشور التجارة بجـدة ، فطاب له المرام ، فجعل جـدة تابعة للسلطان مباشرة ، وعين فيها (شادا) ليتوجه كل عام الى جدة ابان الموسم ليحصل المكوس من عشور التجارة ويضيق على أمير مكة وعلى التجار فيأمر التجار بعدم السـفر الى الشـام والسير الى مصر مع الحجاج لأخـذ المكس من الجميع (حتى يأخذ من المرأة الفقيرة مكس النطع الصغير عشرة دراهم فلوسـا)(٣) · ولما توفى الشريف حسن سـنة (٨٢٩ هـ) كان من شروط برسـباى على ابنه بركات الأمير الجديد ، ألا يكون له شيئا على التجارة بجدة(٤) ، حتى يخلص ذلك كله للسلطان ، وضـاق ببركات الأمير ، فحاول السـطو على ما جمعـه رجال السلطان بجدة ، فأرسل السلطان تجريده لتأديبه سنة ٨٣١هـ(٥) · وجاء بعد سخط شريف مكة سخط التجار الذين ضجوا لاجبارهم على السفر الى القاهرة من جدة ليؤخذ منهم المكس (فوقع الاتفاق على أن يؤخذ منهم بمكة عن كل حمل قل ثمنه أو كثر ثلاثة دنانير ونصف ويعفو من حمل ما يتبضعونه من جـدة الى

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٣٦٦ ·

(٢) أبى مخرمة : تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ٥٨ و ٥٩ ·

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٣٧٨ ·

(٤) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٥٢٧ ·

(٥) نفس المصدر : ج ٤ ورقة ٥٨٣ ·

(فاذا وصل المركب المرسى وأرسى تقدم اليهم نائب السلطان · ويصعد المفتش يفتش رجـلا بعد رجـل ويصل التفتيش الى العمامة والشعر والكمين وحزة السراويل وتحت الآباط ويضرب بيده على حجزة الانسان ··· وكذلك عجوز تفتش النساء تضرب بيدها على اعجازهن وفروجهن ···) ·

(أبو مخرمة : تاريخ ثغر عدن ص ٥٨)

مصر فاذا حمل ذلك الى دمشق أخذ منهم مكسها هناك على ما جرت العادة) (١) ٠ ولم يهتم السلطان لغضب التجار بقدر ما أهمه شريف مكة ٠ اذ أنه يستطيع أن يحدث الكثير من القلاقل فأنعم عليه بثلث ما يتحصل من مراكب الهند بجدة(٢) ففرح بذلك الشريف ٠ ولو نظر قليلا الى الوراء ، لعلم أن والده حسن كان يأخذ كل عشور تجارة جدة ٠٠ دونما حاجة الى صدقة السلطان وأنعامه ولما ضمن السلطان رضاء الشريف ، أمر باعادة التجار من جدة الى القاهرة ، كما كان الحال سابقا(٣) ٠ (فحل بالتجار من البلاء مالا يوصف)(٤) ولم يقل ضيق أمراء المدينة عن أمراء مكة وتجار جدة باجراءات السلاطين ، فخرجوا على سعد الدين بن المرة ، متولى العشور بجدة ، أثناء مروره قرب المدينة سنة (٨٣٤ هـ) وأرادوا نهبه فصالحهم على مال(٥) وجاءت ثالثة الأثافى عندما سار السلطان برسباى سنة ٨٣٥هـ على نهج الشريف حسن بن عجلان المتوفى سنة ٨٢٩هـ ، والذى كان أول من احتكر بعض السلع ٠ فاحتكر السلطان الفلفل وهو سلعة نادرة ٠ وألزم التجار ببيعه بسعر حدده هو (فشق عليهم جدا ولم يجدوا بدا من المطاوعة)(٦) ٠ وفى ذلك العام (أرسلت الى الشام والحجاز والاسكندرية مراسيم أن لا يبيع أحد البهار ولا يشتريه الى السلطان)(٧) وأثرى السلطان من ذلك ثراء عظيما ،فأراد استغلال تجارة جدة فى الضغط السياسى فأمر بالتفرقة بين تجار الهند وتجار الشام ومصر واليمن الذين يأتون بتجارة اليمن ، وأوصى أن لا يؤخذ من التجار الواردين من الهند الى جدة الا العشر ، أما الشاميون والمصريون الذين يجلبون سلعا من اليمن فيؤخذ منهم عشران ٠ وأما من يقدم من اليمن من تجارها فتؤخذ بضاعته لحساب السلطان دون دفع ثمنها انتقاما من صاحب اليمن(٨) ٠

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٥٧٠ ٠

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٤٠٠ ٠

(٣) الجزيرى : درر الفوائد ص ٣٢٥ ٠
ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٤٠٥ ٠

(٤) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٥٩١ ٠

(٥) ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ حوادث سنة (٨٣٤ هـ) ٠

(٦) ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ حوادث سنة ٨٣٥ ٠
وليم موير : دولة المماليك فى مصر ص ١٣٦ ٠

(٧) ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ حوادث سنة ٨٣٥ هـ ٠

(٨) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ص ٤١٧ ٠
(علل المقريزى سخط السلطان على اليمن بأن بعض التجار تحولوا من جدة الى عدن) السلوك ج ٤ ص ٧٢٤ ٠

ثم تدخل أمير مكة لمصلحة تجار اليمن فسوى ما بين التجار(١) ٠

وكان المكس تقليدا مشينا أثار سخطا عميقا فى أوساط التجار والحجاج ٠ كما أضر تدخل السلطان وعسفه بأمراء مكة والمدينة ، وأحس السلطان بتجمع السخط ضده فى الصدور ، فخشى عاقبة ذلك ٠ لكنه ما لبث أن مات ، فخلفه الظاهر جقمق (٨٤٢ ـ ٨٥٦ هـ) ٠ ولم يكن فى نيته التراجع عن المكس الفادح ، لأنه صار موردا من أهم موارد الدولة ، فضلا عما فيه من مكاسب ضخمة للسلطان تأتيه من المكس والاحتكار المنظم للسلع النادرة ٠ ولم يقتصر السخط على أقطار السلطنة المملوكية بل وصلت أنباؤه الى مختلف بقاع العالم الاسلامى ٠ فاستغل معين الدين شاه رخ بن تيمورلنك ، ايلخان فارس ، اجراءات برسباى وجقمق للتشنيع على المماليك وبث السخط فى نفوس الحجاج فى موسم الحج عن طريق أعوانه (فكان يبعث بالأنكار على برسباى لأخذه بجدة ، ساحل مكة من التجار الواردين اليها من الهند والصين ٠٠٠ وأن ذلك المكس المحرم أخذه)(٢) فأراد جقمق تطويق مشاعر العداء ضده بالاستناد الى مبرر شرعى فأوحى الى الفقهاء باجازة ذلك شرعا ، فأصدر فقهاء المذاهب الأربعة فتوى تجيز للسلطان أخذ العشور بحجة أن (التجار المذكورين كانوا يردون الىعدن من بلاد اليمن فيظلمون بأخذ أكثر أموالهم وأنهم رغبوا فى القدوم الى جدة ليحتموا بالسلطان وسألوا أن يدفعوا له عشر أموالهم ٠٠٠ فاحتاج السلطان الى صرف مال كبير فى عسكر يبعثه الى مكة ٠٠٠ فجاز أخذ المكس وصرفه فى المصالح ٠٠٠)(٣) ٠

وكان سخط الناس والمؤرخين عظيما على الفقهاء ، فرأى المقريزى (أنهم اعتادوا اتباع أهواء الملوك خوفا على مناصبهم أن يعزلوا منها ٠٠٠ ولهم فى ذلك سوابق ٠٠٠ أن ذلك مكس لا يحل تناوله ولا الأكل منه ٠ وأن الآكل منه فاسق لا تحل شهادته)(٤) ٠ ورأى ابن فهد (أن فتوى الفقهاء كانت هوى خوفا على مناصبهم من العزل وأنهم يعلمون أن آكل المكس فاسق لا تحل شهادته ، ولكن الهوى يعمى ويصم)(٥) ٠

---

(١) ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ حوادث سنة ٨٣٨ هـ ٠

(٢) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٩٧٣ ٠

(٣) المقريزى : المصدر السابق ج ٤ ورقة ٩٧٣ ٠
ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٤٤٠ ٠

(٤) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٩٧٣ ٠

(٥) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٤٤٠ ٠

وكانت القرصنة الصريحة عام (٨٥١ هـ) فى موسم الحج ، عندما يئس بعض التجار من بقاء شىء فى أيديهم اذا مروا بجدة فبقوا فى مكة فعلم بأمرهم (شاد جدة) فتبعهم الى مكة فالتجأ التجار الى المسجد الحرام وقت خطبة الجمعة واستغاثوا بالخطيب ثم بقاة الحرمين ، فتريث القاضى الشافعى فى قبول شكاواهم، لكنه استمع اليهم وقبل منهم دفاعا تقدموا به عن أنفسهم كتابة ، وأطلع أمير مكة على ذلك فتنصل الشاد من كل ما نسب اليه وكذب الشاهد الذى كتب الدفاع فأيد القاضى الشافعى متولى جدة وأسقط عدالة الكاتب ثم أخذ التجار فأذاقهم العذاب وقد عقب (ابن فهد) بمرارة (وباع القضاة ضمائرهم للحكام)(١) .

وعندما ولى السلطنة الأشرف قايتباى أراد أن يتحبب الى الناس فأبطل بعض المكوس عن الحجاج فى موسم سنة (٨٧٢ هـ) وكتب ذلك على أسطوانة بباب السلام ، فاشتد فرح الناس بذلك .

لكن البسمة تجمدت على الشفاة بعد قليل ، عندما قاسم السلطان قايتباى أمير مكة فى عشور تجارة اليمن ، وكانت قبل ذلك خالصة للشريف ، فخاف الناس أن يعود الشريف الى ظلم الحجاج والسكان لسد ما نقص من دخله(٢) . ثم بدأ سياسته الاحتكارية سنة (٨٨١ هـ) فاشترى من تجار الهند (الفلفل) الواصل معهم بسعر العام الماضى غصبا(٣) ، كما احتكر صناعة (السكر والقصب) وتدخل فى كل شىء من فروع التجارة(٤) ، بعد أن انتزعها من التجار الكارمية وغالى فى احتكارها .

ولكن هذا الاحتكار لم يؤد الى زيادة تداولها فارتفعت أسعار التوابل والسلع الشرقية عامة الى أربع أو خمس أضعاف أسعارها فى الهند ، بالاضافة الى الرسوم الجمركية العالية التى فرضوها . ولم يخفف من وطأة ذلك صدقاته على سكان الحرمين واسقاطه بعض المكوس عنهم عندما حج(٥) سنة (٨٨٤هـ) .

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٤٨٦ .
السخاوى : التبر المسبوك ص ١٧٥ .

(٢) الجزيرى : درر الفوائد ص ٣٨٨ .

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٦٣٥ .

(٤) السير وليم موير : دولة المماليك فى مصر ص ١٣٦ .

(٥) النهروالى : الأعلام ص ١٥٧ .
الجزيرى : درر الفوائد ص ٣٤٠ .

ويتضح من تطور مسألة (المكوس) أنها كانت أولا اجراء استثنائيا بسبب ضعف موارد امارة مكة ، لذا لم يفرق فى هذه الفترة بين التاجر والحاج ، ويمضى الوقت أدرك السلاطين المبالغ الطائلة التى يجنيها الأشراف من التجار والحجاج · ورأوا من مقتضيات العدالة أن يفرقوا بين الحاج والتاجر ، فأسقطت المكوس عن مقتنيات الحجاج فى كثير من الأحيان ، وبقيت على التجار ثم زيدت ، وصاحبتها اجراءات تعسفية ، وجاء وقت كان فيه رأس مال التاجر لا يكفى لدفع ما عليه من مكوس ، وصار المكس مبدأ معترفا به ، بفتوى شرعية ولم يعد اجراء وقتيا يلغى عند تحسن الأحوال فاحتكر السلاطين بعض السلع النادرة وتدخلوا فى بعض الصناعات ، فضاقت أرزاق الناس وشكا الشرقيون والغربيون من فظاعة هذه الاجراءات دون جدوى ·

والظاهرة العامة التى تتضح لكل من يلقى نظرة على مجموعة المراسيم التى أصدرها السلاطين باسقاط المكس يلاحظ أن تاريخ اصدارها يرجع الى بداية ونهاية عهود معظم سلاطين المماليك استجلابا لرضاء الله والناس(١) · الا أن الصبغة الاستغلالية التى سادت علاقة سلاطين الجراكسة بشعبهم كانت تتغلب حتى على ورع السلاطين ، فيعود المكوس ويعود العسف من جديد · خاصة بعد أن اتجهت أحوال الدولة المالية نحو المزيد من السوء بسبب الاضطرابات الداخلية وتحول طريق التجارة نحو رأس الرجاء الصالح فى أواخر أيام الدولة المملوكية ·

الحالة الاقتصادية فى الحرمين :

أ ـ مكة المكرمة :

أول ما يطالعنا فى تحديد حالة مكة من حيث الموارد وخصوبة الأرض ، الآية القرآنية الكريمة فى صورة دعاء من ابراهيم عليه السلام الى ربه عز وجل ، أن ينقذ أسرته من قفار مكة الموحشة ، وأرضها المجدبة من الماء والكلأ « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »(٢)· أما ابن حوقل فيقول : « وليس بمكة ماء جار الا شيئا أجرى اليها من عين كان عمل فيها بعض الولاة ··· وليست لهم آبار يشربون منها ··· وأطيب آبارها

---

(١) أحمد دراج : وثائق دير صهيون ص ٩٣ ·

(٢) سورة ابراهيم الآية ٣٧ ·

زمزم ، ولا يمكن الادمان على شرب مائها ... وليس بجيمع مكة شجر مثمر غير شجر البادية »(١) . بيوت قائمة فى وسط الصحراء لا ماء ولا عشب ، ومنذ أن بدأ الجفاف فى جزيرة العرب فى لعصور القديمة وتتالت الهجرات منها الى العراق والشام لم يبق بطرف الجزيرة الشمالى الا أعراب رحل ينتجعون منابت الكلأ ومنازل السحاب فى المواسم ثم بضع قرى سميت (مدن) مجازا على رأسها مكة ، التى أبقى عليها (البيت العتيق) الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا حتى لقد علل البعض ابقاء مشاعر الحج فى الاسلام بعد ازالة الكثير من أعمال الوثنية ، بحرص النبى صلى الله عليه وسلم على المحافظة على قومه وأقاربه (اذ بدون الحج لا يمكن أن يعيش بمكة انسان)(٢) .

ومن هنا كان ما جاء فى القرآن الكريم « فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »(٣) فلولا حركة الحجاج والتجـار وما تحدثه من رواج فى حياة سكان مكة وثراء لصارت مكة خبرا يروى وطللا دارسا عفت عليه عواصف رمال الصحراء وطوته فيما طوت من مدائن وحصون تحت جبالها الرملية الهائلة .

وفى صدر الاسلام خرج سكان الحجاز مقاتلين داعين الى الدين الجديد . وصاروا زعماء للدولة الاسلامية الجديدة وكسبوا من الفتوح أموالا طائلة كونوا بها ثروات ، بيد أن الأسرة الأموية التى خرجت الى الشام ما لبثت أن فرضت سيطرتها على أنحاء الدولة الاسلامية وأقصت أشراف الحجاز ورجاله خوفا منهم أن ينازعوها سلطتها ، فانزوى هؤلاء من جديد كما كانوا سابقا يتمتعون بثمار الثروات التى جنوها ويتلقون مساعدات كثيرة وصدقات جمة من الخلفاء والحجاج فى مواسم الحج فيترفهون بفضل جوارهم للحرم المكى والحرم النبوى .

أما فى زمن السلاطين المماليك فقد اهتمت مصر بتنظيم شئون مكة وتيسير سبل العيش على أهلها . وكانت موارد مكة الرئيسية فى تلك الحقبة تتركز فى مصادر ثلاثة :

١ ـ ما ينفقه الحجاج فى مواسم الحج .

---

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٢٩ .

(٢) الشيخ غريب بن عجيب : سياحتى الى الحجاز ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧ .

(٣) سورة قريش آية ٣ ـ ٥ .

٢ ـ التجارة الداخلية والخارجية ٠

٣ ـ صدقات وأوقاف السلاطين وكبار المحسنين ٠

أما بالنسبة للمورد الأول ، فان عشرات الألوف من الحجاج يزورون مكة فيقيمون بها حوالى شهر من الزمن ، حتى اذا انقضى موسم الحج ظلوا فيها حوالى العشرة أيام ينتظرون اذن أمير مكة بالرحيل ، فلا يأذن الا بعد انقضاء هذه المدة لينفق الحجاج ما معهم ويشترون ما يريدون من أسواق مكة التى يحدث فيها موسم الحج رواجا عظيما ولا يتأخرون أكثر من ذلك حتى لا يثقلوا كاهل المدينة المقدسة بعد نفاذ ما معهم من دراهم وسلع(١) ٠

وكان لمصر دور كبير فى رواج موسم الحج أيام المماليك ، فقد عملت على تحسين طريق الحج بكل الوسائل أيام أكثر سلاطين المماليك ٠ فسهلت الوعر من الطريق وحفرت الآبار على طوله وبنت المنازل والخانات وأخرج بعض السلاطين سحابة تقى الحجاج وهج الحر ٠ أما فى طريق العودة فقد كانت تنتظر الحجاج امدادات الطعام والماء والجمال وأدى ذلك الى خروج الناس من مصر والشام وغزة بأعداد كبيرة الى الحج ، وكان هؤلاء الرعايا من رعايا السلطنة المملوكية ينفقون الكثير فى مواسم الحج قضاء لمصالحهم وتقربا الى الله فى أحب بقاع الأرض اليه عزوجل ٠ ولم تسهل مصر لحجاجها فقط طريق الحج ، بل فعلت نفس الشىء لحجاج أفريقية وغيرها ٠ بذلك ساهمت مصر وشعبها بوسائلها العسكرية والمالية فى تشجيع مواسم الحج التى كانت أهم موارد مكة والوسيلة الأساسية لمعيشة سكانها ٠

واذا كان الحجاج ينفقون ما معهم ويشترون من أسواقها ٠٠٠ فانهم أيضا يحتاجون الى مطوف والى مأكل ومسكن وغير ذلك ، وكل هذه يوفرها لهم سكان البيت الحرام بمقابل مادى ويتغالون فى ذلك حتى ليشكو الحجاج فى كثير من الأحيان مما يلقونه من غلظة المؤجرين والمطوفين بمكة ٠ وهم مع ذلك يؤمنون فى أعماقهم بأن لمجاورى البيت حقا عليهم ، فيصبرون من أجل ذلك على أذاهم ، ويحتملون منهم ما لا يحتمل من غيرهم(٢) ٠

ولم يكن شعب مكة وحده هو الذى يستفيد من الحجاج فقد كان الحجاج ـ كما سبق أن أشرنا ـ موردا طيبا لأمرائها ، الذين أصروا فى كثير من الأحيان على

---

(١) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٢٠٦ ٠

(٢) الشيخ غريب بن عجيب : سياحتى الى الحجاز ص ٣٥٦ ٠

أخذ مكس من الحجاج منذ أن سيطر الأشراف فى مكة ، والى أن جاءت الدولة العثمانية • وصحيح أن السلاطين عملوا أحيانا على منع أمراء مكة من أخذ المكوس الا أن هذا المنع لم يكن شاملا مانعا • فقد كان مقصورا على المأكولات ثم لم يكن تنفيذه أمرا هينا فترك الأمر لأمراء مكة يتصرفون حسبما تقتضيه ضمائرهم ، وكانت أموال الحجاج تغرى هؤلاء بالاستفادة منها ، ولو بمقدار ضئيل ما يلبث أن يتضخم حتى يصبح مبلغا هائلا اذا أخذ هذا القدر الضئيل من كل حاج • أما المورد الثانى من موارد مكة (فأكثرها متحصلة مما يؤخذ من التجار الواردين الى مكة من الهند واليمن وغيرهما)(١) • خصوصا بعد أن تحولت التجارة من عدن الى جدة(٢) • وصار التجار يتعمدون أن يكون وصولهم الى جدة ابان موسم الحج وكان يخرج من عدن أحيانا كما يخرج من جدة على الطرق التجارية عبر بلاد العرب قوافل تجارية مارة بمكة • ومعظمها يكون وصوله وسط موسم الحج وهى تتصل بسيناء وموانىء الشام • وحتى نهاية عصر الدولة الجركسية ظلت مصر مركزا هاما من مراكز تجارة الشرق الواردة بطريق البر من عدن ومن الشام ، ويصل اليها ـ علاوة على سلع الهند ـ سلع من أثيوبيا وشرق أفريقية عامة وبلاد الزنج • كما يصلها سلع أوربا من مصر ، ويصل مكة فى مواسم وصول سفن الهند الى عدن مالا يقل عن ثمانين ألف جمل • وبعد انقضاء موسم الحج تستمر فى سيرها الى دمشق . وتعود بسلع الشام والغرب الأوروبى الى عدن(٣) • وساعد على ازدهار مكة ـ كمركز تجارى ـ قلة المكس الذى كان يؤخذ بجدة ساحل مكة• بالنسبة لما كان يؤخذ من قبل بعدن • فقد كان المقدار المأخوذ ١٠٪ من قيمة السلعة ، وكانت العشور هذه موردا هاما من موارد مكة •

من هنا كان حرص أمراء مكة على السيطرة على جدة ، وكانت جرأتهم فى صراعهم مع السلاطين عندما دخل هؤلاء شركاء فى اقتضاء الضرائب من التجار • وجاء وقت كان المكيون يتقاضون فيه مقدارا عينيا أو قيميا على السلع الداخلة الى مكة من كل الجهات • ويبلغ ذلك مقدارا عظيما فى كثير من السنوات • هذا بالاضافة الى ما يحدثه تبادل السلع فى أسواق مكة من رواج فى الحركة التجارية وزيادة فى دخل القاطنين بمكة ، وما ينفقه هؤلاء التجار فى شراء السلع الجديدة • ويجعل ذلك كله مكة مركز التجارة الرئيسى الذى يبيع فيه تجار الشرق سلعهم ، ثم يتبضعون ليسيروا عائدين •

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٦ •

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ •

(٣) نعيم زكى : طرق التجارة ص ١١٢ ـ ١١٤ •

أما السلع التى كانت تتداول فى الأسواق ، فكلها من خارج مكة طبعا ، وتتضمن العطور والنسيج الحريرى والسبح والسجاجيد والحلى والخضروات والفواكه التى تأتى من جهة الطائف(١) ٠

ونأتى على المورد الثالث من موارد البيت الحرام وهو الأوقاف والصدقات ، وهذا المورد لا نجده فى اقتصاد أية دولة من الدول أو امارة من الامارات غير مكة والمدينة ويحدد صاحب كتاب (دليل الحج) مقدار الأوقاف فى أيام المماليك وأوائل أيام العثمانيين فيبلغ بها مبلغا كبيرا (ذكر فى التاريخ من آثار السلطان سليمان أنه سلم الى أوقاف الدشيشة الكبرى أوقافا أخرى ، فصارت جملة أوقاف ، منها وقف السلطان قايتباى ، ووقف السلطان جقمق ، والقرى الموقوفة عليها ستة بالقليوبية وخمسة بالمنوفية وثمانية بالغربية واحدى عشر بالدقهلية وخمسة بالبحيرة وخمسة بالجيزة وعشرون بالوجه القبلى ٠ والمتحصل من النواحى فى كل سنة سبعون كيسا ٠ وما هو من الغلال ٤٨٨٨٠ أردبا من القمح وذلك خارج عن أجرة الأماكن الكائنة بمصر وغيرها)(٢) ٠ ويشرف على هذه الصدقات والأوقاف عدة مشرفين يعمل بعضهم على ازدهار الأوقاف وجنى المحاصيل ، والبعض الآخر يشرف على وجوه انفاقها فى البيت الحرام على المحتاجين وأولئك الذين أوقف عليهم(٣) ٠

ويفصل صاحب (الأرج المسكى) فى كيفية الانفاق بعد ذكر بعض الأوقاف، فيقول (أنه بعد حصر المستحقين وأرباب الوقف يحضر عملية التوزيع مندوب عن السلطان وآخر عن الشريف وثالث عن ناظر الوقف ثم تجرى عملية التفريق)(٤) ٠

ورغم كبر المقدار الذى ذكره المؤرخون فانه لا يشمل كل ما كان موقوفا اذ أنهم ذكروا ما كان موجودا أيام السلطنة العثمانية ، وكان كثير من الأوقاف قد ترك وأهمل ٠ ونجد كثيرا من النصوص القصيرة فى ثنايا كتب التاريخ عن الوقف والصدقات التى كان السلاطين وكبار الرجال يفيضونها على سكان الحرمين

---

(١) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ٢٠٦ ٠
الموسوعة العربية الميسرة ص ١٧٣٣ ٠

(٢) محسن صادق : دليل الحج ص ٥٩ ٠

(٣) محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ٩٠ ٠

(٤) نفس المصدر ، ورقة ٩١ ٠

فى كل المناسبات · وكان أول من اتخذ ذلك سياسة له من سلاطين الدولة المملوكية الأولى الناصر محمد بن قلاوون ، فقد عنى بالوقوف على ما يشكو منه أهالى الأماكن المقدسة بالحجاز وصار يمدهم بالغلال اذا ما أصابهم القحط · وعندما زار القاهرة عام (٧٢٢هـ) عطيفة بن أبى نمى يشكو القحط والجفاف وارتفاع ثمن الاردب من الحنطة الى مائتين وخمسين درهما اهتم الناصر للأمر ، فسارع الى امداد أهل مكة بالغلال ، فأرسل ألفى أردب على وجه السرعة لتخفيف آلام القحط عن أهلها · كما اهتم بوضع المكوس عن الحجاج على المأكولات لأن ذلك كان سببا من أسباب القحط ، اذ ارتفعت بذلك أثمان الحاجات الضرورية ، فمست الناس جميعا فى حياتهم شدة ، لم يخلصهم منها الا صدقات الناصر من القمح وتبع اسقاط المكوس تعويض أمراء الحرمين عنها بأوقاف فى مصر والشام(١) ·

وتبع الناصر فى صدقاته وأوقافه أولاده من بعده ، فأوقف ابنه الصالح على كسوة الكعبة وخدم المسجد النبوى ثم جاء الأشرف شعبان فتدارك مدبر مملكته (يلبغا الخاصكى) سنة (٧٦٦هـ) الغلاء وشح الأقوات بارسال ألفى أردب من القمح الى مكة (وما شعر الناصر فى مكة بذلك الا وهو معهم ، فأغاثهم وواصل الارسال فى البحر حتى حمل الى مكة اثنى عشر ألف أردب فرقت بمكة فى الناس فعم النفع بها)(٢) · واتخذ الأشرف شعبان ذلك سياسة له فاتفق مع عجلان أمير مكة على أن يرسل اليه كل سنة مائة وستين ألف درهم ، وألف أردب من القمح · على ألا يجىء شيئا من المكوس على السلع الداخلية الى مكة من الحبوب والخضروات والتجار والأغنام(٣) ·

وجاء السلطان الظاهر برقوق فصار الانفاق على سكان مكة جزءا من سياسة الدولة العامة فقد كان الظاهر برقوق (كثير الصدقات ، أوقف ناحية بهتيت على سحابة تسير مع الحج الى مكة فى كل سنة ، ومعها جمال تحمل المشاة من الحجاج)(٤) وصرف لهم ما يحتاجون من ماء وزاد ولباس ذهابا وايابا وكان يبعث فى كل سنة الى الحجاز ثلاثة آلاف أردب قمحا تفرق على سكان الحرمين والمجاورين فيه · وفرق فى أثناء الغلاء آلاف الأرادب من القمح والخبز فلم يمت

---

(١) العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٧٢٢ هـ ·
سرور : دولة بنى قلاوون ص ١٢٦ ·

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ٢١٠ ·

(٣) سرور : دولة بنى قلاوون ص ١٢٧ ·

(٤) ابو المحاسن : النجوم ج ١٢ ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ·

أحد من الجوع ، وأثاب برقوق شريف مكة على بن عجلان ، بأعطيات كثيرة من المال والخيل والمؤن على أن تحسن معاملة أهل مكة ويحكم فيها بالعدل)(١) ٠

وعمل برقوق على أن يستمر تدفق المؤن والمال على مكة بعده ، باصلاح الأوقاف الكثيرة التى أهملت ، فعين لها سنة (٧٩٤هـ) موظفين جدد تلافوا اهمال الموظفين وحاسبوهم بشدة وعمروا ما تخرب وضبطوا ما ضاع فعادت موارد الأوقاف تنفق على البيت الحرام وسكان مكة من مواطنين ومجاورين(٢) ٠

وفى سنة (٨١٨هـ) وصلت مقادير كبيرة من الذهب من قبل المؤيد شيخ لتفرق بالمسجد الحرام ، فتولى تفرقتها الأمير تغرى برمش التركمانى(٣) ٠

أما فى سنة (٨٢٩هـ) فحاول برسباى أن يبز من سبقه فى الصدقة ٠ فجهز مركبا من القمح وأمر بانفاقه على سكان الحرمين ، فبدأوا بالمدينة ، ثم وصلوا الى مكة فأنفقوا فيها خمسمائة أردب على أهل الحرم وعلى الأربطة والمجاورين (وعم بها أهل مكة)(٤) ٠

وعندما حج الأشرف قايتباى سنة (٨٨٤هـ) فعل الكثير لرفاهية سكان مكة ، فقد تصدق بصدقة كبيرة على أعيان الناس ٠ كما كان يطوف بالليل دون أن يحس به أعوانه أو أهل مكة فينفق الكثير على من يصادفه من الفقراء ٠ وأمر فى تلك الآونة بازالة بعض المكوس عن الحجاج والمكيين ٠ وأظهر الكثير من الخشوع والتواضع وحب العامة والاحساس بمشاكلهم(٥) وعمل على أن تستمر صدقته جارية بعد موته ، فأخرج مبالغ ضخمة من ماله الخاص بدأ بها بانشاء ضياع وأماكن وربوع للانفاق فى الحرمين وأرسل القمح لعمل دشيشة للفقراء والمساكين

---

(١) العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٧٩٤ هـ ٠
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١٠٩ ٠
الفاسى : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٦٠ ٠
ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٣ ورقة ٢٤٩ ٠

(٢) ابن الفرات : تاريخه جـ ٩ ق ٢ ص ٣٠١ ٠

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٣ ورقة ٣٣٠ ٠

(٤) نفس المصدر جـ ٤ ورقة ٣٨٥ ٠

(٥) مؤلف مجهول : الجامع الظريف ، ورقة ٦٥ ـ ٦٩ ٠
الجزيرى : درر الفوائد ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ ٠

والأرامل والأيتام والغرباء وغيرهم على أن بطبخ بزيت طيب أو دهن ، وتذكر وثيقة من الوثائق التى تعود الى عهده تخصيص مركبين كبيرين لنقل القمح والحوائج الى الحجاز فى عهد قايتباى(١) ٠

أما السلطان الغورى فقد عمر بعض مشاعر الحرم وقصرا فى جانبه مسكنان لطيفان وبيوتا معدة للكراء حول باب ابراهيم ووقف الجميع على جهات الخير(٢) ٠

وهناك حجة وقف هامة خاصة بالسلطان الغورى وفيها معلومات قيمة عن حياة الأفراد والضرائب والمكوس فى الحجاز وتخصيص جزء من ربع الأوقاف لأمير مكة وأمير المدينة على ألا يتناول أحدهما منهما مكسا من حاج أو زائر ولا على ما يباع فى الأسواق أو ما يرد من خارج الحجاز ما عدا تجار العراق واليمن وتذكر كثير من وثائق الوقف من عهد السلطان الغورى أيضا ارسال الكسوة والأدوية والهبات للفقراء والمنقطعين بالحجاز تخصص بعض وثائق الوقف جزءا من الريع للبئرين بعجرود ونخل بطريق الحجاز وتردد كثير من الوقفيات من عصر الغورى الاهتمام بمصالح الحرمين والقاطنين بهما ٠ وتجهز من لم يؤد فريضة الحج وتسيل الماء العذب وتوزيع قمصان على الفقراء والوافدين صحبة المحمل الشريف(٣) ٠

وقلد كبار رجال الدولة السلاطين فى الانفاق فى مكة ٠ وما زلنا نذكر ما فعله بكتمر وسلار ويشبك وهم من كبار أمراء الدولة من جميل الفعال بمكة والمدينة وجدة مما تحدثنا عنه فى حجات السلاطين والأمراء(٤) ٠

واذا كان الأمراء هؤلاء أمراء للحجاج ، فان هناك آخرين من كبار المحسنين ممن لم يكونوا أمراء للحج كالأمير (جركس الخليلى) الذى أرسل فى سنة (٧٨٧هـ) قمحا كثيرا الى الحرمين ليعمل منه فى كل يوم خمسمائة رغيف لتفرق فى السؤال ونحرهم من الفقراء دون تفرقة ، فعم النفع بها(٥) ٠

---

(١) عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ص ١٣٧ ٠

(٢) النهروالى : الأعلام ص ١٦٥ ٠

(٣) عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ص ١٣٨ ٠

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ١٨ ٠

(٥) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ٢٣١ ٠

ومن المحسنين أيضا على بن عبد العزيز بن أحمد الحربى من أعيان التجار بمصر ، حج مرارا وكان ذا ثروة وخير عفيفا عن الفواحش دينا متصوفا ، أوصى بمائة ألف فضة لعمارة الحرم المكى فعمر بها بعد الاحتراق وتوفى سنة (٨٠٢هـ)(١) .

ومنهم (الأمير شيخ) الذى أمر بصرف مائتى قميص ، على كل قميص عشرة دراهم فضة ، تفرق فى الفقراء ومنها مبلغ لمن يطوف عنه كل أسبوع يوما حول الكعبة(٢) .

فاذا أضفنا الى هذه الصدقات الكثيرة المنشآت كالأربطة والمطاهر والسبل والمدارس وكذا عمارة الحرمين وخدام الحرمين . وكل ذلك له أوقاف علمنا مبلغ ضخامة ما وصل الى أهل مكة من أموال ومؤن أيام المماليك مما أدى الى نشر الرخاء . ونلمح طرفا منه فى العبارات المقتضبة التى يوردها المؤرخون مثل (وكانت سنة أمن) أو (كانت رخيصة الأسعار) أو (كانت سنة طيبة) أو (كان بمكة رخص) .

وكما حرص السلاطين على نشر الرفاهية الاقتصادية فى مكة ، رعاية لمجاورى بيت الله الحرام ، فقد حرصوا على أن يسود فى مكة روح ورع وهيبة وتعظيم لحرمات الله وأبعاد لها عن كل ما يدنسها من أطماع وشهوات .

ففى سنة (٨٣٠هـ) صدر مرسوم بمنع البيع فى داخل المسجد الحرام ، ومنع نصب الصواوين داخله وابعاد المنبر عن الكعبة بعض الشىء حتى لا يستند الى حيطانها فيؤثر فى تماسكها كما أمر السلطان أن تسد أبواب المسجد الحرام ، الا أربعة أبواب من كل جهة باب حرصا على نظافة المسجد وتنظيمه فضاق الناس بذلك لأنهم لم يعتادوه ، وسخر المقريزى من هذه الاجراءات سخرية مرة . ففى الوقت الذى يتظاهر فيه السلطان بالصرامة فى رعاية هيبة البيت الحرام ينادى مناديه فى يوم عرفة معاشر الناس كافة من اشترى بضاعة وسافر بها الى غير القاهرة حل دمه وماله للسلطان ! فجعل مكة بذلك دار مكس وهو يدعى الحرص على هيبتها وكرامتها . ومثل هؤلاء المماليك الذين لا يفقهون مثل ذلك العراقى الذى سأل عبد الله بن عمر عن دم البراغيث فأجابه ابن عمر عجبا يا أهل العراق

---

(١) ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ حوادث سنة ٨٠٢ هـ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ٤ حوادث سنة ٨٠٨ هـ .

تقتلون الحسين بن على وتسألون عن دم البراغيث(١) · ويريد هنا المقريزى أن يقول أن السلاطين لا يتورعون عن ارتكاب الكبائر كنهب أموال الناس وسفك دمائهم ثم يتمسكون بصغائر وظواهر لا تغنى ولا تسمن من جوع ، وما ذلك الا لعجمتهم وجهلهم لروح الاسلام الحقيقية (فيا نفس جدى ان دهرك هازل)(٢) ·

وصدر مرسوم ثان سنة (٨٤٣هـ) (بأن يمنع الباعة من المصريين الذين سكنوا مكة وجلسوا بالحوانيت فى المسعى ، وحكروا المعايش وتلقوا الجلب)(٣) · وأن يخرجوا من مكة (فشكر ذلك لأن هؤلاء البـاغين كثير ضررهم ، واستقروا بحماية المماليك لهم فتغالوا وأحدثوا بمكة ما لم يكن بها)(٤) وقد ساعدهم على استمرار ظلمهم رشاواهم التى كانوا يدفعونها للحامية المملوكية بمكة(٥) ·

أما معاملات مكة المالية ، فكانت تجرى كمصر والشام بالدنانير والدراهم النقرة ويعبر عن الدراهم النقرة فيها « بالكاملى » نسبة الى الملك الكامل محمد بن أبى بكر بن أيوب صاحب مصر(٦) · وكان بمكة دراهم أخرى من فضة خالصة يسمونه المسعودى نسبة الى الملك المسعود صاحب اليمن · وكانت المعاملات التجارية تجرى فى مكة أولا بالتبادل ثم راجت الفلوس فى أسواقها أوائل أيام الظاهر برقوق وأسعار مكة فى الغالب مرتفعة عن سعر مصر والشام(٧) ·

ب ـ المدينة المنورة :

أما المدينة المنورة فقد وصفها ابن حوقل بقوله :

(وهى أقل من نصف مكة ، وهى سبخة الأرض وبها نخيل كثيرة ومياه نخيلها وزرعها من الآبار ، يسقون بها العبيد وعليها سور وبقربها مزارع فيها ضياع

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٥٥٦ ـ ٥٥٧ ·

(٢) المصدر السابق ج ٤ ورقة ٥٥٧ ·

(٣) المصدر السابق ج ٤ ورقة ٩٧٩ ·

(٤) المصدر السابق ج ٤ ورقة ٩٧٩ ·

(٥) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٤٣٧ ·

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٥ ·

(٧) نفس المصدر ج ٤ ص ٢٧٦ ·

الدراهم النقرة : هى التى ثلثاها فضة وثلثاها نحاس ·

لأهل المدينة ووادى العقيق فيما بينها وبين الفرع ، والفرع من المدينة على أربعة أيام فى جنوبها ، والعقيق واد من المدينة على أربعة أميال فى طريق مكة ، وأعذب ماء فى الناحية آبار العقيق ٠٠) (١) ٠ ومن هذا النص يتضح وفرة المياه فى المدينة ، مما جعل فيها نخيل كثير ، وحدائق كثيرة ومزارع خصبة وكان لليهود بها ـ فى أول الاسلام ـ بساتين ونخيل كما كان للانصار مثل ذلك اعتمادا على مياه الينابيع والأمطار ٠

والتمر أكبر محاصيلها ، ان لم يكن هو محصولها الزراعى الأساسى وكان من مفاخر المدينة ما تفنن فيه أهلها من زرعهم أنواع كثيرة من التمور بلغت نحو ١٧٢ نوعا منها الأنواع التى تسمى (الحرة) وتبلغ ٧٢ نوعا ٠ وهذه يأكل منها أهل المدينة ويهادون ، ومنها الأنواع التى تسمى (لون) وتقارب المائة ، وهذه يأكل منها عرب الجبال لرخص ثمنها ٠ وينقسم التمر الى أنواع كثيرة من حيث اللون فمنه (العنبرة) و (الحلوة) و (الشفرى) و (السكرة) الى غير ذلك من الأصناف الجيدة(٢) ٠

والزراعة على هذا تعتبر ميزة للمدينة على مكة ٠ تستطيع بها المدينة أن تؤمن أقواتها ، وأن تستغنى عن الخارج فى كثير من الضروريات بعكس مكة ٠ وكان أهل المدينة يمارسون ـ الى جانب الزراعة ـ التجارة ٠ وهم يتجرون مع سكان البادية المحيطة بالمدينة ٠ كما يتجرون مع الحجاج والتجار الذين يفدون من مكة ٠ والمادة الرئيسية التى يتجرون بها هى ذلك التمر الذى تنتجه بساتينهم ثم أنواع السمن والالبان التى تأتيهم من مواشيهم والحبوب من قمح وشعير وفول وحمص وذرة وعدس ٠ وأكثر هذه السلع تأتى من مصر والشام والهند ٠ وكما يتجر سكان المدينة مع أهل البادية فى السمن والالبان يتجرون معهم أيضا بالابل والغنم والخيول الجيدة ٠ التى تأتى من نجد ٠ وكانت تركيا ومصر والشام مصدرا لتجارة المنسوجات مع المدينة(٣) ٠

وتستفيد المدينة اقتصاديا من الحجاج الذين يمرون بها فى قفولهم من الحج لزيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام ، وقد يزورها أكثرهم فى الذهاب والاياب خصوصا حجاج مصر والشام(٤) ٠

---

(١) ابن حوقل صورة الأرض ص ٢٠ ٠

(٢) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ ١ ص ٤٤٠ ـ ٤٤١ ٠

(٣) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ ١ ص ٤٤٠ ٠

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٠٢ ٠

ولم يهمل السلاطين المدينة فى صدقاتهم ، وأعطياتهم بل ربما عملوا فيها من الخيرات أكثر مما عملوه بمكة ٠٠ فى وقت مبكر وقف صلاح الدين الأيوبى على خدام الحجرة النبوية ثم تتابعت الاوقاف والصدقات أيام المماليك ٠ وما من سلطان أو أمير سخا وتصدق بمكة ـ ممن ذكرنا آنفا ـ الا سخا وتصدق بالمدينة أيضا ٠ وهو أمر أدى الى استمرار حالة من الرفاهية النسبية فى المدينة ، لقلة عدد سكانها ـ من ناحية ـ وللهدوء الذى سادها فى أكثر أيام دولتى المماليك من جهة أخرى ، على النقيض من مكة الكثيرة الاضطراب والثورات ٠

ومن الصدقات ما أفاضه الناصر محمد بن قلاوون على أهل المدينة من مؤن فى أوقات القحط (٧٢٠ ـ ٧٢٣ هـ) ثم اسقاطه المكوس والضرائب على المأكولات وهو شيء هام بالنسبة لسكان المدينة لان تجارة الطعام المتداولة وقتذاك كانت تمثل خير تجارات المدينة(١) ٠

وفى عهد ابنه الصالح (٧٤٣ ـ ٧٤٦ هـ) أوقف على خدام المسجد النبوى ومنبر المسجد وأسقط الاشرف شعبان المكوس تماما وعوض أمراء المدينة ومكة عنها أموالا كثيرة(٢) ٠

وكان عهد الظاهر برقوق خيرا على المدينة ـ كما كان على مكة ـ فقد أرسل آلاف الارادب من القمح والخبز لمكافحة الغلاء والقحط ٠ كما أصلح أوقاف المدينة بمصر والشام بتعيين موظفين جدد لاصلاحها وعمارتها والسهر عليها(٣) ٠

أما الأشرف قايتباى فقد أظهر عناية عظيمة بالمدينة خاصة اذ اشترى بمصر أماكن بستين ألف دينار لتكون أوقافا تحمل ريعها الى المدينة فيعمل بها سماط دائم للناس عامة كما أصدر مرسومه بابطال المكوس وتعويض أمير المدينة عنها ونظم أوقاف المدينة بحيث يتحصل منها سنويا نحو سبعة آلاف وخمسمائة أردب من الحب لعمل السماط وغير ذلك من الصدقات ، وأقام متولين سنويين لذلك كله حتى قيل فيه (ان الله قد أجرى على يديه من الخيرات لأهل مدينة رسول الله ما لم يجتمع لأحد من الملوك قبله)(٤)٠

---

(١) العينى : عقد الجمان ـ حوادث سنة ٧٢٢ هـ ٠

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ٢١٠ ٠
سرور : دولة بنى قلاوون ص ١٢٧ ٠

(٣) ابن الفرات : تاريخه ج ٩ ق ٢ ص ٣٠١ ٠
ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ٢٤٩ ٠

(٤) السمهودى : وفاء الوفاء ص ٧١٤ ـ ٧١٥ ٠

وحذا الأمراء حذو السلاطين فى كثرة الاحسان الى أهل المدينة مدفوعين الى ذلك بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وما تثيره مدينته من أشواق روحية حارة ، كانت تدفع كثيرين من الأمراء وكبار التجار الى المجاورة فى الحرم النبوى فى شيخوختهم بعد وقف ما يستطيعون وقفه على المسجد والحجرة الشريفة وأربطة المدينة ومساجدها ومن هؤلاء الذين نال المدينة حظ من صدقاتهم الأمير (جركس الخليلى) الذى تصدق بكميات من الحنطة سنة ٧٨٧هـ(١) والأمراء بكتمر ويشبك وسـلار(٢) ٠

وحتى عصر متأخر ـ بعد أيام الغورى ـ كانت الاوقاف المتفرقة التى أقامها السلاطين بمصر والشام على المدينة الشريفة حرمها وأربطتها ومرافقهـا العامة ما زالت تصـل الى أهل المدينـة بعد جمع المتحصل منهـا بمصر ، فتفرق على المستحقين من السـكان الاصليين والمجاورين شـهريا بأشـكال مختلفة ماليـة أو عينية ٠ على أن يكون المقدار الموزع كافيا للشخص لمدة شـهر ٠ حتى يتم التوزيع التالى(٣) ٠

وكانت حال المدينة الاقتصادية عموما أحسن من حال مكة لقلة عدد سكانها وكثرة محصولها من التمر ووجود المياه فيها ٠ هذا بالاضافة الى الهدوء الذى شمل المدينة فى أكثر الاحيان لعدم وجود خصام عنيف بين أمرائها على السلطة وفيما عدا حوادث العنف النادرة لا نجد فى تاريخ المدينة أيام المماليك أية فتنة سالت فيها دماء أو تسببت فى أزمة اقتصـادية طاحنـة(٤) وكان هـذا الهدوء لصالح أهل المدينة والمجاورين فيها ٠

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ٢٣١ ٠

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ١٨ ٠
الرشيدى : حسن الصفا ورقة ٣٤ ٠

(٣) محمد كبريت : الجوهرة الثمينة ورقة ٣٥ ٠

(٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٦٥ ٠
المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٦٢ ـ يذكر ان الظاهر بيبرس اشتد فى تحصيل الزكاة من أهل المدينة ومن بجوارها من الأعراب سنة ٦٦٦ هـ وربما كان ذلك لغضبه على أميريها اللذين فرا منه فيما بعد عندما حج وزار المدينة ، ولم يرض بيبرس عن المبلغ الذى حصله مبعوثه وقدره مائة وثمانون حملا وعشرة آلاف درهم فاضطر عرب المدينة الى التعهد بزيادة المبلغ فبعث مهما بيبرس رجلين لتحصيل ذلك ولم نقرأ شيئا عن تكرار هذا العمل طوال أيام المماليك ٠

أما معاملاتها المالية فهى كمعاملات مصر ومكة بالدنانير والدراهم ومكيالها المن والمد ، وأسعارها نحو أسعار مكة بل ربما كانت مكة أرخص أسعارا منها لقربها من ساحل البحر بجدة(١) ٠

الأزمات الاقتصادية بالحرمين :

لا تعنى الاوقاف والصدقات الكثيرة ومواسم الحج والتجارة أن مكة والمدينة لم تتعرضا لهزات وأزمات اقتصادية ٠ فالملاحظ فى اقتصاديات الدول أن تلك الدول التى تعتمد على موارد غير ثابتة لانها مستمدة من الغير وغير ذاتية تظل معرضة للازمات الاقتصادية فى كثير من الاحيان أيا كان مبلغ ما تتمتع به من رفاهية فى وقت من الاوقات ٠ ذلك أن ازدهارها لا يكون رهنا بعمل سكانها وجهدهم ، بل بمشيئة وارادة أناس آخرين . وبالنسبة لمكة فان حالتها الاقتصادية كانت تسوء عندما لا يسقط المطر لان زراعتها الموسمية القليلة تعتمد على الامطار واذا لم يسقط المطر فالمحاصيل لا تنبت كما أنها تسوء أكثر عندما لا يكون موسم الحج ناجحا بسبب القحط أو الفتن فى الداخل أو اجراءات سلاطين مصر والعراق واليمن وتسوء أخيرا عندما لا يقدم اليها التجار بسلع الشرق فيتخذونها محطة بين جدة والشام ومصر ، اما لأن المحاصيل لم تكن طيبة فى الشرق فى تلك الفترة واما لعسف سلاطين مصر واليمن بالتجار والتجارة وفرضهم المكوس الباهظة عليهم بحيث يفضلون أن لا يأتوا الاقطار التى تحكمها السلطنة المملوكية أو الرسولية ٠ أما المدينة فكانت الازمات الاقتصادية نادرة فيها ولم تكن فى جدة أزمات مكة الا أنها كانت تعود الى فتنة داخلية أو الى انقطاع المطر مدة طويلة جدا بحيث يؤدى ذلك الى جفاف الينابيع وتلف المزروعات أو الى غضب السلاطين كما حصل عندما غضب الظاهر بيبرس فاشتد فى جمع الزكاة وحملها الى مصر فاهتزت اقتصاديات المدينة بذلك ٠

ومن الأزمات الاقتصادية التى وقعت بالحرمين ما وقع من قحط فى سنوات ٦٧٦ هـ و ٦٨٣ و ٦٩٥ هـ بسبب ندرة الامطار (فوقع الغلاء بمكة وبلغ مبلغا لم يسمع بمثله منذ دهر طويل بحيث بيعت الغرارة القمح الزيلعية بأربعة عشر أشرفيا ولم يتيسر ذلك لكل واحد ، والغرارة الذرة والدخن بتسعة أشرفية وبيع اللحم والتمر رطل ونصف رطل وربع رطل بمجلق(٢) واستمر ذلك طوال موسم

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ـ جـ ٤ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ٠

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٤ ورقة ٦٥٣ ٠

الحج فى المرات الثلاث وزاد فى حدته سنة (٦٨٣هـ) ما حدث من فتن بمكة بين المصريين وأبى نمى (حتى بيعت الغرارة القمح فى مكة بألف ومائتى درهم ... وفى المدينة بتسعمايكة درهم)(١) .

وزادت فظاعة القحط سنة (٦٩٥هـ) وامتد الى بلاد اليمن فرحل أكثر أهل مكة حتى لم يبق بها الا اليسير من الناس وتبعهم سكان قرى الحجاز وزاد الطين بلة انتشار الأوبئة بسبب المجاعات والتقت جموع اليمن من المهاجرين وجموع المكيين بحلى بنى يعقوب فضاقت بهم البلاد وقضى الجوع على أكثرهم(٢) .

ثم كان غلاء سنة (٧٠٧هـ) وله سببان : ندرة الأمطار بمكة لسنوات متتالية فكان سكانها يضطرون الى حمل الماء على ظهور الحيوانات من بئر عروة خارج مكة للشرب وقضاء حاجاتهم فأثر ذلك على الزراعة والسبب الثانى منع ملك اليمن للتجار من السفر الى مكة بالميرة والمؤن لخصومه كانت بينه وبين صاحبى مكة حميضة ورميثة حتى بلغت الغرارة من الحنطة ألف وخمسمائة درهم والذرة أكثر من سبعمائة . وما زالت الشدة حتى قدم الركب الرجبى المصرى يحمل على ألفى جمل مؤنا وامدادات ورسائل الى صاحب اليمن بالرجوع عناجرائه الضار بسكان الحرمين فانفجرت الضائقة عن سكان مكة(٣) .

ولم يتكرر الغلاء حتى سنة (٧٢١ ـ ٧٢٥هـ) فلم تسقط الأمطار خلال تلك السنوات وكان بوسع أهل مكة احتمال بعض الشىء لولا ثقل المكوس التى زادت الحالة سوءا ، فخرج عطيفة بن أبى نمى مستغيثا بالسلطان الناصر مبلغا له أن القحط والمكوس رفعت سعر الأردب من القمح الى مائتين وخمسين درهما وقد زاد من حدة ذلك الفتنة بين التكارزة والترك بالحرم فأسقط السلطان المكوس وأرسل أربعة آلاف أردب من القمح فلما وصلت تصدق بها (فانحل السعر وبيع أردب القمح بمائة درهم) ونزل المطر عقب ذلك(٤) .

---

(١) زتر شتين : تاريخ سلاطين المماليك ص ٣٨٠ حوادث سنة ٦٩٥ هـ .

(٢) المقريزى : اغاثة الأمة ص ٣٥ .

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ١٢٢ .
أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ١١٩ .

(٤) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٣٦ .
أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ١١٩ .
محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ٤٩ .

وجاء بعد ذلك أيام رخاء ورفاه ، ارتاح فيها الناس حتى لقد نسوا آلام القحط تماما (فكانت مكة فى غاية الطيبة والأمن والرخاء) فبيع فى أسواقها القمح واللحم والجبن والسمن والعسل بأسعار زهيدة جدا(١) ٠

وكان موت الناصر محمد بن قلاوون نذير شؤم على الحرمين اذ توالت فى الحجاز فى الأربعينات والخمسينات من القرن الثامن الهجرى الأزمات السياسية وشاع الاضطراب فى الدولة المملوكية كلها عندما كان الجراكسة يتهيأون للوثوب الى السلطة وجاءت الأزمات السياسية مقرونة بالقحط لقلة المطر مما زاد من سوء الحالة فى الحرمين مثلما حدث فى سنوات ٧٤٤ ، ٧٤٧ ، ٧٤٩ ، ٧٥١ ، ٧٥٣ ، ٧٥٩هـ ٠

ففى سنة (٧٤٤هـ) (قاسى الحجاج فى سفرهم مشقات كبيرة من قلة الماء وغلو الأسعار بمكة بحيث بيعت الويبة من الشعير بأربعين درهما وبيع الأردب القمح فى مكة بمائتى درهم ٠٠ ومن أسباب ذلك أن الشريف عجلان بن رميثة خرج الى جدة ومنع تجار اليمن من عبور مكة ، فعز بها صنف المتجر وهلك كثير من مشاة الحجاج)(٢) وفى سنة ٧٤٧هـ اشتد الغلاء فجأة زمن الحج لاحتكار السلاطين لبعض السلع حتى بيعت غرارة الذرة بمائتين وأربعين درهما والحنطة بمائة وسبعين درهما والتمر بثلاثة دراهم ودام الغلاء شهرين بعد الحج وقد أدى احتكار السلاطين الى (مزيد من التضييق على المسلمين لأنهم لو خلوا سبيل الناس فى البيع لحصل الرفق ورخص السعر وحصل النفع للمسلمين)(٣) ٠

ثم كان الغلاء الأعظم (٨٤٨ ــ ٧٥١هـ) الذى صاحب الوباء الكبير بمكة ومصر معا هذه المرة وزاد من حدته ازدياد الوباء لقلة الماء اللازم للنظافة حتى هم سكان مكة بالخروج منها ونزول بطن مر سعيا وراء المال الى أن انجاب الوباء شيئا فشيئا فدخل التجار مكة فهبطت الأسعار ثم تبع ذلك سقوط الأمطار(٤) ٠ ثم كانت موجة غلاء عاتية بسبب القحط سنة ٧٥٣ هـ ولكنها لم تستمر طويلا(٥) ٠

---

(١) أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ١١٩ ٠

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٦٦ ٠
ابن فضل الله الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، حوادث سنة ٧٤٤ هـ ٠

(٣) الرشيدى : حسن الصفا ، ورقة ٣٤ ــ ٣٥ ٠
أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ١١٩ ٠

(٤) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٨١٦ ٠
ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٣ ورقة ١٧٣ ٠
أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ١١٩ ٠

(٥) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٨٦٠ ٠

واجتمعت عدة أسباب سنة ٧٥٩هـ منها جور السلاطين فى الاحتكار وارتفاع المكوس وتأخر سقوط الامطار وبعض الهزات الداخلية ، فأدى هذا كله الى غلاء فى المأكولات (٧٥٩ ـ ٧٦٠هـ) مما جعل الناس يسارعون الى مغادرة مكة والتفرق فى سائر الأقطار . أما أمير الحج المصرى فقد بادر الى اتخاذ اجراءات سريعة حتى لا يهجر الناس مكة فتخرب ، فأسقط المكوس على الاطعمة وراقب التجار بدقة وأكثر من الصدقات (فارتفع من مكة الجور والظلم والغلاء(١) .

ولرة أخرى تأخر سقوط المطر (٧٦٥ ـ ٧٦٧هـ) فحصل بمكة غلاء عظيم حتى بيعت الغرارة من القمح بأربعمائة وثمانين درهما وعز وجود الاقوات وخلت الاسواق من الحبوب والتمر الا قليلا من اللحم والخضر حتى لقد أكل الناس لحوم الحمير وهلك منهم جماعة كثيرة ونزح من مكة أكثر أهلها فوصل الخبر الى الامير يلبغا الخاصكى مدبر دولة الاشرف شعبان فجهز الى مكة ألفى أردب قمحا وواصل الارسال حتى حمل من مصر اليها اثنى عشر ألف أردب فرقت كلها على الناس فعم النفع بها كما عمل اسقاط ما يؤخذ من مكس الحجاج بمكة مما يحمل اليها من البضائع وعوض صاحب مكة عن ذلك مائة وستين ألف درهم(٢) .

وتسبب الاضطراب فى الدولة قبل سيطرة برقوق (٧٨٤هـ) فى غلاء بمكة عام ٧٨٣ هـ ولم يهتم أحد بركب الحاج فعظمت عليهم الرجعة وصعبت لنفاذ ما معهم من مال بسبب الارتفاع فى ثمن المأكولات بمكة وكان القحط عاما بالحجاز هذه المرة خصوصا آخر السنة (فمال كثير من الاشراف جوعا وأكلت الجلود)(٣) .

ودار صراع رهيب بين أمراء مكة على السلطة بعد مقتل محمد بن حسن بن عجلان ٧٨٨ هـ استمر حتى ٧٩٧ هـ فتسبب فى أزمة غلاء عام ٧٩٣ بأكمله (بلغت فيه الغرارة الحنطة خمسمائة درهم كاملية وأزيد وأكل الناس سائر الجيف) ولما تقلل من حدة الأزمة الا صدقة من القمح أرسلها الملك الظاهر برقوق

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ١٩٤ .
أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ١١٩ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ١٢٧ .
الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٢٠٩ .
ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ٢١٠ .
أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ١٢٠ .

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ج٣ ورقة ٢٢٧ .
المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٣٩٥ .

بيد أن ذلك كان بعد فوات الأوان اذ تسبب الجوع فى وباء (وبلغ الموتى فى اليوم أربعين نفسا)(١) ٠

وأحس برقوق بخطئه لتأخره فى اغاثة سكان الحرمين فأفاض عليهم امدادات المؤن والحبوب حتى بلغ القمح بمكة أرخص سعرا فى تاريخهـا فبيعت الغرارة بسبعين درهما والسمن كل أوقيـة بدرهم والذرة الغرارة بأربعين درهما(٢) ٠ وعاود الغلاء مكة سنة ٨٠٥ هـ حتى بلغت غرارة القمح فيه نحو خمسمائة درهم كاملية والذرة نحو ثلاثمائة والسمن مائة وخمسين درهما كاملية(٣) ٠

على أن القرن التاسع الهجرى لم يعرف غلاء بمكة أفظع من ذلك الذى حصل (٨٢١ - ٨٢٣ هـ) فقد حصل بمكة قحط عظيم حتى بلغت الغرارة من الحنطة خمسة وعشرين دينارا وأزيد ، والذرة قريبـا من ذلك وحمل الدقيق خمسـة وعشرين دينارا واشتد الغلاء فى المأكولات (وفحش فى السمن كثيرا الى أن بلغ المن ستة دنانير وكان الموجود فى الأسواق الفول والحمص والعدس فأقبل الناس على أكله وبلغت (الويبة) من الفول أربعة عشر دينارا والحمص سبعة عشر دينارا وفقد كل شىء فأكل الناس القطط والجرذان حتى انعدمت ، فأقبلوا على أكل بعضهم وكثر الخوف حتى امتنع الكثير من البروز الى ظاهر مكة خشـية أن يؤكل(٤) ٠

ومضت سنون وسنون بعد ذلك الى أن حـدث فى أوائل القرن العـاشر الهجرى سنة ٩٠٣ هـ غلاء ، وكانت أسبابه هذه المرة سياسية بحتة تلك الفتنة التى وقعت بين الشريف بركات أمير مكة وبين أخيه نزاع على الامارة وسقط فى الفتنة كثير من القتلى حتى كادت مكة أن تخرب وخاف التجار دخول مكة فقلت فيها الأقوات ٠٠ وارتفعت فيها أسعار الأشياء(٥) ٠

والحق أن أهل مكة عانوا الكثير بسبب عدم استقرار الأسعار ، وبسبب عسف السلاطين ، وقمع أمراء مكة ثم بسبب القحط ، وجشع بعض التجار ٠

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ٢٤٩ ٠
أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ١٢٠ ٠

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ٢٧٧ ٠

(٣) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٣٣٥ ٠
ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٢٣٥ ٠
ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ حوادث سنة ٨٢٢ هـ ٠

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩٠٣ هـ ٠

(٥) أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ١٢١ ٠

ومن الواضح أن الثقل كان يقع على أولئك الذين لا يملكون شيئا وهم بمكة كثرة من الفقراء والمجاورين الذين يعتمدون على صدقات السلاطين والأمراء وكبار التجار · فاذا اضطربت أحوال السلطنة ولم يهتم السلطان بارسال متحصل الأوقاف أو الصدقات ـ واذا ساءت العلاقات بين التجار والسلاطين ـ لاقى فقراء مكة والمجاورين فيها مجاعة محتمة ·

أما أشراف مكة ـ وهم الذين يملكون بعض الأراضى الزراعية ـ فلم يكن يضيرهم كثيرا عدم ارسال السلاطين الصدقات · بل كان خوفهم الأكبر من انعدام المطر أو قدرته مما يؤدى الى اتلاف زراعاتهم وجوعهم كالآخرين تماما · صحيح أن السلاطين كانوا هم الباقين أكثر الأحيان الى الاغاثة والامداد بيد أنهم كانوا ينسون أنهم سبب هام من أسباب الأزمات بمكوسهم أو احتكاراتهم · ثم ان امداداتهم كانت تأتى متأخرة فى كثير من الأحيان ، بعد أن يجوع الناس ويشتد بهم الجهد ويسرع فيهم الموت · لذا حمل المقريزى والأسدى وأبو الطيب على السلاطين وطالبوهم بالعدالة ، واتباع شريعة الله فى حكم سكان الحجاز وختم (أبو الطيب) الفصل الذى عقده لأزمات الغلاء والجوع بمكة بقائمة تبين تأرجح سعر محصول معين هو الذرة بين سنوات (٧٩٦ ـ ٨١١ هـ) :

السنة	الكمية	السعر
٧٩٦ هـ	غرارة ذرة	٤٠ درهما
٨٠٠ هـ	غرارة ذرة	٦٠ ـ ٧٠ درهما
٨٠٥ هـ	غرارة ذرة	٣٠٠ درهما
٨١١ هـ	غرارة ذرة	١٥٠ درهما

ويرى أن هذه القائمة بليغة الدلالة على ما كانت الأسواق تعانيه من اضطراب لعوامل خارجية عن ارادة سكان مكة وتجارها · ودعا السلاطين الى مراعاة تعاليم الاسلام فى الغاء الاحتكار والمكوس · ثم ختم الفصل بسؤال الله جلت قدرته أن يرخص أسعار المسلمين(١) ·

---

(١) أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ١٢١ ·

الموانى التجارية فى الحجاز وعلاقاتها بمصر :

١ ـ مدينة ينبع :

وهى مدينة تنقسم الى قسمين : ينبع النخل ، وينبع البحر · وعندما يطلق المؤرخون المسلمون (ينبع) فانما يريدون بها ينبع النخل · لأن ينبع البحر كانت قليلة الشهرة حتى أيام المماليك(١) ، حين صارت ميناء للمدينة المنورة ·

وحينما تحول طريق الحاج عن البحر الى البر ، جعل ينبع محطة للحجاج السائرين بطريق البر مما جعلها ميناء يرسل السلاطين من مصر اليه سفن تحمل ما يحتاج اليه الحجاج وما يريدون أن يتصدقوا به على أهل المدينة ومجاوريها(٢) . ثم صارت سوقا تجاريا عظيما وميناء للمدينة وميناء رئيسيا من موانى الحجاز التى تعتمد عليها فى جلب أرزاقها ومحطة للسفن التجارية الآتية من الهند ·

ويصف ابن حوقل ينبع ـ قبل ازدهارها ـ فينصب وصفه لها على القسم الذى يسمونه ينبع النخيل ، فيقول : (حصن به نخيل وماء وزرع ·· وبها وقوف لعلى بن أبى طالب يتولاه أولاده ·· وبها رئيس الجعفريين من ولد جعفر الصادق)(٣) · ويصفها صاحب « زبدة كشف الممالك » فى فترة الازدهار فيركز على القسم البحرى منها بعد ذكر القسم البحرى ذكرا عابرا (مدينة حسنة تشتمل على سور وقلعة ·· ومدينة الينبوع كثيرة العمائر والاسواق والنخل ·· وهى بندر ترد اليه المراكب بالغلال من سواحل الطور ، يؤخذ عليها المكوس لصاحب الينبوع فى كل سنة تدر ثلاثين ألف دينار)(٤) ·

وكان أمراء ينبع من الاشراف الحسنيين من الزيدية ، وهى تسمى (نيابة) ولا تسمى (امارة) (تصغيرا لشأنها عن مكة والمدينة)(٥) وكثيرا ما كان سلاطين

---

(١) حمد الجاسر : بلاد ينبع ص ١٢ ·

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩١٧ ·
الجزيرى : درر الفوائد ص ٢٨٩ و ٣٤٤ ·

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٢٢ ·

(٤) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ج ١ ص ١٩ ·

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ ·

مصر المماليك يعهدون بشئونها الى أمير مكة يولى من يشاء ويعزل من يشاء كما حدث فى أعوام ٨١١هـ ، ٨٧٩هـ ، ٩٠٣هـ ، ٩٢١هـ(١) ٠

وقد بلغت ينبع أوج ازدهارها أيام سلاطين المماليك الجراكسة بسبب الاصلاحات الكثيرة التى أدخلت على طريق الحج ومشاعر الحرمين والتى أدت الى ازدياد عدد الحجاج ومشاعر الحرمين على الحجاز وكانت ينبع (المحطة) البرية والبحرية لحجاج مصر والشام خصوصا أولئك الذين يريدون زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم قبل أو بعد حجهم الى البيت الحرام بمكة ، فصارت سوقا هاما لبيع وشراء مختلف السلع ، وقصدها التجار فلعبت دورا هاما فى تجارة البحر الأحمر أيام المماليك ، حتى بلغ من ازدهارها أن قدرت عائدات نيابتها من التجارة بثلاثين ألف دينار سنويا كما أوضحنا سابقا ٠

وللصلة التجارية التى قامت بين موانى مصر ، عيذاب ، الطور وبين ينبع حصلت تغيرات كبيرة فى التركيب الاجتماعى لمدينة ينبع ٠ فما أن سقطت دولة المماليك حتى كان سكان المدينة من الأسر العربية التجارية التى انتقلت من مصر ومن الصعيد بالذات واستوطنت مدينة ينبع(٢) ٠

وككل المدن التى تنمو نموا سريعا ، عانت ينبع مشاكل كثيرة بسبب هذا النمو ، فقد تحولت ــ فيما لا يزيد عن قرن من الزمان (٦٢١ ــ ٧٢٥هـ) ــ من قرية الى مدينة تنقسم الى قسمين أحدهما برى بعيدا عن البحر بعض الشىء ، يعيش سكانه على الزراعة ورعى الماشية وفيه بعض الينابيع ٠ وقسم بحرى يقع على الشاطىء ويعيش سكانه على الصيد وبعض الحرف الأخرى ٠ وهذا القسم يعتبر مدينة هى الميناء الثانى للحجاز بعد جدة خاصة بعد اضطراب أمور ميناء عدن بسبب مظالم سلاطين اليمن ــ كما أسلفنا ــ وطبيعى أن لا تكفى الزراعة لسد حاجات السكان المتزايدة ، ما دامت المدينة الجديدة قد قامت على التجارة ومن أجلها ولابد لازدهار التجارة من استقرار وأمن وحماية للتجار وعناية بالميناء ٠ وقد توفر ذلك لينبع بسبب اهتمام السلاطين بها تأمينا لمصالحهم التجارية وحفاظا على حياة الحجاج لكنها لم تنج من فتن وفلاقل قليلة ، أحدثت مجاعات وويلات وخرابا لتعطيلها للميناء وقطعها لموارد أكثر سكان المدينة الذين يعتمدون على الحركة التجارية بميناء ينبع(٣) ٠

---

(١) حمد الجاسر : بلاد ينبع ص ٣٢ ــ ٦٧ ٠

(٢) نفس المصدر ص ١٢٨ ٠

(٣) نفس المصدر ص ١٢٨ ــ ١٣٠ ٠

من ذلك الدمار الذى أحدثه الخلاف على الامارة بين الشريف مقبل الحسنى وابن أخيه عقيل بن وبير الحسنى ، وقد أجبر أمير الحاج المصرى سنة (٨٢٥هـ) مقبلا على الرضى بابن أخيه عقيل شريكا له فى الامارة فتظاهر مقبل بالرضا حتى اذا تابع أمير الحاج سيره الى مكة اشتبك مقبل مع عقيل فى قتال أسره فيه ، وأقام بينبع حتى عاد (جان بيك) أمير الحاج وعلم بما حدث فأغار على أنصار مقبل · فقتل منهم جماعة وانهزم مقبل ، فأمعن المماليك فى السلب والنهب بالمدينة واستاقوا ابل الناس وجيادهم وأمتعة كثيرة ومالا جزيلا ، وكانت كارثة مزدوجة بزلت بالتجار والتجارة فنهبت أموالهم وتعطلت تجارتهم ذلك العام (كل ذلك بسوء الطبع والطمع فى القليل)(١) ·

وفى سنة (٩٠٢هـ) بدأت فتنة يحى بن سبع المطالب بامارة ينبع فقطع طريق الحجاج بعجرود ومنع عنهم الماء فاضطر السلطان الى تأميره على ينبع أواخر سنة (٩٠٢هـ) ويظهر أنه استطاب النهب(٢) ·

ولكن ماذال الحقد فى نفسه على السلطان لأنه رفض تعيينه أولا فقاد قبيلة (بنى ابراهيم) وقبيلة (جهينة) وقبيلة (زبيد) وقام بضروب من العبث والفساد فى طريق الحج ونهب فى مكة وجدة وصادر الأموال فأصدر السلطان الغورى أمرا بابطال الحج سنة (٩٠٨ ـ ٩٠٩هـ) خوفا من شرور ابن سبع وازدادت قوة ابن سبع بانضمام (الجازانى) المطالب بامارة مكة اليه سنة (٩٠٧هـ) فهزما أمير الحاج المصرى (اصطمر) سنة (٩٠٧هـ) ولقى الحاج تلك السنة أذى كثيرا ، فعزل السلطان يحى بن سبع وعين هجار بن دراج مكانه · لكن القوة الحقيقية كانت فى يد ابن سبع والجازانى فأرسل الغورى قوة هزمت الثوار سنة (٩١١هـ) (وأحرقوا الدور التى على ساحل البحر المالح التى ببندر الينبع ، وأخربوا غالب دكاكينه وشتتوا العربان الذين به(٣) ثم تبعتها قوة سنة (٩١٢هـ) أنزلت بالثائرين هزيمة ثانية(٤) ، لكنهم قسوا هذه المرة قسوة شديدة على السكان والتجار ، حتى لقد أقاموا من رءوس بنى ابراهيم مصاطب ونهبوا كل ما كان بمدينة ينبع من مزروعات وأمتعة وحيوانات ولم تفق ينبع من هذه الكارثة حتى

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٤٣٠ ·

(٢) محمود رزق : الأشرف قانصوه الغورى ص ١٠٥ ·

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩١١ هـ ·
محمود رزق : الأشرف قانصوه الغورى ص ١٠٦ ـ ١١٠ ·

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩١٢ هـ ·

سقطت الدولة المملوكية (٩٢٢ ـ ٩٢٣) غير أن كثيرا مما فقدته ينبع لم تستطع استعادته بعد تلك الكارثة · لكن هذه المعارك مهدت بلاد الحجاز وأمنت طريق الحج من العابثين والمخربين(١) ·

٢ ـ مدينة جدة :

أما جدة (فهى ميناء مكة المشرفة ترد اليها المراكب بالبضائع وربما يردها فى كل سنة نيف عن مائة مركب من جملة ذلك مركب بسبعة قلوع)(٢) ·

وكانت جدة قبل الاسلام قرية صغيرة يسكنها ـ وما حولها ـ قوم من قضاعة · ولما كانت خلافة عثمان جعلت ثغرا لمكة وقبل ذلك كان ثغرها قرية تسمى (الشعيبة) تبعد عن جنوبى جدة نحو اثنى عشر ميلا · وابتداء من خلافة عثمان صارت تزيد فى عمرانها شيئا فشيئا تبعا لازدهار التجارة فيها(٣) · وجدة ليست بها ينابيع عذبة المياه فهى تقع على شاطىء بحر مالح شديد الملوحة هو البحر الأحمر وكان أهلها يشربون من مياه الأمطار التى يجمعونها فى خزانات وصهاريج ويسقون منها الحجاج ويكسبون بذلك ثمن الماء الذى يجمعونه فى الشتاء(٤) ·

وتقع جدة على بعد ٧٥ كيلومترا من مكة فى صحراء مجدبة لا زرع فيها ولا شجر وما كان ممكنا أن تقوم وأن تبقى لولا تجارة البحر الأحمر التى عاشت قرونا طويلة وكل شىء يجلب اليها حتى الخضروات كانت تجلب اليها من وادى فاطمة ·

ونص (الظاهرى) السابق والذى يقول أن ميناء جدة كان يستقبل مراكب (بسبعة قلوع) يطلعنا على سبب هام من أسباب ازدهار ميناء جدة فهو أكثر اتساعا من ميناء ينبع وأقرب الى الهند وعدن · أما عن الساحل فهو شعاب صخرية يتخللها شعب مرجانية · وتكثر فيه الأصداف الحمراء والأسماك فتشكل موارد

---

(١) محمود رزق : الأشرف قانصوه الغورى ص ١٠٦ ـ ١١٢ ·

(٢) خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ج ١ ص ١٣ ·

(٣) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٤٨٦ ·
الشيخ غريب بن عجيب : سياحتى الى الحجاز ص ٦٩ ·

(٤) عبد القدوس الأنصارى : تاريخ مدينة جدة ص ١١٥ ·

جدة(١) حتى أن المكوس كانت تشمل صيادى الأسماك لفترة الى أن أسقطها السلطان الأشرف قايتباى عندما حج الى الحجاز(٢) ٠

ظلت جدة منذ أيام عثمان رضى الله عنه ، وحتى قيام دولة المماليك ميناء لمكة يستقبل الحجاج اليها بطريق البحر فتزدهر أسواقها فى مواسم الحج ويكثر النازلون بها والخارجون منها فيستفيد أهلها من ذلك استفادة كبيرة ٠ ففى خاناتها يسكن الحجاج ومن أسواقها يشترون وفيها تعد لهم وسائل النقل التى تنقلهم الى مكة(٣) ٠ وكانت جدة تتبع أمير مكة وفيها كان يؤخذ المكوس من الحجاج الواردين بطريق البحر وكان العباسيون فى بغداد يعرفون ذلك فيغضون الطرف لما يعانونه من ضعف من ناحية ولادراكهم فقر امارة مكة وحاجتها الملحة الى المال من ناحية أخرى ٠ فلما سيطر صلاح الدين على مصر والشام قام باسقاط المكوس عن الحجاج ـ كما سبق أن أشرنا ٠ وعوض أمير مكة عن ذلك لادراك صلاح الدين أن دخل مكة لا يفى بمصالح أهلها(٤) ٠

واستمرت جدة فى النمو شيئا فشيئا تبعا لزيادة دخلها بزيادة عدد الحجاج وقوة الحركة التجارية التى تقوم فيها فى مواسم الحج ثم بدأ التجار يردون اليها بعد نزولهم بعدن فيمرون بها فى طريقهم الى مكة ، ويتجرون فى أسواقها ويتهيأون منها لدخول البيت الحرام لاستبدال سلعهم والسير الى الشام بعد المقام بمكة عدة أيام(٥) ٠

الا أن جدة لم تصبح ميناء مكة بل ميناء الحجاز ومن أكبر الموانىء فى الشرق كله ، قبل القرن التاسع الهجرى فحتى القرن الثامن كان أهلها ما زالوا فى حاجة الى صدقات مصر ومساعداتها من ذلك ما وقع سنة (٧٠٠ هـ) عندما كان أمير الحاج بكتمر الجوكندار الذى أنفق ثمانين ألف دينار فى حجه ، ولم ينس جدة ،

---

(١) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٦ ٠
الشيخ غريب بن عجيب : سياحتى الى الحجاز ص ٦٩ ٠

(٢) مؤلف مجهول : الجامع الظريف ص ٦٥ ـ ٦٦ ٠

(٣) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٠ ٠

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٤ ٠
ابن جبير : الرحلة ص ٥٥ ٠
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ص ٦٩ ـ ٧٠ ٠
الرشيدى : حسن الصفا ، حوادث سنة ٥٧٣ هـ ٠

(٥) نعيم زكى : طرق التجارة ص ١١٢ ٠

لأنه عرف حاجتها الى المؤن والحبوب فجهز لها عدة مراكب مشحونة بالأطعمة وفرقها على أهلها دون تمييز بينهم(١) ٠

أما بالنسبة للفتن ، فقد نال جدة منها ابان تلك الفترة ما نال مكة ٠ لأنها كانت تابعة لها ٠ فاذا بدأ نزاع بمكة فسرعان ما يمتد الى جدة لأن المهزوم يلجأ غالبا اليها ، ليجمع جموعه ويعيد على مكة الكرة ٠ ومن ذلك ما وقع سنة (٧٨٩ هـ) عندما جمع كبيش بن عجلان جماعة من العربان مريدا الانتقام من أمير مكة الجديد الذى يؤيده السلطان ، فأغار على جدة ونهبها وأخذ منها للتجار ثلاثة مراكب وحدثت بجدة وقعة هائلة عندما تصدى له أمير مكة وقتله بعد مناوشات كثيرة(٢) ٠

ويفهم من نهب كبيش للمراكب أن جدة بدأت فى أواخر القرن الثامن تنهض من الناحية التجارية المنفصلة عن مواسم الحج ، من أن مراكب (السبعة قلوع) التى أشرنا اليها لم تكن قد حولت طريقها اليها بعد فكانت تجارتها محدودة ومع مصر بالذات ، وكانت أهميتها فى كونها الميناء الذى يتلقى امدادات الحبوب والمؤن التى يبعثها سلاطين مصر الى الحرمين وهى كثيرة لكثرة الأزمات الاقتصادية والمجاعات التى كان يتعرض لها أهل مكة والمدينة والمجاورون فيهما(٣) ٠ وحول تجارة الحبوب قامت جماعات صغيرة من تجار سواحل البحر الأحمر أكثرهم مصريون فنبهت الأذهان الى ما يمكن أن يكون عليه ميناء جدة من ازدهار لو أتيحت له أسباب الشهرة بعناية أمراء مكة وسلاطين مصر به وحمايتهم للتجار وعدم الجور فى المكوس وحسن المعاملة ٠

وما أن حل القرن التاسع حتى تغيرت لهجة المؤرخين فى حديثهم عن جدة فقد بهرهم ما وصلت اليه فجأة من اتساع فى العمران وارتفاع فى الدخل (فهى من أعظم المدن وربما يردها فى كل سنة نيف عن مائة مركب من جملة ذلك مركب بسبعة قلوع ، وتؤخذ الموجبات والرسوم وتحمل الى صاحب مكة ٠٠٠ ويقال أن متحصل الجهة المذكورة مائتا ألف دينار وربما يزيد وينقص) (٤) ٠

---

(١) الرشيدى حسن الصفا ، ورقة ٣٤ ٠

Lane Poole. A.: Hist. of Egypt in the Middle Ages. P. 309.

(٢) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ حوادث سنة ٧٨٩ هـ ٠

(٣) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٤٨٦ ٠

(٤) خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١٤ ٠

ومدينة جدة (مركز تجارى كبير لأنها الثغر العمومى للحجاز منها صادراته واليها وارداته ... وتروج التجارة فيها فى مواسم الحج) (١) و (هى المرفأ الأكبر للحجاز فمنها صادراتها ووارداتها) (٢) .

بدأت جدة تتحول الى مرفأ عالمى فى عشرينات القرن التاسع الهجرى ويورد المؤرخون فى هذا الصدد أخبارا متناثرة من غير تعليق ، لكنها فى غاية الأهمية فى فهم ما كان قد حصل من تحول فى حجم التجارة ونوعيتها فى ميناء جدة .

ففى سنة (٨٢٢ هـ) (وصلت المراكب القادمة الى جدة فى آخر ذى القعدة ، فصالح السيد حسن التجار الذين بها على عشرة آلاف دينار بعد وصوله لملاقاة الحجاج) (٣) ، وكانت تلك بداية قوة جدة التجارية وارتفاع دخلها من هذا المورد ارتفاعا هائلا فى سنوات قليلة ولم يكن السلاطين قد فطنوا الى ما يمكن لبندر جدة أن يكسب ، فظل شريف مكة منفردا بأخذ العشور من التجار باعتبارهم جدة ميناء لمكة ، وتابعة لها مع ملاحظة أن مكة كانت مقصد التجار الذين ينزلون بجدة . ويفهم من ذلك من كونهم نزلوا جدة فى آخر ذى القعدة ، كما أسلفنا ، ابان موسم الحج حيث يجتمع عشرات الألوف من الحجاج يشترون السلع ويبيعون وكانت العشور التى يدفعها التجار بجدة تؤمن لهم الطريق ، وتجعلهم فى حماية أمير مكة سواء فى جدة أو فى مكة وكانت مكوسا وخفارة وحماية فى نفس الوقت . وكانت خطوة تجار الكارم هذه بداية لتحول واسع الى ميناء جدة فقد كانت المراكب الواردة من سواحل الهند ترد الى عدن (ولم يعرف قط أنها تعدت بندر عدن) (٤) . فلما كانت سنة (٨٢٥ هـ) خرج من مدينة (كاليكوت) تاجر هندى جرىء اسمه ابراهيم فلما مر على باب المندب حاول أن لا يرسو بعدن للمعاملة السيئة التى كان سلطان اليمن يعامل بها التجار حتى ليكاد يصادر الجزء الأكبر من سلعهم ، كما أشرنا سابقا . واستمر ابراهيم فى سيره حتى نزل جدة ، الا أن حظه هنا كان أسوأ (فاستولى الشريف حسن بن عجلان على ما معه من البضائع وطرحها على التجار بمكة) (٥) . فلما كانت السنة الثانية — أى سنة ٨٢٦ هـ — قدم ابراهيم من الهند فلم ينزل بعدن ولا بجدة

---

(١) غريب بن عجيب : سياحتى الى الحجاز ص ٧٠ .

(٢) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٩٠٨ .
عبد القدوس الأنصارى : تاريخ مدينة جدة ص ١٨ .

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٧٥٥ .

(٤) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٤٨٥ .

(٥) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٤٨٥ .
ابو مخرمة : تاريخ ثغر عدن ص ٥٨ .

وأرسى بمدينة (سواكن) ثم بجزيرة (دهلك) (فعامله صاحبها أسوأ معاملة) فحاول فى سنة ٨٢٧ هـ أن ينزل بينبع فتجاوز جدة وعدن معا وكان خبره قد بلغ السلطان فأمر الأمير قرقماش أن يعده بالأمن والأمان على تجارته على أن يعود الى جدة (فما زال يتلطف به حتى أرسى بجدة بمركبين فجامله أحسن مجاملة حتى قويت رغبته ومضى شاكرا) (١) ٠

عاد ابراهيم فى سنة ٨٢٨ هـ ومعه هذه المرة أربعة عشر مركبا مملوءة بالبضائع وكان السلطان برسباى قد عرف تماما ما يمكن أن يستفيده من رسو السفن التجارية بجدة ، فأراد مشاركة أمير مكة فى ذلك مع أنه حتى أقام المؤيد شيخ كان لأمير مكة كل ما يتحصل من عشور جدة ٠ فأرسل السلطان رجلا من قبله هو سعد الدين بن المرة ليأتيه بنصيب من مكوس جدة لا يتجاوز العشر فبلغ ما حصله تلك السنة سبعين ألف دينار (فصارت جدة من حينئذ بندرا عظيما الى الغاية) (٢) ٠

حتى اذا كانت سنة (٨٢٩ ـ ٨٣٠ هـ) وصل من الهند وهرمز أربعين مركبا تحمل أصناف البضائع (ذلك أن التجار وجدوا راحة بجدة بخلاف ماكانوا يجدونه بعدن فتركوا بندر عدن واستجدوا بندر جدة عوضه ، فاستمر بندر جدة عظيما وتلاشى أمر عدن من أجل هذا ، وضعف حال متملك اليمن) (٣) ٠

وفى سنة ٨٣٥ هـ قدم تجار صينيون الى عدن فلم تنفق بضائعهم فيها بسبب اضمحلال تجارة عدن وضعف شأنها بتحول السفن الى جدة ، فكتبوا الى الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة وسعد الدين بن المرة ، شاد جدة ، يستأذنون فى القدوم اليها ، فاستشار بركات وابن المرة السلطان فأذن لهم بعد أن رغب فى كثرة ما يتحصل من قدومهم من المال فقدموا الى جدة تلك السنة فأحسنت معاملتهم وباعوا ما معهم من الصينى والحرير والمسك وغير ذلك وصاروا يقدمون فيما تلا من السنين بعد أن رأوا رواج الأسواق فى جدة ومكة والشام(٤)٠

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ورقة ٤٨٦ ٠

(٢) نفس المصدر ، ورقة ٤٨٦ ٠

(٣) نفس المصدر السابق ، ورقة ٥١١ ٠

وليم موير : دولة المماليك فى مصر ص ١٣٦ ٠

ابراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة الجراكسة ص ٢٨٧ ٠

Lane Poole. P. 339.

(٤) المقريزى : السلوك جـ ٤ ورقة ٦٧٠ ـ ٦٧١ ٠

مؤلف مجهول : حوليات دمشقية ص ٣١ ٠

واقتضى هذا المورد الجديد الذى حصل للسلطان الحفاظ عليه فسن سياسة دائمة تنظم الأمور وتزيد الأموال وتعمل على استمرار التجارة وازدهارها ، رامية من ذلك كله الى افادة السلطان بأكبر قدر ممكن من المال واتخذ برسباى لذلك عدة اجراءات منها :

١ ــ قرر مشاركة أمير مكة فى المتحصل من أموال العشور ولم تجر بذلك عادة من قبل ، بل كان المعروف أن القاهرة كانت تحاول دائما اسقاط المكوس عن الحجاج بمراسيم يصدرها السلاطين والعمل على زيادة واردات الأمراء حتى لا يطمعوا فى أموال الحجاج لتعويضهم عن المكوس بأموال وصدقات تدفعها مصر وليس العكس · وقد دخل هذه السباسة بعض التعديل أيام الجراكسة عندما بدأ أمراء الحرمين خصوصا مكة يدفعون رشاوى ضخمة للسلاطين لتعيينهم أمراء ثم يلجأون الى تحصيلها من المكوس التى يتقاضونها على التجارة الواصلة الى مكة من جدة والشام والعراق وغيرها ·· وكان بندر جدة موردا من موارد امارة مكة ينفرد أمير مكة بتحصيل عشوره وظل كذلك حتى سنة ٨٢٥ هـ عندما سيطر الطابع المالى البحت على علاقة السلاطين بمكة فى هذه الناحية كما سيطر فى بقية الأمور فقرر السلطان أن يشارك أمير مكة فى المكوس وعشور التجارة ثم انفرد بها تماما وحرم أمير مكة من كل ما يتحصل من العائدات الجمركية الا عائدات التجارة مع اليمن ، واشتد الضيق بأمير مكة حتى لقد حاول نهب قافلة شاد جدة مرة من المرات(١) ·

وقد ثار لذلك (المقريزى) المؤرخ الهادىء عادة ، فقال (ان العادة لم تزل من قديم الدهر فى الجاهلية والاسلام أن الملوك تحمل الأموال الجزيلة الى مكة لتفرق فى أشرافها ومجاوريها ، فانعكست الحقائق وصار المال يحمل من مكة ، وتلزم أشرافها بحمله ··· ولعمرى أننى سمعت من عجائز زماننا يقلن أنه ليأتى على الناس زمان يترحمون فيه على عهد فرعون وخلفت حتى أدركت وقوع ما أنذرنا به والله عاقبة الأمور) (٢) · والمقريزى هنا يقرر حقيقة واقعة بأنه ليس من حق السلطان أن يتقاضى مثل ذلك ويحرم أصحابه منه ·

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٥٨٣ ·

(كان السلطان احيانا يسترضى أمير مكة باعطائه ثلث عشور مراكب الهند) ·

(ابن فهد ج ٤ ورقة ٤٠٠)

(٢) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٥١١ ــ ٥١٢ ·

وفى سنة (٨٨١ هـ) شارك السلطان أمير مكة فى تجارة اليمن أيضا(١) ٠

٢ ــ نظم السلطان طريقة أخذ عشور التجارة بجدة ، فأقام الى جانب نائب الشريف بجدة رجلا لتحصيل العوائد سماه (شاد جدة) فصار نظر جدة من ذلك الحين وظيفة سلطانية يخلع على متوليها ويتوجه فى كل سنة الى مكة فى أوان ورود المراكب من الهند الى جدة ويأخذ عشور التجار ثم يقفل عائدا الى القاهرة به ٠ (فجاء للناس ما لا عهد لهم بمثله) (٢) ، ويعاون الشاد والناظر قباني وصيرفى وشهود ، تقررت لهم رسوم زيادة على العشور التى تؤخذ لسد نفقاتهم ودفع مرتباتهم ، ويشاركهم فى أخذ المرتبات والرشاوى من التجار رجال الدولة جميعا الذين يوجدون بجدة ابان وصولهم(٣) ٠

ومن أوائل من تولوا جمع العوائد فى جدة المالى القبطى الأصل سعد الدين ابن المرة وكان محنكا ماهرا فى المسائل المالية شديد القسوة على التجار وقد جمع من استغلال منصبه هذا أموالا طائلة الا أنه لم يكن أذكى من السلطان برسباى الذى كان يجمع المال من كل طريق فصادره سنة ٨٣٨ هـ ثم عاد فولاه مرة أخرى لأنه لم يجد من يضاهيه فى خبرته وذكائه(٤) ٠ ومن محصلى جدة أيضا (بكار الخاصكى) الذى خلف سعد الدين بن المرة منصبه(٥) ٠ فدفع رشوة ضخمة ثم ما لبث ابن المرة أن عاد لأنه قدم للسلطان أكثر . ويتبادر سؤال هنا هو من أين كان الشادون يستردون أموالهم ؟ فلم يكن ذلك مهما للسلطان وعلى التجار أن يتدبروا الأمر ثم دخل حلبة الصراع على المناصب ليكون ناظرا الأمير كريم الدين ابن كاتب المناخ ففاز به لسنة ٨٣٩ هـ فقط ، ثم عاد ابن المرة سنة ٨٤٠ هـ فى منصبه من جديد(٦) ٠

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٦٣٥ ٠

الجزيرى : درر الفوائد ص ٣٨٨ ٠

مؤلف مجهول : الجامع الظريف ، ورقة ٦٧ ــ ٦٨ (يحاول المؤلف الدفاع عن السلطان قايتباى فيصور الأمر معكوسا فيقول « رسم السلطان باعادة نصف العدنى للسيد الشريف محمد بن بركات ») ٠

(٢) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٥١١ ٠

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٤١٧ ٠

(٤) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٨٢٠ ــ ٨٢١ ٠

(٥) مؤلف مجهول حوليات دمشقية ص ١١٨ ٠

(٦) نفس المصدر ص ١٥٨ ٠

ومن الأثرياء الذين جمعوا أموالهم من المكس على التجارة ريحان بن عبدالله (ولى أمر المكس بجدة ٠٠ وحصل دنيا وأملاكا ثم ذهب غالب ذلك منه) (١) ٠ وكانت القسوة هى الطابع المميز لكل هؤلاء (الشادين) وكان التجار ـ وخاصة صغارهم الذين لا يستطيعون دفع رشوة ضخمة ـ يخافونهم أشد الخوف ، وربما آثر بعضهم أن يتخلى عن تجارته كلها حتى لا يواجه الاهانة والضرب على يد شاد جدة وقد أطال (السخاوى) فى بيان حوادث ٨٥١ هـ بين صغار التجار وشاد جدة وكيف اضطروا أمام الظلم الصارخ الذى لا قوة منه أن يلجأوا الى البيت الحرام اذ لم يقنع منهم بما أخذه بل أراد سجنهم وتعذيبهم ولم يفدهم التجاؤهم الى البيت الحرام وخطبائه وقضاته اذ وقف القاضى الشافعى ضدهم وسلمهم الى شاد جدة الذى أنزل بهم أشد أنواع العذاب مما جعل ابن فهد يقول بمرارة (وباع القضاة ضمائرهم للحكام) (٢) ٠

٣ ـ أصدر السلطان برسباى ومن بعده من السلاطين عدة مراسيم فيما يتصل بتنظيم التجارة ومعاملة تجار مختلف الدول ٠ ففى سنة ٨٢٩ هـ فقد السلطان ثقته بأولئك الذين يجمعون له المكوس بجدة ، وأراد أن يكون أخذ المكوس أكثر دقة وصرامة فأرسل تجريدة لترغيم التجار على السير الى القاهرة مع ركب الحاج ليؤخذ منهم المكس هناك فيكونوا على مقربة من السلطان وتحت رقابته ٠ فضاق التجار بذلك ذرعا وفقدوا أكثر أموالهم وأحجم كثير منهم عن النزول بجدة حتى لا يساقوا الى القاهرة ٠ وشكوا الى ناظر جدة وشريف مكة ما يلقون من خسارة وتعطيل يمنعهم من السير الى الشام بعد موسم الحج واجبارهم على السير الى مصر فوقع الاتفاق على أن يؤخذ منهم بمكة على كل حمل قل ثمنه أو كثر ثلاثة دنانير ونصف على أن يعفوا من حمل ما يتبضعونه من جدة الى مصر وهم على كل حال سيدفعون المكس ثانية فى الشام ٠ وهى من ممتلكات السلطان(٣) ٠ الا أنه لم يمض على هذا الاتفاق وقت كبير حتى نقضه السلطان وساق جنده التجار مرة أخرى مع الحاج الى القاهرة (فحل بالتجار من البلاء ما لا يوصف) (٤) ٠ وكان منادى السلطان ينادى فى الناس ـ ابان اجتماعهم للحج بعرفة ـ (معاشر الناس : من اشترى بضاعة ، وسافر بها الى غير القاهرة حل دمه وماله للسطلان ٠٠٠) (٥) ٠

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ج ٤ ص ٤٢٥ ٠

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٤٨٦ ٠
السخاوى : التبر المسبوك ص ١٧٥ ٠

(٣) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٥٧٠ ٠

(٤) المصدر السابق ج ٤ ورقة ٥٩١ ٠
ابن فهد : اتحاف الورى ج٤ ورقة ٤٠٥ ٠
الجزيرى : درر الفوائد ص ٣٢٥ ٠

(٥) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٥٥٦ ـ ٥٥٧ ٠

ولم يسع التجار ازاء اجراءات السلطان برسباى الظالمة الا الخضوع أو التحول ثانية الى عدن وخشى السلطان أن يعود الى ميناء عدن ازدهاره فيقفر ميناء جدة كما كان سابقا فأصدر سنة ٨٣٨ هـ مرسوما بأن لا يؤخذ من التجار الهنود الواردين الى جدة سوى العشر فقط وأن يؤخذ من التجار الشاميين والمصريين اذا وردوا مكة ببضائع من عدن عشران · أما ان كانوا عبيدا فيصادر كل ما معهم لمصلحة السلطان(١) ·

فصار التجار بعد ذلك يعبرون من باب المندب ويجوزون عن بندر عدن حتى يرسوا بساحل جدة فيحصل لسلطان مصر من العشور مال كثير) (٢) ·

وكاد اليأس يتسرب الى نفوس التجار من وطأة هذا المرسوم الجديد لولا تدخل شريف مكة لدى سلطان مصر الذى وافق على التسوية بينهم فى العشور وأبطل ما سبق أن رسم به وأمر بقراءته عند الحجر الأسود(٣) ، لكنه أصر على مضاعفة الرسوم على البضائع الواردة من عدن فصارت جدة منذ ذلك الحين مستودعا للتجارة الهندية(٤) وازدهار تجارة جدة واقبال التجار عليها حتى كانت تستقبل فى العام ما ينيف على مائة مركب(٥) وحتى كان دخل السطان منها يزيد على مائتى ألف دينار فى بعض السنين(٦) ·

وهذا يوضح مدى ما كانت عليه معاملة ملك اليمن للتجار من سوء حتى بدت نار برسباى خيرا من جنة الرسولى اليمنى برغم ما فرضه الأول من عشور وما درج عليه موظفوه من عسف وقسوة · بحيث أن المؤرخين لا يترددون فى القول أن التجار « وجدوا بجدة راحة بخلاف ما كانوا يجدونه بعدن » (٧) · واذا كانت مراسيم برسباى مريحة بالنسبة لمراسيم صاحب اليمن فكيف كانت

---

(١) مؤلف مجهول : حوليات دمشقية ص ١١٩ ـ ١٢٠ ·
المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٧٢٢ ·

(٢) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٧٢٢ ·

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ورقة ٧٢٣ ·
ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٥١١ ·

(٤) Lane Poole. P. 339.
طرخان : مصر فى عصر المماليك الجراكسة ص ٢٨٧ ·

(٥) ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١٣ ·

(٦) المصدر السابق ص ١٤ ·

(٧) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٥١١ ·

مراسيم الأخير اذن ؟ ففى سنة ٨٨١ هـ أصدر السلطان الأشرف قايتباى مرسوما غريبا تحدى فيه اختصاصات كل من شريف مكة وقاضى جدة • أما بالنسبة للشريف فأمر السلطان بأن الواصل الى جدة ••• من المرجان وغيره مما هو من بضائع الهند لا يترك شيء منه يذهب الى اليمن حتى لا تدخل المراكب الهندية اليمن أبدا• أما الواصل من اليمن من بضائع الهند فيكون بين السلطان والشريف مناصفة وكانت العادة قبل ذلك أن يأخذ الشريف ذلك كله بمفرده • أما من مات بجدة أو مكة ولم يكن له وارث يكون من دينار الى ألف للشريف وما فوق ذلك للسلطان • أما سلطات القاضى فقد ضيقت وكفت يده عن بحث مشاكل التركات التى كانت من اختصاصه فى كل العصور الاسلامية • فمن مات وله وارث غائب فلا يحكم على مال الميت القاضى على العادة بل يكون الأمر مفوضا الى نائب جدة(١).

وبعبارة أخرى أراد السلطان احتكار التجارة الهندية ومصادرة مال من يموت بجدة أو مكة من التجار بحجة أن ليس له وارث ولكيلا يعترض القاضى على تصرفه هذا لأن للغائب فى الشريعة الاسلامية أحكاما لا بد من مراعاتها ، حد قايتباى من سلطاته وجعل البحث فى مسائل تركات التجار موكولا الى نائب جدة الذى يفعل كل شيء لتكون التركات للسلطان خالصة دون حاجة الى جدل يقحمه مع القاضى •

٤ — اتبع السلاطين منذ عام ٨٣٥ هـ أى منذ أيام برسباى سياسة احتكارية قامت على اجبار التجار على بيع بعض السلع بأسعار منخفضة على أن يعيد السلطان بيعها بأسعار مرتفعة جدا لندرتها فى الأسواق فاحتكر برسباى فى عام ٨٣٥ هـ (الفلفل) وهو سلعة نادرة وألزم التجار ببيعه بسعر حدده هو (فشق عليهم جدا ولم يجدوا بدا من المطاوعة) (٢) •

وفى نفس العام أرسل برسباى الى الشام والاسكندرية بمراسيم (أن لا يبيع أحد البهار ولا يشتريه الا السلطان) (٣) ، واتسع نطاق الاحتكارات سنة (٨٣٨ هـ) فاحتكر السلطان برسباى تجارة المرجان والنحاس وباعهما للتجار بسعر حدده هو(٤) •

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٦٣٢ — ٦٣٥ •

(٢) ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ حوادث سنة ٨٣٥ هـ •
وليم موير : دولة المماليك ص ١٣٦ •

(٣) ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ حوادث سنة ٨٣٥ هـ •

(٤) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٤١٧ •

وحذى حذوه كبار رجال الدولة فاحتكروا لأنفسهم سلعا واشتروا أخرى كل ذلك بسعر حددوه هم دون ما مراعاة لأسعار السوق أو مصالح التجار(١) . ثم تعدى الأمر التوابل والنحاس والمرجان والعقيق الى السكر والقصب وسائر فروع التجارة أيام الأشرف قايتباى ، ففى عام (٨٨١ هـ) اشترى قايتباى من تجار الهند بجدة (الفلفل) بسعر العام الماضى جبرا(٢) .

ولما كانت سياسة برسباى ومن بعده ترمى الى الحصول على أكبر قدر من الربح عن أى طريق كان فانه لم يهمه أن يخسر التجار الكثير نتيجة للمكوس المرتفعة والاحتكارات الظالمة . هذا بالاضافة الى أن السلطات المملوكية كانت تتقاضى كل الرسوم بجدة عينا ، فارتفعت بسبب احتكارات السلاطين أسعار التوابل والحرير والمسك ارتفاعا باهظا ، فصار تجار الغرب يشترون قنطار الفلفل بسعر يتراوح بين ١٢٠ أو ١٣٠ دينارا بعد أن كانوا يشترونه من قبل بسعر خمسين دينارا فى القاهرة وثمانين دينارا فى الاسكندرية(٣) واحتج تجار الغرب من ظلم الاحتكارات لكن السلاطين لم يستجيبوا لذلك . ومع أن الاحتكارات خفت حدتها بعض الشىء أيام الظاهر جقمق الا أنها عادت ضارية أيام قايتباى وبلغت حدا يفوق التصور أيام الغورى حتى لقد جبى الأمير حسن الكردى نائب السلطان بجدة عشرة أمثال العشر أى مثل قيمة البضاعة تماما(٤) . ولقد أحدثت التجارة بجدة تغيرات هامة فى طبيعة مواردها وتركيبها الاجتماعى فاهتم بها السلاطين وأقاموا المساجد والمطاهر والآبار . ثم بنى الغورى سورها سنة ٩١٥ هـ وكانت السلع التى يرد بها التجار اليها من أقاصى الأرض كالتوابل والأنسجة والحبوب والأصواف واللؤلؤ والمرجان والعطور والسجاجيد تحدث فيها رواجا وتهيىء فرصا كثيرة للعمل وتشجع على الاستقرار بالمدينة . لذا فقد كثر فيها الفرس والحضارم والهنود والبخاريين حتى شكلوا ثلث سكانها تقريبا . أما الفرنجة فلم يستقروا فيها الا فى وقت متأخر عن هذا العصر بعض الشىء(٥) .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٧٢٣ .

(٢) مؤلف مجهول : حوليات دمشقية ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

(٣) طرخان : مصر فى عهد دولة المماليك الجراكسة ص ٢٨٩ .
نعيم زكى : طرق التجارة ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

(٤) طرخان : مصر فى عهد دولة المماليك الجراكسة ص ٢٩٠ .

(٥) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٣٨٥ .
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٩ و ١٠ .

وبينما كانت الدولة المملوكية تلفظ أنفاسها فى أوائل القرن العاشر الهجرى ، والثورات تترى فى الحجاز والشام ، والصراع يشتد بين الأمراء فى مصر ، وكل شىء ينقلب رأسا على عقب حتى لقد قال (ابن اياس) تعليقا على أحداث احدى سنوات حكم الغورى (اضطربت الأمور على السلطان من جميع الجهات)) (١) ٠ فى ذلك الحين اكتشف البرتغاليون طريقا جديدا للتجارة بين الشرق والغرب هو الطريق الذى يدور حول رأس الرجاء الصالح وسيطروا على (كاليكوت) بالهند وسيطروا لمدة على عدن ، فتحولت السفن التى كانت تأتى الى مصر عن طريق عدن وجدة وسواكن الى رأس الرجاء الصالح ومنها الى أوربا ، وانتشرت أعمال القرصنة وقوى سلطان قراصنة البرتغال فى البحار ، فسطوا على المراكب المصرية والسفن التجارية(٢) ٠ وازدادت مكوس الغورى على التجارة حتى بلغت عشرة أضعاف ما كانت عليه لتعويض خسائره عن قلة السفن الواصلة الى جدة والخسائر التى أنزلها القراصنة البرتغاليون بسفينة له ٠

ولم يكتف البرتغاليون بذلك بل هددوا عدن وجدة وغيرها من ثغور المماليك ، فاهتم الغورى باعداد أسطول لحماية البحار الشرقية من غارات البرتغاليين وطلب أمراء اليمن المساعدة من مصر فأعد الغورى أسطولا قوامه خمسون سفينة بقيادة الأمير حسين الكردى ثم بدأ تحصين جدة مفتاح الحرمين خشية سيطرة البرتغاليين عليها منذ سنة ٩١٢ هـ فبدأت حامية جدة المملوكية باقامة أبراج ، ثم بدأ باقامة سور سنة ٩١٥ هـ انتهى المماليك من بنائه سنة ٩١٧ هـ وجهز بمعدات حربية ومدافع لمواجهة الغزو البحرى(٣) بيد أن السلطان لم يستطع حماية تجارة البحر الأحمر من قرصنة الفرنجة ببحر الهند٠٠٠وتزايد الضرر من الفرنج ٠٠٠ وتزايدت مراكبهم ببحر الحجاز حتى بلغوا فوق عشرين مركبا ، وصاروا يعيشون على مراكب الهند ، ويقطعون عليهم الطريق فى الأماكن المخيفة ويأخذون ما معهم(٤) ٠

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩٢٠ هـ ٠

وليم موير : دولة المماليك فى مصر ص ١٦٨ ٠

(٢) Lane Poole: P. 302.

وليم موير : دولة المماليك فى مصر ص ١٦٨ ٠

(٣) النهروالى : الأعلام ، ورقة ٢٤٤ ٠

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩١٢ هـ ٠

وتوالت الاستغاثات من نواب السلطان لتقوية الأسطول وحاميات الساحل (قبل أن تملك الفرنج سواحل الهند وربما يخاف على جدة من أمر الفرنج) (١).

وأشيع سنة ٩١٩ هـ أن البرتغاليين يريدون غزو جدة ونهبها كما فعلوا بعدن ، فخرج اليهم الشريف بركات أمير مكة هو وباش المجاورين وجماعة من المماليك المجاورين ، « وأقاموا بجدة خوفا على البندر من الفرنج أن يهجموا عليه وأرسلوا يعلمون السلطان بذلك . فلما جاء الخبر تنكد له السلطان الى الغاية » (٢) .

وبدأ تحول التجارة يؤثر على بندر جدة ، وعلى القاهرة أيضا ، ففقدت بعض السلع من جدة ومكة سنة ٩٢٠ هـ (فأشيع فى كتب الحجاج بأن الغلاء فى سائر البضائع وأن الشاشات والأرز لم يوجد بمكة لعدمهما جدا) (٣) .

وأدرك السلطان الغورى أن هذا الحصار البحرى لمصر سيخنقها ان تركت مراكب البرتغال تجول البحر الشرقى طليقة مدمرة ناهبة . ورأى أن لا مفر من صراع مروع بين الطرفين بعد تلك المناوشات غير الحاسمة والتى انتصر فيها البرتغاليون حينا والمماليك حينا آخر . وبدأ يعد العدة لذلك فحصن جدة — كما سبق — وسورها بسور له خمسة أضلاع يحيط بها تماما وارتفاعه نحو أربعة أمتار(٤) . لكن البرتغاليين لم يهاجموها أيام المماليك . ولعل هذا من حسن حظ المماليك لأن دولتهم بدأت تخور وتضعف فى ذلك الحين . لكن شاءت الظروف أن يهاجم البرتغاليون جدة سنة ٩٤٨ هـ أى بعد سقوط دولة المماليك فردتهم مدافع أسوارها خائبين بعد أن كبدتهم خسائر فادحة(٥) .

وهكذا وقع عبء حماية طرق التجارة على عاتق السادة الجدد من بنى عثمان بعد أن سقطت دولة المماليك(٦) .

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩٢٠ هـ .

(٢) نفس المصدر ، حوادث سنة ٩١٩ هـ .

(٣) نفس المصدر ، حوادث سنة ٩٢٠ هـ .

(٤) محمد صادق : دليل الحج ص ٢٠ .
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٨ — ٩ .

(٥) غريب بن عجيب : سياحتى الى الحجاز ص ٦٩ .
عبد القدوس الانصارى : تاريخ جدة ٧٠ .

(٦) وليم موير : دولة المماليك فى مصر ص ١٦٩ .

الفصل الرابع

العلاقات الاجتماعية والثقافية

العلاقات الاجتماعية

التركيب الاجتماعى لمكة :

ربما كانت مكة فريدة فى تركيبها الاجتماعى من بين جميع مدن العالم نظرا لمركزها الدينى عند المسلمين ، فقد أثر هذا المركز على التركيب الاجتماعى لهذه القبلة المقدسة تأثيرا كبيرا حتى صار سكانها الأصليون قلة قليلة وسط جموع تتدفق سنويا على مكة فى موسم الحج ، فيستقر فيها عائلات وأفراد يتجرون أو يجاورون أو يتعلمون ، وعلى مر القرون ازداد الغرباء الوافدون زيادة كبيرة وقل عدد أهاليها الأصليين ، تبعا لتضخم المدينة بالأعداد الهائلة التى ترد اليها وتستقر فيها لأغراض مختلفة • لكن المحور الذى يدور حوله حياة أهل مكة والواردين اليها هو (موسم الحج) فهو مبرر وجودها ، ولولا البيت العتيق الذى يقوم وسط مكة لما أمكن تصور ازدهار مدينة كمكة فى تلك الفيافى القاحلة عبر القرون المتطاولة (بواد غير ذى زرع) وكان بناء المجتمع المكى فى عصر سلاطين المماليك متباينا • وتبرز فى ذلك عدة طبقات يمكن أن نلخصها على النحو التالى :

(أ) الأمراء والقواد :

كان شرفاء مكة أيام المماليك أحفاد قتادة الحسنى الذى خرج على رأس قومه فى أواخر القرن السادس الهجرى من قرية (العلقمية) احدى قرى ينبع فباغت ينبع ومكة وأسقط دولة (الهواشم) من بنى فليتة(١) • وحكم بنو قتادة الحسنيون مكة منذ سنة ٦٠١ هـ الى أن طردهم الملك عبد العزيز آل سعود من الجزيرة كلها فى عشرينات القرن العشرين(٢) •

وقد تكاثرت الأسرة الحسنية بمكة حتى كونت طبقة من طبقاتها ، خصوصا أبناء وأحفاد أبى نمى محمد بن حسن بن على بن قتادة الحسنى الذى حكم مكة (٦٥٤ – ٧٠١ هـ) وترك ما يزيد على العشرين ولدا تناسلوا وتوارثوا امارة مكة(٣) وصارت لهم عصبية تحميهم •

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ج ٧ ص ٣٩ – ٤٠ •
الفاسى : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٨ •
الجزيرى : درر الفوائد ص ٢٦٧ •

(٢) حمد الجاسر : بلاد ينبع ص ٢٨ •
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٦٥ •

(٣) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٤٧٠ •

أما القواد فهم أبناء الفروع الأخرى للأسرة وكانوا قوة يحسب حسابها تستطيع ترجيح كفة أحد الأطراف المتنازعة على الامارة عندما يختصم أخوان من سلالة قتادة على الامارة ويشكل الأمراء والقواد هؤلاء الطبقة التى تحتل قمة المجتمع (المكى) وتسود الطبقات الأخرى كلها سيادة عشائرية تتميز بكثير من مقومات الروح الديمقراطية التى تعتمد على حل المشاكل وتنفيذ الأحكام عن طريق شيوخ الأسرة ، لا بالجند ، فلم يكن بالامارة قوة يعتد بها الا ما جمعه حسن بن عجلان فى القرن الثامن الهجرى من مئات العبيد · وقد تحـدثنا عن ذلك فى الفصل السياسى ·

والروح الأسرية التى سادت علاقات الأمراء بالشعب هى التى أبقت على امارتهم طويلا فقد حرصوا دائما على اكرام (ذوى البيوتات والالتفات اليهم) والتلطف معهم وحضور جنائز الكبراء والعامة على السواء اذا دعوا الى ذلك كما كانوا حذرين فى مسائل الخصومات يعملون ما أمكن على تجنب الحكم بأحكام صارمة ، ويؤثرون أن تحل المشاكل بطريق الصلح بين المتنازعين حتى لا يثيروا عليهم نفوس الناس وكانت لهم آداب فى الطريق تلزمهم بالتواضع للصغير والكبير(١) ·

(ب) سكان مكة الأصليون :

كان سكان مكة الأصليين قلة من بطون قريش التى بقيت بمكة بعد الزحف الاسلامى نحو الشام والعراق فى صدر الاسلام مع بعض الأسر والعشائر البدوية التى استقرت بجوار قريش بمكة ويشكل المكيون هؤلاء ما بين الربع والثلث من مجموع القاطنين بمكة(٢) ·

وكانت بمكة بعض العـائلات العريقـة من بطون قريش وغيرها لم تبرز بنسبها بقدر ما برزت بعلمها وهى ليست مكية صميمة بل بدأت الاستقرار فى القرنين السادس والسابع الهجريين ومن هذه العائلات عائلات مصرية كالنويريين والظهيريين ، واستقر هؤلاء بمكة وصاروا جزءا من المجتمع المكى . وتقلدوا مناصب سامية فيها وبروزا فى المجال الاجتماعى والعلمى وكانت لهم صلات متينة بأمراء مكة وسـلاطين مصر ، وقد سبق لنا أن تحدثنا عن هذه الأسرات فى الفصـل الدينى(٣) ·

---

(١) محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ٨٥ ·

(٢) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج. ١ ص ٢٠١ ·

(٣) محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ٩٠ ·

(ج) الوافدون الى مكة :

نعنى بالوافدين هم أولئك الذين قدموا من بقاع العالم الاسلامى على مر القرون ، واستقروا بمكة واندمجوا فى مجتمعها وصاروا يشكلون جزءا من هيكلها الاجتماعى · ويشكل هؤلاء حوالى ثلثى أو ثلاثة أرباع سكان مكة فهم أعيان الناس الذين جاءوا يقضون شيخوختهم على مقربة من البيت · ومنهم صغار الامراء الذين نفاهم السلطان ، ومنهم العلماء والصوفية الذين جاءوا يجاورون البيت ومنهم التجار الذين قدموا للتجارة ثم فتحوا حوانيت بمكة وبقوا فيها على مدار السنين وتزوجوا واستقروا · وينتمى هؤلاء الى جنسيات مختلفة فبينهم البخارى والهندى والجاوى والأفغانى والشامى والمغربى والحضرمى واليمنى والمصرى · ولكل جنسية حى خاص بهم تقريبا · وهم أشد الناس تمسكا ببعض تقاليد البلد الذى نزحوا منه · فمن الهنود هناك (الدهليون) وبنو (عبد الحق) وبنو (كمال) وبنو (عبد الشكور) ومن الجاوية (المنكابو) و (البتاويون) و (الزينيون) . ومن البخاريين (بنو كشك) و (الأذربيجان) . ومن الحضارم (باحارس) و (باحكيم) و (بازرعة) · ومن الشاميين (بنو هاشم) و (الجبرى) · ومن الترك (الداربزنلى) و (القرملى) · ومن المصريين (النويريون) و (بنو القطان) و (الرشيدى) و (الفيومى) و (الزقزوق) و (الرواس) و (الأسيوطى) (١) ·

ويسيطر هؤلاء الأغراب على الحركة التجارية بالمدينة المقدسة (فلما كان للغربة والهجرة أثر كبير فى الجد والنشاط كان معظم التجارة بأيدى الاغراب ، فالأشياء والبيوت التجارية العظيمة بأيدى أولئك ···) (٢) · وفيما عدا الامارة لم يكن لاهل مكة فى الحقيقة شىء الا بعض المتاجر الصغيرة والتطويف · أما التجارة الكبيرة والحرف التى تكسب الكثير من المال فكانت بيد هؤلاء الوافدين وربما كان هذا سببا من أسباب حساسية أهل مكة تجاه الغرباء اذ كانوا يشعرون أنهم سلبوا كل شىء ، ويدل على سيطرة الواردين هؤلاء على التجارة واستهانتهم بكل شىء فى سبيل الكسب ذلك المرسوم الذى أصدره السلطان سنة (٨٤٣ هـ) (بأن تمنع الباعة من المصريين الذين سكنوا مكة وجلسوا بالحوانيت بالمسعى

---

(١) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٥٣ ·

ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ٢٠١ ·

غريب بن عجيب : سياحتى الى الحجاز ص ٣٥٤ ·

(٢) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ٢٠١ ·

غريب بن عجيب : سياحتى الى الحجاز ص ٣٥٤ ·

وحكروا المعايش وتلقوا الجلب) (١) . ويتحمل هؤلاء الغرباء خصاصا المماليك والترك منهم مسئولية كبيرة من الاحداث التى كانت تقع بمكة . فقد كان هؤلاء الاغراب الذين يكادون يحسنون العربية لا يستطيعون التفاهم مع السكان الاصليين الذين تحكمهم عوائد وتقاليد معينة(٢) . وكان امساك أحد أبناء مشايخ الأعراب بلحية الناصر محمد بن قلاوون — وكانت تلك عادتهم عندما يريدون الالحاح فى طلب شىء — تحدث فتنة فى مكة اذ هم أحد الامراء بقتل هذا الابن لولا أن أفهمه السلطان الناصر محمد حقيقة هذا الأمر(٣) .

وقد أحدث هذا التنوع فى أصول أفراد المجتمع المكى عدة نتائج ، فامتزاج هذه الاجناس بعضها ببعض بالزواج والمصاهرة والمعاشرة جعل أكثر أهل مكة خليطا فى خلقهم وخلقهم (فتراهم قد جمعوا الى طبائعهم وداعة الأناضولى وغلظة التركى واستكانة الجاوى وكبرياء الفارسى ولين المصرى وصعوبة الشركسى وسكون الصينى وحدة المغربى وبساطة الهندى ومكر اليمنى وحركة السورى وكسل الزنجى بل تراهم جمعوا بين رقة الحضارة وقشف البداوة : (فبينما تراك قد آنسك الرجل برقة حديثه معك وضعته بين يديك ، تراه قد استوحش منك وأغلظ فى كلامه حتى كأن طبيعة البداوة تغلبت فيه على طبيعة الحضارة فلم يطق ما تكلفه فى حضرتك(٤) .

والتنوع فى الأصل أدى أيضا الى التنوع فى الملبس ، فالعمامة الهندية الى جانب القفطان المصرى والجبة الشامية والمنطقة التركية ، فتراك كأنك تعيش فى وسط يكتظ من مجموعات متباينة من الأمم المختلفة ولكن يجمع بين كل هؤلاء رباط دينى واحد هو الاسلام .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٩٧٩ .
ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٤٣٧ .

(٢) حمد الجاسر : بلاد ينبع ص ٥٦ .

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٦٥٦ — ٦٥٧ .
دحلان : خلاصة الكلام ص ٤٥ .
السمهودى : وفاء الوفاء ص ٧١١ — ٧١٤ .
الجزيرى : درر الفوائد ص ٦٧٧ .

من أعضاء المجتمع المكى (المنفيين) الذين غضب عليهم سلطان مصر أجبرهم على الاقامة بمكة ثم صاروا جزءا من المجتمع المكى .

(الخزرجى : العقود اللؤلؤية ، حوادث سنة ٧٨٤ هـ)
(ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنوات ٨٤٨ ، ٨٦٠ ، ٨٧٩ هـ)

(٤) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٥٣ .

بالاضافة الى ذلك فان هذا الاختلاط أدى الى ركاكة لغة المكيين بعد أن كانت لغة قريش بمكة هى الحجة والأساس فى أخذ العربية فدخلت فى كلام المكيين ألفاظ تركية وهندية وفارسية وكثر فيهم الجهل باللغة الفصحى · فهم يلحنون ولا يدرون ، اذ أنه كادت تتكون من خليط هذه اللغات لغة جديدة لا تمت الى العربية الا بصلة طفيفة(١) ولا ينطبق هذا بالطبع على الأشراف الذى حرصوا على الفصحى بيد أن كثيرا من المطوفين كانوا يحسنون أكثرية هذه اللغات حتى يسهل بها التفاهم مع حجاج بيت الله الحرام من مختلف الجنسيات(٢) ·

العادات الاجتماعية والدينية لأهل مكة :

لأهل مكة عادات اجتماعية ودينية كثيرة · وحيث أنها لا تدخل فى نطاق دراستنا هذه ، لاننا نبحث العلاقات بين مصر والحجاز ، ولهذا السبب سنمر عليها مرورا عابرا متخذين العلاقة أساسا لهذه الدراسة ·

فمن المعروف عن أهل مكة الاهتمام البالغ بالتأنق فى الملبس والمأكل والمشرب وتكثر فى لباسهم الالوان الزاهية خصوصا الاحمر والاخضر والازرق والوردى ، ويجمعون فى مساكنهم كثير من أدوات الزينة والزخرف والرياش الثمينة كالبسط العجمية النادرة(٣) · أما النساء فهن ذات صون وعفاف بارعات الجمال يكثرون من التطيب(٤) ·

والمكيون يتناولون طعامهم فى اليوم مرتين ـ وليس لاطعمتهم نظام مخصوص فمنها الشامى والعربى والمصرى والتركى · ويميلون الى حب الموسيقى والتنزه وشرب الشاى بكثرة(٥) ·

---

(١) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٥٤ ·
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ هـ ·
غريب بن عجيب : سياحتى الى الحجاز ص ٣٥٤ ·

(٢) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ٢٠٣ ·

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ج ١ ص ٦٠ ·
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٤٩ ·
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ٢٠٤ ·

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ج ١ ص ٩١ ·

(٥) نفس المصدر ج ص ٩١ ·

ومن عاداتهم الافطار فى رمضان فى الحرم المكى ولاهل مكة عادات وتقاليد فى الزواج والوفاة(١) · وكان أهل مكة يصطافون بالطائف لطيب هوائها وكثرة مياهها ويملك أشراف مكة أكثر قصورها وحدائقها(٢) ·

وكان طبيعيا ما دامت حياة مكة تعتمد على البيت الحرام ، أن تتركز كثيرا من احتفالاتهم وعوائدهم اليومية حول البيت ، شعائره ومزاراته · وقد عرفوا أيام المماليك الاهتمام بالابهة والعناية بالتفاصيل فى كل ذلك · فمن عاداتهم فى الصلاة أن يصلى امام الشافعية أولا وهو المقدم من قبل السلطان ، خلف مقام ابراهيم فى الحطيم · وأكثر العامة بمكة على المذهب الشافعى بخلاف الامراء الذين يعتنقون المذهب الزيدى · فاذا صلى الامام الشافعى صلى بعده الامام المالكى فى محراب قبالة الركن اليمانى ، ثم يصلى امام الحنفية قبالة الميزاب ، ولم يكن للحنابلة امام يصلى بهم أيام زيارة ابن بطوطة لمكة (٧٢٨ هـ) (٣) · وكان الأئمة يصلون صلاة المغرب فى وقت واحد ، ويصلى كل امام بطائفته ويرفعون جميعا أصواتهم ، فيدخل على الناس من ذلك سهو كثير وتخليط · فربما ركع المالكى بركوع الشافعى وسجد الحنفى بسجود المالكى(٤) ·

وظل الحال على هذا المنوال الى أن أصدر السلطان الناصر فرج سنة (٨١١ هـ) أمرا بأن يصلى الامام الشافعى بالجميع فى صلاة المغرب(٥) ·

ولأهل مكة احتفالات دينية متعددة فى مختلف المناسبات فهم يحتفلون بأولادهم عند حفظهم للقرآن الكريم · ويحتفلون بمولد السيدة ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم فى منتصف شهر صفر(٦) ، أما فى شهر ربيع الأول فانهم يحتفلون احتفالا عظيما بمولد النبى صلى الله عليه وسلم · وقد عمل

---

(١) ابن المجاور : تاريخ ابن المجاور ، ورقة ٦ ·
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٥٠ ·
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ٢٠٥ ·
ابن بطوطة : الرحلة ج ١ ص ٩١ ·

(٢) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٥١ ·
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ٥ ·

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ج ١ ص ٩٨ ·

(٤) نفس المصدر : ج ١ ص ٩٩ ·

(٥) أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ٢٩ ·

(٦) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٥١ ·

البويهيون الشيعة الذين سيطروا على بغداد فى القرن الرابع الهجرى على ابراز هذا الاحتفال · ثم قواه وثبته فى الاذهان الفاطميون بمصر ، حتى صار تقليدا متبعا فى العالم الاسلامى كله(١) · ولأهل مكة مزيد من العناية باستهلال الشهور الهجرية ، ففى شهر رجب يحتفلون باستهلاله ثم بالسابع والعشرين منه بذكرى اتمام بناء البيت أيام عبد الله الزبير(٢) · ولهم أيضا احتفالات كبرى فى شهر رمضان وأيام العيد ·

وقد كان أهل مكة يتأهبون طوال شهر شوال لاستقبال الحجاج ومحمل الكسوة فى ذى القعدة وأوائل ذى الحجة · فبعد أن يمر محمل الكسوة بينبع والمدينة المنورة فيحتفل أمراء المدينتين به احتفالا كبيرا يخرج أمير مكة لتلقيه على مسافة من مدينة مكة فيترجل عن جواده ، ويقبل خف جمل الكسوة · ثم يسير بصحبة أمير الحاج ورجال الركب حتى يدخل مكة · وكانت العادة أن يكلف أمراء الحرمين وينبع ـ بالاضافة الى تقبيل خف الجمل ـ تقديم مواشى وأموال لأمير الحاج وللاعراب الذين يحرسون الطريق عند مرور الركب وكسوة الكعبة قادمين من مصر ·

ويورد (الجزيرى) قائمة مفصلة لما كان يدفعه أمير ينبع بالذات فيبلغ مجموع ما يقدمه حوالى الألف دينار وبعض المواشى لبنى بلى وعطية وعقبة وزبيد من خفراء الطريق وللاعراب ثم لكبار موظفى ركب المحمل كالادلاء ورجال الديوان والقضاة وزعماء الحامية والمشرفين على المطابخ وحاملى الأعلام(٣) ·

وظل الحال على هذا المنوال حتى صدر مرسوم الظاهر جقمق (٨٤٣ ـ ٨٤٤ هـ) يعفى أمير مكة من تقبيل خف الجمل ، كما يعفى الامراء جميعا ـ ومنهم أمير ينبع ـ من دفع الأموال لرجال الخفارة والركب(٤) · وتظل كسوة الكعبة عند أمير الحاج حتى اذا كان اليوم السابع والعشرين من ذى القعدة شمرت أستار الكعبة الى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الاربع صونا لها من أيدى الناس ،

---

(١) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٥٢ ·
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ ١ ص ٢٠٦ ·

(٢) ابن بطوطة : الرحلة جـ ١ ص ١٠١ ·

(٣) الجزيرى : درر الفوائد ص ٥٣٦ ·
حمد الجاسر : بلاد ينبع ص ٢٩ ـ ٣٠ ·

(٤) المقريزى : السلوك جـ ٤ ورقة ٩٧٨ و ١٠١٠ ·
ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٤ ورقة ٤٤٦ ·
الجزيرى : درر الفوائد ص ٣٢٨ ·

وغسلت بماء زمزم · وهذا اليوم يوم مشهود يسمونه (يوم احرام الكعبة) (١)· وفى يوم النحر تزال الكسوة القديمة فى احتفال مشهود فيأخذها الاشراف وبنو شيبة ، ويقتسمونها ويأخذون فى كل قطعة أوفر الاثمان ·

ثم يأتى أمير الحاج المصرى بالكسوة الجديدة ويصعد جماعة(٢) من الكبراء الى سطح الكعبة المبلط بالمرمر والرخام الابيض فيربطون سيور الكسوة بحلقات موضوعة بأطراف السطح لهذا الغرض ويذكر (ابن فضل الله العمرى) أنه حج سنة (٧٣٨ هـ) وشاهد ذلك كله بنفسه ، ولان الملك الناصر محمد بن قلاوون أراد فى تلك السنة أن يهدى كسوة الكعبة القديمة الى أبى الحسن المرينى ردا على هدية سبق أن بعثها الاخير ، فقد عوض أمير مكة وبنى شيبة بأموال من بيت المال بمصر(٣) · وأهل مكة لا يصعدون جميعا الى عرفة بل يبقى بعض منهم بمكة وربما بقى الامير نفسه ·

كانت حياة مكة اليومية ، حياة مملوءة بأسباب البهجة والسرور ، الا أن غمامات من حزن وخوف كانت أحيانا تعكر صفو المدينة المقدسة فى أزمنة القحط والسيول والأوبئة · واذا كانت مصر تحاول أن تنقذ أهل الحرمين من كوارث القحط والسيول بامدادات المؤن وتجديد ما تهدم ، فلم يكن بوسعها أن تفعل شيئا ازاء الأوبئة التى كانت تنتشر غالبا بسبب قلة الماء والمخلفات التى تملأ الشوارع بمكة فى كل موسم من مواسم الحج وتكرر حصول ذلك فى أيام المماليك · ففى سنة (٦٧١ هـ) انتشر بمكة وباء غريب لم يعرف الناس كنهه راح ضحيته حوالى ألف انسان(٤) · وحدث ذلك ثانية سنة (٦٩٥ هـ) وكان سببه هذه المرة الجوع الذى أحدثه القحط(٥) · ومضت سنوات رخاء نسى الناس فيها كل شىء حتى كانت سنة (٧٤٩ هـ) فعاد الوباء من جديد وعم هذه المرة مصر والشام والحجاز ، الا أنه كان شديدا بالحجاز ، حتى لم يبق من سكان جدة سوى أربعة أنفس · وكان يموت فى كل يوم بمكة نحو عشرين نفسا(٦) · ثم ما لبث أن عاد

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ج ١ ص ١٠٤ ·

(٢) العمرى : مسالك الأبصار ج ١ ص ١٠٠ ·

(٣) نفس المصدر : ج ١ ص ١٠٠ ·

(٤) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ١٠٣ ·

(٥) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٨١٠ ·

(٦) ابن فهد ، اتحاف الورى ج ٣ ورقة ١٧٣ ·

سنة (٧٩٣ هـ) وربما كان طاعونا هذه المرة (بلغ الموتى منه أربعين نفرا بمكة فى بعض الأيام(١) ٠

أما وباء سنة (٨٢٧ هـ) بمكة فكان أعظم ما مر بها حتى ذلك الحين ، فقدر (ابن فهد) ضحاياه بألفى انسان(٢) ٠ بينما يقدرهم (المقريزى) بثلاثة آلاف (وأنه كان يموت فى اليوم خمسون انسانا) (٣) ٠ ولم تكن الأوبئة وحدها هى التى تحدث الموت والرعب بل كانت السيول أيضا تحدث الأوبئة ، فقد أحدث سيل سنة (٨٣٧ هـ) وباء استمر شهرا ذهب ضحيته المئات(٤) وفى سنة (٨٨١ هـ) مات بمكة كثيرون (بعلة البطن) وكان يصلى يوميا على عدد يتراوح بين الأربعين والستين انسانا(٥) ٠

وكان المكيون فى مثل هذه الظروف يعتقدون أن ذلك لغضب الله بهم ، بسبب معاصيهم فيسرعون الى الحرم الشريف ويخرجون المصاحف ويفتحون باب الكعبة ويجتمع الناس كاشفين رءوسهم داعين متضرعين متوسلين بالمصحف الشريف والمقام (فلا ينفصلون الا وقد تداركهم الله برحمته وتغمدهم بلطفه) (٦).

على أنه اذا كان المكيون يتضرعون الى الله للخلاص من الأوبئة والمجاعات ، فان السلاطين كانوا يحاولون تلافى أسباب الوباء بالحفاظ على نظافة مكة باصدار المراسيم فى هذا الشأن ، ثم يجلب المياه الى مكة لتتوفر للناس أسباب النظافة فأصدر السلاطين عدة مراسيم حول نظافة البيت الحرام ووجوب الحفاظ على ذلك(٧) ٠

المنشآت الاجتماعية بمكة :

ان من أهم المنشآت الاجتماعية التى قام بتعميرها سلاطين المماليك فى الحجاز هى الاكثار من السبل والآبار للتسهيل على الحجاج والسكان ، وتأمين جو

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٣ ورقة ٢٤٩ ٠

(٢) نفس المصدر جـ ٤ ص ٣٧٣ ٠

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٤ ورقة ٤٦٨ ٠

(٤) مؤلف مجهول : حوليات دمشقية ص ٩٣ و ٩٩ ٠

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٨٨١ هـ ٠
ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٤ ورقة ٤٣٨ ٠

(٦) ابن بطوطة : الرحلة جـ ١ ص ٨٤ ٠

(٧) المقريزى : السلوك جـ ٤ ورقة ٦٧٩ ٠
ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٤ ورقة ٤٣٧ ٠

من النظافة بتوافر المياه وقد شارك حكام المسلمين المماليك فى ذلك · فقد أجرى (جوبان) مبعوث أبى سعيد المغولى سنة (٧٢٥ هـ) عينا من عرفة الى مكة عندما رأى ما يلاقيه الناس من مشقة فى ايجاد الماء بمكة اذ كان يبلغ ثمن القربة من الماء فى موسم الحج عشرة دراهم وفى غيره ستة دراهم فأنفق جوبان خمسين ألف دينار على أهل مكة وعلى اجراء العين الى أن جرى الماء بمكة بين الصفا والمروة فى جمادى الأولى مدة العمل فيها أربعة أشهر وكثر النفع بها وصرف أهل مكة ماءها لتنظيف شوارعهم وزراعة الخضروات · ولما علم السلطان الناصر محمد بذلك غضب ، الا أن جوبان أفحمه عندما أجابه (أن جوبان فعل ما فعل من الخير وبقى الامر للسلطان ان شاء يخرب أو يعمر فهذا شىء قد فعله من فعله وخرج عنه، والأمر اليكم ، فسكت السلطان) (١) . وهذه العين هى عين حنين التى سبق أن أجرتها السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد ·

ولم يدم سكوت السلطان طويلا ، ففى العام التالى أرسل من قبله عليا بن هلال وندبه لعمارة المسجد الحرام فى شوال سنة ٧٢٧ هـ فأصلح ما وهن من سقوفه وجدرانه (وساق عين ثقبة الى مكة) (٢) فصار بمكة عينان ، عين جوبان وعين ثقبة (٣) · وقد قدرت النفقة على عين ثقبة بخمسة آلاف درهم ووصلت الى مكة كعين جوبان تماما(٤) · وتبع الناصر محمد فى اجرائه هذا أبناؤه من بعده ، فقام نائب السلطنة أيام الصالح بن الناصر بعمل بركة سنة ٧٤٥ هـ وعمر

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٧٤ ·
ابن الوردى : تتمة المختصر ج ٢ ص ٢٧٩ ·
ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٢٣ ·
النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ حوادث سنوات ٧٢٥ و ٧٢٦ هـ ·
(حدثت فتنة بين أمير الحاج وأعراب بنى شعبة عام ٧٥٠ هـ عندما حاول الأمير اصلاح عين جوبان) ·
(المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٧٩٨)

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢١٠ ·

(٣) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٣٠٣ ·

(٤) الفاسى : شفاء الغرام ص ١٣٠ ·
أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ٩٥ ·
الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١٢٧ ·

القنوات التى يصل بهاء المـاء اليهـا بطريق منى(١) · ثم قام الأشرف الزينى عبد الباسط ناصر الجيوش فى دولة الناصر حسن بانشاء سبيل (بالمعلاة) باسم مولاه ، وآخر باسم أخت الناصر حسن سنة ٧٦١ هـ فتكاثر الدعاء لهما بسبب نفعهما وهما بطريق منى(٢) · وفى ذلك الوقت عمر بئر (النجار) عمره الأمير شيخون الناصرى سنة ٧٥٨ هـ · وجدده الامير جوكتمر المارديني مقدم العساكر بمكة سنة (٧٦١ هـ) (٣) · ثم عمرت بعض البرك حول جبل الرحمة أيام دولة الأشرف شعبان بمصر(٤) وعندما سيطر الظاهر برقوق على السلطنة فى مصر اتبع سياسة من سبقه فى امداد مكة بالمياه عن طريق السبل والبرك والآبار · ففى عام ٧٩١ هـ أجرى رجل من قبله عين الازرق من عين ثقبة وعين ابن رخم من عرفة حتى البركتين خارج باب المعلاة بمكة كما أصلح بئر زمزم وجدد بعض الآبار(٥) ·

وفى سنة ٨١١ هـ قام الشريف حسن بن عجلان نائب السلطان فرج بن برقوق بعمارة (عين مكة) وجرت من أعلى مكة الى أسفلها فملات بركتها وانتفع بها الناس انتفاعا عظيما ، فلقى الناس من ذلك راحة عظيمة ورخص الماء جدا الا أنها استمرت تقوى وتضعف فى سنوات ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ هـ فعلم المؤيد شيخ بذلك ، فرصد ألفى مثقال ذهب لعمارتها ، وندب لذلك القائد علاء الدين فشرع فى عمارتها وتنظيفها واصلاحها حتى وصل الماء مكة ، وحصل به النفع ، وانتهى العمل منها سنة (٨٢١) (٦) · كما عمر المؤيد شيخ سبيلا على شكل بيت مربع له ثلاثة شبابيك تحت كل شباك حوض وفيه بركة حاملة للماء وفرغ من عمارته عام ٨١٨هـ(٧) · وفى عهد السلطان الأشرف برسباى أنشىء سبيل

---

(١) الفاسى : شفاء الغرام : ج ١ ص ١٢٠ ·
الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١٢٧ ·
أبو الطيب : تحفة الكرام ، ورقة ٩٥ ·

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١٢٤ ·
الفاسى : شفاء الغرام ج ١ ص ١١٧ ·

(٣) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١٢٤ ·

(٤) نفس المصدر ج ١ ص ١٢٠ ·

(٥) المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٦٠٠ ·
الفاسى : شفاء الغرام ص ١٢٧ ·

(٦) الفاسى : شفاء الغرام ج ١ ص ١٢٩ ·
محمد صادق : دليل الحج ص ٦١ ·

(٧) الفاسى : شفاء الغرام ج ١ ص ٢٥١ ·

بالمعلاة سنة ٨٢٦ هـ(١) ، كما جددت بعض البرك أيام السلطان جقمق سنة ٨٤٨ هـ(٢) ، وفى سنة ٨٧٤ هـ عمر الأمير شاهين متولى العمارة بالحرم المكى عين خليص(٣) . وفى السنة التالية أصلح السلطان قايتباى عين حنين ، وكانت قد تعطلت منذ زمن طويل ووصل ماؤها الى عرفات فانتفع به الناس وفرحوا لذلك(٤) ، كما أنشىء سبيل باسم ابن الزمن بمكة أيام السلطان الأشرف قايتباى أيضا(٥) ويذكر (محيى الدين) صاحب كتاب (الأرج المسكى) والمتوفى سنة (١٠٧٠ هـ) أنه بقى بزمنه من العيون والآبار مما ينسب الى المماليك عينان : عين عرفة ، عين حنين ، وجددهما الأشرف قايتباى سنة ٨٧٥ هـ بعد انقطاعهما(٦) . وبقى من الآبار آبار منسوبة الى المؤيد شيخ والأشرف قايتباى عند باب السلام الصغير(٧) .

التركيب الاجتماعى للمدينة المنورة :

ما يمكن أن يقال عن التركيب الاجتماعى بمكة ـ وسبق أن تعرضنا له فى الصفحات السابقة ـ يمكن أن يقال مثله عن المدينة المنورة . فان ذرية الانصار من الأوس والخزرج سكانها الأوائل يعدون على أصابع اليد(٨) . أما أكثر سكانها فمن : الهنود والاتراك والشوام والمغاربة والمصريين . وكان أشهر عائلات المدينة من الانصار أيام المماليك : الاسعديون ، والمدنيون بالاضافة الى الاشراف الحسينيين من الشيعة الامامية ، وآل سنان قضاة المدينة وهم من الشيعة الامامية أيضا . أما أشهر العائلات المغربية بنى مرى ، وأشهر العائلات الشامية آل رفاعى وآل

---

(١) الفاسى : شفاء الغرام جـ ١ ص ١١٧ .

(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ١١٩ .

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٤ ورقة ٥٩١ .
ابن محب الدين : الأعلام ، ورقة ١٠٤ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٨٧٥ هـ .
محمد صادق : دليل الحج ص ٦١ .

(٥) محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ٢٦ .

(٦) المصدر السابق ، ورقة ٢٧ .

(٧) المصدر السابق ، ورقة ٢٧ .

(٨) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ ١ ص ٤٣٩ .
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٢٥٩ .

سفر وآل الطيار وآل الكردى وآل الداغستانى وآل الخطيب ، أما المصرية فبيت الدمياطى وبيت الاسكندرانى وبيت حجاج الصعيدى وبيت السمهودى(١) ٠

ويسيطر هؤلاء الوافدون الى المدينة على كثير من شئونها ، فمنهم ولاة المسجد النبوى وخدامه ، ومنهم التجار الذين يأتون الى المدينة بالمؤن والاطعمة التى تحتاج اليها ، ويشترون من الملاك بها التمر الذى تشتهر به المدينة وتصدره الى الخارج ٠ وأقوى التجارات بالمدينة تجارة الحبوب كالقمح والعدس ، ويسيطر عليها الوافدين المصريون(٢) ، ويقيم أيضا بالمدينة المجاورون من العلماء وطلاب العلم ٠

واذا شكا المؤرخون من غلظة أهل مكة ـ تجارهم ومطوفيهم ـ فانهم لا يجدون للشكوى من المدنيين حتى (المزورين) (أى الذين يقودون الناس فى أنحاء المسجد النبوى وتجاه الحجرة الشريفة) فلا تزال الأخلاق الفاضلة التى أشادت بذكرها آيات القرآن راسخة فى نفوس المدنيين ٠ فالاخلاق مهذبة والنفوس مكملة يألفون ويؤلفون أنجاب كرماء(٣) ٠ ويعزو (البتنونى) ذلك الى أن مناخ المدينة صحى جدا فربما كان ذلك من الأسباب التى (ساعدت على رقة أهلها ولطافة أمزجتهم ، التى اذا أضيفت اليها ما هم عليه من الورع والصلاح والأدب وحسن المعاشرة حكمت لهم بأنهم أحسن أهل بلاد العرب على الاطلاق) (٤). ولا شك أن مجاورتهم للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكسبتهم كثيرا من أخلاقه العظيمة(٥) ٠

وموقع المدينة الجميل الذى تحيط به البساتين والينابيع ووديان السيول الخصبة أثر فى أخلاق أهل المدينة ، فمالوا الى السهولة فى أمزجتهم وكانوا يميلون الى الفرح والسرور والنزهة(٦) ٠ وشوارع المدينة ـ على الرغم من ضيقها ـ الا أنها نظيفة وتساعد على تلطيف حرارة الصيف ومنازل المدينة أصغر من منازل مكة ، وتقوم فى ميادينها القليلة الاسواق التى تغص بالواردات الخارجية

---

(١) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ ١ ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ ٠

(٢) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٢٥٩ ٠

(٣) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ ١ ص ٤٣٩ ٠

(٤) البتنونى : مرآة الحرمين : الرحلة الحجازية ص ٢٦٥ ٠

(٥) المصدر السابق : ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ ٠

(٦) نفس المرجع : ص ٢٥٩ ٠

من جاوة والهند والشام ومصر كالاقمشة القطنية والصوفية والحريرية والسبح والليف الأبيض والحناء والبسط والسجاجيد العجمية ، وأثمان الأشياء بالمدينة أغلى من أثمانها بمكة لأن مكة أقرب الى البحر · وتجارة البلح هى أكثر تجاراتها وأوسعها لكثرة بساتين النخيل بضواحيها ولتعدد أنواع التمر صارت له سوقا خاصة به ، كان المصريون يتولون أكثر التجارة فيه(١) ·

ولكثرة الآبار والينابيع بالمدينة قامت الزراعة عليها وأحدثت تغيرا فى دخول أفرادها وطريقة حياتهم بخلاف مكة تماما · صحيح أنهم كانوا يستفيدون من موسم الحج ، الا أنهم لم يعتمدوا عليه اعتمادا كليا اذ كانت لهم مواردهم الخاصة التى تقيهم شر الفاقة والسؤال ، الا فى سنوات القحط القليلة · لذا فان احتفالهم بالمحمل وكسوة الكعبة وكسوة الحجرة الشريفة ـ عند مرور الركب السائر الى مكة بهم ـ كان احتفالا دينيا محضا ، لا تشوبه نزعات المادة · فعند وصول المحمل الى المدينة يدخل باحتفال كبير من باب العنبرية حتى اذا ما وصل الى الباب المصرى من الحرم ترجل كل من فى موكبه اجلالا لمقام الرسول الكريم · فاذا وصلوا الى باب السلام أتى شيخ الحرم النبوى واستلم زمام المحمل وأصعده على سلم الباب وأناخه على تلك الصفة ، وهناك يرفع المحمل ويوضع فى مكانه من الحرم غربى المنبر النبوى وترفع كسوته المزركشة ويلبسونه الكسوة الخضراء ، وتظل كسوة الكعبة داخل الحجرة الشريفة حتى يخرجونها يوم سفر المحمل الى مكة ، وفى ذلك الحين توضع كسوة الحجرة النبوية عليها فى السنوات التى ترسل فيها الى المدينة(٢) ·

واذا كانت المدينة المنورة قد نجت من الأوبئة ،الا مرات قليلة عمت فيها العدوى الحجاز كله ، كما حدث فى سنتى ٧٣٥ و ٧٤٩ هـ(٣) ، فانها لم تكن تنجو بأى حال من الاحوال من السيول التى تتهددها فى كل آن والتى كانت تغرق ما حواليها من بيوت ومزروعات وقد دخلت المسجد النبوى فى بعض السنوات فأثرت فى جدرانه وفرشه · على أن هذه السيول لا تخلو أبدا من فائدة ·

---

(١) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ·

(٢) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ج ٨ ص ٥٢ ·
القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٦ ·
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٢٤٢ ·

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ١٧٣ ·

العادات الاجتماعية والدينية :

ولأهل المدينة المنورة عادات وتقاليد فى الولادة والزفاف والوفاة(١) ، فهم فى الوفاة يتبعون أهل السنة فاذا ما فاضت روح الميت لا يرفع صوت ولا يشق جيب ولا تنوح نائحة(٢) ٠

ولهم عادات دينية راسخة فهم يتناولون افطارا خفيفا عند المغرب فى شهر رمضان بالحرم النبوى فقراء وأغنياء ، ثم ينصرفون الى صلاة المغرب يعودون بعدها الى بيوتهم ليفطروا الافطار الثانى ثم يعودون لصلاة العشاء والتراويح(٣) ٠

أما صلاة العيد فيصليها بالمسجد النبوى أئمة الامامية والشافعية والأحناف، لقلة المالكية بالمدينة ٠ الا أن الملك الناصر محمد بن قلاوون أصدر أمرا بعدم السماح لآل سنان من الامامة بالصلاة فى المسجد النبوى (سنة ٧٣١ هـ) (٤) ، ثم انتهت امامتهم فعلا من المدينة سنة (٧٥٠ هـ) بالتعاون بين الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون وأمير المدينة سعد بن ثابت بن جماز بن شيحة ، الذى ضاق بسيطرة القضاة والأئمة الشيعة من آل سنان(٥) ٠ وبعد صلاة العيد يذهب الجميع لزيارة قبر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يعودون الى منازلهم ويقضون أيام العيد فى تزاور وسرور وحبور ٠ ولاهل المدينة عدة احتفالات دينية أخرى كمولد حمزة ـ رضى الله عنه ـ ومولد لعلى شقيق ذى النفس الزكية وغيرها(٦) ٠

فهى التى تجلب الخير والنماء لسكان الحجاز كافة ، ولان كانت السيول مفيدة لجلب الخيرات لاهل الحرمين الا أن الجراد كان مضرا بهما فلم تنج المدينة من

---

(١) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٢٦١ ٠

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٠ ٠

(٣) المرجع السابق ص ٢٦١ ٠
ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ٤٤٤ ٠

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٢٣ ٠
ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٢٤ ٠

(٥) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ٢ ص ٣٩ ، ٤٠ ، ١٥٠ ٠
البرزنجى : نزهة الناظرين ص ١٧ ٠
القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٢ ص ١٥٨ ٠
ابن بطوطة : الرحلة ج ١ ص ٧٧ ٠

(٦) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ص ٤٤٣ ٠

الجراد · وقد اجتمع عليها فى سنة ٦٨٦ هـ السيول والجراد ، ففى الرابع من محرم من السنة المذكورة (أصاب المدينة مطر وسيول كثيرة ···) (١) · ولحق الحرم من تلك السيول أضرارا كبيرة ودخل الماء الحجرة النبوية (وأضر هذا المطر بالناس فخرب دورا كثيرة وقلع نخيلا كثيرة) (٢) فارتفعت السيول الى أماكن لم تكن تصلها من قبل ، وأصبح أكثر أهل المدينة فى العراء ومات منهم من أدركه السيل ثم جاء بعد السيل الجراد « له دوى كدوى الرعد فبات بعضه بالمدينة فأكل التمر والجريد والخضر ، وكانت ضواحى المدينة مخصبة فأكل مراعيها » (٣)· وأكل ما بدأه السيل وتخربت عيون المدينة من السيل واضطربت مواردها شهورا قبل أن يضيق أهل المدينة من هول الصدمة ، فيحاولون بقاء ما تهدم وتجديد ما تصدع بمؤازرة رجال وأموال من السلطات فى مصر ، تلك التى قدمت لهم لاقالتهم مما تعرضوا له من قسوة الطبيعة عليهم(٤) · وقد تكرر هذا سنة (٧٢٤ هـ) (٥) لكنه فى هذه المرة كان أخف وطأة مما سبق وتمكنوا من تلافيه ·

وبعد : فلقد كان سلاطين المماليك فى مصر دائما يعملون على راحة سكان الحرمين ويقدمون لهم المساعدات المالية ويرسلون لهم الحبوب والصدقات كلما ألمت بهم أزمة اقتصادية وهذا فى نظرنا يدعو سكان الحرمين الى الاخلاص اليهم والدعاء لهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان المماليك أرادوا بهذا تثبيت نفوذهم بالحرمين والظهور فى مظهر الورع والتقوى أمام العالم الاسلامى ·

(أ) العلاقات الثقافية :

أما عن العلاقات الثقافية بين مصر والحجاز زمن سلاطين المماليك فانه من الممكن القول أنه لا يضاهى ازدهار العمائر بالحرمين فى ذلك العصر ، الا ازدهار الحركة العلمية وقوتها · فقد أضيفت الى القدسية الدينية القوة الاقتصادية التى عرف بها الحجاز أيام المماليك باعتباره مركزا كبيرا للتجارة · ومنتهى مساعدات السلاطين وصدقاتهم · وكان كثير من هذه الصدقات يذهب للمجاورين من رجال

---

(١) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ج ٨ ص ٥١ ·

(٢) المصدر السابق ج ٨ ص ٥١ ·

(٣) المصدر السابق ج ٨ ص ٥٢ ·

(٤) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ج ٨ ص ٥٢ ·

(٥) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٣٧٤ ·

الأربطة والزوايا ، والمدرسين والقضاة والخطباء ، وكان ذلك سبب هام من أسباب ازدهار الحركة العلمية . يضاف الى ذلك قدسية الحرمين وفريضة الحج واستحباب زيارة قبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة ومن أولى بتلبية نداء الله من العلماء العاملين بالدين « وانما يخشى الله من عباده العلماء » « أمن هو قانت آناء الليل والنهار ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الألباب » من أجل هذا كان يقصد المدينتين المقدستين مئات العلماء كل عام . فيكون موسم الحج مكانا للقاء العلماء من كافة أقطار العالم الاسلامى ، فيتدارسون فيما بينهم مشاكل المعرفة وما يعرض من أمور الواقع ويأخذون عن بعضهم البعض الحديث والتفسير والفقه والعربية . ويعود أكثرهم الى بلاده وقد شعر بما استفاده ، فيعاود الكرة مرات ومرات بينما يطيب لبعض منهم البقاء بالمدينتين المقدستين يدرسون ويدرسون ويطمئنون الى جوار الحرمين جوار الله ، مقبلين على العبادة نابذين الدنيا وراء ظهورهم استعدادا ليوم « لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » . وقد شكل المجاورون فى الحرمين على مر العصور جزء من أجزاء المجتمع فى المدينتين مكة ويثرب ، ولم يعد أكثرهم الى ديارهم وتزوجوا وأنجبوا وتعلم أولادهم بمكة وصاروا جزء من سكانها .

واستتبع وجود العلماء وجود المدارس والتلاميذ ، وكان كثير من هؤلاء التلاميذ شبانا قادمين فى موسم الحج ، وقلما خلا عام من أعوام القرون الثلاثة - السابع والثامن والتاسع من الهجرة - من عالم شهير فى الحرمين ، يأخذ عنه شبان العالم ويحذون حذوه فى الدراسة والاطلاع .

أما نوعية الدراسة ، فقد كانت علوم الدين هى الغالبة أى الحديث والتفسير والفقه وعلوم التصوف والعلوم العربية التابعة لها . وقليلا ما يذكر المؤرخون أن عالما درس الشعر أو العلوم العقلية كالمنطق والفلسفة(١) . لذا فقد كان مألوفا أن يردد المؤرخون ورجال كتب الوفيات دائما فى حديثهم عن هذا العلم أو ذاك (وفيها توفى .. وكان شيخا جليلا اماما عالما فاضلا .. منعكفا على العبادة .. والاشتغال بالله تعالى .. سمع من .. وتوفى ..) (٢) أو (الامام الزاهد ..

---

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات ج ١ ص ٢٤٧ .
السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٦ .
السيوطى : بغية الوعاة ص ١٧١ .
ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ حوادث سنة ٨٤٠ هـ .

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٥ ص ٣٤٣ .

نشأ بمكة ٠٠ ورحل فى طلب الحديث ٠٠ وسمع من ٠٠ وكان شيخا عالما ٠٠ عارفا ٠٠) (١) ٠

أما من حيث تنظيم الدراسة فقد كان الامر معقدا بعض الشيء ٠ فهناك دراسة نظامية تماما فى مدارس مخصصة لذلك يدرس فيها عدة أساتذة يرأسهم (شيخ المدرسة) الذى يعينه السلطان(٢) ٠ ويقضى التلاميذ فى هذه المدرسة سنوات محددة ثم يخرجون باجازات من مدرسيهم توضح ما قرأوه وحفظوه وتفتح لهم الأبواب للتدريس بدورهم(٣) ٠

أما النوع الثانى من أنواع الدراسة فوسط بين التنظيم وعدمه اذ تتم فى الاربطة والزوايا وتسودها الروح الصوفية التى لا تهتم بمدى التقدم فى كمية المعلومات بل بما فى نفس الطالب من الحرارة الروحية والشوق الى القرب من الله وقد يقضى الطالب فيها سنوات ثم يخرج لانه غير صالح للتصوف وقد يقضى وقتا قصيرا ليخرج من كبار العارفين ، كما يقولون ، ومشيخة الرباط كمشيخة المدرسة منصب يعين السلطان فيه من يشاء(٤) ٠

أما النوع الثالث من الدراسة ـ وهو الاغلب والاعم ـ فالدراسة فى المقامات، أى مقامات المذاهب الاربعة بالحرمين ٠ وهى أماكن منيفة بالمسجد المكى والحرم النبوى لاجتماع رجال المذاهب الاربعة كل على حدة للصلاة والدراسة ٠ وقد اتصفت هذه الدراسة ببعض من النظام منذ سنة ٨٠١ هـ ٠ ففيها شرع الامير بيسق فى عمارة مقام الحنفية فجعله بأربعة أساطين من حجر منحوت عليها سقف مدهون(٥) ٠

وحتى لا تظل الدراسة فى المقام وهنا يميل هذا العالم أو ذاك فقد عمل الأمير أرغون درسا للحنفية بالمقام المبنى ، ودروسا بالمدارس الأخرى بمرتب ثابت للمدرسين حوالى سنة ٧٢٠ هـ(٦) ٠

---

(١) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ج ٨ ص ٥٩ ٠

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ١٦٩ ٠
ابن العماد : شذرات الذهب ج ٦ ص ٣٦١ ٠

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ج ٧ ص ٨٤ ، ج ٩ ص ١٩ ٠

(٤) نفس المصدر : ج ٢ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ ٠
ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩١٤ هـ ٠

(٥) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ٢٦٧ ٠

(٦) الفاسى : شفاء الغرام ج ١ ص ٣٢٨ ٠

أما المقامات الثلاثة الأخرى للمذاهب ، فقد عمرت سنة ٨٠٧ هـ وزودت بمحاريب ووسائل للانارة الا أن المقام الحنفى كان أوسعها بينما كان المقام الشافعى أكثرها فخامة(١) · والدراسة فى المقامات تشبه ما كان سائدا فى الأزهر حتى مطلع هذا القرن اذ يجلس الطلاب بين يدى الشيخ فيسمعون منه دروسا فى الحديث والتفسير والفقه والعربية ، ويستمرون فى السماع والرحلة للاستزادة من ذلك سنوات طويلة حتى يحس الطالب من نفسه مقدرة على التدريس ويشجعه على ذلك بعض العلماء فيبدأ دروسه ويتوقف نجاحه أو فشله فى كثير من الأحيان على رأى المستمعين لدروسه ومقدرته فى ادخال معلوماته على عقول طلابه ·

المدارس بالحرمين :

التعليم بالحجاز قديم يرجع الى صدر الاسلام ، وقد اشتهر بالتدريس بمكة والمدينة عدد كبير من التابعين فى الحرم المكى والحرم النبوى وكانوا يدرسون على الصحابة ، واشتهر من المدينة جماعة سموا (بفقهاء المدينة السبعة) الا أن انشاء المدارس قد تأخر بالحرمين نوعا حتى أيام العباسيين والفاطميين ببغداد والقاهرة ويمكن أن نقول منذ بداية القرن السادس الهجرى بدأت المدارس بالحرمين تنمو وتتكاثر(٢) ·

واعتمادا على ما أورده الفاسى فى كتابه (شفاء الغرام) حينما أفرد فصلا للمدارس بمكة فقد عددها وذكر لنا منها الكثير : فمنها المدارس التى كانت موقوفة بمكة فى زمنه مثل مدرسة (دار العجلة) التى لم يحدد لنا تاريخ انشائها وكلما ذكره أن الأمير أرغون النائب عمل فيها درسا للحنفية قبل العشرين وسبعمائة(٣) ، ومدرسة الملك المجاهد صاحب اليمن وموقعها فى الجانب الجنوبى من الحرم المكى أوقفت سنة ٧٣٩ هـ على فقهاء الشافعية(٤) ، مدرسة الملك الأفضل عباس بن الملك المجاهد أوقفها سنة ٧٧٠ هـ على فقهاء الشافعية أيضا(٥) ·

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ورقة ٢٨٢ ·

(٢) النعيمى : الدارس ج ١ ص ٤٣١ و ٥٢٦ ·

(٣) الفاسى : شفاء الغرام ج ١ ص ٣٢٨ ·

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٣٢٨ ·

الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ٢ حوادث ٧٣٩ ـ ٧٤٠ هـ ·

(٥) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ٢ حوادث ٧٣٩ ـ ٨٤٠ هـ ·

ومن المدارس التى أنشئت بمكة مدرسة (غياث الدين) سلطان البنغال(١) ، ومع أن انشائها لا يمت الى موضوعنا بصلة متينة ، الا أننا رأينا فى ذكر انشائها ونظامها الداخلى ما يعين على فهم النظام الداخلى ونظام الانفاق فى المدارس التى أنشأها سلاطين المماليك فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين، حيث أن تشابها واضحا بين نظم المدارس لا بين مصر والحجاز فحسب بل أيضا فى معظم أنحاء العالم الاسلامى . فقد فوض غياث الدين مبعوثا من قبله هو (ياقوت السطانى) لانشاء مدرسة على المذاهب الأربعة فوصل ياقوت الى مكة سنة ٨١٣ هـ واشترى مكانا للمدرسة باثنى عشر ألف مثقال ثم أزال ما به من الأبنية وبدأ بناءها بناء فخما حتى انتهى من معظمها سنة ٨١٤ هـ ، ثم عين فيها أربعة من المدرسين ليقوموا بالتدريس لستين طالبا . فكانوا قضاة مكة الأربعة ، وأما الطلاب فعشرون من الشافعية ومثلهم من المالكية والأحناف وعشرة من الحنابلة وخصص القسم الشرقى للأحناف والشافعية والقسم الغربى للمالكية والحنابلة وقسم الأسبوع أقساما ، فكان القاضى الشافعى يدرس يومى السبت والاثنين صباحا والحنفى صباح يومى الأحد والأربعاء والخميس والمالكى بعد ظهر أيام السبت والأحد والاثنين ، والحنبلى فكان يدرس بعد ظهر يومى الأربعاء والخيس . ولم يذكر الفاسى جنسيات الطلاب وهل كانوا جميعا من المكيين أو من غيرهم(٢).

هذا بالاضافة الى أن ياقوت قد اشترى حديقتين بوادى مر على مقربة من مكة ، تسقيهما عين ماء وأوقف ريعهما على الانفاق على المدرسة وعين رجلا للاشراف على الانفاق ، كان يقسم الريع الى خمسة أقسام ، فيأخذ المدرسون الخمس وينفق الباقى على الطلاب ومصالح المدرسة الأخرى كالزيت والماء(٣) . ولا ندرى لماذا لم يذكر الفاسى ما فعله الأشرف شعبان سنة ٧٦٥ هـ فى الحرمين ، فقد (قرر دروسا فى المذاهب الأربعة ودرسا فى الحديث وتصادير وقراء ومؤذنين ... ومكتبا للأيتام) باشارة رجل الدولة حينئذ يلبغا الخاصكى(٤) ، وفى سنة ٨٣٥ هـ بدأ شاد العمارة من قبل الأشرف برسباى بعمارة (المدرسة الباسطية) بمكة وابتداء التدريس فيها فى آخر نفس السنة قاضى القضاة جلال الدين أبى السعادات بن ظهيرة . وفى تلك السنة أيضا أنشأ (الطواشى خشقدم الزمام) مدرسة (السمامى) وكانت تغلب على هذه المدرسة النزعة الصوفية ، وقد زودت بصهريج للمياه ومأوى للفقراء وأوقفت عليها أوقافا(٥) .

---

(١) ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ حوادث ٨١٤ هـ .

(٢) الفاسى : شفاء الغرام ج ١ ص ٣٢٩ .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٣٢٩ .

(٤) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ٢ ص ٢٧٤ .

(٥) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٤١١ .

وانقضت سنوات قبل أن تعمر زوجة السلطان سنة ٨٦١ هـ مدرسة (العطيفية) بجانب المسجد الحرام وكانت بناء متسعا بمرافق كثيرة ورواق كبير شبابيكه تطل على الحرم(١) ٠

وازدهرت العمارة بالحجاز أيام الأشرف قايتباى وقد وصل الى علمه ما أنفقه غياث الدين على المدرسة الفخمة التى أنشأها بمكة سنة (٨٤١ هـ) فأحب أن يبزه فى هذا العمل فأمر وكيله وتاجره شمس الدين بن عمر ، المكنى بابن الزمن ، وشاد عمائره سنقر الجمالى أن يبحثا له عن موقع مشرف على الحرم المكى ليبنى فيه مدرسة يدرس فيها على المذاهب الأربعة كما أمرهما بأن يشتريا أماكن توقف على المدرسة وينفق عليها من ريعها ، فاشترى ابن الزمن وسنقر رباطين هما رباط السدرة ورباط المراغى ودارا للشريفة شمسيةالحسنية وهدماها جميعا وبنى مكانها كلها مجمعا عظيما فيه اثنان وسبعون خلوة وجعل كل ذلك مدرسة بالرخام الملون والسقف المذهب فقرر فيها الأشرف قايتباى أربعة مدرسين على المذاهب الأربعة وأربعين يتيما مكيا وأرسل خزانة كتب وقفها على طلبة العلم وجعل مقرها المدرسة وجعل لها خازنا عين له مرتبا ثابتا ويذكر النهروالى أن المكتبة فى أيامه ضاع أكثرها لاستيلاء أيدى المستعمرين عليها ولم يبق فيها الا ثلاثمائة مجلد ثم يذكر أنه كان مشرفا على المكتبة سنة ٩٨٠ هـ وأنه أجرى اصلاحات فيها(٢) ٠

وكان من المقرر منذ انشاء المدرسة أن يحضر القضاة الأربعة بعد العصر اليها ويقرءون مع الطلبة القرآن حسنة للسلطان ٠ ورتب السلطان لكل من الطلاب والصوفية بالمدرسة خلوات وجميع ما يكفيهم من القمح فى كل سنة ٠ ذلك القمح الذى كانت تصنع منه (الدشيشة) ٠ أما مرتبات الأساتذة فكانت تعطى بالذهب ٠ وكان الذى يتولى الانفاق على المدرسة المشرف على الوقف الذى أوقفه قايتباى عليها وهو عبارة عن عدة دور وحدائق بالحجاز وبعض القرى الصغيرة بمصر(٣) ٠ وظلت المدرسة غاصة بالطلاب عامرة بالمال حتى توفى

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٤ ورقة ٥٣٤ ٠

(٢) النهروالى : الأعلام ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ٠

(٣) السمهودى : وفاء الوفاء ص ٧١٦ ٠
ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩٠١ هـ ٠
شمس الدين بن محمد : فاكهة الخلان ج ١ ص ٣٣ ٠
محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى ص ٢٩٦ ٠
ابراهيم طرخان : مصر فى عصر دوله المماليك الجراكسة ص ٣٢٢ ٠

قايتباى سنة ٨٩٧ هـ · فبدأ ناظرو أوقافها يتلاعبون بأموالها ويهملون العناية بالطلاب والمدرسين فقل متحصل الأوقاف حتى كادت أن تنعدم فى أوائل العهد العثمانى فتحولت المدرسة الى مسكن لايواء الحاج المصرى أيام موسم الحج(١) ·

وكانت آخر مدرسة أنشئت بمكة أيام المماليك تلك التى أنشأها السلطان الغورى سنة ٩٢٢ هـ(٢) ولا تشير المراجع التى بين أيدينا الى أية تفصيلات عنها· ويذكر محى الدين فى (الأرج المسكى) — وهو من معاصرى الدولة العثمانية — أنه بقيت فى زمنه بمكة مدارس قليلة بعد أن كانت كثيرة المدارس — أهمها مدرسة قايتباى ، وكان المدرسون الأربعة ما زالوا فيها ، ومدرستان أنشئتا أيام العثمانيين(٣) . كما بقيت بمكة عدة زوايا بيد أنها كانت مقصورة على الصوفية وعلومهم ولا يدرس فيها غيرهم وهى منسوبة الى (مشايخ الطرق) (٤) ·

أما المدينة المنورة ، فقد ظلت الدراسة فيها فى الأربطة والمقامات حتى قامت سلطنة الأشرف شعبان (٧٦٤ — ٧٧٨ هـ) فصار للمدرسين بالمقامات مرتبات ثابتة تدفعها السلطنة ، وصارت الدروس تشمل المذاهب الأربعة وعلوم الحديث والتفسير · ولأجل هـذا جددت المقامات الأربعـة لتـكون أكثر صلاحا للدراسة(٥) · وفى القرن التاسع كانت بالمدينة بالمسجد النبوى دروس للحنفية والشافعية يتقاضى المدرسون عنها أموالا ، الا أن درس الأحناف كانت أكثر من دروس الشافعية(٦) · وفى أيام الظاهر جقمق جعلت لطلاب الأربطة (دشيشة) وربما كانت هذه سابقة سار على نهجها الأشرف قايتباى فيما بعد فانه عندما انتهى من عمارة المسجد النبوى بعد تصدعه أمر ابن الزمن شاد العمارة أن يبنى بالمدينة رباطا ومدرسة ومئذنة حول المسجد النبوى · فبنى ابن الزمن مدرسة ضخمة ما بين باب السلام وباب الرحمة من أبواب المسجد ، وأرسل اليها خزانة كبيرة وكتبا لخزانة المسجد ، جعـل مقرها جميعا المدرسة موقوفة على طلبـة

---

(١) النهروالى : الأعلام ص ٢٢٦ ·
البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٩٦ ·

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩٢٢ هـ ·
ابراهيم طرخان : مصر فى عصر المماليك الجراكسة ص ٣٢٢ ·

(٣) محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ٦ ·

(٤) نفس المصدر ، ورقة ٢٤ — ٢٦ ·

(٥) الفاسى : العقد الثمين ج ص ١٠ ·

(٦) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ١ ص ٥٠ ·

العلم وأرسل مصاحف كثيرة : كما أوقف قرى بمصر تحمل غلالها الى المجاورين والطلاب ، فيفرق عليهم جميعا من الحب ما يكفيهم لطول السنة فكانت حصة الفرد سبعة أرادب فى العام سواء فى ذلك الصغير والكبير والحر والعبد(١) . وكانت أمور المدرسة بالمدينة أكثر تنظيما منها بمكة وكان لها مشرفان استمرا فى وظيفتهما حتى أيام الغورى وتولى أحدهما فيها مشيخة الخدام بالحرم النبوى(٢) .

وكان بالمدينة فى أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجرى — على ما ذكره السخاوى — عدة مدارس منها الأشرفية — نسبة للأشرف قايتباى — والباسطية — نسبة للزينى عبد الباسط ، أنشئت فى أواخر النصف الأول من القرن التاسع الهجرى والزمنية للشمس بن الزمن ناظر العمارة والسنجارية المقابلة لباب النساء(٣) .

العلماء والمجاورون بالحرمين :

أفاضت المصادر التى بين أيدينا بذكر العلماء والمجاورين فى كل من مكة والمدينة . فلا يكاد يخلو مصدر من مصادر العصر المملوكى من التحدث عن العلماء والمجاورين فى كلتا المدينتين ، وسنتناول فى بحثنا الحديث بايجاز شديد عن الدور الذى قام به العلماء والمجاورين البارزين فى كل مدينة على حدة ، الذين كانت لهم أهمية بالغة فى الحرمين فى الفترة الزمنية التى نحن بصددها والتى تقع فى موضوع العلاقات بين مصر والحجاز .

مجاورى مكة وعلمائها :

يطالعنا فى الحديث عن المجاورين حقائق عدة :

---

(١) النهروالى : الأعلام ص ٢٢٨ .
محى الدين : الأرج المسكى ، ورقة ١٣٢ .
السمهودى : خلاصة الوفاء ، ورقة ٦٤ — ٦٥ .
ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩٠١ هـ .
ابراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٣٢٢ .
محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى ص ٢٩٦ .

(٢) السخاوى : التحفة اللطيفة ج ٢ ص ٣٠٧ .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٥١ .

١ - أن أكثر المجاورين بمكة كانوا من المصريين والشاميين(١) ، ولا يعنى ذلك أنه لم يكن هناك مجاورين من غير مصر والشام فقد كان هناك عراقيون(٢) ومغربيون(٣) ويمنيون . الا أن الكثرة الغالبة ، كما قدمنا ، كانت من المصريين والشاميين ، وربما عاد هذا الى قرب الشام ومصر من الحجاز فكان من السهل على العلماء الانتقال ، لكن العراق قريب من الحجاز ومع ذلك لا نجد أن المجاورين فيه كثيرون على أنه ربما عاد ذلك الى غلبة المذهب الشيعى بتلك الآونة على العراق واهتمام العلماء العراقيين بمجاورة قبور ومشاهد آل البيت فى العراق وفارس . ويبرز سبب آخر ساعد على زيادة المجاورين من مصر والشام هو أن المماليك (حكام مصر) كانوا هم المسيطرين فى مصر والشام والحجاز فكان ذلك يحقق للمصريين والشاميين ميزة ظاهرة ونوعا من الأمن لا يجده العراقيون واليمنيون والمغاربة .

٢ - أن أكثر المجاورين كانوا من العلماء الزهاد ، أما القلة الباقية فمن الذين نفاهم السلطان بمصر فجاءوا قسرا أو من كبار التجار الذين جاءوا يقضون شيخوختهم بجوار البيت الحرام لذا فقد كان هؤلاء المجاورين خيرا على مكة سواء كانوا علماء أو تجارا بعلمهم الذى حرم الله أن يكتم والآخرون يجودون بأموالهم فى سبيل الله بمكة(٤) .

٣ - أن المجاورة لم تكن تعنى قضاء سنوات فى أواخر العمر هى سنوات الشيخوخة والفناء ، بل قد تكون فترة للراحة والصفاء الروحى يعود بعدها المجاور الى حياة العلم والكفاح . بينما نجد أن عبد الله بن سعد بن عبد الكافى المصرى قد جاور أزيد(٥) من ثلاثين سنة وابن عساكر(٦) أربعين سنة ومحمد بن

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٥ ص ٣٩٥ .
السخاوى : الضوء اللامع ج ٥ ص ٢٠ .
الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٣٨٨ .
ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ حوادث سنة ٨١٦ هـ .

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٦ ص ١٧ و ١٩ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٨٣ .
ابن العماد : شذرات الذهب ج ٦ ص ٣٢ .

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ج ١ ص ٩٤ - ٩٥ .

(٥) السخاوى : الضوء اللامع ج ٥ ص ٢٠ .

(٦) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٥ ص ٣٩٥ .

مطرف الأندلسى سنتين سنة(١) ، نجد أن محمد بن على القرطبى قد جاور سبع سنوات فقط(٢) ، ومحمد بن يوسف الأنصارى جاور أربع سنين(٣) ، وابراهيم ابن عبد الوهاب القاهرى جاور حتى تعلم وخلا الى نفسه بعض الوقت ثم عاد الى القاهرة يدرس ويشتغل بالتجارة(٤) · فكانت المجاورة اذا نوعا من الراحة النفسية الوقتية فى ظلال البيت (الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا) يأوى فيه المجاور الى رحابه الطيبة الطاهرة فينعم بالسكينة فى جوار الله ويأخذ عن العلماء ما يزيده يقينا وصلابة فى مواجهة أحداث الحياة ثم يعود ليخوض غمار الحياة من جديد · أما الذين كانوا يجاورون فى سنى حياتهم الأخيرة فكانوا قلة وهم غالبا موتورون ماليا أو سياسيا أو معزولون عن القضاء أو مصابون بحدث من خطوب الأيام ·

٤ — أن المجاورين كانوا قليلين فى القرن السابع(٥) ، ثم بدأوا يكثرون فى القرن الثامن حتى صاروا جزءا كبيرا من المجتمع المكى ، وربما عاد ذلك الى ما قام به السلاطين من انشاء للمدارس والأربطة والزوايا · وما أنفقوه على المجاورين وما قاموا به من تنظيم لشئونهم حيث لم يعد المجاور يخشى ألا يجد مأوى وطعاما ، اذا ضاقت به سبل العيش بجوار البيت · وفى « الضوء اللامع للسخاوى » تراجم عدة لعلماء كانوا مشايخ للأربطة والزوايا أو للمجاورين بالبيت الحرام خلال القرن الثامن منهم أيوب بن ابراهيم الجبرتى شيخ رباط ربيع بمكة ، الذى ظل بهذا المنصب حتى توفى(٦) · وأيوب بن عبد السلام الشبشيرى الذى كان شيخا لرباط ابن مزهر(٧) وأحمد بن محمد بن محمد المصرى المتوفى سنة ٧٦٥ هـ ، والذى كان شيخا لرباط ربيع(٨) ·

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٦ ·

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٨٣ ·

(٣) نفس المصدر جـ ٤ ص ٣١٧ ·

(٤) السخاوى : الضوء اللامع جـ ١ ص ٧٣ ·

(٥) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٩٥ ·

(٦) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٢ ص ٣٣٠ ·

(٧) المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٣١ ·

(٨) المصدر السابق : جـ ٢ ص ٣٠٥ ·

يظهر أن رباط ربيع هذا كان رباطا عامرا هاما حتى يحرص السخاوى على ذكر شيوخه بالتسلسل · ذكره ابن بطوطة الذى زار مكة عام ٧٢٨ هـ فقال : هو من أحسن الرباطات بمكة بداخله بئر عذبة لا يماثلها بئر وسكانه الصالحون وأهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيما شديدا وأهل الطائف يأتونه بالواكه ·

(ابن بطوطة : الرحلة ص ٩٤)

ومن شيوخ المجاورين على الأصغر بن محمد بن أحمد أبو الحسن وكان يتولى - الى جانب مشيخة المجاورين - نظر رباط السدرة ورباط كلالة وبعض المياضىء • ويظهر أنه كان اداريا أكثر منه عالما ، وان كان قد (حضر الدروس واجتمع بالشيوخ) (١) ومنهم قرقماش الشريف الذى ولى مشيخة المجاورين أو (باشية المجاورين) كما كانت تسمى حتى توفى سنة ٩١٤ هـ • فولى الغورى مكانه أحد أمراء الطبلخانات(٢) ، ومنهم (قطباى) المتوفى سنة ٩٢٠ هـ والذى ولى السلطان الغورى مكانه أميرا من الأمراء الطبلخانات للمرة الثانية(٣) • وكان هؤلاء الرؤساء يشرفون على الانفاق على المجاورين وينظرون فى احتياجاتهم ويتعاونون مع القاضى فى فض النزعات وينظمون حلقات الدراسة والحلقات الصوفية • وقد عرفت مكة فى القرن الثامن كثيرا من العلماء المجاورين • نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : محمد بن مطرف الأندلسى الذى جاور ستين عاما وكان يطوف فى اليوم والليلة خمسين مرة حتى توفى سنة ٧٠٧ هـ وعمره يزيد على التسعين(٤) • وشيخ الحرم ظهير الدين محمد بن عبد الله البغدادى الذى جاور بمكة أربعين عاما ، ثم خرج نحو اليمن فتوفى سنة ٧٠٨ هـ (٥) • ومنهم أحمد بن أبى طالب الحمامى الذى أثر فى الحياة العلمية بمكة أثرا ظاهرا ، اذ درس عليه ابن مسلم القاضى وشمس الدين بن الصلاح والامام الذهبى أحد كبار رجال الحديث فى القرن الثامن كله • وتوفى سنة ٧٠٦ هـ (٦) ومن المجاورين من جاور للعبادة فقط فلم يدرس ، مع أنه (قرأ ما لا يوصف كثرة) وهو فخر الدين التوزرى المغربى(٧) • ومنهم من جاور ليتعلم من الأئمة القادمين للحج كابراهيم ابن يونس البعلبكى الذى اهتم بالقرآن والشعر ثم جاور بمكة (وعلق عن مشيخة عصره الفوايد) الى أن غادر مكة فتوفى بدمشق سنة ٧٤١ هـ (٨) •

ويذكر ابن بطوطة فى رحلته كبار المجاورين بمكة ، فيمتدح منهم الامام الصوفى المحقق عفيف الدين بن أسعد اليمنى الشافعى الشهير باليافعى (كثير

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع ج ٥ ص ٢٨١ •

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩١٤ •

(٣) نفس المصدر حوادث ٩٢٠ هـ •

(٤) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٦ ص ١٦ •

(٥) نفس المصدر ج ٦ ص ١٧ •

(٦) نفس المصدر ج ٦ ص ١٩ •

(٧) نفس المصدر ج ٦ ص ٣٢ •

(٨) ابو المحاسن : المنهل الصافى ج ١ ورقة ٤٣ •

الطواف أناء الليل وأطراف النهار) (١) ٠ كما يمتدح نجم الدين الأصفونى الذى ترك قضاء صعيد مصر ليجاور الحرم المكى (وكان يعتمر فى كل يوم من التنعيم اعتمادا على ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من اعتمر فى رمضان فان عمرته تعدل حجة معى) وتوفى سنة ٧٥٠ هـ (٢) ٠ وأبو بكر الشيرازى المعروف بالصامت (أقام بمكة أعواما لا يتكلم فيها) (٣) ٠ وبرهان الدين العجمى وكان واعظا بارعا يأخذ بمجامع القلوب(٤) ٠ وعز الدين الواسطى ، والغريب أنه كان من أصحاب الأموال الطائلة اذ كان تاجرا كبيرا ببلده فكان يبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين ، ويحمل ذلك الى بيوتهم بنفسه(٥) ٠

ومن كبار مجاورى القرن الثامن الامام قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز ابن قاضى القضاة بدر الدين محمد بن ابراهيم بن سعد الله بن جماعة ، ولد بدمشق سنة ٦٩٤ هـ ودرس بالشام ومصر ومكة وولى القضاء بمصر والشام تسعا وعشرين سنة ثم استعفى وتوجه الى مكة فجاور بها وحدث علماءها وخطب بمساجدها حتى توفى سنة ٧٦٧ هـ ، وترك بعده تلاميذ ومحدثين(٦) ٠ ومن المجاورين من سمع من علماء مكة ثم درس فيها كعبد الرحمن بن عبد الله الحيرى سمع بدمشق من أبى الحجاج المزى أعظم علماء بلده فى الحديث فى ذلك القرن ثم سمع بمكة من زين الدين الطبرى القاضى ودرس فى مكة وجاور فيها فأخذ عنه قاضيها أبو حامد بن ظهيرة(٧) ٠ ومنهم محمد بن أحمد الخزرجى الذى ترك قضاة دمنهور بمصر ليجاور بمكة وتميز بالثراء فكانت (له مكارم وصدقة وافرة) (٨) ٠ أما جمال الدين أحمد بن محمد بن عبد الرحيم اللخمى الأسيوطى

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة جـ ١ ص ٩٤ ٠
ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٦ ص ٢١٠ ٠

(٢) ابن بطوطة : الرحلة جـ ١ ص ٩٤ ٠
السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٨٠ ٠

(٣) ابن بطوطة : الرحلة جـ ١ ص ٩٤ ٠

(٤) نفس المصدر جـ ١ ص ٩٤ ٠

(٥) نفس المصدر جـ ١ ص ٩٤ ٠

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٨٩ ـ ٩٠ ٠
السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٥١ ٠

(٧) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٢٨ ٠

(٨) الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ٣٨٨ ٠

(٧١٥ ـ ٧٩٠ هـ) فقد أخذ عن الأسنوى وغيره ثم جاور بمكة ، ودرس فيها ، ويذكر ابن العماد الكتب التى كان يدرسها فتعطينا فكرة عن الكتب الدراسية فى المذهب الشافعى لذلك العهد ، فقد كان جمال الدين الأسيوطى يدرس الشرح الكبير والروضة والتهذيب من كتب المذهب المعتمدة وألقى على تلاميذه بعض الدروس فى شرحه قصيدة كعب بن زهير فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول
متيم أثرها لم يفد مكبول(١)

وأن آخر مجاورى مكة فى القرن الثامن الهجرى هو القاضى شهاب الدين أحمد بن شرف الدين الطرابلسى وكان حنفى المذهب درس على عدة علماء من طرابلس الشام ثم رحل الى الديار المصرية فلم يترك عالما الا ودرس عليه ثم سافر الى مكة فجاور فيها لسنوات على فترات متقطعة ، درس عليه خلالها ابن الفرات المؤرخ الشهير ثم عاد الى مصر فتوفى سنة ٧٩٩ هـ بعد أن ترك وراءه كثيرا من التلاميذ بمكة ومصر والشام(٢) .

أما القرن التاسع فقد حفل بمئات المجاورين الذين كان بينهم الكثير من العلماء . وسنكتفى بايراد أسماء بعض مشاهيرهم ، فمن هؤلاء تاج الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن البلبيسى الشافعى (٧٢٨ ـ ٨٠١ هـ) وكان قد ولى وظائف كثيرة بمصر ثم تركها الى مكة فجاور فيها وأخذ عن علمائها الوافدين اليها(٣) منهم أيضا محمد بن أحمد بن خليل ، عرف بدقة المعرفة فى (الفرائض) وكان من شيوخ الجامع الأزهر المعدودين لكنه سمع بالحركة العلمية التى أحدثها عز الدين بن جماعة بمكة فحج وجاور وسمع ابن جماعة وظل بمكة(٤) حتى توفى سنة ٨١٦ هـ . وكانت هذه الحياة العلمية التى يحياها المجاورون بمكة تجتذب بعض المجاورين من غير العلماء من هؤلاء التاجر القاهرى ابراهيم بن عبد الوهاب (٧٩٣ ـ ٨٦٧ هـ) فقد جاور بمكة مع أبيه ثم اجتذبته الحياة العلمية فدرس على علماء المجاورين بالحرم ثم عاد الى القاهرة فحدث بها(٥) .

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٣٢ .

(٢) ابن الفرات : تاريخه جـ ٩ ق ٢ ص ٤١٦ .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٧ ص ٥ .

(٤) ابن حجر : أنباء الغمر ، حوادث ٨١٦ هـ .

(٥) السخاوى : الضوء اللامع جـ ١ ص ٧٣ .

ومن مجاورى هذا القرن شيخ آخر من شيوخ ابن حجر هو محمد بن معالى الحرانى الذى ذكره (ابن حجر) فى المعجم المفهرس وذكر أنه سمع منه بالمدينة المنورة . وقد جاور ابن معالى بمكة عشر سنين(١) · واذا كان بعض كبار الشيوخ قد استطاعوا أثناء مجاورتهم أن يكونوا مدرسة فكرية تنشر آراءهم وتجمع الناس حولهم ، كما فعل البدر بن جماعة ، وقد سبق ، وكما فعل السخاوى فيما يأتى : فان زمالة علمية كانت تنشأ وتربط بين العلماء المجاورين ، وكمثل على ذلك تلك الصداقة العميقة التى نشأت بين محمد بن أحمد الأسيوطى المولود سنة ٨٨٣ هـ ، والذى درس القرآن والمذهب الشافعى ثم جاور بمكة ، وبين ابن فهد مؤرخ مكة الكبير وصاحب كتاب (اتحاف الورى) وكان الشيخان يتبادلان الكتب والهدايا وكثيرا من مقتضيات الصداقة(٢) · ومن المجاورين من كان يأتى الى مكة فى عنفوان الشباب يلتمس فيها الهدوء الروحى فترة تكون ابتداء وتحفزا للانطلاق كمحمد بن محمد بن محمد السكندرى الذى درس على (ابن نباته) وجاور بمكة بعض الوقت ثم غادرها الى (زبيد) فقربه ملك اليمن اليه · لكنه ما لبث أن ترك اليمن وطاف فى العالم الاسلامى ثم انتهى به المطاف فى القاهرة فعاد الى وطنه الأصلى(٣) ·

وقد تدفق على مكة فى النصف الثانى من القرن التاسع عدد كبير من القاهريين للمجاورة فيها ، بينهم على بن أحمد بن اسماعيل القلقشندى وكان على غير عادة المجاورين يعرف (الحساب والجبر والمقابلة) (٤) · وموسى بن عبد الله الظاهرى القاهرى وكان قد زار مكة أولا موظفا للسلطان بمكتب الأيتام بها فى خمسينات القرن التاسع لكنه انقطع بها وترك وظيفته بعد مدة(٥) · ومحمد بن أحمد الأخميمى وكان عالما بالقراءات ترك القاهرة وجاور بمكة فأخذ عنه الطلاب القراءات(٦) · ومن مجاورى القرن التاسع الغزاويين ، خطاب بن عمر بن مهنا الغزاوى ، جاور بمكة وأقرأ بها وتصدى بدمشق للأقرباء فيما بعد حتى توفى فى رمضان سنة ٨٧٨ هـ (٧) ·

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٥١ ·

(٢) نفس المصدر ج ٧ ص ١٣ ·

(٣) نفس المصدر ج ١٠ ص ١٣ ·

(٤) نفس المصدر ج ٥ ص ١٦١ ·

(٥) نفس المصدر ج ١٠ ص ١٨٣ ·

(٦) نفس المصدر ج ٧ ص ٥٠ ·

(٧) نفس المصدر ج ٣ ص ١٨١ ·

ولا يعنى ذكر هؤلاء فقط أنهم هم المجاورون وحدهم فان المؤرخين لايذكرون من المجاورين الا العلماء الذين اشتهروا بخصلة أو حادثة معينة • وقد ذكر ابن بطوطة الذى زار مكة فى القرن الثامن عددا كبيرا من المجاورين لم يرد لهم ذكر فى أى مرجع آخر ذلك لأنه شاهدهم عن كثب ولم يكونوا مشهورين بحيث لم يهتم بذكرهم المؤرخون • ولولا كثرة المجاورين لما احتاج الأمر الى شيخ لهم ينظم أمورهم • ولما كان امتداح المؤرخين المسرف للأمير بكتمر الجوكندار والأمير سلار لأنهما استطاعا احكام كل المجاورين عندما حجا الى مكة كأميرى للحج فى أوائل القرن الثامن الهجرى •

أما العلماء الذين زاروا مكة أو جاوروا بها مدة قصيرة ، أو درسوا على علمائها دون أن يجاوروا فهم لا يحصون كثرة ويكفى فى هذا المجال ايراد بعض الأسماء والوقائع التى أثرت فى الحياة الاجتماعية بمكة ومصر فى ذلك العهد ، فقد شهد القرن السابع الهجرى عالما مكيا عرف بالحنكة السياسية هو أحمد بن محمد بن سليمان الشهير بابن غانم وكان قد ولد بمكة ثم سافر الى البحرين واتصل بالظاهر بيبرس الذى وظفه فى ديوان الانشاء ثم ترك مصر الى اليمن ، فاشتغل بين يدى الملك المؤيد ثم عاد الى وطنه ليفيد مواطنيه(١) •

وشهد موسم الحج سنة ٦٦٧ هـ مطاردة الظاهر بيبرس لعبد الحق بن ابراهيم بن سبعين وكان ابن سبعين قد ولد سنة ٦١٣هـ بالمغرب وعرف بالعبقرية والاشتغال بالكيمياء والسحر والفلسفة منذ فجر شبابه وأخرجه أهل المغرب لكلمة نسبت اليه تطعن فى الرسول صلى الله عليه وسلم فمضى الى مكة على رأس جماعة من أتباعه سموا أنفسهم (السبعينية) نسبة اليه وله رسائل الى فردريك الثانى يظهر فيها شكه وتفلسفه وقوله بوحدة الوجود ، فالله (حقيقة الموجودات) وبمكة استطاع أن يظفر برضاء أبى نمى لأنه شفاه من مرض مستعص وكذا فعل عند الرسولى اليمنى . بيد أن عامة الشعب والعلماء المجاورين بمكة كانوا ينظرون اليه بتوجس وحذر لأنهم لا يفهمون ما يقول • نقل الذهبى عن ابن دقيق العيد قال (جلست مع ابن سبعين من ضحوة الى قريب الظهر وهو يسرد كلاما نعقل مفرداته ولا نعقل مركباته) (٢) • وتزعم قطب الدين القسطلانى المصرى المجاور بمكة جهة مضادة لابن سبعين وكان القسطلانى صوفيا سنيا معتدلا من أتباع تصوف الغزالى وشهاب الدين السهروردى ، صاحب (عوارف المعارف) فألف

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٢٨٣ •

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٩٧ •

كتابا ينكر فيه على اتباع الحلول ووحدة الوجود من مدعى التصوف ، بدأه بذكر الحلاج وختمه بذكر العفيف التلمسانى ولما حج بيبرس وشى العلماء بمكة بابن سبعين فتتبعه الظاهر بيبرس فاختفى ، ثم اشتد عليه الحال تحت تأثير مطاردة السلطان من ناحية ، وسوداويته النفسية من ناحية أخرى ثم ايمانه بأنه بمجرد تخلصه من جسده الفانى سيؤول الى الحقيقة الآلهية الخالصة فانتحر بقطع عرق من عروقه سنة ٦٦٨ هـ . أما القسطلانى فظل حيا حتى توفى سنة ٦٨٦ هـ(١) .

ومن علماء مكة فى هذا القرن شيخ الحرم محب الدين الطبرى من زعماء الأسرة الطبرية المتوفى سنة ٦٩٤ هـ ، صنف كتابا كبيرا فى الأحكام وروى عنه الدمياطى وابن العطار وابن الخباز والبرزالى وألف بعض الكتب الأخرى وكان شيخا للحرم ثم ولى ابنه جمال الدين القضاء بمكة(٢) ومن علماء مكة أيضا (أبو الخير محمد بن محمد الفاسى) الدى ولد فى أواخر القرن السابع فأخذ عن علماء مكة ثم سمع بدمشق والاسكندرية ثم عاد الى وطنه يدرس ويفتى حتى توفى فيها(٣) .

وأراد ابن سيد الناس (٦٤٥ — ٧٠٥ هـ) أن يلم من كل علم بطرف فدرس بتونس والاسكندرية والقاهرة(٤) . وممن يذكر بين الدارسين بمكة فى هذا القرن أبو الحجاج يوسف بن التركى المزى ، ولد سنة ٦٥٤ هـ بظاهر حلب وسمع بالشام ومصر وحلب والاسكندرية ومكة(٥) وكان من أكبر رجال الحديث بالشام فى عصره .

أما القرن الثامن فقد حفل بعلماء كبار من جميع بقاع العالم الاسلامى ومن مكة أيضا ، منهم قاضى مكة نجم الدين الطبرى (٦٥٨ — ٧٣٠ هـ) درس على جده محب الدين وعرف بحسن الفتوى ومات بمكة ودفن بالمعلاة(٦) ، وافتخار

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٧٣ .
المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٣ .

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٢٥ .
ابن حجر : أنباء الغمر ، حوادث ٦٩٤ هـ .

(٣) ابن الفرات : تاريخه جـ ٨ ص ٥٩ — ٦١ .

(٤) نفس المصدر جـ ٤ ص ٦٢ .

(٥) نفس المصدر جـ ٤ ص ٤٥٧ .

(٦) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٦ ص ٩٤ .

الدين جابر بن محمد الخوارزمى الحنفى (٦٦٧ ــ ٧٤١ هـ) قدم القاهرة وباشر الافتاء والتدريس بها ثم تركها الى القدس ومكة فدرس فيها(١) ٠

ومن علماء مكة بالقرن الثامن قاضى الاسكندرية كما الدين محمد بن فخر الدين وكان قد درس بمكة والمدينة وتوفى سنة ٧٧٣ هـ (٢) ٠ هذا وكان ابن حجر قد حرص على التنويه بالقاضى جمال الدين النويرى الشافعى (٧٢٢ ــ ٧٨٦ هـ) وكان وقد ولد (بنويرة) من ضواحى القاهرة ٠ وقد سمع على المزى وابن النقيب وتقى الدين السبكى والتاج المراكشى ثم رحل الى مكة فعمل خطيبا ثم قاضيا وظل فى القضاء نيفا وعشرين سنة(٣) ومن علماء مكة أيضا عبد الله بن ظهيرة ومحب الدين الطبرى وعلى بن أحمد النويرى ومحب الدين النويرى(٤) ٠

أما القرن التاسع فقد بلغ فيه العلماء والدارسون بمكة والمدرسون فيها عددا عظيما تجاوز الألف كما تميز هذا القرن بالمدرسة الفكرية التى تزعمها السخاوى بمكة والمدينة فى مجاورته وزيارته القصيرة للمدينتين ٠

ومن العلماء الذين زاروا مكة أحمد بن أبى القاسم بن مطير ولد سنة ٨٢٠ هـ واشتغل فى الفقه وقدم مكة عدة مرات وأخذ عن نحوييها العربية(٥) ٠ أما الحافظ شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوى قاهرى المولد شافعى المذهب (٨٣١ ــ ٩٠٢ هـ) حفظ القرآن وهو صغير وصلى به فى شهر رمضان وحفظ كتبا لا تحصى ٠

وأذن له غير واحد بالافتاء والتدريس والاملاء وسمع الكثير على شيخه ابن حجر العسقلانى لازمه أشد الملازمة (وحمل عنه ما لم يشاركه فيه غيره وأخذ عنه أكثر تصانيفه)(٦) وحج بعد وفاة شيخه ابن حجر مع والديه ولقى جماعة من العلماء وأخذ عنهم كالبرهان الزلزلى والتقى بابن فهد وأبى السعادات بن ظهيرة

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٢٩ ٠

(٢) نفس المصدر جـ ٦ ص ٢٠٥ ٠

(٣) ابن حجر : أنباء الغمر جـ ١ حوادث سنة ٧٨٨ هـ ٠

(٤) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٦ ص ٣٣٣ ، ٣٤١ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ٠

(٥) المصدر السابق جـ ٦ ص ٣٦١ ٠

(٦) نفس المصدر جـ ٨ ص ١٥ ٠

وابن سكر البكرى وابن الزين وابن الضياء الصاغانى ومحمد بن محمد المغربى(١) · ثم رحل الى المدينة فجاور بها بعض الوقت وزار مكة والمدينة مرارا بعد ذلك وأفاد كثيرين حتى تكونت مدرسة علمية من تلامذته وتوفى سنة ٩٠٢ هـ تاركا المئات من التلاميذ والمؤلفات من مؤلفاته : الضوء اللامع ، والاعلام بالتوبيخ ، وفتح المغيث ، والتحفة اللطيفة ، والجواهر والدرر فى ترجمة ابن حجر (٢) · من تلامذته بمكة ابن أبى اليمن النويرى المولود سنة ٨١٥(٣) وعمر بن محمد بن على النويرى المولود بمكة سنة ٨٥٠ هـ قدم القاهرة وأخذ عن شيوخها ولازم السخاوى بمكة فى مجاورته الثانية والثالثة وأخذ عنه ايجازة(٤) وعلى بن سليمان الهورينى اشتغل بالعلم والطب وأخذ عن السخاوى بمكة(٥) · وعلى بن أحمد المكسى المولود سنة ٧٤٦ هـ ، أخذ عن السخاوى أخذا حسنا(٦) وفضل بن يحيى المكى المولود سنة ٨٥٣ هـ وسمع من السخاوى بالقاهرة ومكة(٧) ومحمد بن أحمد الحجندى وابن زهر الانصارى وآدم بن سعيد الجبرتى وأحمد بن عطاالله السكندرى وابراهيم ابن محمد اليافعى وعبد الله بن يوسف الحسناوى وأحمد بن محمد الأشمونى(٨) .

ومن علماء مكة فى القرن التاسع محمد بن أحمد بن ابراهيم الطبرى ، المكنى أبو اليمن امام المقام سمع من عيسى الحجى والزين الطبرى وغيرهم ممن زاروا مكة وأخذ عن العالمة المعروفة زينب بنت كمال وولى امامة المقام وتوفى سنة

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع جـ ١ ص ٧ ، جـ ٧ ص ٦٢ ، ٨٤ ، جـ ٩ ص ١٩ ·
ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٧ ص ١١ ·

(٢) العيدروسى : النور السافر ص ١٦ ـ ٢١ ·

السخاوى : الضوء اللامع جـ ٨ ص ٧
ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٨ ص ١٥ ـ ١٦ ·

(٣) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٦ ص ١٢ ·

(٤) المصدر السابق جـ ٦ ص ١٢٥ ·

(٥) نفس المصدر جـ ٥ ص ٢٢٨ ·

(٦) نفس المصدر جـ ٥ ص ١٨٣ ·

(٧) نفس المصدر جـ ٦ ص ١٧٤ ·

(٨) نفس المصدر جـ ١ ص ٧ ، ص ١٢٣ ، جـ ٢ ص ٤ ، ص ١١٩ ، جـ ٥ ص ٧٣ ، جـ ٧ ص ٤٢ ·

٨٠٩ هـ(١) وظهيرة بن حسين بن ظهيرة سمع على عز الدين بن جماعة وأجاز له القلانسى ومات بمكة سنة ٨١٩ هـ(٢) ٠

وفى سنة (٨٤٤ هـ) حج المؤرخ الكبير تقى الدين أحمد بن على المقريزى (٧٦٠ ـ ٨٤٥) وهو حنفى المذهب ولد بحارة المقارزة ببعلبك فى الشام ، ونشأ بالقاهرة ودرس على الامام العراقى والآمدى والبلقينى وسمع بمكة من ابن سكر تلميذ السخاوى وأجازه الأسنوى والأذرعى (وكان علما ٠٠٠ ضابطا مؤرخا محدثا)(٣) ولى الحسبة بالقاهرة غير مرة وترك بمكة وينبع والمدينة بعض الطلاب وكثيرا من الكتب أشهرها السلوك والخطط واتعاظ الحنفاء وعقد جواهر الاسقاط وعددا من الرسائل الصغيرة فى النقود والكوارث والنمل ٠ وتميز النصف الثانى من القرن التاسع وأوائل القرن بكثرة المقيدين بمكة وازدهار المدارس بيد أنه لم يبرز علماء كبار كما برز فى الأجيال السابقة ٠ وربما كان أكبر من زار مكة وأقام فيها فى النصف الثانى من القرن التاسع وأوائل القرن العاشر هو محمد بن عبد الرحمن الأسقع اليمنى الشافعى حفظ كثيرا فى الحديث والأصول والنحو وأخذ عن كثير من الأعلام ، منهم ابن ظهيرة والسخاوى بمكة ومكث بجوار البيت مدة يطلب العلم واشتهر بالورع والتعفف عن الفضول وحسن افادة الطلاب بالمدينة المقدسة وتوفى سنة ٩١٧ هـ(٤) ٠

مجاورى المدينة وعلمائها :

تميزت الحياة العلمية بالمدينة بالهدوء تبعا للحياتين السياسية والاقتصادية فلم يكن فيها صخب مكة وبريقها بل اقتصرت على بعض المجاورين الذين أقاموا طويلا وما يمكن أن يقال عن هؤلاء المجاورين فقد سبق قوله عن مجاورى مكة ، وكذا القضاة الذين تولوا قضاءها ، ثم بعض العلماء الذين زاروها بعد زيارة مكة فأفاد منهم أهلها والطلاب فيها ٠

---

(١) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ حوادث سنة ٨٠٩ هـ ٠
ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٧ ص ١٣٥ ٠

(٢) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ حوادث سنة ٨٢٩ هـ ٠

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٧ ص ٢٥٤ ٠

(٤) المصدر السابق جـ ٨ ص ٨٥ ٠

ومن هؤلاء المجـاورين عفيف الدين عبد السلام بن محمد المصرى الحنبلى (٦٢٥ ـ ٦٩٦ هـ)جاور بالمدينة خمسين سنة وبها درس ودرس(١) ، والقاضى سراج الدين عمر بن أحمد بن خضر بن ظافر بن طراد المصرى الشافعى ، الذى خطب بالمدينة المنورة وكان أول قاض سنى بها على مدى قرابة الثلاثين عاما حتى توفى سنة ٧٢٦ هـ (٢) ٠

وجمال الدين محمد بن محمد السالى (٧٣٩ ـ ٧٧٩ هـ) وتميز بنزعة صوفية ، وحببت اليه مجاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفى(٣) ٠ ومن مميزات المدينة وجود قبر الرسول صلى‌الله عليه‌وسلم الذى كان يلهم‌الصوفية كثيرا من الاشتياق الروحى فكانوا يحرصون على زيارة المدينة والمجاورة فيهـا ـ كما فعل السالى ـ الذى جاور قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

وحيث أن أمير المدينة وسكانها الأصليون كانوا من الشيعة الامامية فى أيام المماليك ، فقد قصدها علماء الشيعة أو السنية المحبين لآل البيت كضياء الدين عبد الله بن سعد القزوينى وكان شافعيا فى الفروع حنفيا فى الأصول أى أشعرى العقيدة حنفيا فى مذهبه الفقهى ، وكان بالاضافة الى ذلك محبا لآل البيت حتى أنه غير اسمه من عبيد الله الى ضياء الدين عبيد الله حتى لا يشتبه اسمه باسم عبيد الله ابن زياد قاتل الحسين وقضى بالمدينة زمنا عرف فيه بكثرة الاحسان الى المدنيين وحبه لهم ثم رحل الى القاهرة فدرس بمدارسها(٤) وربما دفعت اضطرابات التجار والفتن والقلاقل والكوارث بمكة العلماء للتحول الى المدينة فى النصف الثانى من القرن الثامن فتكاثر فيها العلماء وكان منهم عفيف الدين المطرى المتوفى سـنة (٧٨٩ هـ)(٥) ، ومحمد بن أحمد الجعدى ، قاضى المدينة(٦) ، ومحمد بن سليمان الحكرى ، وكان نحويا فقيها ، ولى قضاء المدينة أيضا(٧) ٠ وخلفه رجل من عائلته

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٠٥ ٠
ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٣٥ ٠

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٢٧٨ ٠

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٦ ص ٢٦٣ ٠

(٤) المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ ٠
ابن حجر : أنباء الغمر جـ ١ ص ١٨٣ ٠

(٥) المقريزى : السلوك جـ ٣ ورقة ٤٨٣ ٠

(٦) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٤١١ ٠

(٧) السيوطى : بغية الوعاة ص ٤٧ ٠

ابراهيم بن عبد الله الحكرى النحوى(١) ، ومحمد بن أحمد بن عبد الرحمن القرشى وكان عالما كبيرا فى الحديث والفقه والتفسير وخلف الحكرى فى القضاء بالمدينة .

وترك السخاوى فى المدينة عددا من التلاميذ أشهرهم سلامة الحسينى المولود بالمدينة(٢) وحسين بن على المكى (ممن سمع منى بالمدينة) ومات بالقاهرة سنة ٨٩٧ هـ(٣) . وابراهيم بن أحمد بن محمد المدنى الشافعى ، درس على السخاوى بالقاهرة والمدينة واهتم بالحديث على الخصوص وصار رئيسا بالمدينة(٤)، وابراهيم بن عبد الله المدنى(٥) وأبو بكر بن أحمد الدمشقى (سمع منى بالمدينة(٦) وأحمد بن على الفاكهى سمع أيضا من السخاوى بالمدينة(٧) .

ومن الذين استوطنوا المدينة على بن عبد الله بن أحمد السمهودى المتوفى سنة (٩١١ هـ) ومؤلف (وفاء الوفاء) و (خلاصة الوفاء) فى تاريخ المدينة . سمع بمكة وانتفع به جماعة من الطلبة بالحرمين ثم استوطن المدينة وابتنى بها دارا وأشرف على احدى مدارسها ودرس فيها وكان يصرف له من أوقاف الأشرف قايتباى على المدارس والأربطة(٨) وعلى بن محمد بن موسى الذى ولد بالمدينة سنة (٧٥٤ هـ) وحدث عنه الأئمة بمصر ومكة(٩) . وعمر بن محمد بن أحمد السراج الذى ولد بالمدينة سنة (٧٩٣ هـ) ونشأ بها ثم طاف الشام والعراق ومصر دارسا وعاد الى المدينة ليفيد أبناءها(١٠) وأبو بكر بن الحسن المراغى المولود سنة (٧٢٧ هـ) درس بالقاهرة ثم تحول الى المدينة فاستوطنها (بل سمع فيها

---

(١) السيوطى : بغية الوعاة ص ١٨١ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ٢٩٨ .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ج ٥ ص ١٩ .

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ١٥٣ .

(٥) نفس المصدر ج ١ ص ٢٥ .

(٦) نفس المصدر ج ١ ص ٧٢ .

(٧) نفس المصدر ج ١١ ص ٢٠ .

(٨) نفس المصدر ج ٦ ص ٢٤ .

(٩) نفس المصدر ج ٦ ص ١١٧ .

(١٠) نفس المصدر ج ٩ ص ٩٣ .

وانتفع به أهلها والوافدون اليها وحدث فيها)(١) ومحمد بن محمد بن سالم (سمع بالمدينة) وأقام فيها مدة(٢) وأحمد بن محمد الشهاب أبو العباس ويعرف بابن الخطيب كان مؤذنا بالحرم النبوى سمع بالمدينة على أبى السعادات بن ظهيرة وباشر الحسبة ومات سنة (٨٥٤ هـ)(٣) وابن القبطان المولود سنة (٨١٩ هـ) والذى درس على أبى السعادات ابان اقامته بالمدينة(٤) · وتبرز فى القرن التاسع شخصية غريبة بالمدينة فيذكر ابن العماد سطورا عن أحمد بن عبد الرحمن المطرى المدنى ، تلميذ عز الدين بن جماعة أنه (كان ينسب الى معاناة الكيمياء) وكان الناس ينظرون اليه بحذر(٥) · ومن متأخرى المجاورين بالمدينة على بن أحمد ابن عبد الله الطنقدائى ، وكان متميزا بالحساب والفرائض استقر فى مشيخة رباط ابن الزمن ، بالمدينة ثم جاور فيها طويلا(٦) ·

ويمكننا بناء على ما سبق أن نقرر أنه رغم الأحوال السياسية المضطربة فى كثير من الأحيان بالحجاز وبمكة على الخصوص فقد كان هناك حياة علمية مزدهرة التقت فيها جهود المكيين الأصليين والمجاورين بجهود الآتين للحج والزيارة فكونت نهضة علمية ساعد عليها ما قام به السلاطين من انشاء المدارس والمقامات ومن ايقاف للأوقاف الضخمة على الكتب والمدارس والمقامات والأربطة والزوايا · وقد امتدت هذه الحركة العلمية الى ينبع والطائف وجدة وان لم تتحول هذه المدن الى حاضرات علمية كمكة والمدينة فيذكر ابن حجر وابن العماد عددا من العلماء بالمدن الثلاث فى القرنين الثامن والتاسع(٧) وشارك فى هذه الحركة العلمية بعض الأمراء المكيين على الخصوص ، وكان هؤلاء حريصين على جمع الحديث والآثار التى تثبت فضل أسرتهم العريقة ، وسمع بالقاهرة أحاديث من الشريف حسن بن عجلان والشريف بركات لم تسمع ، وصحيح أن أكثر العلماء لم يكونوا مكيين لكن مكة لم تحس بهذا النقص · بسبب مواسم الحج التى كانت تجمع علماء من مختلف أنحاء

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٩ ص ٩٣ ·

(٢) نفس المصدر جـ ٩ ص ٩٣ ·

(٣) نفس المصدر جـ ٢ ص ٢٠١ ·

(٤) نفس المصدر جـ ٣ ص ٥٧ ·

(٥) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٧ ص ١٥٤ ·

(٦) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٥ ص ١٧٣ ·

(٧) ابن حجر : أنباء الغمر جـ ٢ حوادث سنة ٨١٥ هـ ، حوادث سنة ٧٨٦ هـ ·
ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٧ ص ١٢٥ ·
حمد الجاسر : بلاد ينبع ص ١١٨ ·

العالم الاسلاملى ، فتتكامل ثقـافة الآخرين عنهم بمكة ، ويبرعون فى المعقول والمنقول ، ويلاحظ أن الروح الصوفية قويت فى القرن التاسع بمكة والمدينة كما قويت فى بقية أجزاء العالم الاسلامى ويعود ذلك الى أسباب ثقافية واجتماعية وسياسية وحضارية كثيرة وبوسع الدارس لأحوال الحجاز أيام المماليك أن يقرر بغير تردد أن الحجاز شهدت نهضة عظيمة لم يعرفها من قبل فى الأحوال الاقتصادية والعمرانية والثقافية وكانت سيطرة مصر عليه ، سببا من أسبابها ، أما موسم الحج فهو سببها الرئيسى ٠

ولا يسع الباحث الا أن يقارن بين النهضة العظيمة فى شتى نواحى الحياة ، التى عرضنا لهـا فى الصفحات السـابقة وعن ما آلت اليه أحوال الحجـاز أيام العثمانيين بسبب تحول طريق التجارة ، والتحول الحضارى العام ، الذى سار بالعالم الاسلامى كله ــ ومنه الحجاز ــ سيرا أفضى به الى الكثير من أسباب الانحطاط والضعف ٠ وعمل على زعزعة كل ما خلفته العصور السابقة من أسباب التقدم والازدهار ولم يجد فى شىء ذلك البريق الذى أضفته على الأماكن المقدسة صدقات السلطان الأعظم وأبهة محمله والقوة العسكرية الهائلة التى تميزت بها الدولة فى أوائل عهدها ذلك أنه لم يكن وراء ذلك كله الروح الهادى الموجه روح الاسلام وهدى النبوة الذى يدفع وراء العمل الجاد فكرا جادا وروحا وثابة وما أصدق قول الشاعر :

أما الخيام فانها كخيامها وأرى نساء الحى غير نسائها

الخاتمـــة

وصفوة القول أنه ـ بعد اســتعراضنا للعلاقات بين مصر والحجــاز زمن سلاطين المماليك ـ يمكن القول بأن تلك العلاقات فى الجانب السياسى كان يحكمها فى أول أمرها ضابطان المال واللين حينا والقوة حينا آخر · وبذلك استطاع المماليك أن يثبتوا أقدامهم فى الحرمين ، وان ظلت سيطرتهم فى أول الأمر اسمية لا تتعدى الدعاء للســلطان على منابر الحرمين وسك السكة باســمه حتى ذهب السلطان بيبرس الى الحجاز سنة (٦٦٧ هـ) ليؤدى فريضة الحج ، وعندئذ حرص على تثبيت كلمة سلطنة المماليك فى الحجاز · وكان أبو نمى محور هذه العلاقات فترة طويلة ، ثم دخل أولاده وأحفاده فى سلسلة طويلة من المنازعات والخصومات ، وان كان سلاطين المماليك قد حاولوا دائما ايجاد حلول لتلك الأحداث أن يسلموا السلطة فى الحجاز لمن يثقون فيهم على أن الوضع لم يستمر على هذا المنوال طويلا ، ففى دولة المماليك الثانية وجدت بالحجاز شخصيات قوية كحسن بن عجلان ، وان كانت قوتهم لا تلبث أن تذوب عندما يبعث السلطان المملوكى تجريدة تطيح بمتولى السلطة وتفرض على الأمير الجديد شروط السلطان من أموال تحمل الى مصر وغيرها · ولم يخل الحجاز من ثورات وفتن داخلية استطاع المماليك القضاء عليهــا بالقوة · على أن المماليك لم يســتطيعوا أن يغــيروا من أوضاع الحجــاز السياسية ، فظل الأشراف هم المسيطرون طوال عهد المماليك وما بعده ·

هذا عن الجانب الســياسى فى العــلاقات بين مصر والحجاز زمن ســلاطين المماليك · فاذا انتقلنا الى العلاقات الدينية بين الطرفين فان أول ما نلاحظه ما قام به المماليك من تأمينهم لطرق الحج والمحافظة على حجاج بيت الله الحرام من المعتدين وقطاع الطرق من الأعراب ، وليس هذا هو كل ما عملوه فى طريق الحج فحسب بل أصلحوه وحفروا الآبار فيه لكى يأمن الحجاج العطش فى أثنائه · وكانت قافلة الحجاج ـ ويصحبها كثير من الأمراء والقواد والتابعين لها ـ دليل على قوة السلطنة المملوكية فى ذلك الوقت ··· وكانت هذه القافلة تحمل معها كسوة الكعبة التى صنعت فى مصر والتى حرص السلاطين على ارسالها كل عام وأوقفوا الأوقاف عليها حتى لا تنقطع كرمز دينى يمثل سيطرة المماليك على الحرمين ·

وحينما حاول (شاه رخ) أن يكسو الكعبة على أيام السلطان برسباى ، وطلب السماح له بذلك ، رفض السلطان هذا الطلب ومن ورائه الشعب المصرى والقضاة ، لأن هذا يمثل أقوى الروابط الاسلامية فى نظرهم ، ولا يمكنهم التخلى عنه ، وان كانت السلطنة ـ فيما بعد ـ قبلت هذا الطلب كحل للنزاع ، الا أن هذا لا يعنى أن الشعب قد وافق على أن يرسل (شاه رخ) الكسوة للكعبة بدليل أنها وضعت تحت كسوة السلطان حتى لا يثيروا الشعب ، وان كانت كسوة الكعبة تعنى مغزى سياسيا آخر ٠

هذا وقد حرص كثير من سلاطين المماليك أن يؤدوا فريضة الحج والتردد على الأراضى المقدسة بالحجاز لكى يظهروا مدى قوتهم للعالم الاسلامى ويكونوا من بين حجاج البيت الحرام ويظهروا بمظهر الورع والتقوى أمامهم دون أية أبهة أو عظمة كسائر الناس ٠

كذلك ثبت السلاطين المماليك سيطرتهم الدينية بما قاموا به من تعمير وانشاء فى الحرمين وصرفوا الأموال الطائلة فيهما ابتغاء مرضاة الله وخوفا من القوى الاسلامية المحيطة بهم من التدخل فى شئون الحرمين والتعمير فيهما ، هذا الى أن سلاطين المماليك كان بيدهم أن يولوا ويعزلوا من شاءوا من القضاة دون أن يمسهم ضرر ٠

ولم تقتصر العلاقات على الناحية السياسية والدينية بل تعدتها الى الناحية الاقتصادية ،ذلك أن سلاطين المماليك عملوا على تأمين طرق التجارة التى تدر عليهم الأرباح الطائلة ، فقد أصدر السلاطين المراسيم فى الغاء المكوس فى الحرمين، كما أصدروا مراسيم أخرى تحدد مكوس التجارة الواردة الى جدة وأخرى تعمل على منع التجار من السفر الا عن طريق مصر لأخذ المكوس منهم وغير ذلك من المراسيم التى تتصل بالحياة الاقتصادية ٠ كما أن الضائقات المالية والأزمات الاقتصادية التى تلم بالحرمين كان السلاطين والأمراء يهبون لنجدة الحرمين واغداق الصدقات عليهم وارسال الحبوب والمؤن اليهم ٠ واذا كانوا قد أمسكوا زمام الأمور فى جدة وجعلوا لها (شاد) يحصل المكوس للسلطان وضيقوا على أمراء الحرمين فى هذا الشأن الا أنهم عادوا وأعطوهم نصف ذلك المتحصل ٠

وكانت الحياة الاجتماعية فى الحرمين على أيام المماليك حياة هادئة رغيدة ، الا بعض سنوات أصابها فيها القحط والوباء ٠ ولا يمكن أن نحمل المماليك مسئولية هذا ، فانهم أجروا من السبل والعيون الكثير حفاظا على نظافة مدن الحجاز وأرسلوا الغلال فى أوقات الأزمات لكى يخففوا وطأة ذلك على سكان الحرمين ويعملوا على سعادتهم وراحتهم ٠

ولم يقف دور السلاطين المماليك عند حد حماية الحرمين ، وانما كانت لهم اليد الطولى فى الناحية الثقافية ، فأقاموا المدارس وبذلوا الأموال للمدرسين والدارسين كى يتعلموا ويواصلوا نشاطهم فى فنون المعرفة • وكثيرا ما أرسلوا الكتب من مصر لكى تدرس فى الحرمين ويستفاد منها ، وربطوا لهذه المدارس الأوقاف حتى لا تذوى وتذبل وتنهار ، وبالجملة يمكن أن يقال أن عصر المماليك كان عصر ازدهار بالنسبة للحرمين وسكانهما ، فقد كفاهم شرور الغزو وتسلط الأعداء •

وانصافا لسلاطين المماليك ، فاننا لا يمكن أن نضع اللائمة عليهم فى كل ما حدث بالحجاز من أحداث وفتن داخلية ، فان الأمراء أنفسهم ومنازعاتهم التى قلما تنقطع كانت السبب الرئيسى فى كل هذه الفتن والثورات ، وكثيرا ما تدخل المماليك لمصلحة سكان الحرمين فى أن يخمدوا مثل تلك حتى لا يزداد الداء ويتعذر الدواء •

لكن دولة المماليك بدت تخور وتضعف على أواخر أيامها ، فلم تستطع ايقاف التحول التجارى الذى طرأ على العالم عند اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، وبدأت العلاقات بين مصر والحجاز تدخل دورا جديدا فى عهد السلطان الغورى لأنه لم يستطع ايقاف ذلك التحول ، مما أدى الى سوء هذه العلاقات • وهذا معناه — بالنسبة للحجاز — حرمان جدة من مصدر مالى هام(١) • حقيقة أن حسين الكردى حاول أن يثبت سلطة المماليك فى الحجاز وأصاب بعضا من النجاح ، لكن الدولة المملوكية بدأت فى دور الضعف ، وتلى ذلك سقوطها فى الشام فى موقعة (مرج دابق) سنة (٩٢٢ هـ)(٢) • ثم القضاء على هذه الدولة نهائيا فى موقعة (الريدانية) والقبض بعد ذلك على طومان باى آخر سلاطينها وشنقه على باب زويلة سنة (٩٢٣ هـ)(٣) • وهكذا توارت دولة المماليك وارتفع الستار عن دولة فتية هى الدولة العثمانية • وكان لا بد للحجاز من أن ينضوى تحت لواء هذه الدولة لتوفر له الحماية والرعاية ، وحتى يستطيع الاستفادة من الأوقاف المربوطة على الحرمين بمصر والشام(٤) •

---

(١) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٢٦ •

(٢) سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ص ٥٣٤ — ٥٣٥ •

(٣) نفس المصدر ص ٥٣٦ — ٥٣٧ •

(٤) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٢٦ •

فما كان من الشريف بركات - حين علم بالأحداث التى أدت الى سقوط دولة المماليك ، وقيام دولة بنى عثمان - حتى بعث ابنه أبا نمى يحمل الى السلطان سليم العثمانى تهانى والده ومفاتيح الحرمين الشريفين ، وكان هذا اقرار من الشريف بالسيادة العثمانية ، وكان أن كرم السلطان سليم العثمانى الشريف أبا نمى وأعطاه تفويضا لوالده بالامرة ، ثم عاد الشريف أبو نمى الى مكة واحتفل بقدومه . وهكذا دخل الحجاز سلميا فى نطاق السيادة العثمانية ولم يتغير فى نظام الأشراف شىء بل بقى كما كان من قبل ، وأنشئت صنجقية عثمانية فى جدة يتولاها أحد الحكام أو الأمراء العثمانيين(١) .

وبذلك دخل الحجاز دورا جديدا من أدوار تاريخه يدور حول العلاقات بينه وبين الدولة العثمانية الفتية .

هذه هى الحقائق التى حاولت أن أكشف النقاب عنها فى هذا البحث ... والتى تتبعتها بالتفصيل فى ضوء ما توصلت اليه من مصادر مخطوطة ومطبوعة ... وأرجو أن أكون قد وفقت فى الاتيان بجديد حول هذا الموضوع ؟ ...

---

(١) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٢٧ .

ملحق رقم (١)

صبح الأعشى : ج ٧ ص ١٠٩ ، ١١٠ :

كتب القاضى الفاضل عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الى صاحب مكة المشرفة جوابا عن كتاب ورد منه عليه فى معنى وصول غلال بعث بها الى مكة ما صورته :

وصل كتابك أيها الشريف معربا عن المشايعة الشائعة أنباؤها والمخالصة الخالصة أسرارها الوافرة انصباؤها ، وحسان الخلال التى اقتسم طرفى الحمد اعادتها وابداؤها ومكرمات الآل التى تساوى فى اقتناء المجد أبناؤها وآباؤها وفضائل الأفضال ، التى لا تخف على غير أهل العباء صلوات الله عليهم أعباؤها · ونشر كتابك من محاسنك ما انطوى ووردنا منه فهلا أروى واردة واتوى ، ووقفنا منه على اثر فضل اشتمل على عين الكرم واحتوى ووفقنا واياه من الحمد مالا نخلفه نحن ولا هو مكان سوى ، فاقتضانا مزيدا فى رفع قدره واختصاصه من الانعام بكل غريب الموقع ندره · وأصرنا كتابه الى مستقر كاتبه من قلب الود وصدره وكيف لا يكون ذلك وقد اشمخرت لبيته الأنساب وحزت الأنساب وسجدت الرقاب · وردت له بعد ما توارث بالحجاب وشهد بفضل توقيعهم الحرب وبفضل ليلهم المحراب ·

فأما ما أشار اليه من الشكر على ما سير من الغلال التى كان الوعد بها علينا نذراه وروحنا بارسالها قلبا وشرحنا بتسييرها صدرا وأنها حلت ربقة الجذب وفكتها وجلت هبوة القحط وكفتها ، وهونت مصاعب المساغب ، وخلفت سواحب السحائب وأطفأت ولله الحمد بوار النوائب فقد سيرنا بحسنتنا جعله الله ممن تسره الحسنة وقد نبهنا منن سنتنا لأن نستقبل بالحمد أولى السنة وقد قوى النية وقومها واستزاد لهم بلسان الشكر الفصيح وتناول لهم بباع التلطف الفسيح وألقح لهم سحائب محله منها محل ملفحها من الريح واقتضى ما يعرضه أن خرج الأمر بأن يضاعف المحمول فى كل عام ولا يخص به خاص دون عام وأمرنا أن يوفر جلب الجلاب وتوفر ظهور الركاب ليحج للحرم الشريف بين البر والبحر ، وبين حمل البطن والظهر فتظل السنة ودودا ولودا · ويشاهد المحمل الشريف وقد نأى عنه الحل شريدا ، وتحط القلوع عما يحط عنه أمثالها من السحائب وتستريح الأنفس اللواغب ، فاما ما ألقاه الى رسوله فقد اسمع ما أسنده اليه وأعيد بما يعبده عليه وقد تكاثرت بولاء الشريف الأشهاد فغنى عن الاستشهاد ، وأغنته الحظوة بجميل رأينا عما نأى أخذه يشفعه العطاء بل لشفاعة الاجتهاد ان شاء الله تعالى ·

ملحق رقم (٢)

أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٣٦ :

رسالة بقلم القاضى الفاضل مرسلة من السلطان الملك الناصر صلاح الدين الى أخيه الملك العادل أبى بكر بشأن انتصار الأسطول المصرى بقيادة أميره حسام الدين لؤلؤ على أسطول الصليبيين الذى جرؤ فعبر مياه البحر الأحمر قاصدا مهاجمة مدينتى مكة والمدينة وذلك فى شوال سنة ٥٧٨ هـ ٠

وصل كتابه المؤرخ بخامس ذى القعدة المسفر عن السفر من الأخبار المتبسم عن المتبسم من الآثار ، وهى نعمة تضمنت نعما ونصرة الحرم حرقا وكفاية ما كان الله ليؤخر معجزة نبيه صلى الله عليه وسلم بتأخيرها وعجيبة من عجائب البحر التى يحدث عن تسييرها وتسخيرها وما كان الحاجب لؤلؤ فيها الا سهما أصاب وقمد مسددة وسيفا قطع وشكر مجردة ورسولا عليه البلاغ وان لم يجهل ما أثرته يده وقد غبطناه بأجر جهاده ونجح اجتهاده ركب السبيلين : برا وبحرا وامتطى السابقين : مركبا وظهرا وخطا فأوسع الخطو وغزا فأنجح الغزو وأحبذ العنان الذى فى هذه الغزوة أطلق والمال الذى فى هذه الكرة أنفق وهؤلاء الأسارى فقد ظهروا على عورة الاسلام وكشفوها وتطرقوا بلاد القبلة وتطوفوها ولو جرى فى ذلك سبب والعياذ بالله لضاقت الأعذار الى الله والخلق وانطلقت بالمذمة فى الغرب والشرق ولا بد من تطهير الأرض من أرجاسهم والهواء من أنفاسهم بحيث لا يعود منهم مخبر يدل الكفار على عورات المسلمين وأن هذا العدد القليل قد نال ذلك المثال الجليل وهذا مقام ان روعى فيه حراسة الظاهر والوفاء للكافر هدث الفتق الذى لا يمكن فى كل الأوقات سده ورتقه ولذغ المؤمن مرتين ، والأولى تكفى لمن له فى النظر نفقة ٠

ملحق رقم (٣)

ابن فهـد : اتحاف الورى ج ٣ ص ١٠٥ :

سنة ٦٧٥ هـ ٠

(خطابان متبادلان)

وفيها ورد كتاب من ملك مصر الملك الظاهر بيبرس الى صاحب مـكة الشريف أبى نمى ونسخة الكتاب (من بيبرس لسلطان مصر الى الشريف الحسيب النسيب أبى نمى محمد بن سعد) ٠

أما بعد فان الحسنة فى نفسها حسنة وهى من بيت النبوة أحسن والسيئة فى نفسها سيئة وهى من بيت النبوة أسوأ وقد بلغنا عنك أيهـا السـيد أنك أبدلت حرم الله بعد الأمن بالخيفة وفعلت ما يحمر به الوجه وتسود به الصحيفة ومن القبيح كيف تفعلون القبيح وجدكم الحسن وتقاتلون فى الحرم حتى تكون العبر هذا وأنت من أهل الكرم وسكان الحرم فكيف آويت المجرم واستحللت دم المحرم ٠

ومن يهن الله فحاله من مكرم فان لم تقف عند حدك والا أغمدنا فيه سيف جدك والسلام ٠

فكتب اليه أبى نمى من محمد بن أبى سعد الى بيبرس سـلطان مصر ٠ أما بعد :

فان المملوك معترف بذنبه تائب الى ربه فان تأخذ فيدك الأقوى وأن تعفو فهو أقرب للتقوى ، والسلام ٠

ملحق رقم (٤)

ابن الفرات : ج ٧ ص ٢٤٧ ، ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ج ١ ص ٢١٢ ٠
حوادث سنة ٦٨١ هـ ٠

ذكر تحليف الشريف صاحب مكة المشرفة

فى شعبان المكرم من هذه السنة حلف الشريف أبو نمى صاحب مكة المشرفة بهذه اليمين :

أخلصت نيتى وأصفيت لويتى وساويت بين باطنى وظاهرى فى طاعة مولانا السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح وطاعة أولادهما وأرثى ملكيهما لا أضمر لهم سوءا ولا غدرا فى نفسى ولا ملك ولا سلطنة وأننى عدو لمن عاداهم صديق لمن صادقهم حرب لمن حاربهم سلم لمن سالمهم وأننى لا يخرجنى عن طاعتهما طاعة أحد غيرهما ولا أتلفت فى ذلك الى جهة غير جهتهما ولا أفعل أمرا مخالفا لما استقر من هذا الأمر ولا أشرك فى تحكمهما على ولا على مكة المشرفة وحرمها وموقف جبلها زيد ولا عمر وأننى ألتزم ما اشترطته لمولانا السلطان ولولده فى أمر الكسوة الشريفة المنصورية الواصلة من مصر المحروسة وتعليقها على الكعبة الشريفة فى كل موسم وأن لا يعلوها كسوة غيرها وأن أقدم علمه المنصور على كل علم فى كل موسم وأن لا يتقدمه علم غيره وأننى والآمين لحرمه والحاجين والواقفين وأننى أجتهد فى حراستهم من كل عاد بفعله وقوله ومتخطف للناس من حوله وأننى أؤمنهم فى سربهم وأعذب لهم مناهل شربهم وأننى والله أستمر بتفرد الخطبة والسكة بالاسم الشريف المنصورى وأفعل فى الخدمة فعل المخلص الوالى وأننى والله أمتثل مراسمه الغايب للمستنيب وأكون لداعى أمره أول سامع ومجيب وأننى ألتزم بشرط هذه اليمين من أولها الى آخرها لا أنقضها ٠

ملحق رقم (٥)

المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٨ ٠

نسخة الأمان لأمير مكة

هذا أمان الله سبحانه وتعالى وأمان رسوله صلى الله عليه وسلم وأماننا للمجلس العالى الأسدى رميثة بن الشريف نجم الدين محمد بن أبى نمى بأن يحضر الى خدمة الصنجق الشريف صحبة الجناب العالى السيفى أيتمش الناصرى آمنا على نفسه وأهله وماله وولده وما يتعلق به ٠٠٠ لا يخشى حلول سطوة قاصمة ولا يخاف مؤاخذة حاسمة ولا يتوقع خديعة ولا مكرا ولا يحذر سوءا ولا ضررا ولا يستشعر مخافة ولا ضررا ولا يتوقع وجلا ولا يرهب بأسا وكيف يرهب من أحسن عملا ؟ (بل يحضر الى خدمة الصنجق آمنا على نفسه وماله وآله مطمئنا واثقا بالله ورسوله وبهذا الأمان الشريف المؤكد الأسباب المبيض الوجه الكريم الأحساب وكلما يخطر بباله أنا نواخذه به فهو مغفور لله عاقبة الأمور ٠ وله منا الاقبال والتقديم وقد صفحنا الصفح الجميل وان ربك هو الخلاق العليم ٠٠٠) (فليثق بهذا الأمان الشريف ولا يسىء به الظنون ولا يصغى الى قول الذين لا يعلمون ولا يستشير فى هذا الأمر الا نفسه ، فيومه عندنا ناسخ لأمسه، وقد قال صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى : (أنا عند حسن ظن عبدى بى فليظن بى خيرا) (فتمسك بعروة هذا الأمان فأنها وثقى واعمل عمل من لا يضل ولا يشقى ونحن قد أمناك فلا تخف ورعينا لك الطاعة والشرف وعفا الله عما سلف ومن أمناه فقد فاز فطب نفسا وقر عينا فأنت أمير الحجاز والحمد لله وحده).

قائمة المصادر والمراجع

أولا ـ المخطوطات :

الأسدى : أحمد بن محمد (ت ١٠٦٦ هـ)

١ ـ **أخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام** (دار الكتب ـ رقم ٧١١ تاريخ)

ابن بهادر : محمد بن محمد (من علماء الثلث الأخير من القرن التاسع الهجرى)

٢ ـ **فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر** (دار الكتب ـ رقم ٢٣٩٩)

ابن حبيب : الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر (ت ٧٧٩ هـ)

٣ ـ **درة الأسلاك فى دولة الأتراك** (جزءان : دار الكتب ـ رقم ٦١٧٠)

ابن حجر : العسقلانى شهاب الدين بن على (ت ٨٥٣ هـ)

٤ ـ **أنباء الغمر بأنباء العمر** (الجزء الثانى ـ دار الكتب ـ رقم ٢٤٧٦ تاريخ)

الحسينى : محمد كبريت بن عبد الله الحسينى المدنى الموسوى (ت ١٠٧٠)

٥ ـ **الجوهرة الثمينة فى محاسن المدينة** (دار الكتب ـ رقم ٧٣٧٠ ح)

ابن دقماق : ابراهيم بن محمد المصرى (ت ٧٥٩ هـ)

٦ ـ **الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين** (دار الكتب ـ رقم ١٥٨٧)

الرشيدى : أحمد الرشيدى

٧ ـ **حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى امارة الحاج**
(معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ـ رقم ٢١٥ تاريخ)

السمهودى : نور الدين على بن أحمد المصرى (ت ٩١١ هـ)

٨ ـ **خلاصة الوفاء** (دار الكتب ـ رقم ٥١٧٧ تاريخ)

الصباغ : محمد بن أحمد بن سالم الصباغ المكى (ت ١٣٢١ هـ)

٩ - **تحصيل المرام فى أخبار بيت الله الحرام** (دار الكتب - رقم ٢١٦٣ تاريخ)

ابن الضياء : أبو البقاء محمد بن أحمد بن الضياء القرشى الحنفى المكى (ت ٨٥٤ هـ)

١٠ - **تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة**
(دار الكتب - رقم ١٥٧٠ تاريخ)

عبد الكريم : عبد الكريم بن محب الدين بن علاء الدين (كان موجودا فى سنة ١٠١٠ هـ)

١١ - **أعلام الأعلام** (دار الكتب - رقم ٥٧ تريخ تيمور)

العينى : بدر الدين محمود (ت ٨٥٥ هـ)

١٢ - **عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان**
(٢٣ جزءا فى ٦٩ مجلدا : دار الكتب - رقم ٨٥٤ تاريخ)

الفاسى : تقى الدين محمد بن أحمد الحسينى (ت ٨٣٢ هـ)

١٣ - **تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام** (دار الكتب - رقم ١٣٨١٣ ح)

ابن فضل الله الطبرى : محمد بن على (ت ١١٧٣ هـ)

١٤ - **اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن شرفاء مكة**
(معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية - رقم ٨٧٠)

ابن فهد : نجم الدين أبى القاسم محمد المدعو عمر بن أبى الفضل محمد تقى الدين بن فهد الهاشمى المكى الشافعى (ت ٨٨٥ هـ)

١٥ - **اتحاف الورى بأخبار أم القرى**
(أربعة أجزاء : دار الكتب - رقم ٢٢٠٤ تاريخ تيمور)

ابن قاضى شهبة : جمال الدين الدمشقى الشافعى (ت ٥٨١ هـ)

١٦ - **ذيل تاريخ الاسلام** (دار الكتب - رقم ٣٩٢ تاريخ)

قطب الدين قدس سره :

١٧ - **تاريخ المدينة المنورة**
(معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية - رقم ٩٦٥ تاريخ)

المأمونى : ابراهيم بن محمد بن عيسى (ت ١٠٧٩ هـ)

١٨ - **تهنئة أهل الاسلام بتجديد بيت الله الحرام**
(معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية - رقم ١٠١٣)

ابن المجـــاور : جمال الـدين أبى الفتـح يوسف بن يعقوب بن محمد (ت ٦٩٠ هـ)

١٩ ـ **تاريخ ابن المجاور** (دار الكتب ـ رقم ٢١٧٧ تاريخ)

أبو المحاسن : جمال الدين يوسف بن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ)

٢٠ ـ **المنهل الصافى** (الجزء الأول : دار الكتب ـ رقم ١١١٣ تاريخ)

محيى الـــدين : محيى الدين عبد القادر امام المقـام الشافعى الحسينى الطبرى (ت ١٠٧٠ هـ)

٢١ ـ **الأرج المسكى فى التاريخ المكى** (دار الكتب ـ رقم ٢٢٠٥ تاريخ تيمور)

المراغى : أبو محمد زين الدين بن الشيخ المقرى بدر الدين الحسين بن الشيخ سراج الدين عمر المراغى (ت ٨١٦ هـ)

٢٢ ـ **تحقيق النصرة بتلخيص معـــالم دار الهـــجرة**
(دار الكتب ـ رقم ١٦٤١ تاريخ)

المـطرى : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف جمال الدين الخزرجى المطرى (ت ٧٤١ هـ)

٢٣ ـ **التعريف بما أنست الهجرة من معـــالم الهجرة**
(دار الكتب ـ رقم ٥٦٤ تاريخ)

المقريزى : تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥ هـ)

٢٤ ـ **السلوك لمعرفة دول الملوك**
(الجزءان الثالث والرابع ـ دار الكتب ـ رقم ٣٣٣٧ تاريخ)

مؤلف مجهول :

٢٥ ـ **الجـــامع الظريف فى حجة المقـــام الشريف**
(دار الكتب ـ رقم ٨٤٥ جغرافية عام)

النـــويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ)

٢٦ ـ **نهاية الأرب فى فنـون الأدب**
(الأجزاء : ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ دار الكتب رقم ٥٤٩ معارف عامة)

ابن يحيى الطبرى : عبد القادر محمد

٢٧ ـ **أنباء البرية بالأنباء الطبرية**
(معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ـ رقم ٩٠٩ تاريخ)

ثانيا ـ المصادر القديمة المطبوعة :

ابن الأثير : على بن أحمد بن أبى الكرم (ت ٦٣٠ هـ)

١ ـ **الكامل فى التاريخ** (٩ أجزاء ـ القاهرة ١٣٠٣ هـ)

ابن اياس : أبو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠ هـ)

٢ ـ **كتاب تاريخ مصر المعروف ببدائع الزهور فى وقائع الدهور**
(بولاق ١٣١١ هـ ، وجمعية المستشرقين الألمان بالقاهرة
تحقيق محمد مصطفى ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣) .

ابن أيبك الدوادارى : أبو بكر بن عبد الله (من علماء القرن الثامن الهجرى)

٣ ـ **كنز الدرر وجامع الغرر وهو الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر**
تحقيق هانس روبيرت (القاهرة ١٩٦٠ م)

البرزنجى المدنى : جعفر بن السيد اسماعيل (ت ١١٧٧ هـ)

٤ ـ **نزهة الناظرين فى مسجد سيد الأولين والآخرين** (القاهرة ١٩١٤ م)

ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد (ت ٧٧٩ هـ)

٥ ـ **تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**
(جزءان : القاهرة ١٩٦٧ م)

با مخرمة : أبو محمد عبد الله الطيب (ت ٩٣٧ هـ)

٦ ـ **تاريخ ثغر عدن** (جزءان : ليدن ١٩٣٦ م)

ابن جبير : أبو الحسين محمد بن أحمد الكنانى الأندلسى البلنسى (تحقيق دكتور حسين نصار القاهرة ١٩٥٥) (ت ٦١٤ هـ)
(ت ٦١٤ هـ)

٧ ـ **الرحلة** (سلسلة جيب التذكارية ١٩٠٧ م)

الجزيرى : عبد القادر بن محمد عبد القادر بن محمد الأنصارى (من علماء القرن العاشر الهجرى)

٨ ـ **درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحاج ، وطريق مكة المعظمة**
(القاهرة ١٣٨٤ هـ)

ابن حجر العسقلانى : شهاب الدين بن على (ت ٨٥٢)

٩ ـ **الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة** (٤ أجزاء : حيدر أباد ١٣٤٨ هـ)

١٠ ـ **أنباء الغمر بأنباء العمر**
(الجزء الأول حتى نهاية ٧٩٩ هـ ـ حققه الدكتور حسن حبشى)
(القاهرة ١٩٦٩ م)

ابن حوقل : أبو القاسم محمد (من أهالى القرن الرابع)

١١ ـ **صـــورة الأرض** (ليدن ١٩٢٨ م)

الخزرجى : على بن الحسن (ت ٨١٢ هـ)

١٢ ـ **العقود الؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية**
(تحقيق محمد بسيونى عسل ـ جزءان : القاهرة ١٩١١ م)

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ)

١٣ ـ **العبر وديوان المبتدأ والخبر** جزء ٤ ، ٥ (بولاق ١٢٨٤ هـ)

دحـلان : أحمد بن زينى (ت ١٣٠٤ هـ)

١٤ ـ **خلاصة الكلام فى بيان أمراء البيت الحرام** (القاهرة ١٣٠٥ هـ)

الديار بكرى : حسين بن محمد بن الحسن (ت ٩٦٦ هـ) .

١٥ ـ **تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس** (القاهرة ١٢٨٣ هـ)

ابن زنبل : أحمد الرمال (ت ٩٦٥ هـ)

١٦ ـ **آخرة المماليك** (تحقيق عبد المنعم عامر ـ القاهرة ١٩٦٢ م)

السخاوى : الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ)

١٧ ـ **التبر المسبوك فى ذيل السلوك** (بولاق ١٨٩٦ م)

١٨ ـ **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**
١٢ جزء فى ١٢ مجلد (القاهرة ١٣٥٥ هـ)

١٩ ـ **التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة**
تحقيق حامد محمد الفقى : ثلاثة أجزاء : (القاهرة ١٩٥٧ ـ ١٩٥٩ م)

سبط بن الجوزى : (ت ٦٥٤ هـ)

٢٠ ـ **مرآة الزمان** (طبعة الهند ١٣٥١ هـ)

السمهودى : نور الدين على بن أحمد المصرى (ت ٩١١ هـ)

٢١ ـ **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى**
(تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد : ٣ أجزاء : القاهرة ١٩٥٤ م)

السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد (ت ٩١١ هـ)

٢٢ ـ **حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة** جزءان : (القاهرة ١٣٢١ هـ)

٢٣ ـ **بغية الدعاة فى طبقات الأدباء والنجاة** (القاهرة ١٣٢٦ هـ)

ابن شاكر : فخر الدين محمد بن أحمد الكتبى (ت ٧٦٤ هـ)

٢٤ ـ **فوات الوفيات** (جزءان : بولاق ١٢٩٩ هـ)

أبو شامه : عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان (ت ٦٦٥ هـ)

٢٥ ـ **الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية**
(تحقيق محمد حلمى محمد أحمد : القاهرة ١٩٥٦ م)

ابن شاهين : غرس الدين خليل الظاهرى (ت ٦٦٥ هـ)

٢٦ ـ **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك** (باريس ١٨٩١ م)

ابن طولون : شمس الدين محمد (ت ٩٥٣ هـ)

٢٧ ـ **مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان**
(تحقيق محمد مصطفى ـ القاهرة ١٩٦٢ م)

ابن ظهيرة : (من علماء القرن التاسع للهجرة)

٢٨ ـ **الجامع اللطيف فى فضائل مكة وبناء البيت الشريف** (بيروت)

ابن عبد الظاهر : محيى الدين (ت ٦٩٢ هـ)

٢٩ ـ **تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور**
(تحقيق الدكتور مراد كامل : القاهرة ١٩٦١ م)

ابن العماد الحنبلى : أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد (١٠٨٩ هـ)

٣٠ ـ **شذرات الذهب فى أخبار من ذهب** (٨ أجزاء : القاهرة ١٣٥١ هـ)

العيدروسى : شمس الشموس محى الدين عبد القادر بن عبد الله (ت١٠٣٨ هـ)

٣١ ـ **تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر**
(تحقيق محمد رشيد الصفار : بغداد ١٩٣٤ م)

أبو الفـدا : الملك المؤيد اسماعيل صاحب حماة (ت ٧٢٣ هـ)

٣٢ ـ المختصر فى تاريخ البشر (١٤ جزء : القاهرة ١٣٢٥ هـ)

ابن الفـرات : محمـد بن عبد الرحيم بن على بن الفرات المصرى الحنفى ناصر الدين (ت ٨٠٧ هـ)

٣٣ ـ تاريخ ابن الفرات
(تحقيق الدكتور قسطنطين زريق ، أجزاء ٧ ، ٨ ، ٩ ، بيروت ١٩٣٦ ـ ١٩٤٨ م)

الفـاسى : تقى الدين محمد بن أحمد الحسنى (ت ٨٣٢ هـ)

٣٤ ـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام
(القاهرة ١٩٥٦ م) ، (بيروت ١٩٥٤ م)

٣٥ ـ العقـد الثمين فى تاريخ البلد الأمين
تحقيق فؤاد سيد ، ٨ جزاء (القاهرة ١٩٦٦ م)

٣٦ ـ الملوك والخلفاء وولاة مكة الشرفاء (طبعة ١٨٢٢ م)

ابن فضل الله العمرى : (ت ٧٤٢ هـ)

٣٧ ـ مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار
تحقيق أحمد زكى : الجزء الأول (القاهرة ١٩٢٤ م)

القلقشندى : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على (ت ٨٢١ هـ)

٣٨ ـ صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ١٤ جزء (القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٩ م)

أبو المحاسن : جمال الدين يوسف بن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ)

٣٩ ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١٢ جزء (طبعة دار الكتب)

٤٠ ـ حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور
٤ أجزاء فى مجلدين (كاليفورنيا ١٩٣٢ م)

المقريزى : تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥ هـ)

٤١ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (بولاق ١٢٧٠ هـ)

٤٢ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك
(تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة حتى سنة ٧٥٥ هـ)

٤٣ ـ اغاثة الأمة بكشف الغمة
(تحقيق د٠ محمد مصطفى زيادة و د٠ جمال الدين الشيال
القاهرة ١٩٤٠ م)

٤٤ ـ الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك
تحقيق د٠ جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٥٥ م)

مؤلف شامى مجهول :

٤٥ ـ حوليات دمشقية تحقيق د٠ حسن حبشى (القاهرة ١٩٦٨ م)

ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر الحافظ (ت ٧٧٤ هـ)

٤٦ ـ البداية والنهاية جزء ١٤ (بيروت سنة ١٩٦٦ م)

النعيمى : عبد القادر بن محمد (ت ٩٢٧ هـ)

٤٧ ـ الدارس فى تاريخ المدارس (دمشق ١٩٤٨ م)

الهاشمى : غريب بن الشيخ عجيب

٤٨ ـ سياحتى الى الحجاز وهى حوادث واقعية (القاهرة ١٩١٥ م)

ابن الوردى : أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر (ت ٧٤٩ هـ)

٤٩ ـ تتمة المختصر ، وتاريخ ابن الوردى (القاهرة ١٢٨٥ هـ)

يحيى بن الحسين : يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن على
(ت ١١٠٠ هـ)

٥٠ ـ غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى
تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ١٩٦٩)

ثالثا ـ المراجع الحديثة :

ابراهيم رفعت :

١ ـ مرآة الحرمين (دار الكتب المصرية ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥ م)

ابراهيم على طرخان (دكتور) :

٢ ـ مصر فى عهد دولة المماليك الجراكسة (القاهرة ١٩٥٩ م)

أحمد دراج (دكتور) :

٣ ـ وثائق دير صهيون (القاهرة ١٩٦٨ م)

حمد الجاسر :

٤ ـ بلاد ينبع (الرياض ١٩٦٥ م)

حكيم أمين عبد السيد (دكتور) :

٥ ـ قيام دولة المماليك الثانية (القاهرة ١٩٦٦ م)

زترشتين :

٦ ـ تاريخ سلاطين المماليك (ليدن ١٩١٩ م)

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

٧ ـ الحركة الصليبية (جزءان : القاهرة ١٩٦٣ م)

٨ ـ الظاهر بيبرس (القاهرة ١٩٦٣ م)

٩ ـ المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (القاهرة ١٩٦٢ م)

١٠ ـ العصر المماليكى فى مصر والشام (القاهرة ١٩٦٥ م)

سليمان عطية سليمان (دكتور) :

١١ ـ سياسة المماليك التجارية فى البحر الأحمر
(رسالة دكتوراه من جامعة القاهرة ١٩٥٩ م لم تطبع)

سيدة اسماعيل كاشف (دكتورة) :

١٢ ـ مصر فى فجر الاسلام (القاهرة ١٩٤٧ م)

١٣ ـ مصر فى عهد الأخشيديين (القاهرة ١٩٥٠ م)

عبد الرءوف أحمد عطيفى :

١٤ ـ الأشرف خليل بن قلاوون (رسالة ماجستير من جامعة القاهرة لم تطبع)

عبد القدوس الأنصارى :

١٥ ـ تاريخ مدينة جـدة (جدة ١٣٨٣هـ/١٩٦٣ م)

عبد اللطيف ابراهيم على (دكتور) :

١٦ ـ تعليق على وثيقة السلطان قايتباى (القاهرة ١٩٦١ م)

١٧ ـ دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر الغورى
(القاهرة ١٩٥٦ م)

على ابراهيم حسن (دكتور) :

١٨ ـ تاريخ المماليك البحرية (القاهرة ١٩٦٧ م)

١٩ ـ مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى (القاهرة ١٩٦٤ م)

عـلى حـافظ :

٢٠ ـ فصول من تاريخ المدينة المنورة (جدة ١٩٦٩ م)

محمد أنيس (دكتور) :

٢١ ـ الدولة العثمانية والشرق العربى (القاهرة ١٩٦١ م)

محمد جمال الدين سرور (دكتور) :

٢٢ ـ دولة الظاهر بيبرس (القاهرة ١٩٦٠ م)

٢٣ ـ دولة بنى قلاوون فى مصر (القاهرة ١٩٤٧ م)

محمـد صـادق :

٢٤ ـ دليـل الحـج (بولاق ١٣١٣ هـ)

محمد لبيب البتنونى :

٢٥ ـ الرحلة الحجازية (القاهرة ١٣٢٧ هـ / ١٣٢٩ هـ)

محمود رزق سليم (دكتور) :

٢٦ ـ الأشرف قانصوة الغورى (القاهرة ١٩٦٣ م)

نعيم زكى سليمان (دكتور) :

٢٧ ـ طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب وأواخر العصور الوسطى
(رسالة دكتوراه من جامعة القاهرة ١٩٦٨ م)

وليم موير (سـير) :

٢٨ ـ تاريخ دولة المماليك فى مصر ترجمة محمود عابدين وسليم حسن
(القـاهرة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م)

٢٩ ـ الموسوعة العربية الميسرة .

رابعا ـ المراجع الأجنبية :

1 - **Ahmed Darrag:**

L'Egypte sous le Régne de Barsbay (Damas, 1961).

2 - **Howorth:**

History of the Mongols, part 3. (London, 1888).

3 - **Jacques Jomiero, (O. P.):**

Le Magal et la Caravane Egyptienne des Pelerins de la Mecque.
(Le Caire, 1953)

4 - **Lane-Poole (Stanley):**

A History of Egypt in the Middle Ages.
(London, 1901)

5 - **Muir (Sir William):**

The Caliphate its rise, decline and fall.
(Edinburg, 1924)

6 - **Iver (G):**

Art. Mecca. Encyclopaedia of Islam.

الفهـــارس

(١) الأعـــلام

(أ)

ابراهيم (عليه السلام) : ١٠٦ ، ١٧٠ .

ابراهيم (تاجر هندى) : ١٩٥ ، ١٩٦ .

ابراهيم بن أحمد بن محمد المدنى : ٢٤٢ .

ابراهيم بن الحسين الفارسى (الشيخ أبو القاسم) : ١١٩ .

ابراهيم رفعت : ١٠٣ .

ابراهيم بن عبد الله الحكرى : ٢٤٢ .

ابراهيم بن عبد الله المدنى : ٢٤٢ .

ابراهيم بن عبد الوهاب القاهرى : ٢٣١ ، ٢٣٤ .

ابراهيم بن محمد اليافعى : ٢٣٩ .

ابراهيم بن يونس البعلبكى : ٢٣٢ .

ابن أبى اليمن النويرى : ٢٣٩ .

ابن اياس : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٩٣ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ٢٠٣ .

ابن بطوطة : ٦٣ ، ١٤٤ ، ٢١٢ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ .

ابن برطاس : ٢٦ .

ابن تغرى بردى (أبو المحاسن جمال الدين يوسف) : ٤١ ، ٧١ ، ٨٥ ، ١٦٣ .

ابن تيمورلنك : ١١٢

ابن جبير (الرحالة) : ٥ ، ٦٢ .

ابن حبيب (مؤرخ) : ١١٧ ، ١١٨ .

ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين) : ١٠٩ ، ١١١ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٥١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ .

ابن حوقل : ١٧٩ ، ١٨٩ .

ابن الخباز : ٢٣٧ .

ابن دقيق العيد : ٢٣٦ .

ابن رسول اليمنى : ٢٦ ، ١٠٨ ، ١١٦ .

ابن الرومى : ٥٣ .

ابن الزبير : ١٠٠ .

ابن زهر الأنصارى : ٢٣٩ .

ابن الزين : ٢٣٩ .

ابن سبعين (أنظر : عبد الحق بن ابراهيم بن سبعين) .

ابن سكر : ٢٣٩ ، ٢٤٠ .
ابن سيد الناس : ٢٣٧ .
ابن الشحنة : ٥٣ .
ابن الضياء الصاغانى : ٢٣٩ .
ابن ظهيرة (أنظر : أحمد بن ظهيرة)
ابن عبدان : ٢٥ .
ابن عرفة (فقيه مغربى) : ٩٧ .
ابن العطار : ٢٣٧ .
ابن العماد : ١٤٩ ، ٢٣٤ ، ٢٤٣ .
ابن الفرات (مؤرخ) : ٦٨ ، ٢٣٤ .
ابن فضل الله العمرى : ٦٥ ، ٢١٤ .
ابن فهد : ٨٢ ، ١٤٩ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ، ١٩٩ ، ٢١٥ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ .
ابن القبطان : ٢٤٣ .
ابن مسلم (القاضى) : ٢٣٢
ابن الملقن : ١٤٩ .
ابن نباتة : ٢٣٥ .
ابن النقيب : ٢٣٨ .
أبو البركات بن ظهيرة : ١٤٦ .
أبو بكر بن أحمد الدمشقى : ٢٤٢ .
أبو بكر الأيوبى (الملك العادل) : ٢٥٠ .
أبو بكر بن الحسن المراغى : ٢٤٢ .
أبو بكر الشيرازى (الصامت) : ٢٣٣ .
أبو بكر الصديق : ٢٣٣ .
أبو حامد بن ظهيرة : ٢٣٣ .
أبو الحجاج يوسف بن التركى المزى : ٢٣٣ ، ٢٣٧ .
أبو الحسن المرينى : ٢١٤ .
أبو ربيعة بن المغيرة : ١٠٠ .
أبو السعادات بن ظهيرة (جلال الدين) : ١٤٢ ، ١٤٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ .
أبو السعود بن ظهيرة : ١٤٤ .
أبو سعيد بن خربنده (ايلخان المغول) : ٣٤ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٨ ، ٢١٦ .
أبو شامة : ١١٥ ، ٢٥٠ .
أبو الطيب (مؤرخ) : ١١٨ ، ١٤٠ ، ١٨٨ .
أبو العباس أحمد العباسى (الحاكم) : ١٣٥ .
أبو الغيث بن أبى نمى (أمير مكة) : ٣٣ ، ٣٤ ، ١٠٩ .
أبو الفداء (الملك المؤيد صاحب حماة) : ١٣٠ ، ١٣١ .
أبو الفضل محمد النويرى (القاضى كما الدين) : ١٤٥ ، ١٤٦ .
أبو القاسم بن حسن بن عجلان : ٤٩ ، ٥٣ ، ١٤٣ .
أبو القاسم النويرى : ١٤٦ .
أبو نمى (محمد بن حسن بن على بن قتادة الحسنى) : ٨ ، ٩ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٨٤ ، ٢٠٧ ، ٢٣٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ،
اتحاف الورى (كتاب) : ٢٣٥ .
اتعاظ الحنفا (كتاب) : ٢٤٠ .
أحمد بن أبى طالب الحمامى : ٢٣٢ .
أحمد بن أبى القاسم بن مطر : ٢٣٨ .

أحمد بن أويس : ٤١ ٠

أحمد خواصة (الحاج) : ١١٩ ٠

أحمد بن شرف الدين الطرابلسى . ٢٣٤ ٠

أحمد الطبرى (شهاب الدين) : ١٤٤ ٠

أحمد بن ظهيرة (شهاب الدين أبو العباس) ١٢٥ ، ١٣٣ ، ١٤١، ١٤٢، ١٤٥، ١٤٦ ،٢٤٠ ٠

أحمد بن عبد الرحمن المطرى المدنى : ٢٤٣ ٠

أحمد بن عجلان (الشريف) : ٣٦ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥١ ٠

أحمد بن عطاء الله السكندرى : ٢٣٩ .

أحمد بن على بن أحمد النويرى (شهاب الدين) : ١٤٦ ٠

أحمد بن على الفاكهى (أنظر : الفاكهى) ٠

أحمد بن محمد الأشمونى : ٢٣٩ ٠

أحمد بن محمد بن سعيد الصاغانى : ١٤٩ ٠

أحمد بن محمد بن سليمان (ابن غانم) : ٢٣٦ ٠

أحمد بن محمد الشهاب أبو العباس (ابن الخطيب) : ٢٤٣ ٠

أحمد بن محمد بن عبد الرحمن البلبيسى (أبو العباس) : ٢٣٤ .

أحمد بن محمد بن عبد الرحيم اللخمى الأسيوطى (جمال الدين) : ٢٣٣ .

أحمد بن محمد القرشى العقيلى (قاضى) : ١٤٨ ٠

أحمد بن محمد بن محمد المصرى : ٢٣١ ٠

ادريس بن قتادة (الشريف) : ٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٥٦ ٠

آدم بن سعيد الجبرتى : ٢٣٩ ٠

الأذرعى : ٢٤٠ ٠

الأرج المسكى (كتاب) : ١١٨ ، ١٢٧ ، ١٦١ ، ١٧٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ ٠

أرغون الناصرى (الأمير) : ٧٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ٠

ارناط (البرنس صاحب حصن الكرك) : ٦ ، ٦٢ ٠

أسد الدين رميثة : ٣٤ ٠

الأسدى : ١٨٨ ٠

اسماعيل (عليه السلام) : ١٠٦ ٠

اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون (السلطان الصالح) : ٣٥ ، ١٠١ ، ١١٤ ٠

الاسنوى : ٢٣٤ ، ٢٤٠ ٠

اصطمر بن ولى الدين : ٥٣ ، ٨١ ٠

الاعلام بالتوبيخ (كتاب) : ٢٣٩ ٠

افتخارالدين جابر بن محمد الخوارزمى (أنظر: جابر بن محمد الخوارزمى)

آق قى بن العادل كتبغا المنصورى : ٨٠

أم سليمان (متصوفة) : ١٢٧ ٠

الآمدى : ٢٤٠ ٠

أمين الدين (الصاحب) : ١٣٠ ٠

انوك بن الناصر : ١٣٧ ٠

أولجاتيو ايلخان المغول : ٣٤ ٠

اينال (الملك الأشرف) : ١٢٥ ، ١٢٧ ٠

اينـــال الاسحاقى : ٩٣ ٠
أيوب بن ابراهيم الجبرتى : ٢٣١ ٠
أيوب بن عبد الســلام الشبشيرى : ٢٣١ ٠

(ب)

البتنونى : ٦٥ ، ٧٧ ، ١٠٣ ، ٢١٩ .
البخارى : ١٥١ ٠
بدائع الزهور (كتاب) : ٨٠ ٠
بدر الدين الحشاب : ١٥١ ٠
بدر الدين محمـد بن ابراهيـــم بن سـعد الله بن جمـــاعة : ١٣٠ ، ١٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ٠
بدر الدين بن مزهر : ٩٣ ٠
البرزالى : ٢٣٧ ٠
برسباى (السلطان الأشرف) : ٣١ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٧٠ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٤٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٦ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٧ ، ٢٢٦ ، ٢٤٦ ٠
برقوق (السلطان الظاهر) : ٣٦ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٧٨ ، ٩٧ ، ١٠٦ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٥٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢١٧ ٠
بركات بن حســـن بن عجـــلان (الشريف) : ٣١ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ١٤٢ ، ١٦٦ ، ١٨٧ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ٠
برهان الـــدين ابراهيم بن عمـــر (ابن القاضى) : ٤٦ ٠
برهان الـــدين بن ظهيرة : ١٤٣ ، ١٤٦ ٠
برهان الدين العجمى (الواعـظ) : ٢٣٣ ٠
برهان الدين الكركى : ١٣٣ ٠
برهان الـــدين المحـــلى الـــكارمى (التاجر) : : ١١٩ ٠
البرهان الزلزلى : ٢٣٨ ٠
بكار الخاصكى : ١٩٨ ٠
بكتمر الجوكندار (أمير الحاج) : ٨٥ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٩٣ ، ٢٣٦ ٠
البلقينى : ١٤٩ ، ٢٤٠ ٠
بيبرس (السلطان الظاهر) : ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٥٦ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ١٠٠ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٩ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٥ ، ٢٥١ ٠
بيبرس الجاشـــنكير (٧٠٩ هـ) : ٣٠ ، ١٢٥ ٠
بهاء الدين الطبرى : ١٤٤ ٠
بيسق الشيخى (أمير الحاج المصرى) : ٥٢ ، ٧٩ ، ١١٩ ، ٢٢٤ ٠

(ت)

التاج المراكشى : ٢٣٨ ٠
تاريخ الرسل والملوك (كتاب) : ٨٥ .

تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام (كتاب) : ١٠٢ ، ١٤٧ .

التحفة اللطيفة (كتاب) : ١٠١ ، ٢٣٩ .

تغرى برمش التركمانى : ١٧٦ .

التنوخى : ١٤٩ .

تورانشاه بن نجم الدين أيوب (الملك المعظم) : ٥ ، ١٧ .

تيمورلنك : ٩٣ .

(ث)

ثابت بن نعير : ٤٢ ، ٤٩ ، ٥٤ .

ثقبة بن رميثة بن أبى نمى : ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤١ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، ١٦٢ .

(ج)

جابر بن محمد الخوارزمى (افتخار الدين) : ٢٣٨ .

جازان بن على بن عجلان : ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٨١ ، ١٩١ .

جاك دى فيرون : ٦٧ ، ٨٠ ، ٩٩ .

الجامع الظريف : ١٣٣ .

جان بردى الغزالى (مملوك) : ٥٨ .

جان بيك : ١٩١ .

جركس الخليلى (الأمير) : ١٧٧ ، ١٨٢ .

الجزيرى (مؤلف) : ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٦٣ ، ٢١٣ .

جعفر الصادق : ١٨٩ .

جقمق (السلطان الظاهر) : ٤٩ ، ٥٣ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٤٣ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ، ٢٠٢ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ .

جماز بن شيحة (أميرالمدينة) : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ١١٥ .

جماز بن هبة : ٥٠ .

جمال الدين الأستادار : ٨٢ .

جمال الدين الأسيوطى : ١٤٩ ، ٢٣٤ .

جمال الدين بن ظهيرة (الحافظ) : ١٤١ ، ١٤٢ .

جمال الدين عمر : ٨١ .

جمال الدين بن محب الدين الطبرى : ١٤٨ ، ٢٣٧ .

جمال الدين النويرى (القاضى) : ٢٣٨ .

جمال الدين يوسف المعمار : ١٢٠ .

الجواهر والدرر فى ترجمة ابن حجر (كتاب) ٢٣٩ .

جوبان : ٢١٦ .

جوكتمر المارديني : ٢١٧ .

(ح)

حاجى بن الأشرف شعبان (الملك الصالح) : ٤٤ .

حسام الدين لؤلؤ : ٦ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٢٥٠ .

حسن بن ثقبة : ٤٣ .

حسن الصفا والابتهاج فيمن ولى امرة الحاج (كتاب) : ٨٠ ، ٨٥ .

حسن الطويل : ١٤٣ .

حسن بن عجلان (الشريف) : ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ١٠٧ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٩٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ .

الحسن بن على بن أبى طالب : ١٤٧ .

الحسن بن على بن قتادة : ٨ ، ٢٦ .

حسن الكردى (أمير) : ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٤٧ .

حسن بن محمد بن قلاوون (السلطان الناصر) : ٣٥ ، ٤٠ ، ٤١ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٤٤ ، ١٦٣ ، ٢١٧ ، ٢٢١ .

الحسين بن على (رضى الله عنه) : ١٧٩ ، ٢٤١ .

حسين بن على المكى : ٢٤٢ .

حمزة (رضى الله عنه) : ٢٢١ .

حميضة بن أبى نمى : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ١٠٩ ، ١٣٠ ، ١٨٤ .

الحلاج : ٢٣٧ .

(خ)

خايربيك بن اينال : ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٧١ .

خايربك العلائى : ١٢٣ .

خشقدم (السلطان) : ١٣٧ .

خشقدم الزمام (الطواشى) : ٢٢٦ .

خشرم بن دوغان بن جعفر الحسينى (أمير المدينة) : ٥٠ ، ٥٤ .

خطاب بن عمر بن مهنا الغزاوى : ٢٣٥ .

الخطط والآثار (كتاب) : ٢٤٠ .

خليل بن الدمر سيف الدين الدمر (أمير جاندار) : ٣٩ .

خليل بن قلاوون (الملك الأشرف) : ٢٤ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٥٦ .

خوند الأحمدية : ١٣٧ .

خوند بنت ابن خصبك : ١٢٧ .

خوند طغاى (جارية) : ١٣٧ .

خلاصة الوفاء (كتاب) : ١٣٤ ، ٢٤٢ .

الخيزران (أم هارون الرشيد) : ١١٤ .

(د)

داود (أمير) : ٧

داود سيف الاسلام طغتكين بن أيوب : ٥ .

داود الكيلانى (تاجر) : ١٤٢ .

درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة (كتاب) : ٦٤ ، ٨٠ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ١٣٤ .

دريب بن أحمد بن عيسى (أمير منطقة) : ٤٦ .

دليل الحج (كتاب) : ١٧٤ .

الدمياطى : ٢٣٧ .

(ذ)

الذهبى (الامام) : ٢٣٢ ، ٢٣٦ .

(ر)

راجح بن قتادة (الشريف) : ٨ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٢٦ ،

الرحلة الحجازية (كتاب) : ٦٥ .

الرسول (صلى الله عليه وسلم) (أنظر : محمد صلى الله عليه وسلم)

الرسولى اليمنى : ٢٣٦ ٠

الرشيدى (مؤرخ) : ٨٠ ، ٨٥ ٠

رميثة بن أبى نمى : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٨٤ ، ٢٥٣ ٠

ريحان بن عبد الله : ١٩٩ ٠

(ز)

زبدة كشف الممالك (كتاب) : ١٨٩ .

زبيدة (زوج هارون الرشيد) : ٢١٦ ٠

الزهور المقتطفة من تاريخ مكة (كتاب) : ١٤٧ ٠

زين الدين (أستادار) : ٥٧ ٠

زين الدين بركة (أمير) : ١٢٧ ٠

زين الدين الطبرى : ٢٣٣ ، ٢٣٩ ٠

زين الدين عبد الباسط (القاضى) : ١٠٤ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ٠

زين الدين عبد الرحيم بن الأمير سيف الدين منكلى : ٧٩ ٠

زينب بنت كمال : ٢٣٩ ٠

(س)

السبكى (تقى الدين) : ٢٣٨ ٠

السخاوى (محمد بن عبد الرحمن ، الحافظ شمس الدين) : ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٣٩ ، ١٥٣ ، ١٩٩ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ٠

سعد بن ثابت بن جماز : ١٥٠ ، ٢٢١ ٠

سعد الدين بن المرة : ١٢٤ ، ١٦٧ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ٠

السلوك فى معرفة دول الملوك (كتاب) : ١٠٩ ، ٢٤٠ ٠

سليم (السلطان العثانى) : ٥٨ ، ١١٢ ، ١٤٤ ، ٣٤٨ ٠

سليمان (السلطان العثمانى) : ١٠٤ ، ١٧٤ ٠

السمهودى : ٤٢ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ٢٤٢ ٠

سنقر الجمالى : ١٢٢ ، ٢٢٧ ٠

سنيور أنجلو : ٩٩ ٠

سودون المحمدى : ٥٢ ، ٥٧ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٤٢ ٠

سلار (أمير) : ٨٦ ، ١٣٦ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ٢٣٦ ٠

سلامة الحسينى : ٢٤٢ ٠

سيف الدولة بن منقذ : ٦ ٠

سيف الدين أرغون : ١٣٠ ٠

سيف الدين الدمر (أمير جاندار) : ٣٩ ٠

السيوطى : ٦٥ ٠

(ش)

شاه رخ بن تيمورلنك (معين الدين) : ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٦٨ ، ٢٤٦ ٠

شاهين الجمالى (الأمير) : ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٤٠ ، ٢١٨ ٠

شاهين الطويل (أمير) : ٧٠ ٠

شجرة الدر : ١٧ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ٩٦ ، ٩٩ ٠

شرف الدين اللخمى (قاضى) : ١٥١ ٠

شعبان بن حسن بن الناصر بن قلاوون (السلطان الأشرف) : ٣٦ ، ١٢٠ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٦٣ ، ١٧٥ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ .

شفاء الغرام فى أخبار البلد الحرام (كتاب) : ١٤٧ ، ٢٢٥ .

شمس الدين (أمير) : ٥٧ .

شمس الدين بن الزمن : ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

شمس الدين بن الصلاح : ٢٣٢ .

شمس الدين مروان (الأمير) : ٢١ .

شهاب الدين السهروردى : ٢٣٦ .

شهاب الدين بن ظهيرة : ١٤٩ .

شيخون الناصرى (أمير) : ٢١٧ .

(ص)

الصالح بن الناصر محمد بن قلاوون (الملك ٧٥٢ هـ) : ٤٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٥٣ ، ١٨١ ، ٢١٦ .

الصباغ (مؤرخ) : ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ .

الصرخدى (قاضى) : ١٥١ .

صرغتمش الناصرى (أمير) : ١٢٧ .

صلاح الدين الأيوبى : ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ١٨ ، ٦٢ ، ١٠١ ، ١٣٩ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٨١ ، ١٩٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(ض)

الضوء اللامع (كتاب) ١٠١ ، ٢٣١ ، ٢٣٩ .

(ط)

طاز (أمير الحاج) : ٣٥ ، ٤٠ .

الطبرى (الامام) : ٨٥ .

ططر (الظاهر) : ٧٠ ، ١٦٥ .

طغتكين : ٦ ، ٨ ، ٢٥ .

طفيل بن كبيشه بن جماز : ٣٩ .

طومان باى : ٥٢ ، ٥٨ ، ٧١ ، ٢٤٧ .

طيبغا بن عبد الله (الطويل) : ١٢٧ .

(ظ)

الظاهرى : ١٩٢ .

ظهيرة بن حسين بن ظهيرة : ٢٤٠ .

(ع)

العادل الأيوبى : ٧ .

عباس بن الملك المجاهد (الملك الأفضل) : ٢٢٥ .

عبد الله بن الزبير : ٢١٣ .

عبد الله بن سعد بن عبد الكافى المصرى : ٢٣٠ .

عبد الله بن سعد القزوينى (ضياء الدين) : ٢٤١ .

عبد الله بن ظهيرة : ٢٣٨ .

عبد الله بن عمر : ١٧٨ .

عبد الله بن يوسف الحسناوى : ٢٣٩.

عبد الباسط بن خليل (القاضى) : ٥٧ ، ٧٠ .

عبد الحق بن ابراهيم بن سبعين : ١٢٩ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

عبدالرحمن بن عبد الله الحيرى : ٢٣٣.

عبد الرحمن بن على الزرندى (زين الدين أبو الفرج) : ١٥٢ ٠

عبد الرحمن بن محمد بن صالح (ناصر الدين أبو الفرج) : ١٥٢.

عبدالرحيم بن الحسين بن على العراقى : ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٧٨ ، ٢٤٠ ٠

عبد العزيز آل سعود : ٢٠٧ ٠

عبد الغنى بن أبى فرج (فخرالدين) : ١٢٥ ٠

عبد القادر بن أبى القاسم الأنصارى (القاضى محى الدين) : ١٤٩ ٠

عبد القادر بن محمد الجزيرى (أنظر : الجزيرى) ٠

عبد اللطيف بن محمد بن أحمد الحسنى : ١٤٩ ٠

عبد الوهاب بن عبد الله (الوزير تقى الدين بن أبى شاكر) : ١٢٥.

عبد الوهاب بن نصر الله (أبو الطيب) : ١٠٤ ٠

عبيد الله بن زياد : ٢٤١ ٠

عثمان بن عفان (رضى الله عنه) : ٣ ، ٩٣ ، ١٠٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ٠

عجالة أم القرى فى تاريخ أم القرى (كتاب) : ١٤٧ ٠

عجلان بن أبى نمى : ٤٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧٥ ٠

عجلان بن رميثة : ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤١ ، ١٠٧ ، ١٨٥ ٠

عجلان بن سليمان بن هبة بن جماز : ٥٠ ٠

عجلان بن نعير : ٥٠ ٠

عز الدين أيبك (أتابك الجيش) : ١٧ ٠

عز الدين بن جماعة : ٢٣٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ٠

عز الدين عبد العزيز : ٢٣٣ ٠

عز الدين بن الفرات : ١٣٢ ٠

عز الدين فرخشاه : ٦ ٠

عز الدين الواسطى : ٢٣٣ ٠

عزيز بن هيازع بن هبة بن جماز : ٥٠ ٠

عطيفة بن أبى نمى : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ١٢٦ ، ١٦٢ ، ١٧٥ ، ١٨٤ ٠

العفيف التلمسانى : ٢٣٧ ٠

عفيف الدين بن أسعد اليمنى (اليافعى) : ٢٣٢ ٠

عفيف الدين عبد السلام بن محمد المصرى : ٢٤١ ٠

عفيف الدين المطرى : ٢٤١ ٠

العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين : ٥٢ ، ١٤٧ ٠

عقد جواهر الاسقاط (كتاب) : ٢٤٠

عقيل بن وبير الحسنى : ١٩١ ٠

علم الدين اليغمورى (أمير) : ٢٠

علوان الأسدى الحلبى (الشيخ) : ١٦٠ ٠

على (شقيق ذى النفس الزكية) : ٢٢١ ٠

على بن أبى طالب : ٣ ، ٢٨ ، ٤٢ ، ١٨٩ ٠

على بن أحمد بن اسماعيل القلقشندى (أنظر : القلقشندى) ٠

على بن أحمد بن عبد الله الطنقدائى : ٢٤٣ ٠

على بن أحمد النويرى : ٢٣٨ ٠
على الأصغر بن محمد بن أحمد أبو الحسن : ٢٣٢ ٠
على الأنصارى : ١٥١ ٠
على بن الحسن بن برطاس : ١٩ ٠
على الحسينى (تاج الدين) : ١١٠ ٠
على بن رسول : ٨ ٠
على شاه (وزير) : ١١٨ ٠
على بن شعبان : ١٣٥ ٠
على بن عبد الله بن أحمد السمهودى (أنظر : السمهودى) ٠
على بن عبد العزيز بن أحمد الحربى (من أعيان التجار) : ١٧٨ ٠
على بن عجلان : ٤٤ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ١٧٦ ٠
على بن عطية : ٥٤ ٠
على بن محمد بن موسى : ٢٤٢ ٠
على بن هلال : ١١٧ ، ٢١٦ ٠
عماد الدين زنكى : ١٣٩ ٠
عمر بن أحمد بن خضر بن ظافر بن طراد المصرى (سراج الدين) ٠ ١٥٠ ، ٢٤١ ٠
عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) : ٩٣ ، ١٠٠ ٠
عمر بن على بن رسول (نورالدين) : ١٨ ، ٢٥ ٠
عمر بن محمد بن أحمد السراج : ٢٤٢ ٠
عمر بن محمد بن علىالنويرى : ٢٣٩.
عمر بن الملك بن المنصور : ٨١ ٠
عنان بن مغامس (الشريف) : ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥١ ، ٥٧ ٠
عوارف المعارف (كتاب) : ٢٣٦ ٠
علاء الدين (القائد) : ٢١٧ ٠
علاء الدين بن الأثير : ١٣١ ٠
عيسى الحجى : ٢٣٩ ٠
العينى (بدر الدين) : ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ،

(غ)

غانم بن راجح : ١٩ ٠
الغزالى (الامام) : ١٥٢ ، ٢٣٦ ٠
الغورى (أنظر : قانصوه الغورى) ٠
غياث الدين (سلطان البنغال) : ٢٢٦ ، ٢٢٧ ٠

(ف)

الفاسى (محمد بن محمد الفاسى ، أبو الخير) : ٢٣٧ ٠
الفاسى (محمد بن أحمد بن على ، تقى الدين) : ٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ١٠٣ ، ١٢٥ ، ١٣٩ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ٠
فاطمة (رضى الله عنها) : ٤ ، ٢٨ ٠
الفاكهى (أحمد بن على) : ٢٤٢ ٠
فتح المغيث : ٢٣٩ ٠
فخر الدين التوزرى المغربى : ٢٣٢ ٠
فخر الدين بن شيخ الشيوخ : ٢٥ ٠
فخر الدين النويرى : ١٣٢ ٠
الفخرى أبو بكر : ١٣٣ ٠

فرج بن برقوق (السلطان الناصر) : ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٧٨ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٤٧ ، ٢١٢ ، ٢١٧ .

فردريك الثانى : ٢٣٦ .

فضل بن يحيى المكى : ٢٣٩ .

(ق)

قاسم المحلى (شيخ خدام الحرم النبوى) : ١٢٢ ، ١٢٤ .

القاضى الفاضل : ٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

قانصوا بن جركس : ٨٠ .

قانصوه الغورى : ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٥٧ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٤٧ .

قايتباى (السلطان الأشرف) : ٥٧ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٦٩ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٩٣ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢١٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٤٢ .

قتادة بن ادريس الحسنى (أبو عزيز النابغة) : ٨ ، ٢٠٧ .

قرقماش (أمير) : ١٩٦ ، ٢٣٢ .

القزوينى (قاضى القضاة جلال الدين) : ٤٠ ، ١٣٢ .

قطار (أمير مهمندار) : ١١١ .

قطباى : ٢٣٢ .

قطب الدين العسقلانى المصرى : ١١٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

القلقشندى (على بن أحمد بن اسماعيل) : ١٠٣ ، ١١٤ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ٢٣٥ .

قندس (أمير مصرى) : ٤١ .

قنصوه (أمير) : ٨٥ .

القلانسى : ٢٤٠ .

قلاوون (السلطان الملك المنصور) : ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ١١٧ ، ١٢٦ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٦٢ .

قيت الرجبى (أمير) : ٥٣ .

(ك)

الكامل الأيوبى (أنظر : محمد بن أبى بكر بن أيوب) .

كبيش بن عجلان : ٤٤ ، ٥١ ، ١٩٤ ،

كبيشة بن منصور : ٣٦ ، ٣٧ .

كتبغا (السلطان ٦٩٤-٦٩٥ هـ) : ٣٠ .

كريم الدين (الأمير ابن كاتب المناخ) : ١٩٨ .

كزل السودونى : ٥٣ .

كزل العجمى (أمير) : ٨٥ .

كعب بن زهير : ٢٣٤ .

كمال الدين بن ظهيرة : ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ .

(م)

ماجد بن مقبل : ٣٧ .

مالك بن رومى (أمير) : ٥٣ .

مالك بن منيف بن شيحة (الشريف) : ٢٠ ، ٢١ .

المأمونى (مؤرخ) : ١٠٢ ، ١٠٦ ٠
مانع بن على : ٥٠ ٠
الماوردى : ٨٢ ٠
المجاهد بن العادل كتبغا : ١٣٥ ٠
المجاهد بن المؤيد بن المظفر الرسولى (الملك صاحب اليمن) : ٣٥ ، ٤٠ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٦٣ ٠
محب الدين الطبرى : ١٤٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ٠
محب الدين بن ظهيرة : ١٤٢ ، ١٤٤.
محب الدين النويرى (القاضى) : ١٤٦ ، ٢٣٨ ٠
محمد (صلى الله عليه وسلم) : ٦ ، ٥٧ ، ٦٦ ، ٧٧ ، ٨٥ ، ٩٣ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٣١ ، ١٤١ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٧١ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢١٢ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ٠
محمد بن أبى بكر بن أيوب (الملك الكامل) : ٨ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ١٧٩ ٠
محمد بن أحمد بن ابراهيم الطبرى (أبو اليمن) : ٢٣٩ ٠
محمد بن أحمد الاخميمى : ٢٣٥ ٠
محمد بن أحمد الأسيوطى : ٢٣٥ ٠
محمد بن أحمد الجعدى : ٢٤١ ٠
محمد بن أحمد الخجندى : ٢٣٩
محمد بن أحمد الخزرجى : ٢٣٣ ٠
محمد بن أحمد بن خليل : ٢٣٤ ٠
محمد بن أحمد بن عبد الرحمن القرشى : ٢٤٢ ٠
محمد بن أحمد بن عجلان : ٤١ ، ٥١ ٠
محمد بن أحمد بن محمد القرشى العقيلى : ١٤٨ ٠
محمد بن بركات : ١٣٣ ، ١٩٨ ٠
محمد بن حسن بن عجلان : ١٨٦ ٠
محمد الحفصى (أبو عبد الله) : ٢٢ ٠
محمد بن سليمان الحكرى : ٢٤١ ٠
محمد بن عبد الله البغدادى (ظهير الدين) : ٢٣٢ ٠
محمد بن عبد الله بن ظهيرة : ١٤٢ ٠
محمد بن عبد الله الكازرونى : ١٥٢٠
محمد بن عبدالرحمن الأسقع اليمنى : ٢٤٠ ٠
محمد بن عبد الرحمن السخاوى ، الحافظ شمس الدين (أنظر السخاوى) ٠
محمد بن عبد المعطى : ١٥١ ٠
محمد بن عطية (أمير المدينة) : ٤٩٠
محمد بن على القرطبى : ٢٣١ ٠
محمد بن الغورى : ١٣٨ ٠
محمد بن فخر الدين (كمال الدين) : ٢٣٨ ٠
محمد بن قلاوون (السلطان الملك الناصر) : ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧٥ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢١ ٠

محمد بن محمد السالى (جمال الدين) : ٢٤١ ·

محمد بن محمد الطبرى (القاضى) : ١٤٤ ·

محمد بن محمد بن على النويرى (أبو اليمن) : ١٤٦ ·

محمد بن محمد بن محمد السكندرى: ٢٣٥ ·

محمد بن محمد بن محمد المحرثى (المحب) : ١٠٢ ·

محمد بن محمد المغربى : ٢٣٩ ·

محمد بن مطرف الأندلسى : ٢٣٠ ، ٢٣٢ ·

محمد بن المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون (الملك المنصور) : ٣٦ ، ١٢٧ ·

محمد بن معالى الحرانى : ٢٣٥ ·

محمد بن يوسف الأنصارى : ٢٣١ ·

محى الدين (مؤرخ) : ١٢٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ ·

مرآة الحرمين (كتاب) : ١٠٢ ·

مروان (أمير) : ٣٢ ·

المزى : ٢٣٨ ·

المسالك والممالك (كتاب) : ٦٥ ·

المستعصم العباسى : ١١٦ ·

المسعود (الملك صاحب اليمن) : ١٧٩

المسعود الأيوبى (السلطان) : ٨ ·

المظفر بن المنصور الرسولى (صاحب اليمن) : ٢٦ ، ٣٠ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ·

معد بن الظاهر (أبو تميم الخليفة المستنصر) : ٦٣ ·

مقبل بن جماز الحسنى (الشريف) : ٣٦ ، ١٩١ ·

مقبل القديدى (الأمير) : ١٢٠ ·

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) : ٦٣ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٨٥ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١٦١ ، ١٦٨ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٨ ، ١٩٧ ، ٢١٥ ، ٢٤٠ ·

مكثر بن عيسى (الشريف) : ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٦٠ ·

ملك الجوكندار (الأمير المقدم الكبير) : ٦٥ ، ٧٠ ·

منسا موسى : ٩٨ ·

منساولى : ٩٨ ·

منصور بن جماز (أمير المدينة) : ٣٦ ، ٣٧ ، ١٥٠ ·

المهدى (خليفة ١٥٨ هـ) : ١٠٠ ·

موسى بن عبد الله الظاهرى القاهرى : ٢٣٥ ·

المؤيد (صاحب اليمن) : ٢٣٦ ·

المؤيد شيخ المحمودى : ٤٦ ، ٥٠ ، ٥١ ، ١٠٤ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٦٥ ، ١٧٦ ، ١٩٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ·

ميمونة (السيدة من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم) : ٢١٢ ·

(ن)

الناصر العباسى (الخليفة) : ٦ ، ١٨ ، ٢٨ ·

النبى (صلى الله عليه وسلم ، أنظر : محمد) ·

نجم الدين الأصفونى : ٢٣٣ ·

نجم الدين الطبرى : ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ٢٣٧ ٠

نعير بن منصور : ٥٤ ٠

النهروالى : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٢٦ ، ٢٢٧ ٠

نور الدين بن محمد بن محمد النويرى : ١٤٦ ٠

نور الدين محمود : ١٣٩ ٠

نوروز (التاجر المملوكى) : ٨٠ ٠

النووى : ٨٢ ٠

(هـ)

هجار بن دراج : ٥٤ ٠

(و)

ودى بن جماز : ٣٧ ، ٣٩ ٠

وفاء الوفاء (كتاب) : ١٣٤ ، ٢٤٢ .

(لا)

لاجين المنصورى (السلطان الملك المنصورى) : ٣٠ ، ١٢٥ ، ١٣٥، ١٣٦ ٠

(ى)

ياقوت السلطانى : ٢٢٦ ٠

يحيى بن سبع (أمير) : ٥٣ ، ٥٤ ، ١٩١ ٠

يشبك الجمالى : ١٢٥ ٠

يشبك الدوادار (أمير) : ٦٩ ، ١٣٦ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ٠

يشبك الناصرى (الأميرسيف الدين) : ٨٦ ، ١٣٧ ٠

يعقوب المدنى (شرف‌الدين) : ١٥١.

يلبغا الخاصكى (الأمير) : ٣٦ ، ٤١ ، ١٢٤ ، ١٦٤ ، ١٧٥ ، ١٨٦ ، ٢٢٦ ٠

يوسف (عليه السلام) : ٦٣ ٠

يوسف بن أحمد بن جعفر (جمال الدين الأستادار) : ٧٨ ٠

يوسف بن عمر بن رسول (المظفر ملك اليمن) : ١٩ ، ١٠٠ ٠

يوسف بن الكامل الأيوبى (الملك المسعود) :٢٥ ٠

(٢) شعوب وأمم وفرق وقبائل

(أ)

الأتراك (أنظر : الترك) ٠

الأحامدة (قبيلة) : ٧٣ ، ٧٥ ٠

الأحباش : ١٥٣ ٠

الأحناف : ١٥١ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ٠

الآذربيجان : ٢٠٩ ٠

الأسرة الأموية : ١٧١ ٠

الأسرة الحسنية (أنظر: الحسنيون).

الأسرة الحسينية (أنظر: الحسينيون).

الأسرة الفاطمية (أنظر : الفاطميون) .

الأسعديون : ٢١٨ ٠

الاسكندرانى : ٢١٩ ٠

الأسيوطى : ٢٠٩ ٠

الأعراب (أنظر : العربان) ٠

أعراب البادية : ٤٧ ٠

الأفغانيون : ٢٠٩ ٠

آل أبى نمى : ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٦ ٠

آل البيت : ٢٣٠ ، ٢٤١ ٠

آل الخطيب : ٢١٩ ٠

آل الداغستانى : ٢١٩ ٠

آل رسول (أنظر : الرسوليون) ٠

آل رفاعى : ٢١٨ ٠

آل سفر : ٢١٩ ٠

آل سنان : ١٥٠ ، ١٥١ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ٠

آل شيحة : ٥١ ٠

آل الطيار : ٢١٩ ٠

آل عجلان (أنظر : العجلانيون) ٠

آل الكردى : ٢١٩ ٠

آل منصور : ٥١ ٠

الامامية (أنظر : الشيعة الامامية) :

الأنصار : ١٨٠ ، ٢١٨ ٠

أهل السنة (أنظر : السنيون) ٠

الأوس : ٢١٨ ٠

أولاد أبى نمى (أنظر : آل أبى نمى) .

الأيوبيون : ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٩٦ ، ١٣٩ ٠

(ب)

باحارس : ٢٠٩ ٠

باحكيم : ٢٠٩ ٠

بازرعة : ٢٠٩ ٠

البتاويون : ٢٠٩ ٠

الباطنية : ٤١ ٠

البخاريون : ٢٠٢ ، ٢٠٩ ٠

البرتغاليون : ٢٠٣ ، ٢٠٤ ٠

بلى (قبيلة) : ٧٣ ، ٧٥ ، ٢١٣ .
بنو ابراهيم : ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٣ ، ٧٤، ٧٦ ، ١٩١ .
بنو أيوب (أنظر الأيوبيون) .
بنو حسن بن عجلان (أنظر : العجلانيون) .
بنو رسول (أنظر : الرسوليون) .
بنو سنان (أنظر : آل سنان) .
بنو شيبة : ٢١٤ .
بنو عبد الحق : ٢٠٩ .
بنو عبد الشكور : ٢٠٩ .
بنو عثمان (أنظر : العثمانيون) .
بنو عطية : ٧٥ ، ٢١٣ .
بنو عقبة : ٧٥ ، ٢١٣ .
بنو فليتة : ٢٠٧ .
بنو قتادة الحسنيون : ٢٠٧ .
بنو القطان : ٢٠٩ .
بنو كشك : ٢٠٩ .
بنو كمال : ٢٠٩ .
بنو مرى : ٢١٨ .
بنو هاشم (أنظر : الهواشم) .
البويهيون : ٢١٣ .

(ت)

الترابين : ٧٥ .
التتار : ٩ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٣٠ ، ١٣٠ .
الترك : ٤ ، ٩٧ ، ١٣٧ ، ١٨٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٨ .
التكاررة (التكرور) : ٩٨ ، ١٥٣ ، ١٨٤ .

(ج)

الجاويون : ٢٠٩ .
الجبرى : ٢٠٩ .
الجعفريون : ١٨٩ .
جهينة (قبيلة) : ٧٣ ، ٧٥ ، ١٩١ .

(ح)

حجاج الصعيدى : ٢١٩ .
الحجاج المغاربة : ٩٨ .
الحسنيون : ١٦٣ ، ١٨٩ ، ٢٠٧ .
الحسينيون : ٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ٢١٨ .
الحضارمة : ٢٠٢ ، ٢٠٩ .
الحفصيون : ٢٢ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٩٧ ، ١١٣ .
الحنابلة : ١٤٩ ، ١٥١ ، ٢١٢، ٢٢٦.
الحنفية (أنظر : الأحناف) .

(خ)

الخراسانيون : ١٠٧ .
الخزرج : ٢١٨ .
خلفاء بنى أمية : ١٠٠ .
خلفاء بنى العباس : ٤ ، ١٠٠ .
الخلفاء الفاطميون : ٤ .

(د)

الداربزنلى : ٢٠٩ .
الدمياطى : ٢١٩ .
الدهليون : ٢٠٩ .

(ر)

الرتيمات : ٧٥ .
الرسوليون : ٨ ، ٩ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٤٠ ، ٤٧ ، ١٠٨ .

الرشيدات (قبيلة) : ٧٣ ، ٧٥ .
الرشيدى : ٢٠٩ .
الرواس : ٢٠٩ .

(ز)

زبيد (قبيلة) : ١٩١ ، ٢١٣ .
الزقزوق : ٢٠٩ .
زنوج التكرور : ٩٩ .
الزيدية : ١٨٩ ، ٢١٢ .
الزينيون : ٢٠٩ .

(س)

السبعينية (جماعة) : ٢٣٦ .
الاسماعيلية (شيعة) : ٤ .
السمهودى : ٢١٩ .
السنيون : ٥ ، ٢٨، ٢٩، ٦٥، ١٣٩، ١٤٠ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ٢٢١ ، ٢٤١ .
السوريون : ٩٩ .

(ش)

الشافعية : ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ٢٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ٢١٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ .
الشاميون : ٣٣ ، ٩٧ ، ١٢٩ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٨ ، ٢٣٠ .
الشعب المصرى (أنظر : المصريون) .
الشيعة : ٤ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ١٣٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ٢١٣ ، ٢٢١ ، ٢٣٠ ، ٢٤١ .
الشيعة الامامية : ١٣١ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٤١ .
الشيعة الزيدية : ٢٩ ، ١٣٩ .

(ص)

الصحابة : ٣٨ ، ٢٢٥ .
الصليبيون : ٤ ، ٦ ، ٩ ، ١٧ ، ٣٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ١١٣ ، ٢٥٠ .
الصوفية : ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ٢٠٩ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ .

(ط)

الطبريون : ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ٢٣٧ .

(ظ)

الطهيريون : ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ٢٠٨ .

(ع)

العائد (قبيلة) : ٧٣ ، ٧٥ .
العباسيون : ٢٨ ، ٢٩ ، ١٣٥ ، ١٦٠ ، ١٩٣ ، ٢٢٥ .
العبيديون : ٦ .
العثمانيون : ٥٠ ، ٥٥ ، ٧٣ ، ٧٩ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١١ ، ١٤١ ، ١٥٧ ، ١٧٤ ، ٢٠٤ ، ٢٢٨ ، ٢٤٤ .
العجم : ١٤٢ .
العجلانيون : ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٧٥ .
العراقيون : ٩٩ ، ١٠٧ ، ٢٣٠ .
العرب : ٣ ، ٩ ، ٣٠ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٥٨ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ١٩٤، ٢١٣ ، ٢٤٥ .
عرب البجاه : ٦٤ ، ٧٢ .
عرب الشام : ٣٨ .
عطية (قبيلة) : ٧٣ ، ٧٥ .

العلويون (الأسرة العلوية) : ٨ ٠
العلويون الحسينيون : ٥٥ ٠

(غ)

الغزاويون : ٢٣٥ ٠

(ف)

الفاسيون : ١٤١ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ٠
الفاطميون : ٤ ، ١٤٧ ، ١٤٩، ٢١٣، ٢٢٥ ٠
الفرس : ٢٠٢ ٠
الفرنجة : ٧ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ٠
الفيومى : ٢٠٩ ٠

(ق)

القاهريون : ٢٣٥ ٠
القرامطة : ٤ ٠
القرملى : ٢٠٩ ٠
قريش : ١٠٠ ، ٢٠٨ ، ٢١١ ٠
قضاعة : ١٩٢ ٠
القوقازيون : ٩٧ ٠

(ك)

كنانة : ٤٦ ٠

(م)

المالكية : ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ٠
المدينيون : ٢٧ ، ٢١٩ ، ٢٤١ ٠
المسالمة : ٧٥ ٠
المساعيد : ٧٥ ٠
المسلمون : ٣ ، ٤ ، ٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٦١ ، ٧٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٠٧ ، ٢١٦ ، ٢٥٠ ٠
المصريون : ٣ ، ٩ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٢٩ ، ١٣٩ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٣٠ ، ٢٤٦ ٠
المغاربة : ٧٤ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٤٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٨ ، ٢٣٠ ٠
المغول : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٨ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٥٧ ٠
مغول العراق : ١٦٤ ٠
مغول فارس : ١٠٩ ٠
المكيون : ٢٧ ، ٣٣ ، ١٠٧ ، ١٤٨ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٨٤ ، ٢٠٨ ، ٢١١ ، ٢١٥ ، ٢٢٦ ، ٢٤٣ ٠
المنكابو : ٢٠٩ ٠

(ن)

النويريون : ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ٠

(هـ)

الهنود : ١٥٣ ، ١٦٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٩ ٢١٨ ٠
الهواشم : ٤ ، ٨ ، ٢٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩

(و)

الوحيدات : ٧٥ ٠

(ى)

اليمنيون : ٢٧ ، ٣٣ ، ٤٨ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢٣٠ ٠
اليهود : ١٨٠ ٠

(٣) الأماكن

(أ)

الأبطح : ٢٥ ٠
الابلستين : ١١١ ٠
أبو الغيط (قرية) : ١٠٢ ، ١٠٣ ٠
أبو قبيس (قلعة) : ٥ ، ٧ ٠
أثيوبيا : ١٧٣ ٠
الأراضى المقدسة : ٩٧ ، ٢٤٦ ٠
الأزلم : ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٣ ٠
الأزهر : ٩٨ ، ٢٢٥ ، ٢٣٤ ٠
الاسكندرية : ٧ ، ٤٤ ، ١٦٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ٠
آسيا : ١٥٧ ٠
أفريقية : ٩٧ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ٠
أكرا : ٦٨ ٠
الأندلس : ٣
أوروبا : ١٧٣ ، ٢٠٣ ٠
أيلة : ٦ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٧٥ ٠

(ب)

باب ابراهيم : ١٢٤ ، ١٧٧ ٠
باب بنى شيبة : ١٢٦ ٠
باب الرحمة : ١١٦ ، ٢٢٨ ٠
باب زويلة : ٢٤٧ ٠
باب السلام : ٢٢٠ ، ٢٢٨ ٠
باب السلام الصغير : ٢١٨ ٠
باب العمرة : ١٢٧ ٠
باب العنبرية : ٢٢٠ ٠
الباب المصرى : ٢٢٠ ٠
باب المعلاة : ٣٣ ، ٢١٧ ٠
باب المندب : ١٩٥ ، ٢٠٠ ٠
باب النساء : ١١٦ ، ٢٢٩ ٠
باب النصر : ٧٨ ٠
البحر الأحمر : ٢٣ ، ٣٦ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ١٣٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ٢٠٣ ، ٢٥٠ ٠
بحر جدة : ٦٢ ٠
بحر الحجاز : ٢٠٣ ٠
البحر الشرقى : ٢٠٤ ٠
بحر القلزم : ٦ ، ٨٥ ٠
البحر المالح : ١٩١ ٠
بحر الهند : ٢٠٣ ٠
البحرين : ٢٣٦ ٠
البحيرة (محافظة) : ١٧٤ ٠
بدر : ٥٧ ، ٦٤ ، ١٣٣ ٠
البرتغال : ٢٠٣ ، ٢٠٤ ٠
بركة الحاج : ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٦ ، ١٠٠ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ٠

بطن مر : ٦٤ ٠
بعلبك : ٢٤٠ ٠
بغداد : ٣ ، ٤ ، ٩ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٨ ، ٣٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، ١٩٣ ، ٢١٣ ، ٢٢٥ ٠
البنغال : ٢٢٦ ٠
بهتيت : ١٧٥ ٠
بولاق : ١٥٨ ٠
بلاد الترك : ١٣٧ ٠
بلاد التكرور : ٩٧ ، ١٥٧ ٠
بلاد الزنج : ١٧٣ ٠
بلاد الشرق : ١٥٧ ٠
بلاد الشرق العربى : ١٥٧ ٠
بلاد العرب : ٢٣ ، ١٧٣ ٠
بلاد مالى : ٩٨ ٠
بلاد النوبة : ٩٧ ٠
بئر زمزم : ١٢٥ ، ١٧١ ، ٢١٧ ٠
بئر عروة : ١٨٤ ٠
بئر مدين : ٦٤ ٠
بئر النجار : ٢١٧ ٠
بيت الله الحرام : ٤ ، ٥ ، ٥١ ، ٦٣ ، ٧٦ ، ٩٧ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٣٧ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٣ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ٠
البيت العتيق : ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٠٧ ٠
بيسوس : ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١٤ ٠

(ت)

تركيا : ١٨٠ ٠
تلمسان : ٩٧ ٠
تنيس : ١٠٠ ٠
تونس : ٢٧ ، ٩٧ ، ٢٣٧ ٠
تيماء : ٦ ٠

(ج)

الجامع الأزهر (أنظر : الأزهر) ٠
جامع جدة : ١٢٤ ٠
جاوة : ٢٢٠ ٠
جبل أحد : ١١٥ ٠
جبل الرحمة : ١٢٤ ، ٢١٧ ٠
جبل عرفة (أنظر : عرفة) ٠
الجحفة : ٦٥ ٠
جدة : ٥ ، ٢٣ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٨٥ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ٠
جزائر البحر المتوسط : ٩٧ ٠
جزيرة العرب : ١٧١ ، ٢٠٧ ٠
الجيزة : ١٧٤ ٠

(ح)

حامد (ثغرة) : ٦٨ .

الحجاز : ٣ ، ٤ ، ٧ ، ٩ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٥١ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٣ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٣ .

الحجر الأسود : ١٢٠ ، ١٢٣، ٢٠٠ .

الحجرة الشريفة النبوية : ٥٧ ، ٩٩ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٩ ،١٥٣ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ .

حران : ٦ .

الحرم المكى : ١٢٠ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٥٣ ، ١٧١ ، ١٧٨ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣ .

الحرم النبوى : ٢٠ ، ١٠١ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٣ ، ١٧١ ، ١٨٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٤٣ .

الحرمين الشريفين : ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٨ ، ٩ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٧٢ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٧ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢١٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

حصن الأكراد : ١٣٠ .

الحطيم : ٢١٢ .

حقل : ٦٤ .

حلب : ٦١ ، ٨٩ ، ١٣٠ ، ٢٣٧ .

حلى (بلاد) : ٥٢ .

حلى بنى يعقوب : ٤٦ ، ٥٢ ، ١٨٤ .

حماة : ١٣٠ ، ١٣٢ .

حمص : ١٣٠ .

الحوراء : ٦٢ .

(خ)

خليص : ٣٢ ، ٥٣ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ١٤٥ .

(د)

دار الشريفة الحسنية : ٢٢٧ .

الدقهلية : ١٧٤ .

دلغادر : ١١١ ٠
دمامين : ١٦٢ ٠
دمشق : ٦ ، ٧٠ ، ١٣٠ ، ١٦٦ ، ١٧٣ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ٠
دمنهور : ٢٣٣ ٠
دهلك (جزيرة) : ١٩٦ ٠
الدولة الاسلامية : ٣ ، ١٧١ ٠
الدولة الافريقية : ٩٧ ٠
الدولة الأموية : ٣ ٠
الدولة الأيوبية : ٤ ، ٩ ٠
دولة بنى حفص : ٩٧ ٠
دولة بنى عبد الواد : ٩٧ ٠
دولة بنى عثمان (أنظر : الدولة العثمانية) ٠
دولة بنى مرين : ٩٧ ٠
الدولة البيزنطية : ٣ ٠
الدولة الجركسية : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ١٦٥ ، ١٧٣ ٠
الدولة الرسولية : ١٨ ، ٢٥ ٠
الدولة العباسية : ٣ ، ١٧ ، ١٠٦ ، ١٦٠ ٠
الدولة العثمانية : ٦٩ ، ١٠٢ ، ١٧٣ ، ٢٢٨ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ٠
الدولة الفاطمية : ٤ ٠
دولة المماليك الأولى : ٣١ ، ٤١ ٠
دولة المماليك البحرية : ٣٧ ٠
الدولة المملوكية : ٩ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٨ ، ٥٥ ، ٨٥ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٧ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٨٥ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ٠
ديار طىء : ٦٥ ٠
الديار المصرية (أنظر : مصر) ٠

(ذ)

ذى الحليفة : ٦٦ ٠

(ر)

رابع : ٦٤ ٠
رأس الرجاء الصالح : ١٥٨ ، ١٧٠ ، ٢٠٣ ، ٢٤٧ ٠
رباط ابن الزمن : ٢٤٣ ٠
رباط ابن مزهر : ٢٣١ ٠
رباط رامشت : ١١٩ ٠
رباط ربيع : ٢٣١ ٠
رباط السدرة : ٢٢٧ ، ٢٣٢ ٠
رباط العباسى بالمسعى : ١٢٥ ٠
رباط كلالة : ٢٣٢ ٠
رباط المراغى : ٢٢٧ ٠
الرحبة : ١٣٠ ٠
الركن الشامى : ١٠٦ ٠
الركن المغربى : ١٠٦ ٠
الركن اليمانى : ١٠٦ ، ٢١٢ ٠
روسيا : ٩٧ ٠
الريدانية (موقعة) : ٥٥ ، ٢٤٧ ٠

(ز)

زبيد : ٢٣٥ ٠
زقاق أجياد بمكة : ١٢٥ ٠
زمزم : ١٢١ ، ٢١٤ ٠
زيلع : ١٣٦ ٠

(س)

سبيل المعلاة : ٢١٧ ٠
سمرقند : ٩٨ ٠
سندبيس : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٥٣ ٠
سواكن : ١٩٦ ، ٢٠٣ ٠
السودان : ١٥٧ ٠
السويس : ٦٤ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ٠
سيبيريا : ٩٧ ٠
سيناء : ١٧٣ ٠

(ش)

الشام : ٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٩ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ ٠
شبه جزيرة سيناء : ٢٣ ٠
الشرق الأدنى : ١٧ ٠
الشعيبة (قرية) : ١٩٢ ٠
شمال أفريقية : ٩٧ ٠
الشوبك : ١٢٩ ٠
شيراز : ١١٠ ٠

(ص)

صحراء القاهرة : ٧٣ ٠
صعيد مصر : ٥ ، ١٠١ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٩٠ ، ٢٣٣ ٠
الصفا : ١٢١ ، ١٦٥ ، ٢١٦ ٠
صفد : ٨٩ ٠
الصفراء : ٦٦ ٠
الصين : ١٥٩ ، ١٦٨ ٠

(ط)

الطائف : ٤٢ ، ١٦٤ ، ٢١٢ ، ٢٣١ ، ٢٤٣ ٠
طرابلس (بالشام) : ٢٣٤ ٠
الطور : ١٢٢ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٩٠ ٠

(ع)

العالم الاسلامى : ٣ ٠
العثمانى (محراب) : ١٢٣ ٠
عجرود : ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٩٤ ، ١٧٧ ، ١٩١ ٠
عدن : ٢٣ ، ٦٢ ، ١٣٣ ، ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ٠
العراق : ٣١ ، ٣٤ ، ٣٩ ، ٦١ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١٣١ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٧١ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٣ ، ١٩٧ ، ٢٠٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤٢ ٠
عرفة : ٤ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٩٩ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ٠
العقبة : ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ٠

عقبة أيلة : ١٣٥ ٠
عقبة ايلياء : ٦٨ ٠
العلقمية (قرية) : ٢٠٧ ٠
عيذاب : ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٩٠ ٠
عين ابن رخم : ٢١٧ ٠
عين الأزرق : ٢١٧ ٠
عين ثقبة : ٢١٦ ، ٢١٧ ٠
عين جوبان : ٢١٦ ٠
عين حنين : ٢١٦ ، ٢١٨ ٠
عين خليص : ٢١٨ ٠
عين عرفة : ٢١٨ ٠
عين مكة : ٢١٧ ٠

(غ)

الغرب الأوروبى : ١٧٣ ٠
الغربية (محافظة) : ١٧٤ ٠
غزة : ٦٨ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٣٠ ، ١٧٢ ٠

(ف)

فارس : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١٦٨ ، ٢٣٠ ٠
الفرع : ١٨٠ ٠

(ق)

القاهرة : ٧ ، ٩ ، ١٨ ، ٢٨ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ٠
قبالة : ١٥٣ ٠
قبر النبى صلى الله عليه وسلم : ٢٠ ، ١١٤ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٨٠ ، ١٩٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٤١ ٠
قبرص : ١١٢ ٠
قبة زمزم : ١٠٧ ٠
قبة عرفة : ١٢٤ ٠
القدس : ٨٩ ، ٢٣٨ ٠
قرمان : ١١١ ٠
القصير : ٦٢ ٠
القلزم : ١٥٧ ، ١٥٩ ٠
القلعة (بمصر) : ١٦٤ ٠
قلعة الجبل : ١٠٥ ٠
قلعة السويس : ١٥٨ ٠
القليوبية (محافظة) : ١٠٣ ، ١٧٤ ٠
قوص : ٦٢ ، ٦٤ ، ١٥٨ ٠

(ك)

كاليكوت : ٢٠٣ ٠
الكرك : ٦ ، ٦١ ٠
الكعبة : ١٩ ، ٤٠ ، ٧٧ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٤٤ ، ١٧٨ ، ١٩٥ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ٠

(م)

هالى : ١٣٨ .
المدرسة الأشرفية : ٢٢٩ .
المدرسة الباسطية : ٢٢٦ ، ٢٢٩ .
مدرسة دار العجلة : ٢٢٥ .
المدرسة الزمنية : ٢٢٩ .
مدرسة السمامى : ٢٢٦ .
المدرسة السنجارية : ٢٢٩ .
مدرسة العطيفية : ٢٢٧ .
مدرسة غياث الدين : ٢٢٦ .
مدرسة قايتباى : ٢٢٨ .
مدرسة الملك الأفضل : ٢٢٥ .
مدرسة الملك المجاهد : ٢٢٥ .
مدين : ٦٥ ، ٧٠ .
المدينة المنورة : ٤ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٥٠ .
مرج دابق (موقعة) : ٥٥ ، ٢٤٧ .
المروة : ١١٩ ، ١٢١ ، ٢١٦ .
المزدلفة : ١٢٥ .
المسجد الحرام : ٥٤ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٤٨ ، ١٦٩ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ .
مسجد الخيف : ١٢٤ .
مسجد المزدلفة : ١٢٤ .
مسجد قباء : ١٢٤ .
المسجد المكى : ٢٢٤ .
المسجد النبوى : ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٥٣ ، ١٧٥ ، ١٨١ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٨ .
مسجد نمرة : ١٢٤ .
المسعى بالحرم : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ٢٠٩ .
المشعر الحرام : ١٢١ .
مشهد الحسين : ١٠٥ .
مصر : ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ،

١٥١ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،
١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،
١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧١ ،
١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ،
١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ،
١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ،
١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٣ ،
٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ،
٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،
٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ ،
٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ،
٢٥٢ .

مصر الأيوبية : ٧ .

المعلاة : ٢١٨ ، ٢٣٧ .

المغرب : ٣ ، ٤ ، ٩٧ ، ١٣٨ ، ١٥٧ ،
١٥٩ ، ٢٣٦ .

المقارزة (حارة) : ٢٤٠ .

مقام ابراهيم : ٧٧ ، ١٢١ .

مقام الحنفية : ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

المقام الشافعى : ٢٢٥ .

مكة : ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٨ ،
١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ،
٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ،
٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ،
٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ،
٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ،
٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ،
٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ،
٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٦ ،
٧٧ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ،
٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ،
١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٢ ،
١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،
١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،
١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ،
١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،
١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،
١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،
١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ،
١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،
١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،
١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،
١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،
١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،
١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،
١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،
٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،
٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،
٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،
٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،
٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،
٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،
٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،
٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،
٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،
٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

المملكة الحجازية (أنظر : الحجاز) .

المنوفية : ١٧٤ .

منى : ٩٣ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ٢١٧ .

الميزاب : ٢١٢ .

(ن)

نخل : ٦٤ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٧٧ .

نخلة : ١٦٤ .

نقادة (قرية) : ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٥٣ .

نهر العلقمية : ٨

نويرة : ٢٣٨ .

النيل : ٦٥ ، ١٣١ ، ١٥٨ .

(هـ)

الهند : ٤٨ ، ٦٢ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٨٠ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٢٠ .

(و)

وادى العقيق : ١٨٠ .

وادى فاطمة : ١٩٢ .

وادى مر : ٢٢٦ .

وادى ينبع : ٨ .

الوجه : ٦٨ ، ٧٤ .

الوجه القبلى : ١٧٤ .

(ى)

يثرب : ٢٢٣ .

اليمن : ٥ ، ٨ ، ٩ ١٨ ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٦١ ، ٦٢ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١٣٨ ، ١٤٧ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

ينبع : ٢٥ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٣٦ ، ١٥٩ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ .

ينبع النخل : ١٨٩ .

(٤) المصطلحـــات

(أ)

أبو القطط : ٩٦ ٠

أتابك : ١٧ ٠

الأدلاء : ٧٧ ، ٩٥ ، ٢١٣ ٠

أرباب الوقف : ١٧٤ ٠

الأربطة : ١٢٦ ٠

الأستادار : ٥٧ ، ٧٨ ، ٨٢ ٠

الأسرى : ٧

الاسلام : ٤ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٦١ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٥ ، ١٠٠ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٥١ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٧١ ، ١٨٠ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ١٩٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢٢٥ ، ٢٤٤ ، ٢٥٠ ٠

الأشراف : ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٧ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ٠

الأشرفية (معاملة) : ٨٤ ، ١٨٣ ٠

اصطبلات السلطان : ٩٢ ٠

الافتاء : ١٤٥ ٠

الألوية : ٩٢ ٠

الامارة : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ١٣٠ ، ١٣٩ ، ١٦١ ، ١٨٩ ، ١٩٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ٠

امام المحمل : ٩٦ ٠

الامامة : ١٥٣ ٠

الامامية : ١٥٠ ٠

الأمـراء : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٨ ، ٣٧ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٤٦ ٠

أمراء الأعراب : ٨٦ ٠

أمراء الحاميات المصرية : ٥٥ ٠

أمراء الحرمين : ٣٠ ٠

الأمراء العثمانيون : ٢٤٨ ٠

أمراء مكة الأشراف : ٤٧ ٠

أمراء المئات : ٨١ ٠

الامرة : ٢٠ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ١٠٧ ، ٢٤٨ ٠

امرة مكة : ٣١ ٠

اميراخور : ٨٧ ، ٨٨ ٠

أميرجاندار : ٣٩ ٠

أمير الجند : ١٦٣ ٠
أمير الجيش المصرى : ٣٤ ٠
أمير الحاج : ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٨٦ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ٠
أمير الركب الرجبى : ١١٨ ٠
أمير الركب المصرى : ٣٥ ، ٥٣ ، ٨١ ، ١٠٨ ، ١١٨ ٠
أمير الطبلخاناه : ٨١ ، ٢٣٢ ٠
أمير عشرة : ٧٠ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١١١ ، ١٣١ ٠
أمير مائة : ٨٠ ، ٩٤ ٠
أمير المحمل : ٨٤ ٠
أمين القبيلة : ٧٥ ٠
أوباش المماليك : ٧٨ ٠
الأوتار : ٩٢ ٠
الأوقاف : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٤٢ ، ١٥٣ ، ١٦١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ٠
أوقاف الدشيشة : ١٧٤ ٠
أوقاف كسوة الكعبة : ٧٠ ٠
أيام التشريق : ٩٣ ٠
أيام المستنصر : ١٥٨ ٠
ايلخان المغول : ٣٤ ، ١٦٨ ٠
الأئمة : ٧٧ ، ٩٩ ، ٢١٢ ٠

(ب)

البارود : ٩٢ ٠
باشية المجاورين : ٢٠٤ ، ٢٣٢ ٠
البرقع : ٧٧ ، ١٠٥ ٠
البشارة : ٩٣ ٠
البقسماط : ٦٩ ، ٧٥ ، ١٣١ ٠
البيارق : ٩٢ ٠
بيت المال : ١٠٣ ، ٢١٤ ٠

(ت)

التجريدة : ٣٢ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٩ ، ١٦٦ ، ١٩٩ ، ٢٤٥ ٠
التشاريف السلطانية : ٧٥ ، ٨٤ ٠
تقبيل خف الجمل : ٢١٣ ٠
التقطير (ربط الجمال فى قطار) : ٧٩ ٠
التقليد : ٢٠ ، ٣٢ ، ١٠١ ، ١٦١ ،
التوقيع : ٤٢ ٠

(ث)

ثورة الجازانى (٩٠٧ - ٩١١ هـ) : ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٧٦ ، ١٤٧ ٠

(ج)

الجاهلية : ١٩٧ ٠
الجراكسة (أنظر :المماليك الجراكسة)
الجرائحى : ٩١ ٠
الجلب : ١٧٩ ، ٢١٠ ٠
جماعة الكوسات : ٩٠ ٠
جمل الكسوة : ٢١٣ ٠
الجند : ٣٢ ، ٤٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٧ ، ١٣٢ ، ١٩٩ ، ٢٠٨ ٠

جند الحلقة : ٨١ ٠
جهات الخير : ١٧٧ ٠

(ح)

حامل ختم السلطان : ٩٠
حاملى المشاعل : ٩٥ ٠
حامية المحمل : ٩٤ ٠
حجة وقف : ١٧٧ ٠
الحراس : ٩٩ ٠
الحسبة : ١٤٢ ، ١٤٥ ٠
الحكيم : ٩٠ ٠
الحمالون : ٩٩ ٠
حمل الشقل : ٩٠ ٠

(خ)

الخان : ١١١ ٠
الخاقان : ١١٣ ٠
الخانقاه : ١٢٥ ٠
الخبازون : ٩٥ ٠
خدام الحرمين : ١٧٨ ٠
الخلعة : ٤٥ ، ٥٦ ، ٨٤ ، ١١١ ٠
الخلوة : ١١٩ ، ٢٢٧ ٠
الخليفة : ٨٠ ، ١٣٦ ٠
الخليفة العباسى : ٣ ، ٤ ، ٧ ، ١١٦ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ٠
الخلافة : ٣ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٨ ٠
الخلافة الحفصية : ٢٢ ٠
الخلافة العباسية : ٩ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٨ ، ٦١ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٦ ، ١٢٨ ٠

(د)

دار السلطنة : ٤٨ ، ١٣٥ ٠
دار الكسوة : ١٠٣ ، ١٠٥ ٠
الدراهم الكاملية (النقرة) : ١٧٩ ، ١٨٧ ٠
الدشيشة : ١٧٦ ٠
الدوادار : ٨٦ ، ٨٧ ٠
الدواليب : ٧١ ٠
ديوان الانشاء : ١٣١ ، ٢٣٦ ٠
ديوان السلطان : ٩٢ ٠

(ر)

الرباط ـ الأربطة : ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ٠
الرشوة : ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٨ ٠
الرقبة : ٩٠ ٠
الركب التكرورى : ٧٤ ٠
ركب الحاج : ٧٧ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٩١ ، ٩٩ ، ١٩٩ ٠
الركب الرجبى : ٤١ ، ٦٦ ، ١٨٤ ٠
الركب الشامى : ١٠٧ ٠
الركب الغزاوى : ٧٤ ٠
ركب المحمـــل : ٥٣ ، ٧٩ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ٢١٣ ٠
الركب المصرى : ٦٥ ، ٩٨ ، ١٠٧ ، ١١٠ ٠
الرواق : ١١٧ ، ١٢١ ٠
رئيس ديوان الحاج : ٧٥ ٠

رئيس الخزائن : ٩٠ .
رئيس الضوئية : ٩٦ .
رئيس مخازن الذخيرة والسلاح : ٩٠ .
رئيس المئونة : ٨٨ .

(ز)

الزردكاش : ٩٢ .
الزمار : ٩٠ .

(س)

سائق الهرجلة : ٩٦ .
السحابة : ٧٠ .
السقاءون : ٩٠ .
السلطان ـ السلاطين : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ .
السلطنة : ١٧ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٩٥ ، ١٠٤ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٤٣ ، ١٦٥ ، ١٨٨ ، ١٩٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٨ ، ٢٤٦ .
السلطنة الرسولية : ١٨٣ .
السلطنة العثمانية : ١٧٤ .
السلطنة المملوكية : ٤٧ ، ٥٥ ، ١٠٧ ، ١٥٨ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٨٣ ، ٢٤٥ .
السماط : ٣٩ ، ١٣٣ ، ١٨١ .
السمسار : ٩٣ .
السهام : ٩٢ .
سواق المقاطيع : ٩٦ .
السلاجقة (أنظر : المماليك السلاجقة)
سلاطين مالى : ٩٨ .
سلاطين مصر : ١٣٩ ، ١٨٣ ، ١٩٤ .
سلاطين المغول : ١١٣ .
سلاطين المماليك : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٤٥ ، ٥٦ ، ٧٤ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ، ١١٥ ، ١٢٨ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٧١ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

سلاطين المماليك الجراكسة : ٣١ ، ٤٢ ، ١٧٠ ، ١٩٠ .
سلاطين المماليك البحرية : ٥١ .

(ش)

الشاد : ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٤٦ .
شاد السقايين : ٨٩ .
شاد العمارة : ١٢٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .
شاد المحمل : ٨٩ ، ٩٠ .
شاد المخازن : ٨٨ .
شاد المطبخ : ٨٩ .
الشاهد ـ الشهود : ٩٠ ، ٩٩ ، ١٦٩ ، ١٩٨ .
الشرابخاناة : ٧٨ .
الشعراء (الحداة) : ٩٣ .
شهود الأحكام : ١٥٣ .
شهود المحمل : ٨٧ .
الشيخ : ٢٢٥ .
شيخ الحرم : ٩٣ ، ١٢٢ ، ١٤٦ ، ٢٢٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧ .
شيخ الخدام : ١٥٣ .
شيخ المدرسة : ٢٢٤ .
شيخ الشيوخ : ٢٥ .
شيخ المحمل : ٩٦ .

(ص)

الصنجق : ٩٤ ، ٩٥ ، ٢٥٣ .
الصنجقية العثمانية : ٢٤٨ .
الصيرفى : ١٩٨ .

(ض)

الضوئية : ٩٠ .

(ط)

الطباخون : ٩٥ .
الطبلخانات (الطبالون) : ٩٣ ، ٩٥ ، ١٣١ .
طحطباى (أمير ركب المحمل) : ٨١ .

(ع)

عام الرمادة : ٣ .
العبيد : ٣٤ .
عبيد الأشراف : ٣٩ .
عربان الخفارة : ٧٥ .
العشار (الماكس) : ١٦٠ .
العشور : ٣١ ، ٤٨ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ .
العكافة : ٩٦ .
العليق : ٩٤ ، ٩٥ .
عمال الخراج : ٥٥ .
العناجق : ٧٧ .
العوائد : ١٩٨ .

(ف)

فتنة المماليك الجلبان : ٥٧ .
الفراشون : ٩٥ ، ٩٩ .
الفلوس (عملة) : ١٦٦ ، ١٧٩ .
فقهاء المدينة السبعة : ٢٢٥ .
الفلايك (الجلبة) : ٦٢ .

(ق)

قاضى الركب : ٨١ ٠
قاضى القضاة : ٤٠ ، ١٣٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٩ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣ ٠
قاضى المحمل : ٨٣ ، ٨٦ ٨٧ ٠
قافلة الحاج : ٧٧ ٠
قافلة المحمل : ٧٩ ٠
قائد الجند : ٩٠ ٠
قائد المحمل : ٨٦ ٠
قائد الهودج : ٩٠ ٠
القبانى : ٨٨ ، ١٩٨ ٠
القضاة : ٩٠ ، ٩٩ ٠
القفطان : ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ٠

(ك)

كاتب ديوان الحج : ٦٤ ، ٨٧ ، ٩٦ ٠
كاتب السر : ٩٣ ٠
كاتب المناخ : ١٩٨ ٠
كاتم سر الدولة : ١٢٧ ٠
الكسوة : ٩٠ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٧٧ ٠
كسوة الحجرة النبوية الشريفة : ١٠٣ ، ٢٢٠ ٠
كسوة الكعبة : ٧٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٩ ، ١٧٥ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٤٥ ٠
الكوامل : ٨٤ ٠
كيس (معاملة) : ١٧٤ ٠
الكيلار (أنظر : القبانى) ٠

(م)

الماكس (أنظر : العشار) ٠
مبشر الحاج : ٩٣ ، ٩٤ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ٠
متولى عمارة الحرم : ١٤٢ ٠
المجاورة : ٥٧ ، ١٨٢ ٠
المجاورون : ٥ ، ٣٤ ، ٨٦ ، ١٠٧ ، ١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٦٣ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ٠
المجلق (عملة) : ١٨٣ ٠
المحاملى : ٩٦ ٠
المحضر : ٥٧ ٠
المحمل الشرقى : ٦١ ٠
المحمل العراقى : ٦١ ، ٦٣ ٠
محمل غزة : ٩٧ ٠
محمل الكسوة : ٢١٣ ٠
المحمل المصرى : ٦١ ، ٩٧ ٠
المخبزى : ٩٣ ٠
المد (مكيال) : ١٨٣ ٠
مدبر الدولة : ١٨٦ ٠
مدبر السلطنة : ١٦٤ ٠
مرابط الخيل : ٩٠ ٠
المرسوم : ٣٥ ، ٤٥ ، ١٤١ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢٤٦ ٠

المزين : ٩٠ :
المسعودى (عملة) : ١٦٤ ، ١٧٩ .
المشاعلية : ٩٦ .
مشايخ الأعراب : ٢١٠ .
مشايخ الطرق : ٢٢٨ .
المشيخة : ١٥٣ ، ٢٤٣ .
مشيخةالحرم : ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩ .
مشيخة الخدام : ٢٥٩ .
مشيخة الرباط : ٢٢٤ .
مشيخة المجاورين : ٢٣٢ .
المطهـــرة : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٧٨ ، ٢٠٢ .
المطوف : ١٧٢ ، ٢١١ .
مقدم ألف : ٨١ .
مقدم الضوئية والغشامة : ٩٠ .
مقدم العساكر : ٢١٧ .
مقدم العيط : ٩٦ .
مقدم القواصة : ٩١ .
مقدم الهجانة والشعارة : ٩٠
المقدمون على جمال النقر : ٨٩ .
المقصورة : ١١٦ .
مكس الطعام : ١٦٣ .
المـكوس : ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٣٦ ، ٥٢ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٣، ١٥٩، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٤٦ .
المماليك: ٨، ٩، ١٧ ، ١٨، ٢٢، ٢٣، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ .
المماليك البرجية : ٣٨ ، ٤٣ .
المماليك الجراكسة : ٢٨ ، ٣٦ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ٨١ ، ٩٦ ، ١٢١ ، ١٣٤ ، ١٥٩ ، ١٨٥ ، ١٩٧ .
المماليك الجلبان : ٥٧ .
المماليك المجاورون : ٢٠٤ .
المن (مكيال) : ١٨٣ .
مهتار الركاب خاناة : ٩٢ .
مهتار الشراب خاناة : ٩١ .
مهتار الطشت خاناة : ٩٠ ، ٩١ .
مهتار ألفراشخاناة : ٩٢ .
المهمندار : ١١١ .
المؤذنون : ٧٧ ، ٩١ ، ٩٩ .
الموسلين (شاش) : ٧٥ .
الميضاه : ١٢٥ .
الميقاتى : ٩١ .

(ن)

الناظر : ١٩٨ ، ١٩٩ ٠

ناظر الجيوش : ٧٠ ، ٢١٧ ٠

ناظر الحرم : ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٤٣ ٠

ناظر العمارة : ١٢٢ ، ١٢٨ ، ٢٢٩ ٠

ناظر الكسوة : ١٠٣ ٠

ناظر الوقف : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٧٤ ٠

النائب : ٢١ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ٢٠١ ، ٢٢٥ ٠

نائب السلطان : ٤٦ ، ٦٢ ، ٢٠٢ ، ٢١٧ ٠

نائب السلطنة : ٨٦ ، ١٣٠ ، ٢١٦٠

نائب الشريف : ١٩٨ ٠

النفطى : ٩٢ ٠

النيابة : ١٨٩ ٠

(هـ)

الهجانة : ٩٤ ٠

الهودج : ٧٧ ٠

(و)

الوقف : ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤، ٢٢٧

ولى أمر المكس : ١٩٩ ٠

الويبة : ٦٩ ، ١٨٧ ٠

(ى)

يوم احرام الكعبة : ٢١٤ ٠

اليمين : ٣٠ ٠

موضوعات الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة للأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور	٣
شكر وتقدير	٥
تمهيد :	
علاقة مصر بالحجاز قبل أيام المماليك	٧
الفصل الأول :	**١٧ – ٥٨**
العلاقات السياسية	١٨
الصعوبات التى وقفت فى وجه السيطرة المملوكية على الحجاز	٢٥
فتن الحجاز واخمادها فى دولة المماليك الأولى	٣١
الحجاز ودولة الجراكسة	٥٠
الفصل الثانى :	**٦٠ – ١٥٤**
العلاقات الدينية	٦١
طريق الحج والصعاب التى تواجه الحجاج فيه واصلاحه	٦١
تنظيم ركب المحمل	٧٧
الموظفون الملحقون بقائد المحمل	٨٦
التنظيم الداخلى للركب	٩٤
البناء والتجديد فى الحرمين	١١٥
حجات السلاطين وكبار رجال الدولة	١٢٨
قضاة الحرمين	١٣٩
قضاة مكة	١٤١
قضاة المدينة	١٥٠
الفصل الثالث :	**١٥٥ – ٢٠٤**
العلاقات الاقتصادية	١٥٧
المكوس ومراسيم السلاطين	١٦٠

الموضوع	رقم الصفحة

الحالة الاقتصادية فى الحرمين ١٧٠
الأزمات الاقتصادية بالحرمين ١٨٣
الموانى التجارية فى الحجاز وعلاقاتها بمصر . . . ١٨٩

الفصل الرابع ٢٠٥ - ٢٤٤

العلاقات الاجتماعية والثقافية ٢٠٧
التركيب الاجتماعى لمكة ٢٠٧
العادات الاجتماعية والدينية لأهل مكة ٢١١
المنشآت الاجتماعية بمكة ٢١٥
التركيب الاجتماعى للمدينة المنورة ٢١٨
العادات الاجتماعية والدينية ٢٢١
المدارس بالحرمين ٢٢٥
العلماء والمجاورون بالحرمين ٢٢٩
مجاورى المدينة وعلمائها ٢٤٠

الخاتمة : ٢٤٥ - ٢٤٨

ملحق رقم ١ . . . . . ٢٤٩
ملحق رقم ٢ . . . . . ٢٥٠
ملحق رقم ٣ . . . . . ٢٥١
ملحق رقم ٤ . . . . . ٢٥٢
ملحق رقم ٥ . . . . . ٢٥٣
قائمة المصادر والمراجع ٢٥٤

الفهارس : ٢٦٦ - ٣٠٠

(١) فهرس الأعلام ٢٦٦
(٢) شعوب وأمم وفرق وقبائل ٢٨٠
(٣) الأماكن ٢٨٤
(٤) المصطلحات ٢٩٣